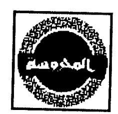
ثورة ١٩٣٦
الوطنية الفلسطينية

عبد القادر ياسين (تحرير)
د.عبد التواب مصطفى
محمود عبده
محمد حسني إبراهيم
خالد سعيد
معالي أحمد عصمت
رضوى عبد القادر
نظيمة سعد الدين
أنور محمود
د.محمد عبد الرؤوف سليم
لواء أ.ح. حمدي الشعراوي
د.محمد السيد اسماعيل
آمال الخزامي
فتحي عبد العليم
أحمد عاطف
سارة نور
مروة كمال
نهى منصور



عنوان الكتاب: ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية
اسم المحرر : عبد القادر ياسين
الناشر : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات
قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ – المقطم – القاهرة
ت ، ف : ٥٠٧٥٩١٧
e.mail : mahrosa@ mahrosa.com

المدير العام : فريد زهران
الغلاف والإشراف الفنى للفنان : مجاهد العزب

رقم الإيداع : ٣١١١/ ٢٠٠٧

الترقيم الدولى : 977-313-170-X

الطبعة الأولى ٢٠٠٧م

ثورة ١٩٣٦
الوطنية الفلسطينية

توطئة

مع انتصاف ثلاثينات القرن العشرين نضجت الثمرة، فكانت ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، التي استمرت ثلاث سنوات متصلة، بعد أن كان الاحتلال البريطاني (١٩١٨)، في حد ذاته، قد أدمى الكرامة الوطنية الفلسطينية، فضلا عما أصاب كل طبقة وفئة اجتماعية عربية فلسطينية من أذى بليغ من ذاك الاحتلال، ناهيك عن القلق الذي استبد بالشعب الفلسطيني من المشروع الصهيوني. ما فجر صدامات، وهبَّة، وانتفاضة، ومشروع ثورة مسلحة في فلسطين، مابين ١٩٢٠ و ١٩٣٥. وقد غطى هذا كله فتحي عبد العيم في الفصل الأول. على أن ثمة أنشطة صهيونية عجّلت بالثورة، رصدها في الفصل الثاني محمد حسني. ولأن "حركة القسام المقدمة الحقيقية للثورة"، فقد عالجها أحمد عاطف، منهيا بالفصل الثالث، الباب الأول.

افتتح الباب الثاني أنور محمود بوقائع الثورة، تلاه لــواء أ.ح. حمــدي الشعراوي، الذي تابع "الأعمال القتالية" في الثورة. وهل كان فـــي الإمكـــان التغافل عن "الحركة الصهيونية والثورة"؟ التي تصدى لها خالد ســعيد فـــي الفصل الثالث. وهل تترك الصهيونية الثورة دون محاولة إجهاضها باتفـــاق؟ ماعالجه د.محمد عبد الرؤوف سليم، في آخر ماكتبه، رحمه الله.

انتقل الكتاب في بابه الثالث إلى "الأبعاد"، بادئاً بالبعد الطبقي، الذي تولته معالي أحمد عصمت. فيما رصدت سارة نور البعد العربي للثورة، ومحمود عبده "البعد الإسلامي"، وبقي "البعد الدولي" للثورة الذي تعامل معـــه د.عبـــد التواب مصطفى.

لم تسر الثورة دون بنى تنظيمية خاصة بها، رصدتها نظيمة سعد الدين. وإذا كان صحيحا أن الأحزاب العربية الفلسطينية، آنذاك، لم تزد عن كونهـــا تعبيراً عن العائلات الكبيرة، فإن "حزب الدفاع الوطني" كان حزب الثـــورة المضادة، بامتياز، الأمر الذي حتَّم متابعة مواقفه، وتولت هذه المهمة رضوى عبد القادر. فيما تولت مروة كمال الحزب الشيوعي بالاهتمام، وهو الحـــزب الوحيد الذي ضم عربا ويهودا، جنبا إلى جنب، وكان الأكثر تأثرا بالثورة من كل الأحزاب العربية واليهودية، على الإطلاق. وبذا اكتمل البـــاب الرابـــع بفصوله الثلاثة.

لكن هل كان يمكننا إغفال الإبداع في الثورة ؟! بالطبع لا، فهذا الفصـــل الأول من الباب الخامس "الشعر والثورة" للدكتور محمد الســـيد اســـماعيل، و"الشعر الشعبي في الثورة" لآمال الخزامي، وبقيت "الصـــحافة الفلســـطينية والثورة" لنهى منصور.

وبعد، فماذا بقي من هذه الثورة للتاريخ ؟! السؤال الذي ترك لعبد القادر ياسين أن يجيب عليه. والله من وراء القصد.

القاهرة في ٢٠٠٦/٤/٢٦ **المحرر**

المحتويات

الموضوع	صفحة

الباب الأول

الخلفيات



الفصل الأول

قراءة في قانون السببية

فتحي عبد العليم

إذا كان للشعب الفلسطيني أن يفخر بنضال اليوم، رغم فداحة الثمن، فعليه أن يفخر، أيضاً، بنضال الأمس. والتاريخ، دائماً، هو رابط زمني بين الأمس واليوم، ويفرز معطيات حقيقية من أجل تخليق الغد. من هذا الفهم لا يكون التاريخ مجرد تقليب لصفحات مضت، أو دعوة للماضوية، ولكنه صناعة للوعي، وصيانة لذاكرة الأمة، وغرس وإنبات ونمو لقيم عليا رفيعة، قادرة على الحياة، في أرض مخضَّبة بالدماء، ويترعرع فيها الموت، كما أراد لها الأعداء، لذلك قال الشاعر العربي ممتدحاً التاريخ:

ومن حوى التاريخ في صدره * أضاف أعمارا إلى عمره**

من هنا، فالتاريخ قادر على إعطاء معادلة صحيحة موزونة، بين أرقام الحق والثورة والأرض. والحقيقة المؤكدة، تقول إن أعداءنا لديهم إدراك مشتعل، ويقظ، بأهمية وخطورة الوعي بالتاريخ. لذلك، فهم يعملون ليلاً ونهاراً، على إحياء تاريخهم الميت، في مقابل إماتة تاريخنا الحي. ويتم ذلك بالتوازي، مع جهود حثيثة لا تكل ولا تمل، وبإدارة واعية متميزة، يحسدون عليها، من أجل تجميد التاريخ، وتحويله من طاقة حركة، إلى حالة متحفِيّة هامدة. وهكذا تنسجم – من وجهة نظرهم–حالة صمت المتاحف مع الموات العربي المطلوب، ليعطي الحياة والعنفوان، للمشروع الصهيوني على الأرض الموعودة لديهم، والمغصوبة لدينا. لذلك قالت جولدا مائير، يوماً: «العربي الجيد هو العربي الميت».

من هذا المنظور الفلسفي والقيمي، للوعي بالتاريخ، تأتي أهمية دراسة ثورة ١٩٣٦، ووضعها في مكانتها اللائقة، في السجل التاريخي، لنضال الشعب الفلسطيني، ورسم خطوطها ومعالمها الدقيقة المحكمة على الخريطة الزمنية لشعبنا العربي في فلسطين. وسوف يتم تسطير هذه الدراسة على محور واحد، هو أسباب الثورة العربية عام ١٩٣٦، وحيث أن الفراغ لا يصنع ثورات، وإنما قانون السببية يأخذ مجراه، ويبسط منطقه على كافة أشكال الحياة الإنسانية، لذلك نخوض غمار البحث في الأسباب الفعلية للثورة، تحت العناوين التالية:

أولاً: الأسباب السياسية للثورة.

ثانياً: الأسباب الاقتصادية والاجتماعية للثورة.

ثالثاً: الأسباب الثقافية واللامادية للثورة (حركة الشيخ عز الدين القسام)، وقبل التطرق إلى أسباب الثورة بأنواعها المختلفة، يجب النظر إلى الملاحظتين التاليتين:

١- إن الدراسة لن تبحث في أحداث ووقائع الثورة، وماذا حدث فيها؟ لأن هدف الدراسة محدد، وهو البحث في تفاعلات الأسباب، وليس البحث في تفاعلات الأحداث.

٢- إن مجموعة الأسباب التي فجَّرت الثورة، عبارة عن حزمة واحدة، بينها حالة من الترابط، والتشابك، والتأثير، والتأثر، لذلك فالتقسيم الوارد أعلاه، لا يعني الفصل بين هذه الأسباب، ولكنه يعني الاجتهاد في وضع اليد على العلة والمعلول.

أولاً: الأسباب السياسية للثورة:

جاءت ثورة ١٩٣٦، كنوع من الانفجار البركاني، نتيجة حالة تراكمية لجملة من الأوضاع الرديئة، على المستوى السياسي العام. كان هناك إطار عام حاكم ونافذ، يلقي بأثقاله على كاهل الشعب الفلسطيني، تداخل فيه المحلي مع الإقليمي مع الدولي. من ناحية العلاقات الدولية، كانت هناك مسألتان في غاية الأهمية، تشغلان العقل الأوروبي، طوال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وهما ما اصطلح على تسميتهما «المسألة الشرقية»، و«المسألة اليهودية»، الأولى تمثل تركة الرجل العثماني المريض، والذي تكالبت عليه كثير من العلل والأمراض السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. والأسوأ من ذلك، أن المريض لم يكن طريح الفراش، في مستشفى، بل كان الأعداء يحيطون به على سرير المرض. وفي وضعية كهذه، كان لا بد لهؤلاء الأعداء من توزيع التركة، وتحديد الأنصبة، وترتيب الأوضاع، قبل اختيار التوقيت الملائم للموت، وكتابة الشهادة السياسية بالوفاة. وبالطبع، تم حل «المسألة الشرقية»، على حساب العرب والمسلمين، وجاءت الولايات العربية في المشرق، ضمن مشتملات التركة، فاتفق سايكس مع بيكو على تحديد الأنصبة، عام ١٩١٦، بينما تعاهد آرثر بلفور مع البارون روتشيلد، على وعد خاص، يتناسب مع المكانة الخاصة لفلسطين عام ١٩١٧، في حين باع مكماهون الوهم في زجاجات للشريف حسين، وساق إليه السراب في رسائل معطرة. وهكذا جاءت القيادات العربية من

زعماء العشائر، وكبار الملاك، وفي الطبقة البرجوازية، وأتباع القومية العربية، كعناوين للمرحلة، رغم عدم الصلاحية، وغياب الأهلية والإستقامة السياسية، ولعل الشيء الجديد بالنظر، أن هؤلاء القادة، الذين امتلكوا الجرأة والشجاعة على الثورة، على الحكم العثماني، لم يجرؤ أي منهم على الثورة ضد حكم الانتداب البريطاني، وتركوا عروس العروبة (فلسطين)، يتم إغتصابها، دولياً، بصك الإنتداب. والأكثر من ذلك، فقد مارس هؤلاء القادة، ومن سار في ركابهم، دور رجل الإطفاء ضد أي ثورة أو شبه ثورة، كما حدث في عام ١٩٢٠، ١٩٢١، وهبة البراق ١٩٢٩، وانتفاضة عام ١٩٣٣. كما مارسوا عملية تضليل وتزييف لوعي الجماهير، بأن العدو الحقيقي هم اليهود الصهاينة، وليست سلطة الإنتداب البريطانية، كما جاء في تقرير لجنة «شو»، التي تولت التحقيق في أسباب هبَّة عام ١٩٢٩، حيث ذكرت اللجنة، في صلب تقريرها: «أن الاضطرابات كانت عفوية، وقد جرت في خضم توتر ديني وسياسي، ولم تكن موجهة ضد السلطة البريطانية»[1].

هذا عن المسألة الأولى، (المسألة الشرقية) ، وتداعياتها، أما المسألة الثانية، وهي «المسألة اليهودية»، فهي تدخل في باب اللوغاريتمات السياسية لدى العرب، في حين إنها تستقيم، في باب المنطق السياسي والإستراتيجي، لدى الغرب والصهاينة. المسألة نشأت في أرض غير عربية، وأطرافها من غير العرب، والمسؤولية عنها لا تطول العرب، بأي حال من الأحوال. ومع ذلك كان لا بد من أن يدفع الدم العربي والأرض العربية، الفاتورة، واستحقاقات التسوية. ما ذنب العرب في مسألة جماعة بشرية تقطعت أوصالها، وتناثرت أشلاؤها البشرية في كافة بقاع الكرة الأرضية؟ وكانت الغالبية العظمى منهم، تسكن تخوم ما بين روسيا وبولندا (٩٠% إجمالي ١٢ مليون عدد اليهود في القرن التاسع عشر)، ونتيجة للانغلاق الثقافي، والتعصب الديني، والطبيعة الخاصة لهؤلاء اليهود، تولدت إحتكاكات اجتماعية، أدت إلى حملات عداء، واضطهاد، ومذابح دموية، كانت تتكرر بصفة مستمرة، وكان يعبر عنها بمصطلح روسي يسمى البوغروم "Pogrom" ومعناه «التدمير المنظَّم لطبقة أو جماعة»، لذلك كانت هذه الكلمة تحملها كثيراً، مانشيتات الصحف العالمية، طوال القرن التاسع عشر[2]، كلما تجددت أحداث الإضطهاد في شرق أوروبا. وعلى النقيض من الانغلاق والبوغروم، وأزمة السامية في الشرق الأوروبي، كان هناك نوع من الاندماج، والتفاعل الإجتماعي في غرب اوروبا، بفعل حركة

التنوير، والنتائج الثقافية والاجتماعية للثورة الفرنسية، وهكذا نتيجة التأزم والخلل في جانب، والانفراج والتوازن في جانب آخر من القارة الأوروبية، بدأت تتحرك موجات الهجرة اليهودية من الشرق إلى الغرب، طلباً للملاذ الآمن، وسعياً وراء حل. وأخذت هذه الأحداث تترك بصماتها على الرأي العام، وأروقة السياسة الغربية. وجاءت الصهيونية السياسية كإفراز ورد فعل لهذه الأجواء، وتم تأطير وهيكلة المنظمة الصهيونية، في هذا السياق التاريخي، ومن داخلها تم تخطيط وتصميم وتنفيذ المشروع الصهيوني، الذي يجعل من فلسطين المستقر النهائي للهجرة اليهودية. والغريب أن أزمة اليهود الكبرى، والتي جاءت مع وصول الحزب النازي إلى السلطة في ألمانيا، عام ١٩٣٣، قد أعطت قوة دفع هائلة للمشروع الصهيوني، وكثفت موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وأحدثت تحولات ديموغرافية خطيرة، حيث قفزت بنسبة السكان اليهود في فلسطين من ١٦%، عام ١٩٣١إلى ٢٨% من إجمالي السكان، عام ١٩٣٦(٣)، في غضون خمس سنوات، وهو بالتأكيد من الأسباب المهمة التي أدت إلى ثورة ١٩٣٦ في فلسطين.(٤) نخلص من هذا التحليل التاريخي إلى أن فلسطين كانت ضحية للحلول الدولية للمسألتين «الشرقية» و«اليهودية»، وإلى أن الوضع السياسي والإداري والدولي فيها، جاء كمحصلة لهذه الحلول، بغض النظر عن مشروعية هذه الحلول، أو عدالتها.

الانتداب وعاء لجمع المتناقضات:

دائماً تأتي المواثيق والاتفاقيات الدولية، كتعبير عن إرادة الأقوياء، أو الدول المنتصرة، بعد كل حرب. وعادة ما تقوم الأطراف المنتصرة بترتيب الأوضاع الدولية وفقاً لإراداتها الغالبة، وتلبية لمصالحها. فقد تم إنشاء «عصبة الأمم»، بعد الحرب العالمية الأولى، وتم إقامة الأمم المتحدة، بعد الحرب العالمية الثانية. وتم عقد «معاهدة فرساي»، التي كانت مذلة للشعب الألماني، بعد الحرب العالمية الأولى، ثم تم تقسيم ألمانيا، بعد الحرب العالمية الثانية، وهكذا، ولكن ما يعنينا هنا، هو أن الانتداب البريطاني لفلسطين جاء ضمن خريطة الانتداب الأنجلو- فرنسية على الشرق العربي، كتعبير عن التفاهمات السياسية بين القوتين الدوليتين، في ذلك الوقت، حيث جاء الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، في مقابل الانتداب البريطاني على فلسطين، وشرق الأردن، والعراق. وقد تميز الانتداب على فلسطين بحالة

خاصة وفريدة، عكست مدى التآمر الدولي والمنهجية السياسية في التعاطي مع وضعية فلسطين على الأجندة الدولية. فمن ناحية أولى، جاء «وعد بلفور» في حيثيات «صك الانتداب». وتحدثت نصوص وثيقة الانتداب على تحقيق هدفين متناقضين، وهما تحقيق الحكم الذاتي للفلسطينيين، وأيضاً إقامة وطن قومي لليهود. وهكذا، جاءت سلطة الانتداب لتجد نفسها في حالة تناقض مزمن، كمن يحاول الجمع بين الماء والنار في إناء واحد، فتحقيق الحكم الذاتي للشعب الفلسطيني، سوف يعطل، تلقائياً، الوطن القومي اليهودي، ويحافظ على حقوق الفلسطينيين، وفي المقابل، إقامة وطن قومي لليهود، يستتبعه، الهجرة، فالاستيطان، وإكتساب الأرض، التي هي حق وملك للفلسطينيين. فتوطين اليهودي لا بد أن يستتبعه تشريد الفلسطيني واغتصاب أرضه، وبالعكس، الحفاظ على حق الفلسطيني وصيانة أرضه، معناها منع الصهيوني من الهجرة واكتساب الأرض.

كان طبيعياً في وضعية مصطنعة كهذه، أن يتم إنجاز الهدف الحقيقي، وغزل ونسج واقع على الأرض، بأيدٍ ماهرة، وعقول ماكرة، ينسجم مع هذا الهدف، في مقابل العبث بالهدف الشكلي لشعب بائس مغلوب على أمره. لذلك جاءت مهام سلطة الانتداب مرحلية، بدأت بمرحلة تهيئة الظروف الملائمة، من حيث تعيين هربرت صموئيل، أول مندوب سامي بريطاني لفلسطين، وهو صهيوني متعصب، مع إنشاء «الوكالة اليهودية»، كهيئة منتخبة من اليهود، وذات صفة رسمية، لتتولى الإشراف والتنفيذ لكل الأنشطة المادية، والاجتماعية، والسياسية الخادمة للهجرة، والاستيطان، وشراء الأرض، مروراً بإعطاء التسهيلات، والمعاملة التفضيلية، والامتيازات الاقتصادية لليهود. وجاءت بعد ذلك مرحلة الحماية العسكرية للمستوطنات الصهيونية ضد الهجمات والإنتفاضات الشعبية. وأخيراً جاءت مرحلة الختام، حيث شب الكيان الصهيوني عن الطوق، وأصبح لديه قواعده الاقتصادية والعسكرية، وقادراً على حماية نفسه، بل الأكثر من ذلك تمرد على صاحبه، أكثر من مرة، وتمكن من تشريد الآخرين، كما هو معروف.

يقودنا هذا التحليل إلى نتيجة مؤداها أن طبيعة الانتداب السياسية، وسلسلة الممارسات لحكومة الانتداب، وانحيازها لطرف وافد ودخيل ضد أصحاب الأرض الأصليين، أوجد شعوراً عميقاً بالغبن والقلق والتوتر، لدى أبناء الشعب الفلسطيني. وأسهم في تدهور الأوضاع على مختلف الأصعدة، في المدن والقرى وبين كافة الشرائح والطبقات الاجتماعية، بينما أسهم

إيجابياً، فـــي تزكية مشاعر العداء والغضب، والتي وصلت بالتراكم والتواتر إلى محطتها الطبيعية بانفجار الثورة عام ١٩٣٦. لذلك يبدو منطقياً أن تتميز هذه الثورة عن سوابقها من الصـــدامات والهبـــات أعـــوام ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٤، ١٩٢٩، بأنه موجهة إلى سلطات الحكم البريطاني والصهاينة اليهود، حيث وضعتهما فـــي سلة واحدة، على عكس الاتجاه الســـابق، الـــذي كـــان يتعاطى الوهم، ويمني الأنفس، بوضع الإنجليز فـــي مربع الحياد، أو كرسي الإنصاف، أو قل تجنب شرهم، فضلاً عن الحفاظ على مصالح ضيقة لكبـــار ملاّك أو لبرجوازية طبقية، تريد ألا تقطع شعرة معاوية مع من يقطع وطنـــاً بأكمله، ولا ندري هل كان ذلك بوعي منهم، أم بدون وعي، مصداقاً لقـــول الشاعر العربي:

إن كنت تدري فتلك مصيبة وإن * كنت لا تدري فالمصيبة أعظم**

على كل حال، يُحمد لثورة ١٩٣٦، ومن قبلها الرؤية النقدية الصـــحيحة للشيخ عز الدين القسام، وكذلك المثقفون العصريون، من أعضـــاء «حـــزب الإستقلال»، والذي تم إنشاؤه عام ١٩٣٤، (عوني عبـــد الهـــادي، وأكـــرم زعيتر، عزت دروزة، وحمدي الحسيني، وعجاج نـــويهض) كـــل هـــؤلاء أسهموا فـــي إزاحة ذلك الاتجاه المغلوط، وكشف عملية التضـــليل الفكـــري والسياسي للجماهير العربية الفلسطينية.

كان هناك بعد سياسي آخر، أسهم فـــي رفع درجة حـــرارة التفـــاعلات الاجتماعية، وتحريك جدلية الصراع، ثم الثورة، وهو فشـــل كـــل الجهـــود والمحاولات السياسية، والدبلوماسية، التي بذلتها القيادات الفلسطينية، من أجل الوصول إلى هدف قيام حكومة وطنية، أو هيئة تمثيلية منتخبة، تعبـــر عـــن إرادة وطموحات الشعب الفلسطيني. ففـــي حين أن "صك الانتداب"، نـــص على أن الانتداب على فلسطين من الفئة (أ)، وليس مـــن الفئـــة (ب)، مثـــل سوريا، ولبنان، والعراق، إلا أن هذه الدول، خطت خطوات إيجابيـــة فـــي طريق الاستقلال، وتكوين المجالس التشريعية، وتشكيل الحكومات الوطنيـــة، ما عدا فلسطين، وكان السؤال: لماذا تدار فلسطين، بشكل مباشر من ســـلطة الانتداب؟، كان المغزى من ذلك واضحاً، فالنفوذ الصهيوني فـــي لنـــدن، يعرقل محاولات السماح، أو الاعتراف، بالتمثيل النيابي، الذي يحافظ، نسبياً، على حقوق الفلسطينيين، ويعرقل خطوات المشروع الصهيوني، بينما الحكم المباشر للانتداب، يسهم، إيجابياً، فـــي دفع المشروع إلى الأمـــام، ويعطـــي مساحة واسعة للحركة والتنفـــيذ. كل ذلك عمق الشعور الفلسطيني بـــالظلم،

والقلق على المصير والوجود. وولد قناعة استقرت في الإدراك الجمعي لدى أبناء الشعب الفلسطيني، أن هدف الحكم الذاتي المنصوص عليه في «صك الانتداب»، هو مجرد حبر على ورق. وأن القطار السريع للاستيطان والهجرة اليهودية، لا يعرف سائقه الانجليزي أو الصهيوني، محطة اسمها الحكم الذاتي الفلسطيني. لذلك كان منطقياً أن يتم الطلاق مع الوهم، والإنفصال عن السراب، والتعامل مع الحقيقة، والثورة على الواقع المفروض قسرياً على أرض فلسطين.

ثانياً: **العوامل الاقتصادية والإجتماعية للثورة**:

الحقيقة، أن الوصول إلى عمق الأسباب الاقتصادية والاجتماعية لثورة ١٩٣٦. وكذلك سبر أغوار التفاعلات الباطنية للحياة الفلسطينية، يمكن إنجازه من نواح متعددة، من خلال المحطات التالية:

١- الانتداب البريطاني من منظور اقتصادي:

كما سبق أن قلنا، كان الانتداب البريطاني على فلسطين، يمثل حالة ذات خصوصية، يجعلها مختلفة ومتباينة، عن الحالات الأخرى من أشكال الانتداب. كانت فلسطين بلداً فقيراً، محدود الموارد، والإمكانات. لذلك فهي لم تكن ذات أهمية إقتصادية للإستعمار الإنجليزي، ولكنها تنطوي على أهمية استراتيجية بالغة، فهي تمثل منطقة عازلة أساسية في الدفاع عن الهند، ومصر، وقناة السويس، وجزءاً من طرق المواصلات الجوية إلى الهند والعراق، والمصب الرئيسي لأنابيب النفط العراقية المملوكة من شركة البترول العراقية (I P C)، العائدة إلى بريطانيا[٥]. لذلك، كان هناك نمط استعماري خاص لإدارة البلد، يشمل الإيرادات والمصروفات. وجاء التركيز على شؤون الإدارة والأمن، في حين قل الإهتمام بالتنمية والخدمات، يضاف إلى ذلك، أن فلسطين لم يسمح لها بإنشاء بنك مركزي، أو إصدار العملة بنفسها، فقد تم ربطها بمنطقة الاسترليني، وكانت شؤونها تدار من «مجلس العملة» في مدينة لندن. ونفقات الأمن الداخلي والخارجي لكل المستعمرات، دائماً، كانت من أجل حماية أهلها، أما فلسطين، فنفقات الأمن كانت موجهة لحماية المستوطنين الصهاينة الغرباء ضد أهل الوطن الأصليين، وهو وضع غريب، وشاذه أمنياً، وإقتصادياً[٦]. وهكذا تم تكريس

التخلف، والفقر، وتعطيل إمكانيات النمو، وإقامة ركائز إقتصادية للمستوطنين والمهاجرين اليهود، أصحاب التعليم الراقي والقدرات التقنية، المدعومين برأس المال اليهودي. والهدف تعميق الخلل في التوازن الإقتصادي، لاستكمال مقومات القوة لطرف، وإستيفاء شروط الضعف لطرف آخر. كل هذا تحت سمع وبصر المواطن الفلسطيني، فكان حرياً به أن يرفض الموت الاقتصادي، ويدافع عن حقوقه ضد الظالمين.

٢ـ التقارير البريطانية وكشف الحقائق:

في أعقاب هبَّة البراق الشهيرة، عام ١٩٢٩، وما صاحبها وتلاها من أحداث ثورية، حاولت السلطات البريطانية معرفة أسباب هذه الأحداث، وأعمال المقاومة من جانب الفلسطينيين، فتم تشكيل لجنة «شو»، لتقصي الحقائق، ثم تبعتها لجنة برئاسة السير هوب – سامبسون. وأصدرت كل لجنة تقريراً منفصلاً. وفي حين كان تقرير لجنة «شو» هدفه معرفة أسباب «الإضطرابات» المباشرة، فإن تقرير لجنة هوب – سامبسون، كان عبارة عن دراسة شاملة إقتصادية وإجتماعية، لكل فئات الشعب الفلسطيني. وقد تم صياغة «الكتاب الأبيض» لوزير المستعمرات، باسفيلد، بناءً على هذين التقريرين، والذي طالب بتعديل السياسة الإنجليزية، تجنباً للآثار والعواقب الوخيمة، لاستمرار الأوضاع الرديئة لأبناء الشعب الفلسطيني، ورغم أن هذه التقارير صادرة عن لجان تحقيق بريطانية، والقائمين عليها من الإنجليز، وإنها تميزت بقدر كبير من الموضوعية، ولم تكن منحازة أو متجنية على أبناء الشعب الفلسطيني، وكان هدفها وضع الحقائق، أمام صانع القرار البريطاني، من أجل ترشيد السياسة البريطانية، فضلاً عن شمولها لكمّ من المعلومات، التي تعطي صورة واضحة عن معاناة ومظالم أبناء الشعب الفلسطيني. وبالطبع، فكل الأسباب والحقائق التي جاءت في هذه التقارير، هي نفسها التي أدى استفحالها إلى نشوب ثورة عام ١٩٣٦.

وجدت لجنة «شو» أن من عوامل نشوب «الاضطرابات»، هو التخوف الفلسطيني من الهجرة اليهودية، والتي تم تقييمها من قبل اللجنة، بأنها هجرة مفرطة، من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٢٩. وكذلك عمليات بيع الأراضي، بشكل عشوائي، للمنظمات اليهودية، والذي أدى –حسب تعبير اللجنة – إلى «خلق طبقة لا تملك أرضاً، وتشعر بالإستياء»(٧).

أوردت لجنة «شو» بأنه تكرر على مسامعها بكثرة: «مخاوف العرب من أن نجاح السياسة الصهيونية، يعني تجريدهم من أراضيهم». هذه المخاوف كانت «راسخة بعمق في العقل العربي»(٨). أما تقرير هوب – سامبسون، فقد أعطى تشخيصاً واضحاً لحالة العامل والفلاح الفلسطيني، فقد وجد سامبسون بطالة متفشية بين العمال في المدن، وتدني معدلات الأجور، حيث انخفضت أجور العمال المهرة، والنجارين، والحدادين، والحجارين العرب الفلسطينيين (من يقطعون الأحجار) بنسبة ٥٠% عن نظرائهم اليهود.(٩) فضلا عن التمييز في سياسات العمل، حيث أن المنظمات الصهيونية النافذة كانت تشدد على ضرورة الاعتماد على العمال اليهود دون العرب (العمل الجبري). وبالنسبة للفلاح فقد حلل سامبسون مشكلة الأرض من جميع جوانبها، وأجرى مسحاً على عدد من القرى بلغ ١٠٤ قرية. فوجد أن نصيب الفلاح أقل من المتوقع، وذلك بسبب الزيادة الطبيعية للسكان، واتباع الأساليب البدائية والتقليدية في الزراعة. فنصيب الفلاح الفلسطيني لا يتعدى ٧٥ دونم، بينما المساحة التي تكفيه، وتعطيه عائد لحياة معقولة، يجب ألا تقل عن ١٣٠ دونم(*)(١٠).

وجد، أيضاً، أن أكثر من ٢٠% من الفلاحين، هم مستأجرين للأرض، ونتيجة الهجرة اليهودية، وبيع الأراضي يتحولون إلى مشردين بلا أرض. وهكذا يتحول الفلاحون من أصحاب أرض إلى بروليتاريا. ووجد سامبسون أيضاً، أن الفلاح في حالة بائسة وميئوس منها، فهو لا يجد رأس مال لزراعة أرضه، ومثقل بالديون، والضرائب التي يدفعها باهظة، وسعر الفائدة مرتفع، وفي النهاية لا يجد ما يسد رمقه، أو الحد الأدنى لقوت أولاده. وطالب سامبسون، في تقريره بالحد من الهجرة اليهودية، ووضع ضوابط لها، والحد من عملية انتقال ملكية الأرض، وإلغاء سجن المدين، وإعفاء الفلاح الذي يقل دخله عن ٣٠ جنيه فلسطيني من دفع الضريبة. وهكذا وصل سامبسون إلى رسم صورة واضحة عن سوء الوضع الاقتصادي، وأعطى نتيجة نهائية لتقريره، مفادها أن العامل لا يعمل، والفلاح بلا أرض، وكلاهما في حالة بائسة. وبالطبع فكل ذلك كان من العوامل المغذية للسخط العام، والمفجِّرة لثورة ١٩٣٦. والجدير بالذكر أن هناك بعض الآراء التي تقول إنه حدث تحسن نسبي في الاقتصاد أو نوع من الإزدهار، في الفترة ما بين ١٩٣٣، ١٩٣٥، بسبب الهجرة اليهودية الألمانية إلى فلسطين، ومعها رأس

* الدونم: ألف متر مربع، أي ربع فدان.

المال اليهودي، على عكس الهجرات السابقة، والتي كان أفرادها محــدودي القدرة المالية. ولكن يرد على ذلــك، بــأن هــذا الازدهــار، أو التحســن الإقتصادي، كان مردوده على اليهود فحسب ولم يستفد منه الفلاح الفلسطيني (عدد الفلاحين يبلغ ٦٠% من عدد السكان)، أما العامل الفلسطيني فقد كــان يعاني من سياسة التمييز فــي العمل، وبالتالي فقد بقي الوضع كما هو عليه، لتأخذ الأمور مجراها الطبيعي إلى الثورة[١١].

٣ـ الهجرة اليهودية والتحولات السكانية :

تعتبر الهجرة اليهودية أحد الأركان الهامة للمشروع الصــهيوني علــى أرض فلسطين، والأداة الأساسية التي استعملتها الصهيونية، لتنفــيذ «وعــد بلفور» ثم إقامة دولة إسرائيل. واستُخدمت هذه الهجرة فــي تغيير المعادلــة السكانية، والتلاعب بالتوازن السكاني، وصياغة حياة جديدة، وواقع مختلــف يخدم الطرف الصهيوني على أرض فلسطين. كان وعي الشعب الفلســطيني حاداً ويقظاً، بالنسبة لخطورة هذه الهجرات على مصــيره ووجــوده علــى أرضه. لذلك كان هناك ارتباط واضح بين الموجات المتتابعة من الهجــرة، وحركات الاحتجاج والتمرد والثورة لدى أبناء الشــعب الفلســطيني. فكلمــا جاءت موجة أو دفعة من المهاجرين، تزامن معها، أو أعقبها حركة ثوريــة فلسطينية، حدث هذا فــي أعوام ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٤، ١٩٢٩، ١٩٣٣، وسجلته تقارير لجان التحقيق البريطانية، كما أشرنا سابقاً. ويمكــن التأكيــد على هذه العلاقة الإرتباطية بين موجات الهجرة اليهودية وحركات الاحتجاج الفلسطينية، من خلال الجدول التوضيحي التالي:

الجدول رقم (١)

منحنى الهجرة اليهودية إلى فلسطين

فــي ارتباطه بالحركات الثورية الفلسطينية

موجات الهجرة	العدد	حركات احتجاج وعنف
الموجة الاولى ١٨٨٢-١٩٠٣	٢٥ ألف يهودي	لا يوجذ
الموجة الثانية	٣٥ ألف يهودي	لا يوجد

موجات الهجرة	العدد	حركات احتجاج وعنف
١٩٠٤-١٩١٤		
الموجة الثالثة ١٩١٩-١٩٢٣	٣٥ ألف يهودي	أحداث ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٤
الموجة الرابعة ١٩٢٤-١٩٣١	٨٥ ألف يهودي	هبَّة البراق ١٩٢٩
الموجة الخامسة ١٩٣٢-١٩٣٨	٢٠٠ ألف يهودي	انتفاضة ١٩٣٣- حركة القسام ١٩٣٥- ثورة ١٩٣٦

(أرقام الهجرة اليهودية مأخوذة من المصادر الرسمية البريطانية، المصدر:

A survey of Palestine ،chap .٦ ،tables no ،(١-٦) .P .P.١٤١-١٤٤ .

ويمكن تسجيل الملاحظات التالية على الجدول رقم (١):

١- إن الموجتين الأولى والثانية لم يكن لهما ردود فعل إحتجاجية مسجلة، تاريخياً، ويمكن تفسير ذلك، بأن أعداد هذه الهجرات، لم تكن مؤثرة على مجموع السكان، وكذلك أبعاد المشروع الصهيوني لم تكن معروفة، وأيضاً لم يكن «وعد بلفور» قد صدر حينها.

٢- باقي الموجات، إبتداءً من الموجة الثالثة، جاءت بعد صدور «وعد بلفور»، وقيام الانتداب، وكان هناك هدف معلن (وطن قومي لليهود)، وسجل في «صك الانتداب»، وكانت هناك سياسات واضحة، ووقائع على الأرض، فبدأت أحداث العنف والمقاومة تأخذ مجراها الطبيعي.

٣- ثمة علاقة طردية واضحة بين موجات الهجرة وحركات المقاومة والثورة، وقد أخذت شكلاً تصاعدياً حاداً، خصوصاً في الموجات الأخيرة، بسبب صعود النازية في ألمانيا، قابلها تصاعد في رد الفعل الشعبي الفلسطيني، من هبَّة البراق، مروراً بحركة الشيخ عز الدين القسام، وبلغت ذروتها في ثورة ١٩٣٦ المباركة.

إستكمالاً لجلاء الصورة، ولإيضاح مدى تأثير الهجرة اليهوديـــة علـــى ثورة ١٩٣٦، نورد الجدول التالي، الذي يبين حجم ونسبة الســـكان العـــرب واليهود، وحجم التغير، خلال سنوات حكم الانتداب:

جدول رقم (٢)

توزيع السكان فـــي فلسطين (١٨٨٠-١٩٤٧)

السنة	العرب		اليهود	
	الأرقام	%	الأرقام	%
١٨٨٠	٣٠٠,٠٠٠	%٩٤	٢٤٠٠٠٠	%٦
أ- ١٩١٧	٥٠٤٠٠٠	%٩٠	٥٦٠٠٠٠	%١٠
١٩٢٢	٦٦٦٠٠٠	%٨٩	٨٤٠٠٠	%١١
ب- ١٩٣١	٨٥٠٠٠٠	%٨٣	١٧٤,٠٩٦	%١٧
١٩٣٦	٩١٦٠٠٠	%٧٢	٣٨٤,٠٧٨	%٢٨
١٩٤٥- ١٩٤٦	١,٢٤٢٠٠٠	%٦٩	٦٠٨,٠٠٠	%٣١
١٩٤٧	١٣٠٠,٠٠٠	%٦٧	٦٤٠,٠٠٠	%٣٣

المصدر:

Facts and Figures about the Palestinians ،information paper ،no.١ (washingtion ،DC :Center for Policy analysis on Palestine ،١٩٢٢) ،P .٧.

أ- وعد «بلفور»، وبداية تصاعد نسبة السكان اليهود.

ب- دعوة للقارئ للنظر فـــي ارتفاع معدل السكان اليهود من ١٧% إلى ٢٨% في أقل من ٥ سنوات (١٩٣١ إلى ١٩٣٦)، وأثر ذلك على ثورة ١٩٣٦.

- يلاحظ، أيضا، أن الزيادة فـــي أعداد السكان الفلسطينيين فـــي الجدول السابق ناتجة عن الزيادة الطبيعية، بينما الزيادة فـــي السكان اليهود ناتجة عن الهجرة من الخارج.

٤ـ انتقال الأرض :

لم تكن عمليات شراء واكتساب الأرض من قبل اليهود، خلال فترة الانتداب، عملية شراء وبيع طبيعية، مثل تلك التي تحدث في أي مجتمع، ولكنها عمليات شراء بدوافع سياسية، وصولاً إلى إقامة الوطن القومي المنشود. ولم تكن، بأي حال من الأحوال، مجرد شراء للأرض، ولكنها شراء لوطن. ولم تكن عمليات تبادل إقتصادي، أو نقل ملكية عادية بين أفراد مواطنين في أي مجتمع، ولكنها كانت تتم بواسطة وكالات سياسية تابعة للمنظمة الصهيونية، وشركات مموّلة من الخارج، مثل «الصندوق القومي اليهودي»(١٢)، و«شركة تطوير الأراضي الفلسطينية»، وصندوق المؤسسة الفلسطينية. وبالطبع تم شراء الأراضي، كملكية جماعية باسم «الشعب اليهودي». وأصبحت الأراضي محجوزة، ومخصصة حصرياً لليهود.

ثمة سؤالان بحثيان يطلبان الإجابة، في هذا المقام. الأول، ماذا عن مسؤولية الفلسطينيين تجاه عمليات شراء اليهود للأراضي وإكتسابها؟ إن أية عملية بيع وشراء، أو نقل ملكية، لا بد لها من طرفين، بائع ومشتر، وإذا كان اليهودي هو الذي اشترى، فمن الذي باع؟ وبصيغة أخرى، هل تهمة بيع الفلسطينيين لأراضيهم، والمتداولة في بعض الأوساط الشعبية، وبين العامة في بعض البلاد العربية، منذ أكثر من ٥٠ عاماً، وحتى الآن، هي تهمة مزيّفة أم صحيحة؟، والسؤال الثاني، ما مدى تأثير شراء الأرض على ثورة ١٩٣٦؟

بلغت مساحة الأراضي الزراعية في فلسطين، في نهاية عام ١٩٢٩، أحد عشر مليون دونم*، ولا يتعدى نصيب اليهود منها ٨%، حسب تقدير المسؤول البريطاني في دائرة الأراضي بحكومة الانتداب في فلسطين، والذي ذكره أمام لجنة «شو» البريطانية(١٣). وذكر أيضاً، ممثل اللجنة التنفيذية الصهيونية: «أن مساحات صغيرة، نسبياً، لا تتجاوز بمجملها ١٠% تم الإستحصال عليها من مالكي الإقطاعيات الكبيرة من غير الفلسطينيين».

نفهم من هذا أن ٩٠% من إجمالي الأراضي الفلسطينية التي اشتراها اليهود، تم شراؤها من ملاك غير فلسطينيين، وبالتحديد من الملاك اللبنانيين،

---

* الدونم: ألف متر مربع، أي نحو ربع فدان.

والأسر الأرستقراطية البيروتية. كانت أكبر صفقة شراء، هي شراء سهل مرج بن عامر، وهو من أخصب الأراضي الزراعية في فلسطين، وتقدر مساحته بـ ٢٣٠ ألف دونم، ويشتمل على «أربعة وعشرين قرية مأهولة بالسكان»، حسب تقرير لجنة «شو». وقد تم البيع من قبل عائلة سرسق، وهي أسرة غنية بيروتية. وقد نزح السكان من ٢٣ قرية، وبقيت قرية واحدة، بعد أن منحتهم عائلة سرسق ٥٠٠ هكتار، على سبيل التعويض أو التغطية. ثاني أكبر صفقات البيع، كانت بيع وادي الحوارث، وهو وادي كان يقطنه ما يقرب من ١٢٠٠ نسبة كبيرة منهم من القبائل البدوية، وتبلغ مساحته ما يقرب من ٣١ ألف دونم، كان يتم زراعة ثلثي مساحة أرض هذا الوادي، والباقي مخصص للرعي. وتم البيع لصالح «الصندوق القومي اليهودي»، وعندما تمت صفقة البيع، كانت درجة التوتر والقلق عالية لدى الأهالي العرب في الوادي. وانتشر الذعر والانزعاج في كافة المناطق المجاورة، خشية أن يلقوا المصير نفسه من الطرد والتشريد، وكمحاولة للتهدئة، عرض «الصندوق القومي اليهودي» على الأهالي أراضٍ بديلة في منطقة بيسان، أشارت لجنة «شو» إلى أنها أرض مقفرة، ولا تصلح للرعي، وتؤثر على الهوية القبلية للأهالي، والذين يعتمدون على الرعي كمصدر أساسي للمعيشة، فضلاً عن احتياجها لرؤوس أموال كبيرة لزراعتها، وهو ما يفتقده الفلاحون. والحقيقة أن سبب إمتلاك هذه العائلات اللبنانية لتلك المساحات والإقطاعيات الكبيرة يعود إلى أنه، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، كان شمال فلسطين يتبع، إدارياً، ولاية بيروت. ولذلك كان من حق اللبناني أن يمتلك أرضاً في ولاية، هو أحد مواطنيها. ولما جاء عهد الإنتداب، جاء الإنفصال، وتقسيم الإنتداب، فذهبت فلسطين إلى الإنتداب البريطاني، وجاء لبنان من نصيب الإنتداب الفرنسي، أي حكومات مختلفة، لذلك جاء دافع البيع لهذه العائلات اللبنانية الأرستقراطية، إقتصادياً بحتاً لمن يدفع أكثر. وبالطبع من يدفع أكثر في هذه الحالة، هو المؤسسات الصهيونية. وكان هؤلاء الملاك من بيروت، بعيدين عن الضغوط الداخلية في فلسطين، وخارج دائرة الشعور القومي العربي، ببساطة القضية لا تعنيهم. يضاف إلى ذلك، أنه حتى عام ١٩٤٧، قامت سلطات الانتداب البريطاني بمنح أو تأجير ١٩٥ ألف دونم من أراضي الدولة إلى المستوطنين اليهود. ورغم كل المنح والتسهيلات التي قدمتها لهم سلطات الإنتداب، فحتى عام ١٩٤٧، بلغت مساحة ما امتلكه اليهود ٧% فقط من مجموع مساحة فلسطين، والباقي تم الإستيلاء عليه بالقوة المسلحة، في نكبة ١٩٤٨، بواسطة عصابات «الهاغاناه»، و«شتيرن»، و«الأرجون»، كما

هو معروف. وفـــي هذا شهادة براءة للشعب الفلسطيني من التهمة الجـــائرة ببيع الأرض. يضاف إلى ذلك أن خروج هذا الحجم الكبير من الأراضـــي، وتشريد الأهالي، أدى إلى تحويل الفلاحين إلى طبقة عمالية بائسة، وأوجـــد مصاعب اقتصادية هائلة، وكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية فـــي نشوب هبَّة عام ١٩٢٩، وما قبلها، ويفسر، بشكل كبير، المدى الواسع والشامل لثـــورة ١٩٣٦ في عموم أرض فلسطين.

تبقى ملاحظة جديرة بالنظر، وهي أن ثورة ١٩٣٦، فـــي حد ذاتها، أي فـــي مبناها ومعناها، تدحض تهمة بيع الفلسطيني لأرضه، فالشعب الذي يبيع أرضه طواعية وبإرادته الحرة، لا يثور، ولا يقدم الدم والشهداء، ولا يقـــوم بإضراب لمدة ستة أشهر متصلة. ولا يقدم قادة ومجاهدي الثورة أنفسهم، فداءً للأرض، بأحكام الإعدام الجائرة، التي نفذتها سلطات الإنتـــداب. إن ثـــورة ١٩٣٦ صرخة الشعب الفلسطيني لأرض فلسطين قبل الضياع، وكل أسبابها وحيثياتها تأتي مصداقاً لقول الشاعر العربي:

أحـــرام علـــى بلابلـــه الـــدوح   حـــلال للطيـــر مـــن كـــل جـــنس؟

كـــــل دار أحـــــق بأهلهـــــا   إلا في خبيث من المـــذاهب رجســـي

ثالثا: العوامل الثقافية والعقائدية – حركة القسام :

الشعب الفلسطيني شعب عربي ومسلم في معظمه، وفلسطين هي أرض الحضارات والرسالات. وهي أرض القدس ومهـــد المســـيح عليـــه الســـلام ومسرى الرسول (ص)، والمسجد الأقصى. والتنازل عنها يعني التنازل عن جزء من العقيدة، وهو شيء غير وارد، بالمرة، لدى أي فلسطيني، أو عربي، أو مسلم. والتمسك بها هو حق وواجب، فـــي الوقت نفســـه، ويأخـــذ كافـــة الأبعاد الوطنية، والقومية، والإسلامية، فـــي توافق طبيعي غيـــر مفتعـــل، وإنسجام هارموني متميز، وتماهي يستعصي على الفصل الكـــاذب، بفعـــل الكيمياء السياسية فـــي المعامل والمختبرات الدولية. والطبيعي لا بد أن يلفظ الصناعي، مهما وصلت قوة التعليب، والقَوْلَبَة السياسية والجغرافـــية، لذلك، فكل الأسباب، التي ذكرناها آنفاً، فـــي سياق هذا البحث، سواء كانت أســـباباً سياسية، أو إقتصادية، أو إجتماعية، كانت كلها أسباباً مادية لوقائع ملموسة،

ورغم خطورتها وأهميتها، إلا إنها تظل عناصر باردة، صماء، مصمته، بدون البعد والتدخل الإنساني، وكما قال السيد المسيح (عليه السلام): «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». فقد أثبتت الدراسات الإنسانية، أن الإنسان كائن معنوي، في المقام الأول، وإنه قد يحدث موقف في حياة الفرد، فيغير مجرى حياته بالكامل، وقد يتلاقى مع فكرة معينة، فيعيش من أجلها، طوال عمره، ويهب لها نفسه، ويضحي بروحه من أجل تحقيقها، ونحن نعتقد أن هذا صميم ما يعيش فيه الشعب الفلسطيني. ومن هنا تأتي مرتبة وأهمية القيم العليا، والثوابت، والمبادئ الوطنية، والقومية، والحضارية، التي تشكل جوهر الذات، ومعنى الهوية، والوجود الإنساني. وفي القضايا الكبرى المصيرية للشعوب، تتقدم القيم لتأخذ الأولوية، ومكانتها الرفيعة في وجدان الجماهير، والإدراك والوعي المجتمعي للأمة، بينما تتراجع الجوانب المادية لمرتبة أدنى، وتعمل كرافد خادم لهذه القيم، أو مجرد أداة أو وسيلة لإنجاز وتحقيق هذه القيم وتثبيتها على الأرض. وإذا حدث أن تقدمت الجوانب، والمصالح المادية على القيم، فيدل ذلك على خلل فادح، ويفتح ذلك الباب أمام بيع وشراء القضايا على المقاهي، والمتاجرة بالقضايا ومصير الشعوب في مطابخ السياسة وفي أجنحة الفنادق خمسة نجوم، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن ثوابت العقيدة والأرض وتراب الوطن هي أمور لا تقبل المساومة في ضمير الشعوب، بينما تعقيدات السياسة وتكتيكات الصراع، وصدام الإرادات، قد تتطلب التفاوض، والمناورة، وتبقى الكفاءة السياسية، وعبقرية القيادة للزعامات التاريخية في قدرتها على الموازنة بين الثابت والمتغير. فتحتفظ بالثابت في الضمير ولا تفرط فيه، بينما تفاوض على المتغير الذي لا يتعدى على الثابت فوق مائدة المفاوضات. وهي أمور لها الكثير من المحاذير ويثار حولها غبار الشبهات، وتدخل في مجال الجدل، والعراك السياسي في كل المجتمعات.

في هذا الإطار التفسيري للجوانب المعنوية والقيمية لقضايا الشعوب، تأتي قيمة ومكانة الشيخ عز الدين القسام، كرمز معبر عن ضمير الشعب الفلسطيني، وقامة رفضت أن تنحني أمام طغيان الظالمين، ولم تقبل المساومة في اختبار الحياة والموت على تراب فلسطين، وأنهى حياته النبيلة بموقف تاريخي، أعطى درساً لكل الأجيال، فقد رفض أن يُدخل منطق السوق التجاري في حُرمة وقدسية دينه ووطنه، ورفض الاستسلام في معركته الأخيرة، والتي استمرت ست ساعات، فجأة وبدون مقدمات من الفجر وحتى الظهيرة، ورفض الإغراءات المالية، ومنصب نائب المفتي الذي عرضوه

عليه، وقال كلمته المشهودة لرفاقه العشرة، أمام عدد يتـراوح بـين ٤٠٠- ٦٠٠ جندي: «موتوا شهداء»! لذلك كان طبيعياً، أن تحتشد الجماهير، لتشييع جنازته هو ورفاقه، وتحمل نعشه، وتسير به لمسافة عشرة كيلومترات. وكان طبيعياً، أيضًا، أن تمتنع القيادات التقليدية عن حضور تشييع الجنازة (ما عدا أكرم زعيتر)، فهناك فرق بين من يقدم القيم على ما عداها، وبـين ربيـب المصلحة، وطالب المنفعة. يقول ديفـيد هيرست، فـي كتابـه «البندقيـة وغصن الزيتون»: «إن القسام كان يدعو إلى محاكاة أبطال الإسـلام فـي عهوده الأولى». ويذكر هيرست، فـي موضع آخر: «أخذ القسام يبحث، فـي كل مكان يذهب إليه، وعلى وجه الخصوص، داخل المساجد، عن حـواريين بين الرجال الورعين، الذين يخشون الله». هكذا استطاع الشيخ الشهيد، رحمه الله، أن يعبر عن ضمير الأمة، وأن يقدم نموذجاً بشرياً رفـيعاً للوفاء للقيم، التي هي جوهر ومعنى الحياة، وأن يتسامى عن الصغائر، وكل ما هو هابط فـي حياة البشر. استطاع هذا الرجل أن يستوعب الواقـع ويقـرأه، قـراءة صحيحة، وأن يستوعب التاريخ، والمضمون الحقيقـي لرسـالة الإسـلام، وحضارته، وأن يعي مكانة فلسطين، ولماذا تم اسـتهدافها، لتكـون أرضـاً ومستقراً للمشروع الصهيوني. وأفرز كل ذلك رؤية فكرية واضحة، ومنهجاً نقدياً متميزاً، يستطيع أن يميِّز بين الحق والباطل، وأن يفرز، بمهارة، بـين الخطأ والصواب. لذلك كان يرى بعينيه، مدى الانقسام والتناحر بين قيـادات الحركة الوطنية الفلسطينية، خصوصاً بين العائلات المقدسية الكبيرة (عائلـة الحسيني، وآل النشاشيبي)، ومدى حرصهم على منافعهم الذاتيـة الضـيقة، وكان القسام يختلف مع تلك القيادات فـي نظرتها لبريطانيا، ويرى أن العدو هو الاثنين معاً، الحكم البريطاني، والعدو الصهيوني، إلى ذلك كان القسـام يقاوم بشدة إنفاق الأموال الخاصة بالأوقاف، على تشييد الأبنيـة، والفنـادق (فندق الأوقاف)، وتزيين المساجد، حتى ولا المسجد الأقصى، ورأى القسـام أن إعداد الشعب للجهاد، وتسليحه لخوض المعركة، أفضل وأحق مـن هـذه الأمور الشكلية[١٤]. كما أنه وصل إلى قناعة مؤداها، أن الوسـائل السـلمية والسلبية قد استنفدت أغراضها، وأنها أصبحت أساليب عقيمة، خصوصاً بعد هبَّة البراق (١٩٢٩). وإنه، فـي ظل تسارع خطى المشروع الصـهيوني، والأنشطة المحمومة للهجرة والاستيطان، فإن الجهاد المسلح هـو الأسـلوب الصحيح، والعلاج المناسب. وهكذا، بناءً على هذا الفهم وهذه الرؤيـة، بـدأ القسام يمارس نشاطه الاجتماعي، من خلال رئاسته لفرع جمعيـة الشـبان المسلمين في حيفا، والدعوة على منبر مسجد الاستقلال فـي المدينة نفسها.

فضلاً عن عمله بالتدريس في المدرسة الإسلامية هناك، ناهيك عن عمله كمأذون شرعي لقرى شمال فلسطين، والذي ساعده على الإحتكاك بالجماهير هناك، والتعامل مع كافة طبقات المجتمع. أما نشاطه السياسي، فتمثل في تأسيس تنظمه «الجهادي»، الذي يستطيع من خلاله، أن يقول «لا» للمشروع الصهيوني، وظهرت كفاءته التنظيمية في حسن اختيار أعضاء التنظيم، والتركيز على النوعية المتميزة، والعناصر الصالحة للعمل الثوري، وأساليب الإعداد النفسي، والبدني، وطرق التستر والتمويه، والتنسيق بين الخلايا المسلحة. ورغم أن تنظيمه لم يكن فئوياً، أو طبقياً، فإنه كان يرى في العمال والفلاحين، أصدق الفئات إستعداداً للتضحية والفداء[١٥]. ولم تمهل الأقدار الشيخ المجاهد لكي يستكمل مشروعه المناهض للمشروع الصهيوني، ولكنه بذر بذوراً، لا تموت في تربة فلسطين، ووضع اللبنات الأولى في معمار الثورة، وجاءت حياته، بمثابة ثورة في وعي الجماهير، في حين كان موته وإستشهاده أكثر قوة من حياته، فجاء تشييع جنازته المهيبة، عام ١٩٣٥، كنوع من الإستفتاء الشعبي، والإنحياز لخياره الوطني، ونهجه السياسي. وأظهر، في الوقت نفسه، الوجه القبيح والمتردد للقيادات التقليدية، وكشف أنها لا تصلح لتلك المرحلة. واختمرت بذلك الخميرة النفسية والإجتماعية لثورة ١٩٣٦. وكان القساميون، من فجَّر شرارة الثورة، وإحدى القوى الأساسية المركزية للثورة، التفت حولهم كل فئات الشعب، واشترى الفلسطيني أرضه بدمه، وتشبث بها، أبداً. ولتكون الثورة إبراء للذمة، أمام الله، وأمام التاريخ، ولتكون إجابة عن سؤال لاحق من أجيال تالية، ماذا فعلتم من أجل فلسطين؟!

هوامش الفصل الأول

(١) Philip Matter ،**The Mufti of Jerusalem :Al –Hajj Amin al –Husayni and the Palestinian national movement** :rrv .ed .(New York : Comubia university press ١٩٩٢)

(٢) محمد حسنين هيكل، **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل**، الكتـــاب الأول، الإســطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٩٩٦.

(٣) انظر التقرير البريطاني الرسمي فـــي:
A survery of Palestine ،chap ،٦.table no (٥) ، for the information of the Anglo – American committee of inquiry ،٢ vols (Jerusalem) :government printe, (١٩٩٤).

(٤) **المصدر نفسه**، ص ١٥٠-١٥١.

(٥) Barbara J .Smith ،**The roots of separatism in Palestine :British economic Policy** ،١٩٢٩-١٩٢٠ ،contemporary issues in middle east (Syracuse ،NY :Syracuse University press، ١٩٩٣).

(٦) انظر: **المصدر نفسه**، ص ٧-١١.

(٧) انظر:
Boreen Worriner، **land and Poverty in the Middle East ،middle East economic and social studies** (London ; New York :Royal Institute of International Affairs, ١٩٤٨).

(٨) واصف عبوشي، **فلسطين قبل الضياع، قراءة جديدة فـــي الوثائق البريطانيـــة**، ترجمة علي الجرباوي، لندن، رياض الريس للكتب والنشر، طبعة أولى، ١٩٨٥.

(٩) مقتبس من:
Great Britain ،colonial office ،**Palestine Report on Immigration ،Land Sttlement and development** ،appendix containing maps by Johen Hope Simpson C .T .E،١٩٣٠ (Parliament Papers by command) Cmd's٣٦٨٦٣٦٨٧ ; ،٢ vols. (London :His Majesty's Stationery office, ١٩٣٠).

(١٠) **المصدر نفسه**، ٢٦-٣٦.

(١١) عبوشي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٨- ١٣٩.

(١٢) W .lehn and V .Davis ،**The Jewish National Fund** (London :Kegon Paul international, ١٩٨٨).

(١٣) لمزيد من التفاصيل، انظر : عبوشي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٠-٨٨.

(١٤) صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى ١٩٣٦- ١٩٣٩**، القاهرة، مؤسسة التأليف والنشر، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧.

(١٥) د. فتحي الشقاقي، القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للحركة الإســـلامية... لمـــاذا؟ **المختار الإسلامي** (القاهرة) العدد (١٣)، يوليو/تموز ١٩٨٠، ص ٢٨.

الفصل الثاني

أنشطة صهيونية عجّلت بالثورة

محمد حسني إبراهيم

اندلعت ثورة ١٩٣٦ بسبب تراكم السخط العربي الفلسطيني إزاء السياسات التي انتهجها المستعمر البريطاني، وأنشطة الحركة الصهيونية، سعيا لتحقيق حلم «الوطن القومي»، وسوف نحاول خلال الصفحات القادمة أن نلقي الضوء على تلك الأنشطة الصهيونية، التي اسهمت في اندلاع الثورة.

عند دراستنا لتلك الأنشطة الصهيونية، يمكننا أن نقسمها إلى عدة محاور، قد تلتقي ببعضها البعض في نقاط مشتركة، هذه المحاور هي:

١-النشاط العسكري.

٢-النشاط السياسي.

٣-الهجرات.

٤-التوطين و«احتلال الأرض».

٥-و«احتلال العمل».

النشاط العسكري:

كانت حماية المستوطنات الصهيونية، توكل إلى حراس مأجورين، من العرب والشراكسة، إلا أن الاستيطان الصهيوني سعى إلى تأسيس قوة عسكرية ذاتية لحمايته، والاستغناء عنه أية علاقة بأهل البلاد، واستقلال المجتمع الاستيطاني، باعتباره نواة للوطن القومي اليهودي. وظهرت الكثير من الكيانات العسكرية الصهيونية السرية، لعل أبرزها منظمة «هاشومير»*، وهي منظمة عسكرية صهيونية، نشأت عام ١٩٠٧، باسم «بن جيورا»، ثم أخذت اسم منظمة «هاشومير» من عام ١٩٠٩، وكان أعضاء «هاشومير من شباب الهجرة الثانية، التي حملت الطابع الأيديولوجي، هؤلاء الشباب، هم في اغلب الاحيان اعضاء في حركات صهيونية مسلحة[1].

رفعت منظمة «هاشومير» شعار «احتلال الحراسة العبرية»، وإحلالها محل الحراسة الشركسية والعربية، لكن الهدف الحقيقي لها لم يكن مجرد الحراسة، وإنما تكوين نواة صغيرة لجيش صهيوني. ولعل أبرز دليل على

* كلمة عبرية، تعني "الحارس".

ذلك هو شعار المنظمة؛ «بالدم والنار سقطت يهوذا، وبالدم والنـار سـتقوم يهوذا». حاول هذا الشعار الربط بين سقوط مملكة يهوذا، في الماضي، وبين فلسطين المعاصرة، جعل هذا الربط المجحف من الشعب الفلسطيني وريثاً رغم أنفه، مجبراً على تحمل إثم لم يرتكبه، لا هو ولا أجداده، فلم يهدم مملكة يهوذا، ولم يشتت اليهود في أرجاء العالم. كما أن هذا الشعار يفضح النزعة العدوانية المبيتة للشعب الفلسطيني، الذي لم يكن يعي، بعد، معنى الخطر الصهيوني، ولم يحاول مواجهته.

لم يكن المستوطنون يثقون في قدرة منظمة «هاشومير» الوليدة على تحمل مهمة الحراسة، لكن المنظمة مارست الضغوط من أجل «احتلال الحراسة»، ففي ١٩١٢ كانت «هاشومير» مسئولة حراسة سبع مستوطنات صهيونية فقط. وكان أفراد المنظمة يحاولون تقليد الحراس العرب في كل شيء، حتى في الملبس، فتجدهم يرتدون العقال العربي، ويتدربون على ركوب الخيل، ليلاً، في الصحراء، ودراسة ملامحها، وتضاريسها، وقد وضعت قيادة المنظمة قيوداً على إلحاق الأعضاء الجدد بصفوفها، فكان على كل مستجد أن يقضي عاماً في التدريب على حياة الحراس، قبل تسجيله رسمياً بها. وقد تم حل المنظمة، مع تأسيس منظمة «الهاغناه» في مطلع القرن العشرين[٢].

تأسست منظمة «الهاغناه»*، رسمياً، في عام ١٩٢١، وأضحت هي القوة العسكرية للاستيطان اليهودي حتى إعلان قيام الدولة، عام ١٩٤٨، وإدماجها فيما سُمي «جيش الدفاع الإسرائيلي»[٣].

تأسست منظمة الهاغناه بمبادرة من حزب «أحدوت هاعفودا»** لكنها فتحت ابوابها لكل يهودي (أو يهودية) يرغب بالانخراط في صفوفها. ولم يقبل الاستيطان الصهيوني، في بادئ الأمر، فكرة تكوين الهاغناه، واعتبر أن نشاطها سينسف التعاون مع الانتداب البريطاني، إلا أنها استمرت، رغم معارضة التيارات الصهيونية الأخرى. ولقد قامت بعدة عمليات مسلحة، أثناء أحداث ١٩٢١، ١٩٢٩، على وجه الخصوص لا الحصر، ففي الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢١ توجهت قوة مسلحة من الهاغناه، قوامها مائة وستون عضواً إلى مدينة القدس، واستعدت لمهاجمة المظاهرات العربية،

---

* كلمة عبرية تعني الدفاع.

** أي اتحاد العمل.

التي كان من المتوقع اندلاعها، بمناسبة ذكرى صدور «تصـــريح بلفــور»، وبالفعل قام أفراد الهاغناه بمهاجمة المظاهرة، وإلقاء القنابل عليها. وفـــي أحداث هبَّة البراق، عام ١٩٢٩ قامت منظمة الهاغناه بعدة عمليات، فعلـى سبيل المثال، دفعت الهاغناه بثلاثمائة فرد مسلح نحو الجليــل، كمــا دفعــت بسيارات محملة بعشرات الأفراد المسلحين فـــي شوارع مدينة حيفا، وقاموا بإطلاق النار على المارة(٤).

اعتمدت الهاغناه، فـــي بدايتها، على تعبئة الأعضاء قرب كل مظاهرة، متوقع أن يقوم بها العرب، فكانت تهرب الأسلحة عــن طريــق العضـــوات النساء إلى نقاط مختارة بعناية، ثم التحصن بالمنازل والمباني المشرفة على مسار المظاهرات. إلى جانب نشاطها ضد المظاهرات والمسيرات الجماعية العربية، كانت الهاغناه تقوم بعمليات قتل أفراد وجماعات عربية، علاوة على ما سبق قامت بإعداد خطة «حوما أو مجدال»*، وهـــي خطـــة لتحصـــين المستوطنات، أثناء وبعد إقامتها. وكانت قوات الهاغناه مقسمة إلـــى عشـــرة أقسام، كل منها مسئول عن إقليم معين، وبعد نمو الاستيطان، أُعيـــد تقســـيم البلاد، جغرافـــياً، إلى أكثر من عشرين كتلة استيطانية، ووضع قوة عسكرية من الهاغناه لكل كتلة(٥).

تحولت الهاغناه، فـــي الأعوام ١٩٣٢: ١٩٣٦، إلى تنظيم صهيوني ذي شعبية، وازداد عدد أعضائها إلى الآلاف. ففـــي عـــام ١٩٣٤ كـــان تعـــداد كتائب الفتيان، وحدها، ٦٣٠٨ فتى، وكل ذلك إنما يرجع إلى العمليات التـــي قامت بها قوات الهاغناه فـــي أحداث هبَّة البراق، عام ١٩٢٩، وإلى جانـــب الزيادة العددية، تضاعفت أعداد مخازن السلاح، التي تمتلكها المنظمة، كمـــا ارتفع مستوى التدريب، الذي أصبح أكثر انتظاماً، ويسير وفقاً لجداول زمنية وخطط موضوعة(٦).

اعتمدت «الهاغناه» فـــي تسليحها على تهريـــب الســـلاح، ففـــي ١٩٢٢ أقامت مركزاً تابعاً لها فـــي فـــيينا، كان دوره الحصول على الأسلحة والذخيرة المطلوبة لعملياتها العسكرية. وضعت إدارة منظمة «الهاغناه» خطة للحصـــول على عشرين ألف بندقية، وعشرة آلاف مسدس، ومائة رشاش. وفـــي عـــام ١٩٣٣ فتحت قناة لتهريب الأسلحة والذخيرة من إيطاليا، واستمر التعامل عبـــر هذه القناة، حتى عام ١٩٣٥، انتقل بعدها الثقل إلى بلجيكا، وهناك، تعامل مندوبو «الهاغناه» مع مهرب دولي، واستطاعوا أن يعقدوا معـــه صـــفقات ضـــخمة، لتهريب الأسلحة إلى فلسطين لصالح المنظمة. كانـــت إحـــدى تلـــك الصـــفقات

الضخمة قد وضعت داخل شحنات من براميل الأسمنت، وكانت كل شحنة تحوي مئات البراميل، التي تخفي بداخلها عشرات الأطنان من الأسلحة والذخيرة، وفي السادس عشر من أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٣٥، وأثناء تفريغ الشحنة الثالثة، سقط أحد البراميل من العمال، وتبعثرت محتوياته على رصيف ميناء يافا العربي. تم استدعاء الشرطة البريطانية، وانتشر الخبر في البلاد، وفي غضون ذلك سارع مركز «الهاغناه» في إخفاء آثار المتورطين في القضية. كان هذا الحادث دافعاً لإعلان عمال ميناء يافا الإضراب، وازدياد الاستعداد الشعبي للثورة(٧).

يجدر الذكر أن منظمة «الهاغناه» لم تكتف بتهريب الأسلحة، بل أنشأت عدة ورش، هدفها إصلاح الأسلحة التالفة، ثم أصبحت مصانع لإنتاج أنواع متعددة من القنابل، والبنادق، وقاذفات اللهب، والذخيرة، وقد وُزّعت تلك المصانع على مستوطنات متفرقة، لمزيد من الحذر(٨).

إلى جانب «الهاغناه» كانت هناك منظمات صهيونية عسكرية أخرى، منها منظمة «بيتار»*، وقد بدأ أعضاؤها في الهجرة، عام ١٩٢٦، وأقاموا «سرايا بيتار»، وكانت حركة بيتار تعارض خط سير الحركة الصهيونية، وانعزلت عن المشاركة في مؤسساتها الرسمية، وكان لها دور كبير في الهجرات السرية، وارتبطت، تنظيمياً وإيديولوجياً بالحركات الصهيونية المسلحة المنشقة عن الهاغناه(٩).

في ابريل (نيسان) عام ١٩٣١، وعلى خلفية الانقسامات داخل الهاغناه، حول سياستها نحو الانتداب البريطاني، انشق افراهام تهومي على رأس مجموعة من الأعضاء، وانضم اليهم شبان حركة «بيتار» وشكلوا ما يسمى بتنظيم «إيتسل»** والمعروف باسم الأرغون، أي المنظمة، كما أطلق عليها اسماً حركياً هو الهاغناه ب، أو «الدفاع القومي» وقد كان رجال ايتسل يعتبرون أن الهجانه تمارس سياسة مهاودة للانتداب البريطاني.

تعرضت الجماعات الجهادية العربية، وعلى رأسها جماعة القسام، إلى مطاردة الاستعمار البريطاني(١٠). حين كانت الصهيونية تدعي، في جميع المواجهات التي تقع بين العرب والصهاينة، أن العرب هم المبادرين

---

* اختصار بالعبرية لجملة بريت يوسف ترومبلدور، أي عهد يوسف ترومبلدور، وهو اسم مستوطن سقط في إحدى المواجهات في عشرينات القرن العشرين.

** اختصار بالعبرية لاسم إرغون تسفائي ليئومي، أي المنظمة العسكرية القومية.

بالاعتداء، ولم تحاول أي لجنة من لجان التقصي التي شكلا الانتداب. عقب كل المصادمات، الكشف عن السبب الحقيقي للمواجهات، ومن ثم التوصية بنزع سلاح المنظمات الصهيونية.

النشاط السياسي:

لم تكن الحركة الصهيونية الوليدة، بعد، ذئباً يكشر عن أنيابه، بل سارت كالحية، لا يصدر عنها إلا فحيحاً، وهي تتحرك بنعومة وخفة، أو قُل إنها كالضبع، الذي يسعى في كنف الوحوش، لنهش ما تناله أنيابه من فرائسهم. في مذكراته: يقول ثيودور هرتزل، في السابع من يونيو (حزيران) ١٨٩٥: «حالما يتم الاتفاق على الأراضي، وتوضع اتفاقية أولى مع الحاكم الموجود، سوف نبدأ مباحثاتنا مع الدول الكبرى». وبالفعل بدأ هرتزل مساعيه لدى ألمانيا، أولاً، ثم لدى بريطانيا، وتركيا[١١].

١- هكذا، وبعد سنوات نجحت محاولات الصهيونية، في ١٩١٧، في الحصول على «تصريح بلفور»، وبعدها، في عام ١٩١٨، حصلت على موافقة رسمية من فرنسا على «تصريح بلفور»، ثم حذت حذو فرنسا كل من إيطاليا، والولايات المتحدة الأمريكية، واليابان، وعند عقد مؤتمر الصلح، في يناير/كانون الثاني من عام ١٩١٩، حضره وفد ممثل عن الصهيونية لطرح مشروعها، وتحدث أعضاء الوفد، ومنهم حاييم وايزمان، وناحوم سوكولوف، وقد تضمنت المذكرة التي تقدموا بها[١٢]:

١- الاعتراف بالحق التاريخي لليهود في فلسطين، وحقهم في «إعادة» إنشاء وطنهم القومي في فلسطين.

٢- تثبيت حدود فلسطين، ويقصد بذلك ضم جنوب لبنان، وجبل الشيخ، والعقبة، وشرق الأردن.

٣- إقامة منطقة انتداب في فلسطين، تحت إدارة بريطانية.

٤- العمل على تحقيق «وعد بلفور».

٥- تعزيز الاستعمار اليهودي لفلسطين.

٦- تأسيس مجلس يمثل يهود فلسطين.

عندما أقر مؤتمر الصلح إقامة مناطق انتداب، شرع الوفد البريطاني في مباحثات رسمية مع الصهاينة لإعداد وثيقة الانتداب الرسمية، وكانت المطالب الصهيونية ترمي إلى جعل الانتداب البريطاني مكرساً لتحقيق مشروع دولة يهودية في فلسطين، وأن تستمر السيطرة البريطانية إلى أن يحين الوقت الذي يتوفر فيه عدد كاف من اليهود، يساعد على إقامة دولة يهودية على أساس فرض الأمر الواقع في البلاد [١٣].

عقد مؤتمر سان ريمو، في الخامس والعشرين من إبريل/نيسان عام ١٩٢٠، أناط الانتداب على فلسطين لبريطانيا، وتضمن متن معاهدة سفر، الموقعة مع تركيا، في أغسطس/آب من العام نفسه، ما ورد في «تصريح بلفور». وكان وايزمان قد أعلن للاتحاد الصهيوني البريطاني أن أهداف الصهيونية سوف تتحقق على مراحل، وأن المرحلة الأولى ستكون سيطرة بريطانيا على فلسطين. وكانت الوثيقة النهائية للانتداب، والمعلنة عام ١٩٢٢، نصراً صهيونياً، حيث تم الاعتراف فيها بالعلاقة بين اليهود وفلسطين، وتضمنت «تصريح بلفور»، وسمحت لليهود في فلسطين بالعمل على خلق مؤسسات الحكم الذاتي [١٤].

قرر "رئيس المنظمة الصهيونية العالمية"، حاييم وايزمان القيام بجولة في العواصم الأوروبية، وقد خاطب ممثلي الفاتيكان، مؤكداً لهم أن الصهيونية ليست لها نوايا تتعلق بالمقدسات المسيحية في فلسطين، كما خاطب الحكومة الإيطالية لإزالة أي مخاوف لديها من تحول فلسطين تحت الانتداب إلى ستار لإنشاء قاعدة بريطانية على البحر المتوسط. سافر وايزمان، بعد ذلك، إلى برلين لجمع التبرعات، ثم إلى فرنسا لنفس السبب، ولإجراء مباحثات مع المسؤولين بشأن الحدود الشمالية لفلسطين، وخاصة مياه نهر الليطاني [١٥].

عام ١٩٢٠ انعقد المؤتمر الصهيوني، وفيه تم انتخاب حاييم وايزمان رئيساً للمنظمة الصهيونية، وقد أصدر هذا المؤتمر عدة قرارات [١٦]:

١- اعتبار كافة الأراضي المستعمرة ملكاً للشعب اليهودي.

٢- إنشاء صندوق نقد قومي يهودي.

٣- تأسيس دائرة هجرة مركزية في فلسطين، وفروع لها في الدول المتوقع أن تمد المشروع الاستيطاني بحشود من المهاجرين الشباب.

أصدرت بريطانيا عدة وثائق، على سنوات متباعدة، تتعلق بسياستها نحو فلسطين، وقد أُطلق عليها الكتب البيضاء (White Paper)، وأول هذه الكتب هو كتاب تشرشل الأبيض، الذي صدر عام ١٩٢٢، عن وزير المستعمرات البريطانية، وقتها، ونستون تشرشل، وكان مضمون هذا الكتاب يؤكد على تحقيق «تصريح بلفور»، بما لا يدع مجالاً للشك. بعد ذلك بثماني سنوات صدر الكتاب الأبيض الثاني، والمسمى بكتاب باسفيلد، وهو تعهد مزدوج «للشعب اليهودي»، و«السكان غير اليهود»!،وهذا الكتاب يشجب بشدة أي قرار مرتجل حول استمرار الهجرة الهيودية، دون قيود. وقد ثارت العناصر البريطانية المؤيدة للصهيونية، واستقال حاييم وايزمان من رئاسة «الوكالة اليهودية»، وشن حملة دعائية ضخمة ضد «الكتاب الأبيض»، مما حدا بماكدونالد إلى إصدار قرار تشكيل لجنة صهيونية – بريطانية مشتركة، وسعى وايزمان إلى جعل اللجنة لا تنظر إلى القضية على أنها قضية سبعمائة ألف عربي، مقابل مائة وسبعين ألف يهودي، بل مقابل يهود العالم أجمع. كما حاول إقناع اللجنة بأن العرب، دوماً، هم سبب القلاقل. ونتيجة للحملة الدعائية الصهيونية، وبضغوط من زعماء حزب العمال البريطاني، المؤيدين للصهيونية، صدر «الكتاب الأبيض»، في العام التالي لصدور كتاب باسفيلد، ليلغيه، وهو ما جعل العرب يطلقون عليه «الكتاب الأسود». وتتجلى أهمية هذا «الكتاب الأبيض» بالنسبة للصهيونية، في ما قاله وايزمان: "لقد كان الفضل يعود لرسالة ماكدونالد الموجهة لي" فيما حدث من تبدل في موقف الحكومة في فلسطين. وقد استطعنا بفضله الحصول على مكاسب ثمينة للسنوات المقبلة، وكان لها الفضل في السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، بأرقام وصلت إلى أربعين ألف مهاجر، عام ١٩٣٤، واثنين وستين ألف مهاجر، عام ١٩٣٥، وهي أرقام لم نكن نحلم بها». كما نجح سعي وايزمان لدى ماكدونالد، في تعيين السير آرثر واكهوب مندوباً سامياً في فلسطين. الذي قطعت الحركة الصهيونية في كنفه، وتحت ظله، أشواطاً كبيرة في تنفيذ مخططها لاغتصاب فلسطين[١٧].

عندما طالبت الأحزاب العربية الخمسة المندوب السامي البريطاني، على خلفية تزايد الهجرات، وقف الهجرات، ومنع بيع الأراضي وتأسيس ديمقراطية برلمانية، أعلن المؤتمر الصهيوني معارضته الشديدة لذلك، حيث أن تأسيس مجلس دستوري، في ذلك الوقت، معناه جعل اليهود أقلية[١٨].

رغم ذلك كانت هناك آراء صهيونية تؤيد القيام بخطوات سريعة، من أجل حسم الموقف، فوراً؛ ففي رسالة حاييم أورولو زوروف إلى حاييم وايزمان، في الثلاثين من يونيو/حزيران عام ١٩٣٢، قال الأول إن مستقبل المشروع الصهيوني... «لن يتحقق بالنمو الطبيعي للاستيطان، أو بالتغيرات السياسية... ولكن الأمل الوحيد للصهيونية هو الاستيلاء على جزء من فلسطين، وسيطرة الأقلية اليهودية عليه، من أجل تحقيق سريع للهجرة والاستيطان الجماعي»[١٩]. ولم يكن اقتراح أورلو زوروف مشروعاً نهائياً، وإنما اقتراح لفترة انتقالية، خشية تمكن الأغلبية "غير اليهودية" من السيطرة على الحكم[٢٠].

الهجرات:

نكبت فلسطين بالهجرات الصهيونية، على شكل موجات، فالموجة الأولى كانت بين عامي ١٨٨٢ و ١٩٠٣، وبلغ تعدادها ما بين ألفي وثلاثة آلاف مهاجر، كانوا من أعضاء حركتي «محبة صهيون»، وحركة «بيلو» في روسيا. وبدأت الموجة الثانية من الهجرة، عام ١٩٠٤، واستمرت حتى ١٩١٤، ووصل تعدادها إلى حوالي أربعين ألف مهاجر، شملت عمال صهيونيين من روسيا، في أعقاب الثورة المجهضة وتداعياتها التي اندلعت هناك. أما موجة الهجرة الثالثة، فكانت بين عامي ١٩١٩، ١٩٢٣، أي بعد صدور «تصريح بلفور» وبلغ تعدادها خمسة وثلاثون ألف مهاجر، يطلق عليهم «حالوتسيم»* وجاءوا من الاتحاد السوفيتي، وبولندا. جاءت موجة الهجرة الرابعة في الفترة بين ١٩٢٤ و١٩٣١، إذ دفعت الضائقة الاقتصادية أبناء الطبقة الوسطى من الاتحاد السوفيتي ، وبولندا، والبلقان، والشرق الأوسط، إلى الهجرة، وبلغ تعدادها إثنان وثمانون ألف مهاجر، وسبب ارتفاع العدد هو غلق أبواب الهجرة لأمريكا[٢١].

حملت الموجة الخامسة من المهاجرين، في الفترة بين ١٩٣٢ و١٩٣٨، مائتين وسبعة عشر ألف مهاجر، من بولندا، ووسط أوروبا، حتى بلغت نسبة اليهود ٢٩% من مجموع السكان[٢٢].

ومن أسباب هذه الهجرات الخوف من الخطر النازي، حيث توصلت المنظمة الصهيونية إلى عقد اتفاق لتحويل أموال اليهود الراغبين في الهجرة من ألمانيا، إلى بضائع ألمانية، تصدَّر إلى فلسطين، كما كشف ألفرد

* أي الرواد.

لينثال Alfred Ulienthal، وهو كاتب يهودي مؤكداً أن الصهاينة اتصلوا بالنازيين، وشجعوهم على هذه السياسة، حتى يبرروا إقامة دولتهم، وليس هذا بأمر مستبعد، فقد شاركت الصهيونية في عمليات الاضطهاد في ألمانيا، بعد الحرب لإجبار اليهود على الهجرة إلى فلسطين(٢٣).

شكّل يهود ألمانيا ٢١% من المهاجرين، كان معظمهم من أبناء الطبقة الوسطى من أصحاب المهن الحرة، ورجال التجارة، والصناعة، وكان عدد أصحاب رؤوس الأموال والخبرة المهنية أكثر من عدد المهاجرين الأيديولوجيين، وتوجه معظمهم إلى المدن. كان من بين المهاجرين، في الفترة بين ١٩٣٤ وحتى بداية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩)، خمسين ألف شاب وفتاة، تم استيعابهم في الكيبوتس والموشاف. وبعد فترة تأهيل تم إلحاقهم بمنظمات الشبيبة، ليصبحوا مستوطنين(٢٤).

كان لموجة الهجرة هذه، بسبب تعدادها وتنوعها، أثر كبير على تعاظم الاستيطان، ودعمه، اقتصادياً. وقد أدى توجه معظم المهاجرين إلى المدن إلى نمو الاستيطان المدني، فنمت التجارة والصناعة، فأضحت المدن مستقبلة، وقد ساعد المهاجرون من اصحاب رووس الأموال من ألمانيا وشرق أوروبا على دفع الاقتصاد الصهيوني في مجالات التجار والصناعة، فأقيم الكثير من المصانع، في حيفا، وتل أبيب، على وجه الخصوص، وتم مد خط نفط من العراق إلى حيفا، وأنشئت لجانبه معامل لتكرير البترول(٢٥).

لقد أثبت تقرير لجنة التحقيق البريطانية "لجنة بيل"، في ١٩٣٧/٧/٧، أن الهجرة الهيودية، واستمرارها هي الدافع لثورة العرب على سلطات الانتداب. ورغم ذلك كان صدور قانون الهجرة، عام ١٩٣٣، دافعاً لتدفق الهجرات، وليس العكس، حيث فتح باب الهجرة على مصراعيه، وسمح للوكالة اليهودية بتوزيع التصاريح، دون رقابة، كما اعتبرت «الوكالة اليهودية» (صاحب عمل)، وفي إمكانها استجلاب العمال الصهاينة على ضمانتها. كما وسَّع قانون الهجرة من فئة المعالين، إلى حد يُمكّن الأقارب من الهجرة لفلسطين، فأي يهودي له صلة قرابة، أياً كانت، بأحد المقيمن في فلسطين، يمكن أن يهاجر، بناءً على هذه القرابة. فارتفع عدد المعالين من ٩٥٧، في الفترة ما بين ١٩٢٨، ١٩٣٣، إلى ١٤,١٨٨، في الفترة من ١٩٣٤ حتى ١٩٣٩. لم يضع قانون الهجرة حدوداً لأعداد المهاجرين، بل اشترط سماح قدرة البلاد الاقتصادية، وهو شرط يمكن التحايل عليه، حيث كان التقرير الذي تعده

إدارة الهجرة فـــي حكومة فلسطين عن حالة العمالة العربية، من إعداد مدير إدارة الهجرة، وهو يهودي[٢٦].

وجدت الموجة الخامسة من الهجرة، مثلها مثـــل ســـابقاتها المســـاعدات المالية من المنظمات اليهوديـــة والصـــهيونية، مثـــل «الصـــندوق القـــومي اليهودي»، و«الصـــندوق التأسيســـي»، حيـــث دعمـــت هـــذه المســـاعدات المستعمرات الزراعية بقروض طويلة الأجل، ومعونات مـــن أجـــل إقامـــة المباني، والتوسع فـــي الخدمات الاجتماعية، والتعليمية، والتدريب المهنـــي. وقد أنشئت إدارة خاصة، تابعة للوكالة اليهودية، لتدريب الشباب القادمين من ألمانيا والنمسا على العمل فـــي الزراعة والأعمال الفنية، إلى جانب تعلمهم العبرية، وتاريخ اليهود، ثم يدفعون للعمل فـــي المستوطنات[٢٧].

قامت الأبحاث المتعلقة بالهجرات اليهودية، على أساس الهجرات المعلنة المسجلة، إلا أنه تجب الإشارة إلى الهجرات غير المعلنـــة، التـــي لا يمكـــن التوصل إلى أعدادها الحقيقية، وقد اتبعت عدة طرق لإدخال المهاجرين:

١- إدخال سياح يهود إلى فلسطين، وبقائهم، بعد انتهاء مدة التصاريح.

٢- زواج يهود من الخارج من مقيمين فـــي فلسطين.

٣- التسلل، براً وبحراً، فـــي صورة أفراد أو جماعات صغيرة.

٤- الهجرات السرية المنظمة، فعلى سبيل المثال قامت حركة «بيتـــار» التصحيحية بعمليات هجرة واسعة النطاق، بدأت بالسفـــينة «فلوس»، عام ١٩٣٤، واستمرت أثناء الحرب، وكان مجموع الســـفن اثنـــين وثلاثين سفـــينة، أقلت ٣٦٠ و١٧٠ مهاجرًا كما كان أحد الأنشـــطة الرئيسية لرحة «إيتسل» السابق ذكرها، هو الهجرات السرية.

التوطين و«احتلال الأرض»:

لم يرتبط اليهود، أبداً، بالأرض، لقد كانوا كثيري الترحـــال، مـــرتبطين أكثر بالمال، وبالطبع كان من الممكن أن يحملوه معهم إينما ذهبوا، لذا فقـــد فشلت كل محاولات توطين اليهود. مع ظهور «حركة الإحياء القومي»، كان الهدف هو بناء مجتمع يهودي جديد. وقد جمع اليهود عنصر الدين، والعرق -حسب إدعائهم- والتاريخ الذي دونوه لأنفسهم، كما أن إحياء اللغة العبرية، أو استخدام «اليديش» سيحل مشكلة التخاطب، فما يبقـــى، إذن، إلا الأرض،

وبالطبع يمكن التحدث عن مشروعات التوطين في الأرجنتين، وأوغندا، التي فشلت، بسبب اليهود أنفسهم، كما أن مشروعات قبرص، وسيناء، والعريش، لم تَرُق لهرتزل، إلا لإمكانية اعتبارها محطات قفز. لقد كان مشروع «الإحياء القومي» يحتاج إلى أرض، لكنها لم تكن أي أرض، كانت، الضرورة، أن تكون فلسطين، التي لم يكن من الصعب إقحام العلاقة التاريخية القديمة بها، عند طرح المشروع.

ذكر هرتسل في مذكراته، التي أشرنا إليها سابقاً، ما يثبت محورية الأرض، وأولويتها، «حالما يتم الاتفاق على الأرض، وتوضع اتفاقية أولى مع الحاكم الموجود، سوف نبدأ مباحثاتنا مع الدول الكبرى». ويقول في موضع آخر «عندما نحتل البلاد، سنعمل سريعاً على إفادة الدول التي ستأخذنا، ويجب أن نستخلص ملكية الأرض التي ستعطى لنا، ولكن باللطف، والتدريج، سنحاول أن نشجع فقراء السكان على النزوح إلى البلدان المجاورة»[٢٨]. إن ما كتبه هرتزل ينفي، نفياً قاطعاً، أن اليهود يريدون وطناً وحسب، أو أنهم يريدون استصلاح الأراضي المهجورة، أو حتى يرغبون في العيش بسلام بين سكان البلاد الأصليين.

بعد مرور عقدين من الزمان، تقريباً، تأسس «الصندوق القومي اليهودي»، الذي وضع سياسات للاستحواذ على الأراضي، منذ ١٩٢٠، وتقوم هذه السياسات على الأسس التالية[٢٩]:

١- البحث عن بائعي أراضي، خاصة المساحات الكبيرة، بدلاً من الاكتفاء بتملك ما يعرض للبيع من أراض.

٢- تجنب عزل المستعمرات، وجعلها مجمعات، أو مناطق يهودية، وهو ما أدى إلى توسيع المستعمرات، أكثر مما أدى لإنشاء مستعمرات جديدة.

٣- الاستحواذ على أراض، لأغراض مختلفة، الزراعة، والصناعة، والبناء، مع التركيز على الأراضي الزراعية.

٤- ضرورة الإسراع في امتلاك الأراضي، وذلك:

أ- خشية الارتفاع المطرد في أسعار الأراضي، بسبب زيادة الطلب عليها، والمضاربات، التي يقوم بها السماسرة اليهود.

ب- خشية حدوث تحول في السياسة البريطانية، رغم عدم توقع حدوث تغيرات سلبية بالنسبة لليهود.

٥- الاقتصار على امتلاك أفضل الأراضي.

٦- عند شراء المساحات الكبيرة، يشترط على المالك طرد جميع المزراعين، والتنازل عن أي حقوق في الأرض، وقد عمل «الصندوق القومي اليهودي» على طمس هذه الاعتبارات، لأنها تناقض ما يدعيه من أنها أراض مهجورة، غير منتجة، تحولت بفضل العمل اليهودي إلى أرض منتجة؛ فقد ادعى «الصندوف»، في نشرة له، أن «أغلبية الأرض التي حصل عليها عبارة عن مستنقعات، وصحارى، وتلال صخرية، لم تكن مزروعة، وأكثرها لا يصلح للزراعة، فتحولت إلى أراض صالحة للزراعة، بفضل عمليات الاستصلاح الشاقة، والجهد الجسدي للمستوطنين اليهود. وهذه النشاطات لم تؤد إلى طرد الأشخاص أو إلى تهجير الفلاحين.

كانت أول صفقة عقدها الصندوق، عما ١٩١٠، عندما اشترى أرضاً في مرج ابن عامر من أسرة سرسق البيروتية، وقد شملت الصفقة اتفاقاً على شراء المزيد من الأراضي، إلا أن هذا الاتفاق لم ينفذ، إلا بعد قيام الإدارة البريطانية في البلاد[٣٠].

نشرت جريدة «فلسطين» اليومية، في الرابع والعشرين من أغسطس (آب) عام ١٩٣٠ خطابا أرسله مزارع فلسطيني، قال فيه: «إنني أبيع أرضي، وممتلكاتي، لأن الحكومة فرضت عليَّ دفع ضرائب وأعشار، في الوقت الذي لا أملك فيه الوسائل الضرورية لإعالة نفسي، وأسرتي. وفي مثل هذه الظروف، أكون مضطراً للجوء إلى شخص غني، يقدم لي قرضاً، أتعهد برده مقروناً بفائدة مالية، تبلغ خمسين بالمائة، بعد شهر أو اثنين، وحينها اضطر إلى تجديد (الصك)، مرة تلو الأخرى، مضاعفاً بذلك قيمة الدين الأصلي، الأمر الذي يضطرني، في النهاية، إلى بيع أرضي، حتى أسدد ما يستحق عليَّ من ديون لم أتسلم، في الحقيقة، إلا جزءاً ضئيلاً منها»[٣١].

«احتلال العمل»:

رفع الاستيطان الصهيوني في فلسطين شعاريْ، «العمل العبري»، و«احتلال العمل». ولقد أخذت الحركة الصهيونية تدفع سياسة الاستيطان نحو الاقتصار على العمالة العبرية، ورغم مهارة العامل العربي، وانخفاض أجره،

فإن الحركة مارست ضغوطاً من أجل احتلال العمل، ففــي العشــرين مــن مارس (آذار) عام ١٩٣٥، نشرت صحيفة «هآرتس» الصهيونية خبر اجتماع «اللجنة العامة من أجل العمل العبري" وقد حضره ممثلــون عــن الوكالــة، والأحزاب الصهيونية، وأوصى الاجتماع بضرورة إقامــة منظمــة، يكــون دورها هو تفعيل شعار (العمل العبري). فــي السادس عشــر مــن أبريــل (نيسان) فــي العام نفسه، أُقيمت فــي مستوطنة "بتح تكفاه" جبهــة متحــدة للأحزاب من أجل تفعيل شعار (العمل العبري)، كما أصدرت لجنة العامــل الصهيوني قراراً يقضي بأن من يخلف قانون (العمل العبري) يعد خارجاً عن (الهستدروت) الصهيوني، وقــد طالبــت كــل المؤسســات الإســتيطانية، والاقتصادية، والقومية بالعمــــــل من أجـــــل تفعيل شــعار (العمــل العبري). وبالفعل أنشئت فــي العام نفسه أول ترسانة بحرية يهودية، وكانت تقوم على العمالة العبرية[٣٢].

ذكرنا من قبل، أن مبادئ «الصندوق القومي اليهودي» تنص على تسليم الأراضي، خالية من الفلاحين، ففــي حالة عائلة سرسق البيروتية، حصــل اليهود على خمسين ألف فدان، وطُرد ثمانية آلاف مزارع عربي، كما طُــرد أهالي اثنتين وعشرين قرية من مرج ابن عامر، فضلاً عــن أهــالي وادي الحوارث، والحولة، وغيرها[٣٣]. وهكذا يبقى المزارعون العرب، إمــا دون أراضٍ، مطلقاً، أو بقطع أراضٍ لا تكفــي لاحتياجاتهم، علاوة على العمــال الزراعيين، الذين يطردون، نهائياً[٣٤].

أشار تقرير بريطاني، عام ١٩٣٠، إلى أن مساحة الأراضي الصــالحة للزراعة فــي فلسطين، تبلغ ٦,٥٤٤,٠٠٠ دونم، إذا ما قسمت على القطاع الزراعي من الأهالي العرب فلن يكون من نصيب الأسرة الواحدة ما يكفــيها لتعيش عيشة كريمة، وليس هناك متسع لإضافة ولو مستوطن واحد، إذا مــا أردنا أن يبقى مستوى حياة الفلاحين كما هو.

شنت الصحف العربية، فــي ثلاثينات القرن العشرين، حملة متواصــلة على سياسة الحكومة، وتواطؤها لتنفــيذ المخطط الصهيوني، ففــــي ســنة ١٩٣٠ أشارت الصحافة إلى إهمال الإدارة العامة للبلاد، أمر العاطلين مــن العمال العرب، وهم اثني عشر ألفاً، وفقاً للاحصائيات الحكومية، فــي الوقت الذي تنفق فــيه الحكومة مبالغ طائلة فــي مساعدة العمال اليهود[٣٥].

هوامش الفصل الثاني

(١) شيلا هايتس روليف، **معجم سياسي لدولة إسرائيل (بالعبرية)**، دار نشـر كيتـر، القـدس، ١٩٩٢، ص ٢٦٨ .
(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(٣) **الموسوعة العبرية (بالعبرية)**، شركة إصدار الموسوعات، تل أبيب، الجزء الثامن، ١٩٦٢، ص ٤٠٢ .
(٤) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(٥) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(٦) يجآل عيلام، **الهاغناه (بالعبرية)**، إصدار زموراه بيتان مودان، تل أبيب، ١٩٧٩، ص ٥٨ .
(٧) **المرجع نفسه**، ص ٦٠ .
(٨) المصدر نفسه، ص ٦١ .
(٩) الموسوعة العبرية، الجزء السادس، ص ٢٤٠ .
(١٠) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية**، دار الكلمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠، ص١٧.
(١١) محمود عوض، **ممنوع من التداول**، كتاب الاذاعة والتلفزيون، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٨ .
(١٢) آلان. ر. تايلور، **مدخل إلى إسرائيل**، تعريب: شكري محمود نديم، وزارة الثقافة والارشاد العراقية، بغداد، ١٩٦٥، ص ٣٤ .
(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٣٥ .
(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٦ .
(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٤١ .
(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٤٤ .
(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٥٤ .
(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٥٥ .
(١٩) عيلام، **مرجع سبق ذكره**، ص ٦٤ .
(٢٠) ش. ل. كيرشنبويم، **تاريخ شعب إسرائيل في عصرنا (بالعبرية)**، إصدار أمـانوت، تـل أبيب، ١٩٦٥، ص ٢٩٠ .
(٢١) وليم فهمي، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة**، معهد البحوث والدراسـات العربيـة، القاهرة، ١٩٧١، ص ٤٦ .
(٢٢) بسام العبادي، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين من ١٨٨٠- ١٩٩٠**، دار البشير، عمّـان، ط١، ١٩٩٠، ص ٧٢ .
(٢٣) فهمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢ .
(٢٤) **الموسوعة العبرية**، الجزء السادس، ص ٢٣١ .
(٢٥) **المرجع نفسه**، الجزء نفسه، ص ٢٣٢ .
(٢٦) فهمي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢ .
(٢٧) **المرجع نفسه**، ص ٧٨ .
(٢٨) عوض، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨ .

(٢٩) وولترلين وأوري ديفز، **الصندوق القومي اليهودي**، ت: محمود زايد ورضوان مولـوي، جامعة الكويت، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص ٦٧ .

(٣٠) عبد الوهاب الكيالي، **الموجز فـي تاريخ فلسطين الحديث**، المؤسسة العربية للدراسـات، بيروت، ١٩٧١، ص ١١٥ .

(٣١) **المرجع نفسه**، الصفحة نفسها.

(٣٢) يميما روزنتال، تسلسل **لتاريخ الاستيطان اليهودي فـي أرض إسرائيل (بالعبرية)**، إصدار يد يتسحاق بن تسفـي، القدس، ١٩٧٩، ص ٢٩٥: ٢٩٧.

(٣٣) يوسف رجب الرضيعي، **ثورة ١٩٣٦- ١٩٣٩ فـي فلسطين: دراسة عسكرية**، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص ٣٩.

(٣٤) الكيالي، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٣٨ .

(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ١١٦ .

الفصل الثالث

حركة القسام:
المقدمة الحقيقية للثورة

أحمد عاطف

إذا كان التاريخ مستودعاً زاخراً بالعبر والدروس، ومرآة نقية، نرى من خلالها، ونطل عبر مياهها، على إخفاقات وانتصارات الأمم، فإن درس التاريخ يشير، دائماً، إلى أن الثورات هي طريق الشعوب للقضاء على ما تعانية من الإستغلال، والقهر، والتخلف، وجسرها الوحيد إلى آفاق الحرية، والديمقراطية، والتقدم.

كما تؤكد عبرة التاريخ بأن الثورة الأصيلة هي التي يشرف على تفجيرها، ويؤسس فكرها، ويقود نضالها، قيادة أصيلة عبقرية، تسلح قواها بالوضوح الفكري، وتمدها بطاقات ثورية متجددة.

وإذا كان أبطال التاريخ، دائماً ما يكونون أشبه بأدوات في يد الفكرة، التي تسيطر عليهم، والتي يعملون على تحقيقها، من خلال سعيهم نحو هدف محدد، فإنهم يقدمون للإنسانية خدمات من وراء أفق تفكيرهم، تسوقهم إلى تقديمها الغريزة التاريخية، التي تستغل قوة طموحهم، لبلوغ مآربها، وإدراك غاياتها، كما تنتفع غريزة حفظ النوع من إذكاء عاطفة الحب، فالغريزة التاريخية تبتعث طموح العظيم لتحقيق الفكرة، والغريزة النوعية تهيِّج عاطفة الحب، لإبقاء النوع، فالعظيم والمحب كلاهما مخدوع، مسوق لتنفيذ رغبات لا تبرز في ساحة تفكيره.

هكذا كان الشيخ عز الدين القسام، حين وضع الثورة المسلحة هدفاً له، لا بديل عنه، لمقاومة الإحتلال البريطاني وربيبته الصهيونية، حين لجأ إلى فلسطين. وبعد أن درس واقعها، شعباً، وأرضاً، لم يبرز في مخيلته أنه – حتى لو فشلت حركته الثورية التي أرسى قواعدها على أرض فلسطين، وبين أبناء شعبها، وخذلته التجربة – سيكون بذرة حيَّة، وشرارة أولى لثورة وطنية كبرى مسلحة، امتدت فيما امتدت زهاء ثلاث سنوات، تخللها إضراب عام وشامل، دام ستة أشهر متواليةعلى نحو غير مسبوق، وأن تلك الثورة – برمتها – ستكون إحدى حلقات سلسلة طويلة من الكفاح الوطني الفلسطيني من أجل الحرية.

ينطلق هذا الفصل من مرتكز أساسي، مفاده أن الأحداث التاريخية الكبرى ما هي إلا ترجمة لإرهاصات ما يدور قبل وقوعها على مسرح الأحداث، ومن ثم فلم تكن حركة القسام حدثاً عارضاً في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، لكنها كانت وليداً شرعياً لنضال وطني فلسطيني،

اضطربت حدته، صعوداً وهبوطاً، على اختلاف ظروف كل مرحلة من مراحل النضال.

على أن ما خلّفته حركة القسام وراءها - من نضال على الأرض، وتنظيم، وتخطيط، وقادة، ومناضلين، أول ما أشهروا سلاحهم، كان في وجه الإمبريالية البريطانية، محددين الهدف، منذ البداية، وعازمين على تنفيذه، مهما كلفهم ذلك من تضحيات ودماء - كان جديراً بأن يكون مقدمة حقيقية للثورة، وأن تكون الثورة عرضاً حياً لتلك البروفة الأخيرة لها (حركة عز الدين القسام).

خلفية ضرورية:

يمكننا رصد ثلاث مراحل مختلفة للحركة الوطنية الفلسطينية منذ ولادتها، بعد صدور «وعد بلفور» ١٩١٧ وحتى عام ١٩٣٦، اتسمت كلها بحرص قيادة الحركة الوطنية على انتهاج أسلوب التحاور والتفاوض مع السلطات البريطانية، فما أن بدأت أولى مراحل النضال الوطني الفلسطيني، التي امتدت منذ احتلال القوات البريطانية فلسطين، حتى أواخر العشرينات، حتى اتضحت نية بريطانيا على فرض الانتداب، وجعل «صك الانتداب» متضمناً «وعد بلفور»(١).

وقد اتسمت تلك المرحلة باحتكار كبار الملاك قيادة الحركة الوطنية، التي حصرت معسكر الأعداء في اليهود، دون الحركة الصهيونية، أو الاستعمار البريطاني، كما لجمت وقزمت تلك القيادة أساليب الكفاح؛ فضلاً عن تشكيلها الجمعيات الإسلامية - المسيحية، بديلاً عن الأحزاب السياسية(٢).

لعل أول تحرك فعلي للشعب الفلسطيني بعد الاحتلال، مباشرة، كان ضمن الحركة العربية العامة، وذلك في المؤتمر السوري، الذي عقد بدمشق (١٩١٩)، والذي قرر وحدة البلاد السورية، ومنها فلسطين، ورفض الوطن القومي اليهودي. ومنذ ذلك الحين وحتى العام (١٩٢٨) كانت المؤتمرات الفلسطينية - متشابهة القرارات - هي الإطار الذي تمت فيه الحركة الوطنية(٣).

جاءت رخاوة قيادة كبار الملاك للحركة الوطنية، في الوقت الذي فُتحت فيه أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتهيئة الأجواء لتهويد فلسطين، والسماح باحتلال الأراضي، مما عانى معه الشعب الفلسطيني – بكل طوائفه، من العمال، والفلاحين، والرأسماليين، والمثقفين، والطلبة – الأمرين؛[٤] مما كان مسوّغاً أساسياً لنشوب الحركات الثورية، واندلاع الصدامات، بين الحين والآخر، فكانت أولى الحركات الثورية التي شهدتها فلسطين، بعد الإحتلال البريطاني، والتي وقعت في القدس، في نيسان / أبريل ١٩٢٠، وقتل فيها عدد كبير من اليهود، أثناء احتفال المسلمين بعيد النبي موسى[٥].

كما شهد العام (١٩٢١) أول وأعنف غضبة شعبية شاملة، ظهر فيها عزم عرب فلسطين على مقاومة فكرة إنشاء الوطن القومي اليهودي، حيث بدأت الغضبة من يافا، وتطورت، وشملت أنحاء من فلسطين[٦].

يمكن إعتبار إعلان الإنتداب البريطاني (١٩٢٢) بداية للمرحلة الثانية من مراحل الحركة الوطنية، التي أسنت بما فيه الكفاية، حتى العام (١٩٢٨)، بإستثناء صدامات عام (١٩٢٤)، وما أعقبها من إضراب شامل في البلاد، إثر زيارة بلفور للقدس، عام (١٩٢٥)، لافتتاح الجامعة العبرية على جبل الزيتون، ومظاهرات تأييد الثورة السورية[٧]؛ ويمكن إرجاع الركود في مسيرة الحركة الوطنية، آنذاك، إلى ضعف وترددها قيادة الحركة، وعجز كبار الماك والعناصر البرجوازية عن قيادتها، نتيجة الضعف الإقتصادي، وعدم تكافؤ القوى بين الاستعمار والطرف الصهيوني من جهة، وبين الحركة الوطنية من جهة أُخرى[٨].

مع أواخر العشرينات، بدأت ملامح المرحلة الثالثة من الحركة الوطنية تتضح، فبحلول آب/أغسطس ١٩٢٩ واصل الفلسطينيون نضالهم ضد البريطانيين والصهاينة، وكان السبب المباشر هذه المرة إتهام العرب اليهود بمحاولة تدمير الأقصى، وبناء الهيكل محله، وهتاف اليهود بجوار حائط البراق: «الحائط حائطنا»[٩]، فقامت «هبَّة البراق» بجذور دينية خالصة لكنها كانت، في جوهرها، وطنية وديمقراطية، هدفها الأرض والحرية؛ إلا أن القيمة التاريخية للهبَّة كمنت في أنها أقنعت الجماهير بأن الصهيونية تعتمد على حراب الإمبريالية البريطانية، كما أقنعتها، أيضاً، بتخاذل قيادة الحركة الوطنية، وعقم أساليب نضالها، كما غيرت الهبَّة، وصححت المواقع داخل

معسكريْ الأعداء والأصدقاء، فكانت بذلك تمثل نهاية مرحلة وبداية أخـرى فـي حياة الحركة، فتحت فـيها النار على الإمبريالية(١٠).

كانت البرجوازية الفلسطينية قد دخلت شريكاً جديداً فـي قيادة الحركة، فـي تلك المرحلة، فاستقوت بجموع العمال والفلاحين، واستحدثت أساليب كفاح صدامية، تتفق مع برنامجها الصدامي(١١)، وقد حصل تقدم، بالفعل، فى أساليب المقاومة العربية فـي فلسطين، تمثل فـي ظهور جماعـة «الكـف الأخضر» (١٩٢٩)، وجماعة «الجهاد المقدس» (١٩٣١)، التي اسـتمرت، بصورة سرية، حتى شاركت فـي الثورة(١٢).

بذلك تكون الحركة الوطنية قد عدلت من مسارها، بما يجعلها قادرة على مواجهة التداعيات الصهيونية، التي توالت، فـيمـا بعد، فقد قفزت ملكية اليهود من الأراضي إلى مليون دونم، واحتكـر العمـل والأرض لصـالح الصهاينة، وفـي العام (١٩٢٩) توسعت «الوكالة اليهودية» فـي فلسـطين، كخطوة عكست، فـيما عكسته، مزيـداً مـن الـدعم اليهـودي للمشـروع الصهيوني(١٣).

بعد أن أصبح الوضع ينذر بالإنفجار، وتحت ضغط الجمـاهير، أقـرت اللجنة التنفـيذية العربية، فـي اجتماع عقدته القدس، فـي ٢٥ أيلـول / سبتمبر (١٩٣٣)، القيام بمظاهرات فـي كل البلاد، وعلى إثر قرار اللجنـة خرجت المظاهرات، رغم الحظر الحكومي(١٤)، ورغم إخمادها، فإنها وجهت كلها ضد الوجود البريطاني ولم يعتد فـيها على اليهود.

اتسم العمل الوطني، فـي هذه المرحلة، عموماً، بإعداد وسائل مجابهـة عنيفة، ضد الوجودين البريطاني والصهيوني، فقد بدأت جماعات ومنظمـات مسلحة وشبه مسلحة فـي الظهور، مثل جماعة «أبو جلدة»(١٥)، كما تشكلت لجان لحراسة السواحل والحدود(١٦)، وشكل العمال العـرب فـي القـدس، ويافا، وحيفا حاميات عمالية عربية، فـي مقابل أخـرى يهوديـة(١٧)، أمـا الفلاحون فقد أخذوا يبدون مقاومـة أشـد للأوامـر الحكوميـة، القاضـية بإجلائهم(١٨).

وقائع الحركة:

بدا واضحاً أن معظم الصدامات، التي حدثت قبل عام ١٩٣٦ - رغـم أهميتها - غلب عليها طابع الصدامات المتفرقة المبعثرة، التي افتقدت جميعها

التخطيط الدقيق، والتنظيم المحكم، وهو ما جعلها تنتهي بسرعة، عكس صدامات الأعوام ٣٦-١٩٣٩، والتي وضع أساسها عز الدين القسام، في أواخر ١٩٣٥، فكان ظهوره على رأس مجموعة من الثوار في تلال جنين – معلناً بذلك رفضه لأساليب النضال التقليدية السلبية، والبدء بخوض الكفاح المسلح ضد الإحتلال البريطاني– قد جعل العمل الوطني يميل إلى تحقيق الحد الأدنى من التنظيم، بإتباعه أساليب مقاومة، تختلف في تخطيطها، وممارستها، وتأثيرها عن الأساليب السابقة(١٩).

كان الشيخ القسام قد هاجر إلى فلسطين عام ١٩٢١، بعد انهيار ثورة صالح العلي الوطنية السورية، ضد الاحتلال الفرنسي، حيث كان القسام قائداً بارزاً من قادتها، مفلتاً من حكم بإعدامه، وقد اتخذ هو ورفيقاه الشيخان محمد الحنفي وعلي الحاج عبيد من حيفا، مقاماً لهم(٢٠).

استوعب القسام دروس ثورة العلي المنتكسة، وبدأ في رصد الواقع، ودراسة أوضاع الجماهير العربية في فلسطين، فكانت المبادرة الأولى في ظل الإنتداب البريطاني لخوض الكفاح المسلح بشكل منظم، والمرة الأولى التي يتم فيها تحرك ثوري بمعزل عن القيادة التقليدية للحركة الوطنية(٢١).

بدأ الشيخ المجاهد أولى مراحل الثورة بالإعداد النفسي، ونشر روح الثورة على أوسع نطاق، وانتقاء العناصر الصالحة، لتجنيدها في تنظيمه السري، وذلك من خلال المجالات الجماهيرية العديدة التي تحرك فيها، مثل: المدرسة الإسلامية، جمعية الشبان المسلمين، مسجد الاستقلال، وقرى شمال فلسطين، والتجمعات العمالية في شمال فلسطين، وكان في الأولى مدرساً، وفي الثانية رئيساً لفرعها في حيفا، منذ عام ١٩٢٦، وفي الثالث خطيباً وإماماً، وفي الرابعة مأذوناً شرعياً متجولاً(٢٢).

ثم ما لبث أن بدأ بالحلقة الرئيسية في العمل الثوري، وهي التنظيم، فشرع في تأسيس خلايا سرية، ضمت كل منها خمسة أشخاص، أشرف عليهم نقيب في القيادة والتوجيه. وقد استطاع القسام، بعد ثلاث سنوات من الدراسة والإعداد، تشكيل أثنتي عشرة حلقة، عملت كل منها منفصلة، تماماً، عن الأخرى، حفاظاً على السرية، التي حرص عليها، منذ البداية، كضمان لنجاح التنظيم(٢٣).

كان الشيخ القسام قد اختار شمال فلسطين مسرحاً لنشاطه السياسي والتنظيمي، وهي المنطقة التي كانت تموج بالسخط والنقمة على الإنتداب

والصهيونية، حيث كانت سلطات الانتداب قد طردت ثلاثة آلاف أسرة، هــم أهالي ٢٢ قرية من مرج ابن عامر، و ١٥ ألف شخص آخرين من أراضي وادي الحوارث، ومثلهم من أراضي الحولة وغيرها[٢٤]. ألهب الروح الثورية لدى فلاحي تلك المنطقة، كما اعتمد القسام على العمال، حيث كان يقيم معهم فــي أكواخ من الصفــيح الصدئ فــي أطراف حيفا، يعانون من التخلــف، والبطالة، وانخفاض الأجور، وغياب التأمينات، والحرمــان مــن التنظــيم النقابي، فــي حين كان العامل الصهيوني، يتمتع بالثقافة، والأجور العاليــة، وحرية التنظيم النقابي، والضمانات التي كانت تحميه من البطالة[٢٥].

وقد تركز معظم العمال، فــي تلك الفترة، فــي حيفا، كونها تشكل ميناءً رئيسياً، وكانت قد ازدهرت بسبب محطة السكة الحديد، ومصــفاة البتــرول التابعة لشركة النفط العراقية، التي كانت تقوم بتكرير البترول الخام، المنقول عبر خطها من العراق، كما يعود الفضل فــي ازدهار ميناء حيفا، أيضاً، إلى نمو حركة البناء والعمران فــيها، وقربها من سوريا ولبنان، وكان يعــيش فــيها أناس من جنسيات متعددة، مما جعلها قاعــدة مــن قواعــد التهديــد، وامتلكت حساسية خاصة[٢٦].

القسام، الذي اكتسب شعبية كبيرة، خاصة أثنــاء هبَّــة البــراق، عــام ١٩٢٩[٢٧]. كان قد انصرف لتنظيم حركته المسلحة، إبان مرحلــة تشــكيل الأحزاب التي خلفت الجمعيات الإسلامية – المسيحية[٢٨].

فحتى العام ١٩٣٥، كان القسام قد نظَّم خمس لجان، لتحقيــق الأهــداف التالية: الدعوة أو الدعاية، التدريب العســكري، التمــوين، الاســتخبارات، العلاقات الخارجية، وليس من المستبعد أن يكون القسام قد أقــام، بالفعــل، علاقات بالإيطاليين، الذين ازداد اهتمامهم بشؤون فلسطين، بعد حملتهم على الحبشة، وما اعقب ذلك من توتر فــي علاقتهم بالبريطانيين، بســبب تلــك الحملة[٢٩].

حدد القائد الثائر الخط السياسي الذي اختاره لحركتــه، والــذي اعتبــر الاستعمار البريطاني العدو الرئيسي، وعامل الصهيونية كعميلة وتابعة لهــذا الاستعمار، وقد تميزت تجربة القسام بمنطلقاتها العقائدية، التي مزجت بــين الديني والوطني، على نحو جعل مزيجهما يصــب فــــي اتجــاه مقاومــة الاستعمار، فكانت حركته عربية – إسلامية، جمعت بين رفض الصــهيونية والاحتلال البريطاني، فــي آن، فمثلت الحركة خطوة متقدمة عــن مواقــف قطاعات هامة من الحركة الوطنية، كانت لا تزال تأمل بإمكانية التعاون مع

بريطانيا [٣٠] – خسارتها الفادحة جراء اقترافها مهادنة الإستعمار – في الوقت الذي كان فيه القسام ينظم عملاً ثورياً مسلحاً، يصوِّب سهامه تجاه الإمبريالية البريطانية.

بلغ عدد المجاهدين، الذين أعدهم القائد للجهاد، بل للقيادة، سنة ١٩٣٥، (٢٠٠) مجاهد، وأكثرهم يشرف على حلقات توجيهية. وأثناء هبة البراق (١٩٢٩)، رأى بعض رفاق القسام أن الوقت قد حان للقيام بالثورة، لكنه رأى أن الإعداد للثورة لم يكتمل، كما رأوا أن الأموال اللازمة للثورة يمكن أن تُجنى بأي وسيلة. وكان القائد يرى أنه بمجرد إعلان الثورة، فإنها ستدفع الشعب لدفع تبرعات كافية، بعد أن يعرف أهداف الثورة، ويشارك الثوار انتصاراتهم[٣١].

بحلول عام ١٩٣٥، شعر القسام بحسه الثوري المرهف، أن الظروف قد نضجت، بما يتيح له خوض غمار الكفاح المسلح ضد الإنتداب البريطاني والصهيونية. فقيادة الحركة الوطنية كانت منقسمة على نفسها، مختلفة في كل شئ، إلا في التقرُّب من سلطات الإنتداب، مما فضح أمرها لدى قطاعات غير يسيرة من الشعب، واقتناع الشعب بعدم جدوى الأساليب السلبية في الكفاح، وفعالية الأساليب الجماهيرية ضد الإستعمار والصهيونية، كما اتسع تنظيم القسام، وانتشر، على نطاق كبير[٣٢]، وحصل القسام على السلاح اللازم لحركته، وتم تخزينه في قرية جبلة السورية، وكانت حوالي ١٠٠٠ قطعة [٣٣].

هنا طلب القسام من الحاج أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، حينذاك، عدة مرات، تعيينه واعظاً عاماً متنقلاً، ليستطيع الإتصال مع سائر طبقات الشعب في المدن، والقرى، ومضارب البدو، للإعداد للثورة، غير أن الحاج أمين اعتذر له، ونسب إلى الحسيني قوله : «إننا نعمل لحل القضية، سياسياً»[٣٤].

عاد القسام إلى حيفا، وعندما اقتربت ساعة الصفر، أرسل أحد أعوانه للحاج أمين يعلمه بعزمه تفجير الثورة المسلحة، ويطلب من المفتي الإشتراك في الثورة، إلا أن الحاج أمين لم يستجب لنداء القسام، معللاً ، بأن الوقت لم يحن، بعد، لمثل هذا العمل[٣٥].

القسام قد فضل الذهاب إليه، لوعيه أن الحاج أمين كان لم يزل يستقطب حوله الكتلة الرئيسية من جماهير فلسطين –والتي كان أغلب الظن لا يثق بها– وفي النهاية فإن الحسيني وطني ومعادٍ للاستعمار والصهيونية[٣٦].

التقط القسام «اللحظة الثورية»، إذ انفرطت، براميل يفترض أنها محشوة بالأسمنت في ميناء يافا العربي الفلسطيني، وكانت البراميل مرسلة إلى جهات صهيونية في فلسطين، واتضح أنها ممتلئة بالأسلحة والذخائر. فأضرب عمال ميناء يافا احتجاجًا، وطفح كيل السخط الشعبي، وازداد استعداد الشعب العربي الفلسطيني للثورة، وبذل التضحيات، في مقابل عجز القيادة التقليدية للحركة الوطنية، وانقسام الصهيونية على نفسها، ناهيك عن استكمال التنظيم السري للقسام نضاله التحضيري [٣٧].

بعد أن بُحَّ صوت القائد الثوري في اجتذاب المفتي، آثر القسام أن يفجر الثورة بدونه، فعقد آخر اجتماع في حيفا، مركز الثورة الرئيسي، ليلة ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥، حيث تقرر خروج عشرات من إخوان القسام، المدربين عسكرياً، إلى قضاء جنين، للحض على الثورة، ودعوة الشعب للإشتراك فيها، ولقيادة الجماهير [٣٨]، وتشكيل ما يُعرف اليوم بـ«البؤرة الثورية»، وهي الصيغة العسكرية التي اعتمدها جيفارا، في بوليفيا، بعد حركة القسام بأكثر من ٣٠ عاماً، وقد اختار القسام قضاء جنين، تحديداً، لوقوعه في جبال الجليل الوعرة، ذات المواصلات الصعبة، مما يعرقل تحرك سلطات الإنتداب، حيث الفلاحين الأكثر سخطًا على الانتداب والصهيونية على حد سواء [٣٩].

هكذا اعتمد القسام على المدينة، في البداية، ليقيم فيها تنظيمه، حيث الأهالي الأكثر تعلماً، والأشد كثافة، واستعداداً للتنظيم منهم في الريف، وحيث الصراع السياسي الأكثر وضوحاً واحتداماً. وعندما قرر مباشرة العمل المسلح انتقل إلى الريف، حيث تضعف قبضة السلطة الإستعمارية، ويتوفر الأمان في الجبال، وأعماق الغابات، وبذلك يكون هذا المناضل الثوري قد حدد، سلفاً، خط الثورة الفلسطينية (٣٦-١٩٣٩)، حيث لا خيار سوى ممارسة الكفاح المسلح، لتحقيق الأهداف الوطنية [٤٠]. ورغم منطقية هذا الإجراء التنظيمي، فقد وقع القسام ورفاقه في خطأ عسكري رئيس، فكان حصره لنشاطه السياسي والتنظيمي في منطقة واحدة، هي شمال فلسطين، وفي بدئه الإنتفاضة المسلحة في قضاء جنين، مما سهَّل على الاستعمار الإجهاز عليه، ومنعه من وصول شرارة حركته الثورية إلى بقية المناطق، ولكن إلى حين [٤١].

ما حدث أنه أثناء خروج القسام، ومعه ٢٤ من رفاقه، لدعوة الشعب للثورة، عمد أحدهم إلى قتل شرطيٍّ صهيوني، فقامت قوات البوليس بتطويق عدة قرى، للبحث عن قاتل الشرطي، قبل ١٤/١١/١٩٣٥، وتطورت الأمور بسرعة، وخسر القسام عنصر المفاجأة؛ الذي كان يسعى إليه بشن هجوم

مفاجئ على مدينة حيفا، ومع ذلك استمرت الدعوة العلنيـة للجهـاد فـي القرى، حتى ١٩/١١/١٩٣٥ حيث جرت معركة حربية فـي أحراج يعبـد (قضاء جنين)، أسفرت عن استشهاد القسام، وكان القتال فـيها انتحارياً بين قوتين غير متكافئتين، عدداً وعدة، لأن كل مجاهد كان يحـارب نحـو مـن أربعين شرطياً، لكنه على كل حال أفضل من الإستسلام، واستمرت المعركة من الصباح حتى الظهر، أي نحو ٦ ساعات كاملة، استشهد مع القسام فـيها أربعة من رفاقه المناضلين، وأسر بعض آخر، وحُكم عليهم بأحكام متفرقـة، بالإعدام والسجن، فـيما أفلت بعض من بقي حياً منهم(٤٢).

كان لاستشهاد القسام البطولي أثر عميق، ليس فـي فلسطين فحسب، بل فـي الوطن العربي كله، وسرعان ما أصبح هذا الشهيد رمـزاً للتضـحية والفداء، وشُيِّع جثمانه بتظاهرة وطنية كبرى، من ٢٠ ألـف رجـل، نـادت بسقوط الإنجليز والصهاينة، ورجم المتظاهرون أفراد البـوليس البريطـاني بالحجارة، وأشاعت تلك المظاهرة وعياً ثورياً فـي صفوف شعب فلسـطين العربي، وأخذ إخوان القسام من العلماء – لا سيما الشـيخ كامـل القصـاب وزملائه – يحرضون الشعب على القتال. وكما ذكر شـاهد عيـان «كـان الحادث من الحوافز النفسية القوية للأحداث التي تلتـه بعـد أشـهر قليلـة، واللهيب الذي أشعلته حركة القسام امتد حتى أطلق الثورة المسلحة الوطنيـة الكبرى»(٤٣).

أما الزعماء السياسيون فقد تخلوا عن السير فـي الجنازة، فكانت حركة القسام الثورية المسلحة بمثابة دليل على عقم أساليب أولئك القـادة، كمـا أن تضحية القسام وفدائيته فضحت ترددهم وتخاذلهم، وأصبحت كـل محاولـة للتقريب بين الفلسطينيين والسلطات الحكومية مكتوباً عليها الفشل(٤٤).

بعد شهر من اصطدام الجيش بالقسام ورفاقه، أخذت «دائرة التحقيقـات الجنائية» الانتدابية (C.I.D) تعرب عن قلقها من تطور الأحـداث، فبعـد استشهاد القسام، اضطر رفاقه للإختفاء فـي الجبال، لإتمام رسـالة القسـام الثورية، وفـي انتظار الوقت المناسب لإعلان الثورة المسلحة الشاملة(٤٥).

علاوة على ذلك، ظهرت كتل سياسية من الشبان بقيادات ثورية جديدة، أخذت تحل محل القيادات القديمة، التي ساءت سمعتها، وظهرت التشـكيلات الجديدة فـي المدن، بقيادة عناصر الشباب، والتي أفـادت تقـارير «دائـرة التحقيقات الجنائية» أن هذه الكتل مجتمعة تعتزم:

أ- توجيه أعمال التحريض السياسي ضد السلطات البريطانيـة، لا ضـد الصيهونية، وحدها، وكان هذا واضحاً من خلال كتاباتهم وخطبهم.

ب-إجبار زعماء الأحزاب أن يتبنوا فـي مؤتمر نابلس، المقرر عقده فـي الخامس عشر من كانون الثاني/يناير ١٩٣٦، قرارات قويـة، كعـدم التعاون، والامتناع عن دفع الضرائب، فضلاً عن القيام بالمظاهرات.

ج- إثارة أعمال التحريض، وإلهاب المشاعر، خلال الفترة المتبقيـة علـى موعد انعقاد المؤتمر.

هكذا أصبح الشكل الذي ستتطور إليه الأمور واضحاً، وغدت المجابهـة بين البريطانيين والفلسطينيين العرب مسألة وقت فحسب(٤٦).

مهما يكن من أمر، فقد كانت حركة القسام الثورية المسلحة، المقدمة، بل البداية الحقيقية لثورة ٣٦-١٩٣٩ الفلسطينية، ولم تكن الأشهر الخمسة التي فصلت بينهما إلا الفرصة التي تمكن فـيها رفاق القسام من التقاط أنفاسـهم، ولم شملهم، ونجح تنظيم القسام، هذه المرة فـي تفجير الثورة(٤٧).

فـي ١٥ نيسان/ابريل ١٩٣٦، قامت أول مجموعة قسامية بقيادة الشيخ فرحان السعدي، والسيد محمود ديراوي بالهجوم المسلح على سيارات اليهود، وقتلت منهم ثلاثة، وجرحت آخرين، على طريق نابلس - طولكرم، ونجحت تلك الجماعة فـي العملية الحربية الأولى بعد استشهاد القسام، واختفت بعدها عن الأنظار، لتعيد الكرَّة من جديد.(٤٨) ولم تكن لحادثة صغيرة كتلك - رغم أهميتها فـي التدليل على أن النضال لم ينفرط عقده باستشهاد القائد الثـائر عز الدين القسام- أن تفجر ثورة بحجم وقوة ثورة ١٩٣٦، لولا تهيؤ الـبلاد لمثل هذه الثورة، وأن تلك الحادثة لم تكن إلا العود الذي أشعل الهشيم القابل للإشتعال(٤٩).

توالت أحداث الثورة، وعلت أصداؤها، فتشكلت اللجان القومية. من أبناء الشعب، لقيادة الثورة، ثم تشكلت «اللجنة العربية العليا»، التي دعت الشـعب للاستمرار فـي الإضراب الذي سبق أن أعلن حتى تستجيب حكومة الانتداب للمطالب القومية وهي(٥١):

أ- إنشاء حكومة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابي.

ب-منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ج- حظر انتقال الأراضي العربية إلى اليهود.

كما نشرت الثورة، على مدى سنواتها الثلاث، ســخطاً شــعبياً عامــاً، وسجلت تضحيات بطولية جمة، للشعب العربــي فــي فلســطين، فكــان الرصاص والدم فــي كل شبر من أرض فلسطين، لغة واحدةً يتحدث بهــا الثوار، ويخشاها الاستعمار وأعوانه. ولا مجال لتغيير تلك اللغة إلا بتحرير الأرض، وعودة الحق الذي سُلب بالقوة، ولن يُسترد إلا بها.

هوامش الفصل الثالث

(١) فيصل حوراني، **جذور الرفض الفلسطيني ١٨-١٩٤٨**، ط١، شرق برس، نيقوسيا، أيلول (سبتمبر) ١٩٩٠، المقالة الحادية عشرة، ص ٣١٤.
(٢) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية، المحطات الرئيسية/الدروس المستفادة**، دار الكلمة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٧.
(٣) صلاح الدين شكري، **فلسطين ومؤتمر القمة العربي**، مكتبة الصحافة للنشر العربي، دمشق، ١٩٦٤، ص ٣٠ .
(٤) ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٠ .
(٥) شكري، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣١ .
(٦) ذوقان الهنداوي، **القضية الفلسطينية ووضع القوات المسلحة**، عمان، د. ن.، د. ت.، ص ٧٧ .
(٧) **المصدر نفسه**، ص ٧٨ .
(٨) عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ٤٨**، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٠٧ .
(٩) يوسف رجب الرضيعي، **ثورة ٣٦-١٩٣٩ في فلسطين دراسات عسكرية**، ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٥.
(١٠) ياسين، كفاح... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٠٩ .
(١١) ياسين، الحركة... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٥ .
(١٢) إميل الغوري، **فلسطين عبر ٦٠ عاماً، ج١**، بيروت، ١٩٧٢، دار النهار، ص ١٥٦، ١٧٥.
(١٣) للمزيد أنظر: إميل توما، **جذور القضية الفلسطينية**، ط٢، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٣، ص ١٦٢، ١٦٤.
(١٤) ياسين، كفاح... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٤٢ .
(١٥) حوراني، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣١٦ .
(١٦) بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨، ص ٢١٦ .
(١٧) حوراني، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣١٦ .
(١٨) عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط٩، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٥٣ .
(١٩) الرضيعي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٦ .
(٢٠) صبحي ياسين، **الثورة الفلسطينية الكبرى ٣٦-١٩٣٩**، القاهرة، الدار القومية، ١٩٦٧، ص ١٦ .
(٢١) عبد القادر ياسين، **كفاح... ، مرجع سبق ذكره، ص ١٥١ .**

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ١٥٢ .
(٢٣) صبحي ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٨ .
(٢٤) عبد القادر ياسين، كفاح... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٥١ .
(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ١٥٢ .
(٢٦) عادل حسن غنيم، **٥٠ عاماً على إضرابات يافا**، الكاتب، (القاهرة)، نوفمبر/تشرين الثاني، ص ١٦٧، ١٦٨.
(٢٧) زياد عودة، **من رواد النضال في فلسطين ١٩٢٩-١٩٤٨**، عمان، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، ط١، ١٩٨٧، ص ٢٧-٣٥ .
(٢٨) علي حسين خلف، تجربة عز الدين القسام، مدرسة جامع الاستقلال ٢٢-١٩٣٥، **شؤون فلسطينية** (بيروت)، العدد ١٢٦، أيار(مايو)، ١٩٨٢، ص ١٥ .
(٢٩) راجع: ناجي علوش، **المقاومة العربية في فلسطين من ١٧-١٩٤٨**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٧، ص ١٠٢ .
(٣٠) حوراني، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٣٨ .
(٣١) صبحي ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢١ .
(٣٢) عبد القادر ياسين، كفاح... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٥٥ .
(٣٣) صبحي ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٥ .
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٢ .
(٣٥) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(٣٦) عبد القادر ياسين، كفاح... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٥٧ .
(٣٧) عبد القادر ياسين، الحركة... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٦ .
(٣٨) صبحي ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٥ .
(٣٩) عبد القادر ياسين، كفاح... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٥٧ .
(٤٠) الرضيعي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٨ .
(٤١) عبد القادر ياسين، كفاح... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٥٧ .
(٤٢) صبحي ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٦ .
(٤٣) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(٤٤) الكيالي، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٥٤ .
(٤٥) صبحي ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٠ .
(٤٦) الكيالي، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٥٤ .
(٤٧) عبد القادر ياسين، كفاح... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٦١ .
(٤٨) صبحي ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣١ .
(٤٩) عبد القادر ياسين، كفاح... ، **مرجع سبق ذكره**، ص ١٦١ .
(٥٠) صبحي ياسين، **مرجع سبق ذكره**، ص ٣٥.

الباب الثاني

الأحداث

الفصل الأول

وقائع الثورة

أنور محمود



مثلت حركة القسام، على الرغم من إنطفائها، نبراساً أضاء للشعب العربي الفلسطيني الطريق الوحيد الذي بقي أمامه ليسلكه في مقاومة الانتداب، والمشروع الصهيوني في فلسطين، وكان الكثيرون من أتباع القسام، ومريديه، لا يزالون مستعدين لحمل السلاح في مقاومة مشروع الوطن الصهيوني، والانتداب البريطاني، في أول فرصة تسنح لهم. إلى جانب النضال الوطني في مصر، وسوريا، ضد الحكم الأجنبي، الذي شجع العناصر الوطنية الفلسطينية على انتهاج أساليب مماثلة، للوصول إلى الأهداف نفسها في فلسطين.

- لذا كانت الحادثة التي أشعلت الشرارة الأولى للثورة بسيطة، نسبياً، لكنها القشة التي قصمت ظهر البعير. ففي الخامس عشر من نيسان/أبريل ١٩٣٦م، قُتل صهيوني وأُصيب اثنان آخران بجروح خطيرة، وذلك أثناء تحرك للثوار العرب على الطريق العام بين نابلس وطولكرم، وفي الليلة التالية (٤/١٦) وجد عربيان فلسطينيان، وهما: «حسن أبو راس»، ومضيفه سالم المصري مقتولين، داخل كوخ الأول في مدينة يافا، ومن الطبيعي أن يعتبر العرب ذلك بمنزلة انتقام لمقتل الصهيوني.
- وفي تصعيد للموقف من جانب الصهاينة، كانت هناك مظاهرة صاخبة، يوم ٤/١٧، في جنازة الصهيوني القتيل، رُدِّدت فيها الهتافات المعادية للعرب، والحكومة، وتم الاعتداء على كثير من الباعة العرب، على أطراف تل أبيب، كما حاولت المظاهرة التوجه نحو مدينة يافا، لكن البوليس حال دونها.
- وفي ٤/١٩ سرت شائعة، مؤداها أن الصهاينة قتلوا رجلين، وامرأة من حوارن السورية، فأحدث ذلك هياجاً في أهل يافا، وقُتل في هذا اليوم تسعة أشخاص: سبعة منهم من الصهاينة وإثنان من العرب، كما جُرح ٣٩ صهيونياً، و١٥ عربياً، وأُحرق العديد من المنازل العربية.

الإضراب وبداية الثورة:

في اليوم التالي (٤/٢٠) اجتمع فريق كبير من رجال وشباب يافا، في مكتب لجنة «مؤتمر الشباب»، وبعد المداولة، قرروا إعلان الإضراب،

وأصدروا بياناً بذلك. كذلك قاموا بانتخاب لجنة قوميــة، للإشــراف علــى الإضراب، ثم قامت جموع الشعب الغاضبة بمهاجمة الصــهاينة، وبيــوتهم، وفــي اليوم نفسه قام حوالي ألف رجل من العصابات الصهيونية، من سكان مستعمرة شابيرا، وما جاورها من المستعمرات، ومن تل أبيــب، بمهاجمــة سكنة أبي كبير، على أطراف يافا، ودارت معركة حامية، أوقفها البــوليس، قتل خلالها عربيان، وصهيونيان.

- أيضاً فــي اليوم نفسه (٤/٢٠) أعلنت الســلطات البريطانيــة فــي فلسطين «قانون الطوارئ»، واستمر العمــل بــه حتــى ١٨ تشــرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧. حيث فرض علــى الــبلاد الحكــم العســكري، واعترف المندوب السامي، أرثر واكهوب، فــي تقرير قدمــه لــوزير المستعمرات بأن الإضراب بدأ بصورة مستقلة، وعفوية.

كما أضربت يافا عن بكرة أبيها، وتعطلت الحركة فــي المينــاء، وشبت الحرائق فــي أماكن متفرقة، وتصاعد الموقف شيئاً فشيئاً، وكانت نابلس من أول المدن التي تجاوبت مع يافا، ومع الأحداث، فعقد اجتمــاع فيها، حضره جانب كبير من رجالها، وتقرر فــي هذا الاجتماع إعــلان الإضراب العام، ودعوة بقية المدن، والقــرى إلــى المشــاركة فــي الإضراب، وتشكيل لجان قومية، وحرس وطنــي، لتنفــيذ القــرارات، وحراسة الإضراب.

- يوم ٤/٢٢ قابل رؤساء الأحزاب السياسية العربية الفلسطينية المندوب السامي آرثر واكهوب، فأبدى لهم أسفه، وأبدوا له أسفهم، وشرحوا لــه الحالة!!، وتقرر تأجيل سفر الوفد الفلسطيني الذي كان مقرراً إلى لندن، لبحث الحالة فــي فلسطين. ولمسايرة الأحداث عقد ممثلــو الأحــزاب العربية اجتماعاً، صباح اليوم التالي، أصدروا على إثره بياناً، أعلنــوا فــيه مساندة الإضراب، واستمراره، إلى أن تقــرر الحكومــة وقــف الهجرة، ومنع بيع الأرض.

- أدلى المندوب السامي البريطاني فــي (٤/٢٢) ببيــان إلــى جميــع المواطنين، دعاهم فــيه إلى الهدوء، ومساعدة البوليس فــي حفــظ الأمن، وعدم تصديق الشائعات، كما أدلــى مســتر تومــاس، وزيــر المستعمرات، ببيان آخر، أكد فــيه عزم حكومته قمــع كــل إخــلال بالأمن، بأشد ما يمكن، وقال: إن التهديد، والإضراب لن يجعلا حكومته تحيد عن سياستها، وإن حكومته ستُعمل القانون ضد كل من يخالفه.

- يوم ٤/٢٤، دعت لجنة السيارات العامة عامليها إلى الإضراب اعتباراً من اليوم التالي.
- يوم ٤/٢٥، تم تشكيل «اللجنة العربية العليا» كجبهة، تضم الأحزاب العربية الفلسطينية، برئاسة الحاج أمين الحسيني، وعقدت جلستها مساء اليوم نفسه، وأصدرت بياناً للشعب، دعتهم فيه للاستمرار في الإضراب.
- بعد إضراب عمال ميناء يافا (٤/٢٧/) شُلت حركة النقل في البلاد، براً، وبحراً.
- في مطلع شهر أيار/مايو ١٩٣٦م، تم بتدبير من الحزب الشيوعي الفلسطيني إشعال حريق هائل في ساحة الأخشاب بميناء يافا.
- في ٥/٧ عقد في القدس، في مبنى كلية روضة المعارف «المؤتمر العام للجان القومية»، حضره أعضاء «اللجنة العربية العليا»، ونحو مائة وخمسين مندوباً، يمثلون اللجان القومية، وتمخض المؤتمر عن قرار بإعلان العصيان المدني، والامتناع عن دفع الضرائب، اعتباراً من يوم ١٥ أيار/مايو، ما لم تُستَجَب مطالب الأمة.
- بلغ عدد المعتقلين العرب، حتى اليوم العشرين من الإضراب، أكثر من ستمائة رجل.
- كان يوم ٥/١٥ يوم العصيان المدني في فلسطين، حيث امتنع الشعب عن دفع الضرائب، وعمت المظاهرات أنحاء البلاد، واشتبك المتظاهرون مع البوليس. وكانت مظاهرة يافا – بعد صلاة الجمعة – من أعنف المظاهرات، حيث اعتدى البوليس على المتظاهرين العزل، وأثخن فيهم، وقتل، وجرح، دون أن ينذرهم بالتفرق. وشكا الشعب اليافي للسلطات هذا التصرف الغريب، لكن لم يكن لشكواه أي أثر.
- أدلى المندوب البريطاني (٥/١٨) ببيان قال فيه إنه يطلب تعيين لجنة ملكية، لبحث أسباب القلق، والشكوى، دون التعرض لنصوص الانتداب... وقد رفضت «اللجنة العربية العليا» حل الأحزاب، تلبية لهذا البيان.
- بعد تنفيذ العصيان المدني، أقدم الفلاحون الفلسطينيون على خطوة أكثر تقدماً، إذ هجَرَ عدد كبير منهم أراضيهم، وتفرقوا في جماعات

مسلحة في الجبال، والوديان، بادئين الكفاح المسلح، ووُزعت منشورات كُتب على رأس كل منها: «الثورة العربية الثانية». واعتبرت ثورة الشريف حسين، سنة ١٩١٦م، هي الثورة الأولى.

- في يوم ٥/٢٣، بلغ أهالي طولكرم أن الحكومة اعتقلت أعضاء اللجنة القومية فيها، فثاروا، وتقلدوا سلاحهم، متجهين إلى طولكرم، والتقوا، مصادفة، بقوة عسكرية بريطانية، كانت الحكومة قد أحضرتها من قاعدتها الحربية في مصر، فحدث اشتباك بين القوتين في عطفة (بلعا)، واستمر تبادل إطلاق النار، حتى المساء.

وفي مساء اليوم نفسه قام أهالي نابلس بمظاهرة كبرى، احتجاجاً على اعتقال أكرم زعيتر، وأطلقت النيران على المتظاهرين، فقتل أربعة منهم، وامتدت المعارك من جبال نابلس إلى جبال طولكرم، والجليل، فأصبحت جبال فلسطين بركاناً، بحيث أمسى الإنجليز وكأنهم يقاومون أمة، ويحاربون شعباً.

- في ٥/٢٥ هاجم حوالي مائتي عربي مسلحين رجال الشرطة في الناصرة، ولم ينسحبوا إلا بعد وصول تعزيزات عسكرية.
- عُقد في (٥/٢٧) مؤتمر للصحافة العربية الفلسطينية، تقرر فيه الإضراب الجزئي، والتوقف عن الصدور، لمدة ثلاثة أيام. وتوقفت الصحف، فعلاً، مدة أربعة عشر يوماً، من أول حزيران/يونيو ١٩٣٦م.
- كان طلاب المدارس من أكثر عناصر الشعب نشاطاً، وكانوا، منذ اليوم الأول للإضراب، يقومون بالمظاهرات، ويرشون المسامير في الشوارع. وفي الاجتماع الذي عقد في (٥/١٠)، في يافا، أعلنوا إضرابهم. كما أضرب مسجونو نور شمس (٥/١٧) عن العمل في سجنهم، مما أدى إلى مقتل أحدهم برصاص ضابط السجن، البريطاني، المستر كارند.
- يوم (٥/٣١) عقد رؤساء البلديات العرب الفلسطينيين مؤتمراً سرياً – لرفض السلطات طلب عقد المؤتمر – في منزل الدكتور سعد الله قسيس، رئيس بلدية رام الله، وبرئاسته، حيث قرروا الإضراب، باستثناء عمال النظافة، والإنارة، وقد استجاب عمال النظافة، وعادوا إلى العمل، محافظة على الصحة العامة.

- بدأ الثوار أعمالهم المسلحة، بنسف الجسور، ونزع قضبان السكة الحديد، ومهاجمة القطارات، واتسع نطاق أعمال التخريب التلقائية، فشمل حرب البيوت، والمتاجر والغابات، والمزروعات، وإتلاف أنواع الأشجار المثمرة، وقطع خطوط البرق، والتليفون، ورش المسامير في الطرق، وسد الشوارع بالحجارة الكبيرة، والصخور لقطع، وتعطيل المواصلات، ومهاجمة المنشآت الإنجليزية، والمستعمرات الصهيونية.
- في ٦/١١ إضربت دوائر المجلس الإسلامي الأعلى، كما جرت محاولة للثوار لاغتيال المندوب السامي البريطاني، من اليوم نفسه.

مما هو جدير بالذكر، أن البوليس العربي الفلسطيني بدأ في التذمر، والتحقت جماعات منه بالثوار، مما دعا السلطات إلى محاولة استرضائه، وإبعاده عن أعمال مطاردة الثوار العرب. كما دبّج الموظفون الفلسطينيون مذكرتين شديدتي اللهجة، إلى المندوب السامي، واحدة من كبارهم، والأخرى من صغارهم، نوهوا فيها بما لحق الشعب الفلسطيني من مظالم.

- قامت السلطات البريطانية بهدم المدينة القديمة في يافا، انتقاماً من الشعب، وذلك بعد أن حلقت طائرة فوق المدينة (٦/١٦) وأعلنت للناس عن عزم الحكومة هدم يافا القديمة، بدعوى الإصلاح! وبدأ الهدم يوم ٦/١٨، دون مراعاة لأوضاع الناس، مما أدى إلى تشريد أكثر من ستة آلاف مواطن، وهدم ٢٢٠ منزلاً، وقد رفع بعض المواطنين دعوى ضد الحكومة، لعدم شرعية هذا العمل..
- دارت بين الثوار، وقوات الاحتلال معارك، يصعب حصرها، انتصر الثوار في كثير منها، رغم الفرق الكبير بين القوتين في الإعداد والتسليح، نذكر منها:

– **معركة جب يوسف** (ليلة ٢١– ٦/٢٢)، وكان يقود الثوار فيها عبد الله الأصبح، من الجاعونة، وعبد الله الشاعر، من صفد، حيث أحاطوا بمجموعة من رجال القوات البريطانية، وقاموا بأسرهم، وقتلهم، فجراً.

– **معركة نور شمس** (٦/٢٣)، وفيها هاجم الثوار قافلة صهيونية، تحرسها قوات الاحتلال، في الجبال بين عنبتا، ونور شمس، وبعد بدء المعركة، حضرت قافلة صهيونية أخرى، وقوات إنجليزية، من بينها طائرة، واستمرت المعركة سبع ساعات، وحضرت، أثناء ذلك، طائرتان

بريطانيتان. وفـــي بلاغ حكومي عن المعركة كانت الأرقام كما يلي: مقتل جاويش وجنديين، وإصابة جنديين آخرين بجراح خطيرة، واستشـــهاد ٢٥ من الثوار، قاد المعركة عبد الرحيم الحاج محمد.

- **معركة عين جارود**، وفـــيها هاجم الثوار دوريـــة بـــوليس، فجـــاءت نجدات من الجيش، ودارت معركة حامية، لم تذع الحكومة شيئاً عنها.

- **معركة باب الواد (٦/٢٦)**، حيث هاجم الثوار قافلة صـــهيونية، علـــى طريق يافا – القدس، بالقرب من باب الواد، ثم جاءت نجدات بريطانية، من بينها طائرات، فتراجع الثوار إلى غابة الحكومة. استمرت المعركة أكثر من ساعة، بعد ذلك قام الإنجليز بإحراق الغابة، مما أســـفر عـــن استشهاد ١٢ من مجموع الثوار، البالغ ١٦ ثائراً.

تبع ذلك الحملات التفتيشية واسعة النطاق من جانب الحكومة، ونســـف البيوت فـــي القرى، وفرض الغرامات، وإنشاء ثلاثة معتقلات، أحدها فـــي عوجة الحفـــير والاثنان الآخران فـــي صرفند. أما من جانب الثوار، فقد تم اغتيال مفتش البوليس الإنجليزي سيكرست، كما اغتالوا ضـــابط المباحـــث، أحمد نايف، من حيفا، وأغلقت مساجد حيفا أبوابها فـــي وجهـــه، فترحمـــت عليه الصحف الصهيونية، كما اغتالوا ضابط مباحث آخر هو شفـــيق الغص، من القدس، وأغلقت مساجد القدس فـــي وجهه، فنقل جثمانه إلـــى الرملـــة، ولكن دائرة الأوقاف أبلغت أئمة المساجد هناك بعدم الصلاة عليه، ثم أطلقوا النار على اثنين من الطيارين البريطانيين، قتل أحدهما، وجرح الآخر.

- خصص مجلس العموم البريطاني جلسة ٦/١٩ لبحث قضية فلســـطين، فأرسلت «اللجنة العربية العليا» وفداً إلى لندن، لعرض القضية علـــى المجلس، وتكون الوفد من جمال الحسيني، وشبلي الجميل، ود. عـــزة طنوس، وإميل الغوري، وقد ألقى وزير المستعمرات، مستر أورمسبى غور، بياناً، أكد فـــيه صداقته للعرب، وعاد الوفد بلا نتيجة.

- عززت القوات البريطانية فـــي فلسطين بقوات من مالطـــة، وشـــرق الأردن، ومصر، حتى وصل حجم الجيش البريطاني فـــي فلسطين ٢٥ ألف جندي، قدرت نفقاتهم اليومية بما لا يقل عن ٤٠ ألف جنيه.

- بلغ مجموع البلاغات الرسمية، التي أصدرتها الحكومة، فـــي الفتـــرة من ٦/٢٤ إلى ١٩٣٦/٦/٣٠، ستة عشر بلاغا، تضمنت أربعين حادثة من حوادث الثورة.

- كان يوم ٧/٢٧ اليوم المائة للإضراب، فقامت المظاهرات الشعبية في المدن، واشتبك الثوار مع القوات البريطانية في معارك عديدة، سميت «معارك المائة يوم»، وتم الاحتفال بهذا اليوم، بحيث زادت الانفجارات، وتم نسف أنابيب شركة بترول العراق، كما نسفت أنابيب مياه القدس.
- نتيجة لهذا التصعيد منعت الحكومة الاحتفال بيوم المبكى، يوم ٩ آب/أغسطس ١٩٣٦.
- **وقعت معركة بلعا الأولى،** في ٨/١٠، حيث نصب الثوار كميناً لقوات الجيش، في الطريق بين بلعا ونابلس، ودارت معركة، استمرت ثماني ساعات، قتل فيها ضابط، ورقيب، وجرح ثلاثة جنود.
- **معركة الجاعونة؛** تعرف بلدة الجاعونة عند الصهاينة باسم «روشبينا»، وتقع على الطريق بين صفد، وطبرية، إلى الشرق من مدينة صفد، قاد عبد الله الشاعر مجموعة من المجاهدين في كمين نصبه لحافلة صهيونية قادمة من طبرية إلى صفد، (٨/١٢)، وكان موقع الكمين قبل الجاعونة بكيلو مترين، وقد سد المجاهدون الطريق، وكمنوا وسط الصخور، ولما وصلت الحافلة الصهيونية، تحت الحراسة البريطانية، انهالوا عليها بالرصاص، واستمر الاشتباك نحو ساعتين، وأسفرت المعركة عن مقتل ثمانية من الصهاينة، وقتل، وجرح عدد من الحرس البريطاني، وتمكن المجاهدون من الانسحاب، قبيل وصول النجدات البريطانية، دون خسائر.
- **معركة عصيرة الشمالية:** هاجم الثوار (٨/١٧) قافلة صهيونية، قادمة من القدس، واشتركت في المعركة عدة دبابات مصفحة، وثلاث طائرات إنجليزية، في جبهة طولها تسعة كيلومترات. استمرت المعركة ٤ ساعات، أصيبت فيها ثلاث دبابات، وقتل ضابط، وعدد من الجنود، وأصيب من المجاهدين ٢٤، ما بين قتيل، وجريح.
- **معركة وادي عرعرة** (٨/٢٠) وفيها اشتبك الثوار مع قوات الجيش البريطاني، واستمرت المعارك ١٢ ساعة، توافدت خلالها نجدات بريطانية، أصيب من الثوار ٣٢، ما بين قتيل، وجريح، ولم تعرف إصابات الجيش.
- يوم (٨/٢٩)، دخل فوزي القاوقجي إلى فلسطين، ومعه نحو ٣٠٠ مقاتل عربي (من العراق، وسوريا، ولبنان)، وأعلن ذلك في بيان إلى الشعب.

بعد أن كان قائد الثورة السابق، فخري عبد الهادي (من نـــابلس). وبعـــد تولي القائد الجديد، بدأ دور جديد من أدوار الثورة، وأعلـــن القـــاوقجي أن ميثاقه هو: «الاستمرار فـــي النضال، إلى أن تتحرر فلسطين، وتســـتقل، وتلتحق بقافلة البلاد العربية المحررة». مما أنعش آمال عرب فلســـطين، وزاد من حماسهم، وقام القاوقجي، ومجموعتـــه بقيـــادة ثـــلاث منـــاطق: مجموعة القاوقجي أخذت مثلث (نابلس – طولكرم – جنـــين)، مجموعـــة سعيد العاص (الخليل – بيت لحم – القدس)، واتخذت مجموعـــة الشـــيخ محمد الأشمر منطقة طولكرم مركزاً لعملها.

- أنشأت الثورة «دائرة استخبارات»، كانت تعرف بها الأوامر الســـرية للحكومة، وتعطل مفاجآتها، وأخذت المعارك شكلاً منظماً على خرائط حربية خاصة، وأصبحت معارك الثوار تدار حسب خطط موضـــوعة. كما أنشئت محكمة الثورة، لمحاكمة من يخرج عن الصف.
- **معركة عين دور**: (٨/٢٩)، على طريق مسحة – العفولة، وفـــيها سقط شهيد عربي، وقتل جنديان، وجرح ثلاثة جنـــود، وأســـقطت طـــائرة بريطانية.
- **معركة بلعا الثانية**: (٩/٣) وكانت أعظم معارك الثورة، فقد قدر عـــدد الجنود الذين اشتركوا فـــيها بخمسة آلاف جندي، قادهم الجنرال ويفل، واشتركت فـــيها خمس عشرة طـــائرة، ومجموعـــة مـــن الـــدبابات، والمدفعية، وقد أسفرت عن إســـقاط طـــائرتين، وإعطـــاب طـــائرتين أخريين، وقتل طيار، ورقيب، وأصيب ضابطان، وجنديان، واستشهد ٩ من الثوار العرب، وهم: (عراقيان – سوريان – ثلاثة من شرق الأردن – لبنانيان)، وقد تمثلت فـــي هذه المعركة وحدة التضامن العربي.
- هاجم الثوار جميع مراكز الجند فـــي نابلس، كما هاجموا مقـــر قائـــد القوات فـــي نابلس، ونشبت معارك عديدة، منها: ترشـــيحا، وجبـــع، وحلحول. وهي على التوالي: ٩، ٢٤، ٩/٢٤.
- ولما كانت الاغتيالات السياسية سلاحاً ذا حدين، فقـــد قامـــت الثـــورة المضادة باغتيال ناصر الدين ناصر الدين، نائب رئيس بلديـــة الخليـــل ٩/٢٦، وهو رئيس اللجنة القومية في المدينة، وأول من نفذ إضـــراب البلديات فـــي فلسطين، كما اغتيل الحاج خليل طه فـــي ٩/٢٧، فـــي مقر الجمعية الإسلامية، وهو رئيس اللجنة القومية فـــي حيفا.

- **معركة بيت امرين:** ٩/٢٩، وفيها قامت قوات الاحتلال، معززة بسبع طائرات، بمحاصرة تجمعات الثوار في هذه المنطقة. وقد نجح الثوار في استدراج هذه القوات إلى كمين، تكبدت فيه خسائر كبيرة، منها إسقاط طائرتين، بعد معركة استمرت ثماني ساعات.
- أصدرت الحكومة (٩/٣٠) مرسوما بالأحكام العرفية، صادر من مجلس الملك الخاص، وفوض تنفيذه إلى المندوب السامي البريطاني على فلسطين، وقامت الحكومة بإحضار قوات حربية جديدة إلى فلسطين.
- **معركة الخضر:** (١٠/٤) وقد استشهد في هذه المعركة القائد العربي السوري، سعيد العاص، وجرح، وأسر مساعده عبد القادر الحسيني، بعد أن هاجم ثلاثة آلاف جندي بريطاني، ١٢٠ ثائراً.
- استمرت سلسلة الاغتيالات، فقام الثوار بمحاولة اغتيال الضابط حليم بسطا، مساعد مدير بوليس اللواء الشمالي، مساء ١٠/٧، قرب بيته في حيفا، فأصيب في رقبته، ولم تكن إصابته خطيرة. لكن ما لبث الثوار أن قتلوه (١٩٣٧/٤/٢١)، وقتل المصلون في المسجد الأقصى، عقب صلاة الجمعة ٣٦/١٠/٩، العميد أحمد خليل الشايب من عين كارم.
- كانت الحوادث المتنوعة تقع في بداية الإضراب، بمعدل عشر حوادث في اليوم، تصاعدت إلى خمسين، وتطورت من حيث الكيف، وقدرت بعض المصادر حوادث الأشهر الستة بخمسة إلى ستة آلاف حادثة.
- نشرت بعض الصحف الصهيونية إحصاءً لنتائج المعارك، من بدايتها حتى ٣٦/٩/٢، فكان كما يلي:

«عدد إصابات الإنجليز ١٧٨، القتلى منهم ٢٤، عدد قتلى العرب ٧٠٠، عدد قتلى الصهاينة ٨١، عدد الأشجار المقلوعة من بساتين الصهاينة ٢٠٠ ألف، عدد الحرائق في مستعمرات الصهاينة وأحيائهم ٢٨٠ حريقاً، عدد الجسور التي نسفت ٤٨، عدد المرات التي قطعت فيها الأسلاك التليفونية ٢٠٠ مرة، عدد القطارات التي أعطبت ٢٢، عدد المرات التي قلعت فيها خطوط السكة الحديد ١٣٠، عدد القنابل المصادرة من العرب ٤٠٠، زنة السلاح المصادر ٣٥ طناً».

- ونشر قلم المطبوعات في فلسطين بياناً عن الإصابات، حتى ١٩٣٦/٩/٣٠، جاء فيه:

«إصابات المسلمين ٩٢٦، منهم ١٨٤ قتيلاً، إصابات المسيحيين ٦٠، قتل منهم ٩، إصابات الصهاينة ٣٦٨، منهم ٨٠ قتيلاً، إصابات الجيش ١٥٨، منهم ٢٨ قتيلاً، إصابات البوليس الإنجليزي ٤٨، منهم ٧ قتلى، إصابات البوليس الفلسطيني ٦٠، منهم ٧ قتلى».

- بلغ عدد الطائرات التي أسقطت سبع طائرات.
- فرضت الغرامات، والرقابة على الصحف، فمنعت أربع منها من الصدور فترة، بلغ مجموعها ٢٥٨ يوماً.
- قدر محمد عزة دروزة في كتابه «حول الحركة العربية الحديثة» عدد الذين حملوا السلاح من الفلسطينيين من ستة آلاف إلى ثمانية آلاف رجل، وقدر عدد المقاتلين بنحو «ألف ومائتي رجل».
- وقدر صبحي ياسين، في كتابه «الثورة العربية الكبرى في فلسطين»، عدد الثوار المسلحين، من ٩- ١٠ آلاف، بالإضافة إلى ٦ آلاف، يجمعون بين الجهاد والأعمال العادية، وبلغ عدد الذين حكمت عليهم المحاكم العسكرية مدداً تتراوح ما بين خمس السنوات، والسجن المؤبد، حوالي ألف مجاهد، وزاد عدد المعتقلين السياسيين على أربعين ألف معتقل، وقتل من جراء التعذيب عشرات المواطنين، وقدر عدد القوات البريطانية، التي اشتركت في معارك فلسطين، بـ ٤٢ ألف جندي ونحو ٢٠ ألف شرطي، بالإضافة إلى حرس المستعمرات، وعددهم ١٨ ألفاً.
- وفي فجر ١٠/٩، أي قبيل توقف الثورة بثلاثة أيام، قامت القوات البريطانية بتطويق مراكز الثوار، بقوة قيل إن عددها قدر بعشرة آلاف جندي، واشتبكوا مع الثوار لعدة ساعات، لكنهم عادوا، بعد المعركة، دون أن يحققوا هدفهم. فكلما زادت الحكومة بطشاً، اشتدت جذوة الثورة، فلم تفلح معها محاولات القمع.

لجنة بيل وتوقف الثورة :

كانت الثورة قد بلغت أوجها، منذ اندلاعها في أبريل/نيسان ٣٦، وحتى أكتوبر / تشرين الأول من السنة عينها. لكن على الجانب الآخر كانت هناك وساطة عربية لإنهاء حالة الحرب المستعرة، حيث عقد اجتماع في بغداد، في ١٩٣٦/٨/١٨، برئاسة الملك غازي، ملك العراق، وحضور ياسين

الهاشمي، رئيس وزرائه، والسفير البريطاني حيث بحثت الحالة الفلسطينية، توجه نوري السعيد، وزير خارجية العراق، إلى القدس، بعد ذلك بيومين، ووافقت «اللجنة العربية العليا»، في اجتماع عقد، في ٢٦-٨/٣١، على قبول وساطة «السعيد»، الذي توجه في زيارته الثانية، في أوائل أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٦. بعدها صدر نداء الملوك العرب (ابن سعود/الملك غازي/الأمير عبد الله/ الإمام يحيى) في ١٩٣٦/١٠/٩، إلى أبناء فلسطين بوقف الإضراب، اعتماداً على «حسن نوايا صديقتنا بريطانيا». وهكذا توالت الأحداث في هذه المرحلة، حتى تجددت الثورة، مرة أخرى على النحو التالي:

- طلبت «اللجنة العربية العليا» إلى شعب فلسطين وقف الثورة والعودة إلى أعمالهم يوم ١٠/١٢، تلبية لنداء الملوك والأمراء العرب، وفي هذا اليوم خرج الناس إلى المساجد للصلاة على الشهداء، ثم توجهوا إلى أعمالهم.
- انسحاب القاوقجي في ١٩٣٦/١٠/٢٦، ورجوعه إلى سوريا مرة أخرى.
- وصلت اللجنة الملكية، برئاسة مستر بيل، إلى فلسطين للتحقيق في الثورة، يوم ١١/١١، وبدأت عملها يوم ١١/١٦، وفي أول الأمر قاطع العرب اللجنة، ثم عادوا، واتصلوا بها، وأدلوا أمامها بشهاداتهم، إذعاناً لطلب حكام العرب، مرة أخرى.
- ألقى الحاج أمين الحسيني، رئيس «اللجنة العربية العليا»، ببيانه أمام لجنة التحقيق، يوم ١٩٣٧/١/١٢.
- الأوضاع العامة، خلال النصف الأول من عام ١٩٣٧، لم تكن هادئة تماماً، لكنها كانت مقتصرة بشكل عام على اللواء الشمالي، ومنطقة القدس، وأخذت معظمها شكل هجمات فردية أو محدودة متبادلة بين العرب، والصهاينة، حيث جرت محاولة قتل رئيس بلدية حيفا، كما قتل أحد أعيان المدينة.
- قتل ٥ صهاينة بواسطة عرب مسلحين، وذلك يوم ١٩٣٧/٣/١٣. وخلال النصف الأول من شهر نيسان/أبريل ١٩٣٧ قتل نائب رئيس بلدية طبريا العربي، والمساعد العربي لمدير الشرطة.
- أيضاً في شهر أيار/ مايو ١٩٣٧ كان هناك بعض الإضرابات في مدن فلسطينية، لأسباب مختلفة، ولكنها كانت متعلقة بالأحوال العامة. فأضربت صفد إحتجاجا على غرامة على التجار العرب، وطولكرم،

بسبب منع التجوال فيها، وحيفا، وعكا، بسبب استمرار القبض على المواطنين، بدون محاكمة.

- يوم ٣٧/٧/٣، أي قبل نشر تقرير اللجنة الملكية بأربعة أيام، قرر حزب الدفاع الانسحاب من «اللجنة العربية العليا».
- صدور تقرير (لجنة بيل)، في (٣٧/٧/٧)، مرفقا به توصية بتقسيم فلسطين إلى ثلاث دول: أولاها عربية، تنضم إلى إمارة شرق الأردن، والثانية صهيونية في المناطق الخصبة، والثالثة تحت الانتداب البريطاني.
- اجتمعت «اللجنة العربية العليا»، يوم ٣٧/٧/٨، وقررت عدم قدرتها على المواجهة.
- (٧/٩) وصول وفود من المناطق الشمالية للإجتماع بأعضاء «اللجنة العربية العليا»، وإخطارهم بخطورة الحالة في تلك المناطق، بعد أن علم أهلها أنهم سيصبحون جزءاً من القسم الصهيوني.
- ٧/١٠، عمت كل فلسطين في صباح ذلك اليوم، حركة احتقان شديدة، رمت إلى مقاومة مشروع التقسيم، ومواصلة الجهاد، للاحتفاظ بوحدة التراب الوطني، وأرسلت البرقيات إلى الحكومة، واللجنة العربية، وأفتى العلماء بأن كل عربي يقبل فكرة التقسيم يعد كافراً، وكان أشد المناطق فزعاً، وسخطاً، الجليلين: الشرقي، والغربي، لوضعهما في مشروع التقسيم في المنطقة المخصصة للصهاينة.
- في ٧/١٧، أي بعد عشرة أيام من نشر تقرير لجنة بيل، حاول البريطانيون القاء القبض على الحاج أمين الحسيني، للحيلولة بينه، وبين إصدار المزيد من النداءات، وتقديم المساعدة إلى الذين يرغبون في استئناف الثورة، لكن البريطانيين فشلوا، بعد أن تمكن المفتي من تفادي القبض عليه، في اللحظة الأخيرة، واعتصم بالحرم الشريف حوالي ثلاثة أشهر متصلة.

ولما عجز آرثر واكهوب –المندوب السامي– عن إلقاء القبض على الحسيني، لجأ واكهوب إلى إجراءات تقضي بهيمنة الحكومة على إدارة المحاكم الشرعية، وأموال الوقف، بغية شلّ سلطة المفتي، ومن هنا بدأت، خلال النصف الثاني من تموز/يوليو، بوادر استئناف الثورة، حيث ألقيت قنبلة قرب مدينة اللد، وهوجمت بعض المستعمرات الصهيونية، فظهرت حركة غير عادية في بئر السبع، والخليل.

- فـــي أواخر يوليو/تموز ٣٧ عرضت الحكومة البريطانيـــة مشـــروع التقسيم على لجنة الانتدابات فـــي جنيف، ودارت مداولات طويلة، ولم تنته اللجنة إلى رأي بخصوص التقسيم.
- أصدرت القيادة العامة للثورة نداءً إلى الشعب، يـــوم ٨/٢٧، ويقضـــي بارتداء الكوفـــية، والعقال، حتى يتعذر على الســـلطات التمييـــز بـــين الثوار، وغيرهم من أبناء الشعب.
- فـــي يوم ٨/٣١، قتل الصهاينة أربعة من العرب الفلسطينيين وحرضت الصحف الصهيونية صهاينة فلسطين على العنف، والإرهاب، فقتلـــوا فـــي اليوم التالي، خمسة من العرب، وأحدثت تلك الاعتداءات هياجـــاً شديداً فـــي الرأي العام، لكن الزعماء العرب تمكنوا من منـــع وقـــوع الصدام.
- فـــي ٩/٨ عقد المؤتمر العربي (مؤتمر بلودان) فـــي سوريا، برئاســـة ناجي السويدي، أحد رؤساء الوزارات العراقيين، واختير لنيابة الرئاسة كل من: محمد علي علوبة (مصر)، والأمير شكيب أرسلان (لبنـــان)، والمطران حريكة (سوريا)، واختير محمد عزة دروزة (فلسطين) أميناً لسر هذا المؤتمر، واتخذ المؤتمر عدة قرارات لتأييد شـــعب فلســـطين فـــي نضاله ضد الاستعمار، والصهيونية، فـــي الوقـــت نفســـه بـــدأ البريطانيون اتخاذ إجراءات عسكرية جديدة، لسحق الثـــورة الموشـــكة على التجدد، حيث تم تعيين الجنرال (ويفل) خلفاً للجنرال (ديل)، على رأس القوات البريطانية فـــي فلسطين.
- فـــي ٩/٢٦ اغتال الثوار لويس أندروز، حاكم لـــواء الجليـــل، فـــي مكتبه، وقتل معه رجل الشرطة الذي كان يحرسه، مما أثـــار غضـــب الإنجليز، وهياجهم، فقاموا بحل «اللجنة العربية العليا»، وعزل المفتي من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، ورئاسة الأوقاف، كما تم القبض على مجموعة من زعماء البلاد: حسين فخري الخالدي، وأحمد حلمـــي عبد الباقي، وفؤاد سابا، ويعقوب الغصين، بالإضافة إلى رشيد الحـــاج إبراهيم، وثم نفـــيهم إلى جزيرة سيشل، وأعلن القائد العام الإنجليـــزي الحكم العسكري، وأخذت القوات، والإمدادت ترد على فلسطين، وبدأت عمليات المطاردة للثوار.
- فـــي ١٠/٢، أضربت مدينة القدس، احتجاجاً على اعتقـــال الزعمـــاء، وفـــي اليومين التاليين امتد الإضراب إلى أنحاء كثيرة من البلاد، وبعد

ذلك بيومين أصدر المفتي بياناً، دعا فيه الأهالي العرب إلى العودة لأعمالهم، وكان هذا البيان مناورة لتضليل السلطة، حتى يتمكن المفتي من الخروج من المسجد الأقصى.

- في مساء ١٠/١٣ تمكن الحاج أمين الحسيني من الخروج من مدينة القدس، متخفياً، حيث وصل إلى يافا، واستقل، عند منتصف الليل، زورقاً صغيراً إلى الساحل اللبناني، حيث صادفه زورق فرنسي، اقتاد رجاله المفتى إلى بيروت، وسمحت له السلطات بالإقامة في قرية الذوق، وكان خروجه من فلسطين إشارة ضوء إلى تجدد الثورة، واستئناف العمل الشعبي المسلح.

المرحلة الثانية من الثورة :

بدأت الثورة بداية عفوية، غير منظمة، في مرحلتها الأولى، لكن بعد التوقف -أو الهدنة- وقدوم «لجنة بيل»، وصدور تقريرها، ثم محاولة اعتقال الحاج أمين الحسيني، وخروجه إلى لبنان، بدأت الثورة على عكس ما حدث في الصدامات، والهبَّات، والانتفاضات السابقة.

فهذه المرة كانت الثورة بتوجيه من القيادة السياسية، مما جعلها تتخذ طريق الصدام مع السلطة، وتوثق ارتباطها بالجماهير، وبدأت المرحلة الثانية من ليلة ٣٧/١٠/١٥، وامتدت حتى أواخر صيف ١٩٣٩، وأخذت في البداية شكل عمليات محدودة، ثم تصاعدت، شيئاً فشيئاً، حتى بلغت أوجها، ربيع وصيف ١٩٣٨، ثم عادت سيرتها الأولى، فأخذت شكل عمليات متقطعة، وقد تولى إدارة الثورة ودعمها، رسمياً، في هذه المرحلة «اللجنة المركزية للجهاد»، في دمشق، برئاسة محمد عزة دروزة، الذي عمل بتوجيه من الحاج أمين الحسيني، في لبنان، وكانت كالتالي:

- لم تكن الفترة التي تلت الإضراب سوى هدنة، استؤنف بعد انتهائها الجهاد، إذ تمكن شعور من العرب بأن البريطانيين لن ينصفوهم، لذا شنت، في ليلة ١٠/١٥، غارتان على حافلات الركاب الصهيونية، في ضواحي القدس، وتعرضت المستعمرات الصهيونية لإطلاق النار، بصورة متقطعة، وأُتلف خط أنابيب شركة البترول العراقية، كما قطعت خطوط التليفونات، ودمرت بعض السكك الحديدية، وفرض حظر التجوال في مدينة القدس.

- قام فريق كبير من الثوار، في ١٦/١٠/١٩٣٧، باختراق مطار اللد، وأحرقوا المكاتب، وجوازات السفر، ومنشآت اللاسلكي، وفرضت السلطة حظر التجوال، على الفور، لمدة ثلاث وعشرين ساعة في اليوم، طوال أربعة أيام، وأعلنت حالة الطوارئ.
- وخلال النصف الثاني من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧، وطوال شهر تشرين الثاني/نوفمبر، جاءت الهجمات والمعارك متقطعة. وفي تلك الفترة أوفدت الحكومة البريطانية إلى فلسطين المستر دوبجن، أحد أشهر الخبراء البريطانيين في قمع التحركات الشعبية، وصاحب التاريخ المعروف في الهند، كما شكلت حكومة الانتداب محاكم عسكرية خاصة، خولت حق الإعدام ضد أي شخص يحمل السلاح، وأحكامها نافذة.
- تم اعتقال الشيخ فرحان السعدي، يوم ٢٢/١١/٣٧، وبعد محاكمة صورية، حكم عليه بالإعدام، ونفذ الحكم يوم ٢٧/١١/٣٧، رغم احتجاجات العرب، من فلسطين وخارجها.

وبلغ عُمر الشيخ، آنذاك، ٨٠ عاماً، وكان صائماً، وهو أحد رجالات الشيخ عز الدين القسام، ومن قادة كمين المثلث (١٥/٤/١٩٣٦)، الذي اعتبر الشرارة الأولى للثورة.

كان أبرز زعماء هذه المرحلة عبد الرحيم الحاج محمد (ذنَّابة)، وعارف عبد الرازق (نابلس)، وعبد القادر الحسيني (القدس)، ويوسف أبو درة (الجليل)، أما «المكتب القومي العربي» في دمشق فكان يعمل كجهاز دعاية للثورة.

- **معركة اليامون:** في الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٧، حاصرت قوات الاحتلال قرية المغير، وكان بها قيادة المنطقة، لكن الثوار تمكنوا من الإفلات من الحصار، وتوجهوا إلى قرية اليامون، ولما حاولت قوات الاحتلال اللحاق بهم، اشتبكت مع مجموعة القائد يوسف أبو درة، ثم دارت معركة كبيرة، استمرت عشر ساعات، قتل فيها أكثر من مائة جندي بريطاني، وجرح مثلهم، واسقطت طائرة، واستشهد من الثوار العرب ٣٩ مجاهداً.
- يوم ٢٨/١١، كان يوم عيد الفطر، أعلن الشعب الحداد على القائد الشيخ فرحان السعدي.

- قتل الثوار فـــي يافا (١٢/٢٥) ضابطا وجندياً بريطانيين.
- وجه وزير المستعمرات البريطاني، فـــي كانون الأول/ديسمبر، خطاباً إلى المندوب السامي فـــي فلسطين، أعلن فـــيه سحب مشروع التقسيم.
- فـــي تقرير لإدارة الشرطة عن حوادث عام ١٩٣٧، قالت إن مجموع حوادث، سنة ١٩٣٧، بلغ ٦٣٨٢ قضية جنائية، منها ٢٧٦ قضية قتل، و ٢٨١ شروع فـــي قتل، و ٣٧٨٦ اعتداءً على الأشخاص.
- وفـــي أول كانون الثاني/يناير ١٩٣٨ قتل الثوار جنديين بريطـــانيين، فـــي مدينة حيفا.
- **معركة أم الفحم الأولى:** فى ٣٠ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٣٨، اشتبك الثوار مع القوات البريطانية القادمة لبناء معسكر فـــي قرية أم الفحـــم، واستمرت المعركة ٦ ساعات، انسحب الإنجليز بعدها من القرية، بعـــد أن تكبدوا ٤٨ قتيلاً، وعدداً من الجرحى.
- قامت السلطات البريطانية، خلال شهر كانون الثاني/يناير سنة ١٩٣٨، بإعدام ستة من الثوار العرب، كما أعدمت ثلاثة آخرين، فـــــي شـــهر شباط/فبراير ١٩٣٨. وفي شهر آذار/مارس، أعدمت اثني عشر عربياً.
- تميز الأسبوع الأخير من آذار/مارس ١٩٣٨ بمهاجمة الثوار لمستودعات الذخيرة الحكومية، وقتل كثير من العرب الذين اتهموا بالخيانة.
- فـــي ٣٨/٤/١٦ كانت هناك معركة فـــي التلال، شمال طـــولكرم، كمـــا احتل الثوار، خلال شهر نيسان/أبريل، مدينة بيسان.
- أرسلت الحكومة البريطانية (٣٨/٤/١٧) لجنة فنية، برئاسة جون وودهيد، لدراسة مشروع التقسيم.
- فـــي ٣٨/٥/٢٤، أبلغت قيادة الثورة فـــي منطقة نابلس قيـــادة المنطقـــة الجنوبية، بأنها ستهاجم الثكنات، والقوافل الإنجليزية، والصهيونية، وطلبت من القيادة الجنوبية تأمينها ضد النجدات من هذه الجهة، فما كان من أهـــل الجنوب إلا أن قاموا بنزع قضبان السكة الحديد، من رفح حتى يبنا، فـــي ساعتين، وقد اشترك فـــي هذا العمل أكثر من ١٢ ألف مواطن، نزعـــوا عشرين كيلو متراً من قضبان السكة الحديد، تحت حراسة الثوار.
- هاجم الثوار، بقيادة عبد القادر الحسيني، مستعمرة «بيـــت فـــيجان»، جنوبي القدس، وكبدوها خســـائر فادحـــة، فـــردت الســـلطات فـــــي (٣٨/٥/٢٤) بمحاصرة منطقة الثوار، بثلاثة آلاف جنـــدي. فانســـحب

الثوار إلى الجبال، وهاجموا القوات البريطانية، وهي تمر من تحتهم، ودارت معركة، استمرت أكثر من تسع ساعات، ووصلت نجدات لكلا الطرفين، فقتل ٤٠ إنجليزياً، وأسقطت طائرة، وأصيبت أخرى، واستشهد للثوار ثلاثة.

- في ٦/١٠، قام فصيل من المجاهدين بمهاجمة مستعمرة روشينا.
- ونتيجة لاشتداد الثورة أجرت الحكومة تغييراً في القيادة العامة – المندوب الجديد ماكمايكل، والقائد العسكري الجديد هايننج – وأقيمت أسلاك شائكة على طول الحدود الشمالية، والشمالية الشرقية، وأنشئت مراكز للشرطة في وادي الأردن، وبدأ التفكير في تسليح الصهاينة.
- في تلك الفترة، أرسل جمال الحسيني – رئيس الحزب العربي وعضو اللجنة العربية العليا، ورجل المفتي الأول– رسالة إلى مالكولم ماكدونلد، وزير المستعمرات، لمنح الصهاينة حقوقاً كاملة، ومتساوية لحقوق الآخرين، لكن هذه الرسالة لم تلق صدى، فقد كان هناك تصميم على إقامة الدولة الصهيونية.
- في ٣٨/٧/٦، انفجرت قنبلة موقوتة، وضعها المتطرفون الصهاينة في سوق الخضر بحيفا، فقتلت ٢٣ شخصاً، وجرحت ٧٩، معظمهم من العرب، فأعلن الإضراب العام في جميع المدن الفلسطينية الرئيسية، واستمر في حيفا أكثر من أسبوع.
- في اليوم نفسه زار مالكولم ماكدونلد، فلسطين، سراً، لإجراء محادثات مباشرة مع المسؤولين البريطانيين، ومحاولة البحث عن وسائل لإيقاف الثورة.
- في ٣٨/٧/١٩، زرع الثوار لغماً، قرب مستمرة نجمة الصبح، تسببت في نسف سيارة، كان يستقلها بعض الصهاينة، وقتل جميع ركابها.
- في النصف الثاني من شهر تموز/يوليو ٣٨، قتل الثوار اثنين من الصهاينة، على طريق يافا – تل أبيب، وألقوا قنبلة في شارع روتنبرغ في تل أبيب، قتل من جرائها تسعة صهاينة، وجرح عدد آخر.
- **معركة الليات الكبرى:** وقعت في النصف الثاني من شهر يوليو/تموز ٣٨، وفيها قام الثوار بوضع عبوات من الألغام في طريق القافلة الإنجليزية القادمة من عكا، فاصطدمت أولى سيارات القافلة بلغم، وتحطمت، وقتل من فيها، وانقض الثوار على باقي القافلة، حتى شتتوا شملهم.

- فـي ٣٨/٨/١٠ ازداد الموقف اشتعالاً، بعد عودة وزير المستعمرات. حيث هاجم الثوار بنك باركليز الإنجليزي فـي نابلس، واستولوا منـه علـى ١٥ ألف جنيه.
- فـي ٣٨/٨/١٨ دارت معركة فـي عكا، شـارك فـيها الطيـران، وحدثت معارك أخرى، فـي أنحاء متفرقة من البلاد.
- فـي ٣٨/٨/٢٥، اغتال الثوار مساعد حاكم منطقة جنين، موفات فـي مكتبه، كما نسف الجنود البريطانيون ١٢٠ منزلاً عربياً فـي إحـدى قرى عكا، بسبب إلقاء قنبلة على سيارة عسكرية. وفـي تلـك الفتـرة عقد مؤتمر فـي جبل طولكرم، لمتابعة القتال، ومع نهاية آب/أغسطس كانت الإدارة الحكومية قد انهارت فـي المدن الرئيسية، انهياراً كبيراً، وهيمن الثوار على الموقف فـي فلسطين، إلى حد بعيد.
- تمكن الثوار، فـي الفترة ما بين مايو/أيار، وتشـرين الأول/أكتـوبر ١٩٣٨، من السيطرة المؤقتة على مدن: الخليل، بئر السـبع، طبريـا، نابلس، رام الله، أريحا، غزة، والقدس. والاستيلاء على أموال الإدارة، والبنوك الإنجليزية، وتمكنوا من إخلاء سبيل المعتقلـين السياسـيين، واستولوا على أموال جمرك يافا، فـي أيلول/سبتمبر من العام نفسـه. مما دفع الحكومة إلى إغلاق الحدود وإعلان حالة الطوارئ.
- وفـي خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٨، فتكت مجموعة عربية تدعى (فـصيل الموت) بعدد من الجواسيس العرب، واعتدى الثـوار على بعض النشاشيبيين، وأحرقوا مبنى جريدة «فلسطين»، وقتلوا أمين السر السابق لحزب الدفاع، حسن صدقي الدجاني.
- فـي ٣٨/١١/٩، تم نشر تقرير لجنة وودهيد، مرفقاً ببيـان لسياسـة الحكومة، وألغى البيان مشروع لجنة بيل للتقسيم، باعتبـاره مشـروعاً غير عملي. وبدأت القوات البريطانية عمليات مداهمة واسعة النطـاق فـي المناطق المختلفة، بحثاً عن الثوار، وإعادة الحكم على نحو يكـاد يكون احتلال البلاد عسكرياً، من جديد.
- فـي النصف الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨ تم إحراق مخازن الجمرك فـي حيفا، ونسف ثلاث سيارات مصفحة، وقتل عدد من أفراد البوليس، من صهاينة، وإنجليز.
- فـي ٣٨/١١/١٥، استشهد القائد عبد الفتاح السيلاوي (أبو عبـد الله)، بعد معارك حامية مع قوات الانتداب.

- فـي ٣٨/١٢/٧ تم إطلاق سـراح الزعمـاء العـرب الفلسـطينيين المنفـيين فـي سيشل، وروديسيا.
- كان الإحصاء الرسمي للحكومة عن عدد الحوادث لسـنة ١٩٣٨ حـوالي (٩٥٧٣) حادثة، وبلغ عدد الذين أعدموا فـي سجن عكا، فـي هذا العام، ١٤٨ شهيداً، وعدد الذين اعتقلوا لمدد مختلفة أكثر مـن خمسـين ألـف مواطن.
- فـي ١٩٣٩/٢/٧، عقد، في لندن، مؤتمر «المائدة المستديرة»، بشـأن مشكلة فلسطين، وحضره مندوبون عن عرب فلسـطين، والصـهاينة، ووفود من البلاد العربية، لكن المؤتمر سرعان ما فشل.
- مجموع المعارك التي حدثت، خلال كانون الثاني/ يناير ١٩٣٩، حوالي (٥٤) معركة، اشتركت الطائرات فـي اثنتين منها، ومجموع القـرى التي فتشت ٢٦ قرية، ونسفت السكة الحديد مرتين، واعتقلت السلطات، خلال هذا الشهر، ٩٧ عربياً.
- أما شهر فبراير / شباط ١٩٣٩، فشهد اثنتي عشرة معركة، وأشـعل الثـوار خمسة حرائق فـي الدوائر الحكومية، ومخازن الشركات الصهيونية، واعتقلت الحكومة مائتين من رجال المدن، والقرى، وأعدمت عشرة من العرب.
- أجاب المستر ماكدونالد، وزير المستعمرات البريطانية، عـن سـؤال للمستر فـيلدز، فـي مجلس العموم، فقال: «إنه فـي الفترة مـن ٢٠ كانون الأول/ديسمبر سنة ٣٨ إلى ٢٠ شباط/فبراير سنة ٣٩، حـدث ٣٤٨ اغتيالاً بالرصاص، و١٤٠ حادثة تخريب، و١٩٠ حادثة خطف، و٢٣ حادثة سرقة، وانفجرت تسعة ألغام، و٣٢ قنبلة.
- استشهاد القائد العام للثورة، عبد الرحيم الحاج محمد (ابو كمال)، فـي ١٩٣٩/٣/٢٦، حيث اشتبك مع قوات بريطانية كبيـرة فـي قريـة صانور– قضاء، جنين، وسقط شهيداً، أثناء المعركة.
- قام الفدائيون، فـي الأسبوع الأول من نيسـان/أبريـل سـنة ١٩٣٩، بمهاجمة مركز لتدريب الصهاينة فـي حيفا، وبلغ عـدد القتلـى مـن الصهاينة ٧٠ قتيلاً، والجرحى ثلاثين، وانسحب الثوار دون إصابات.
- فـي ١٩٣٩/٤/٢٢ هاجم الثوار بقيادة خالد الحصني، معبـرة للصـهاينة (مكان استقبال المهاجرين الجدد)، وبعد قليل حضرت إلى مكان الحـادث نجدات إنجليزية، ودارت معركة استمرت أكثر من ساعة، تمكـن الثـوار خلالها من الانسحاب، دون إصابات، بعد أن كبدوا المعبرة خسائر كبيرة.

- فـي إحصاء رسمي عن أحداث شهر نيسان/أبريل ١٩٣٩، بلغ مجموع قتلى العرب ٣٣ مجاهداً، قتلوا أثناء المعارك، و١٣ معتقلاً جريحاً، كما بلغت خسائر الإنجليز ١٢ ما بين قتيل، وجريح، كما قتل الثـوار ٥٨ اشتبه فى تعاملهم مع العدو.
- فـي ١٩٣٩/٥/١٧ أصدرت الحكومة البريطانية «الكتاب الأبـيض»، الذي تضمن وعداً بمنح فلسطين الاستقلال بعد عشر سنوات، وإيقـاف الهجرة بعد خمس سنوات، فضلاً عن تقييد انتقال الأراضي.
- **معركة أم الفحم الثانيـة**: فـي ١٩٣٩/٥/٢٤ حاصـرت القـوات البريطانية الثوار فـي قرية أم الفحم، ودارت معركة استمرت أربـع ساعات، استشهد فـيها القائد يوسف الحمدان، و٢٦ ثائراً آخرين.
- اعتقل الأمير عبد الله، أمير شرقي الأردن، القائد يوسف أبو درة فـي عمان (١٩٣٩/٨/١٢)، أثناء عودته من دمشق، وسلمه إلى السـلطات البريطانية، التي قدمته إلى محكمة عسكرية، حكمت عليـه بالإعـدام، ونفذ الحكم، عام ١٩٤٠ .
- **معركة ترشيحا الكبرى**: فـي ٣٩/٨/١٨، وهي آخر معركـة كبيـرة فـي الثورة، حيث اشتبك الثوار مع قوات من الجيش البريطاني، قـدر عددها باثني عشر ألف جندي، تساعدها فرق من الثورة المضادة، ممن تسموا بـ«فصائل السلام». وقد انتصر الثوار فـي هـذه المعركـة، وتكبد الإنجليز أكثر من مائة قتيل عدا الخسائر المادية.
- بلغت جملة المعتقلات التي أقامتها السلطات للأحرار العـرب، أربعـة عشر معتقلاً، وبلغ عدد القرى التي فرضت عليها غرامات ٢٥٠ قرية.
- تمخضت هذه الثورة عن ستة آلاف قتيل وجريح، نصفهم من العـرب، بمعدل ١٧٠٠ قتيـل وجـريح، سـنة ١٩٣٦، و٢٤٦، سـنة ١٩٣٧ و٢٧١٧، سنة ١٩٣٨، و٣٤٨ فـي الربع الأول مـن سـنة ١٩٣٩، فضلا عن آلاف المعتقلين، وآلاف البيوت المدمرة.

من هنا ما كان فـي استطاعة ثورة شعبية مسلحة بأسلحة بالية، وبمـا استطاعت أن تفتكه بالعدو من سلاح، أن تقف أمام جيش بريطانيـا، ومعـه المنظمات الإرهابية الصهيونية، التي تكونت وسُلحت، فـي ظـل قـانون الانتداب البريطاني.

لعل من سوء حظ هذه الثورة أن الظروف العالميــة، فـــي تلــك الفترة، لم تكن لتساعد على دعمها، نظراً لعدم وجــود ســند عــالمي قوي، إذ لم يكن "المعسكر الاشتراكي" قد رأى النور، بعد، فضلاً عــن غياب رأي عام عالمي يمكنه أن يناصر قضية عادلة، أو حق تقريــر المصير. ومن ناحية أخرى فإن ما يسمى بالعالم الثالث، آنذاك، كــان يرزح هو الآخر تحت نير الســيطرة الأجنبيــة، ولا يملــك مناصــرة الشعوب المغلوبة على أمرها، ولا حتى التضامن معها.

وأخيراً، فإنه لا يمكن إنكار حقيقة كون الثورة العربيــة الكبــرى فــي فلسطين، قد قدمت نموذجاً من أجل التحرر، والدفاع عن الوطن، والحفاظ على فلسطين عربية.

مراجع الفصل الأول

* اعتمدت هذه الدراسة على المصادر والمراجع التالية:
- **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثاني، بيروت ١٩٤٨ (انظـر ص ص: ٦٢٢-٦٤٣).
- حسين التريكي، **هذه فلسطين**، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ط١، ١٩٧١ .
- د. عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٧٠ .
- عيسى السفري، **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية**، يافا، ١٩٣٧ .
- صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى فـي فلسطين ١٩٣٦- ١٩٣٩**، القاهرة، ١٩٦٧ .
- عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، بيروت، ١٩٧٥ .
- عمر أبو النصر واخرون، **جهاد فلسطين العربية**، يافا، ١٩٣٦ .
- د. عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦ إلـى الحـرب العالميـة الثانية**، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٨٠ .
- محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية فـي مختلف مراحلها**، بيروت، ١٩٥٩ .
- عمر عبد الباري (إعداد)، يوميات ثورة ١٩٣٦، **الطليعة** (القاهرة)، العـدد الرابـع، السـنة السابعة، نيسان/أبريل ١٩٧١، ص ١٠٧-١١١.

الفصل الثاني

الأعمال القتالية في الثورة

لواء أ.ح. حمدي الشعراوي



لم يتوقع أحد نصراً كاسحاً على بريطانيا والصهيونية، ولكن للثوار حسابات أخرى، حيال تفوق عدوهم في القوة والتسليح، وهي الإيمان بعدالة القضية، والشجاعة والفداء، مع شرعية النضال وقانونيته، وللثوار تكتيكاتهم وإبداعاتهم المرهقة لقوات العدو، النظامية، وشبه النظامية، لإلحاق الخسائر الموجعة، التي يتخلص الثوار بها من أعباء الاحتلال والاستيطان، فلا راحة ولا أمان، وخسائرهم في الأرواح والمعدات والثروات فوق الاحتمال.

مقارنة القوات:

القوة البشرية البريطانية: (٤٢) ألف جندي، (٢٠) الف شرطي، إلى جانب (٢١) ألف مقاتل صهيوني منهم (٤) آلاف امرأة، وستة آلاف مجند في الجيش البريطاني، علاوة على الشرطة الإضافية الصهيونية، وشرطة الطوارئ، وحراس المستعمرات، والخفراء، وجميعهم سلحتهم بريطانيا كالبريطانيين تماماً، فكانوا يعتبرون القوة المستترة في القوة البريطانية (العملاء).

القوة البشرية الفلسطينية: بلغت ثلاثة آلاف مقاتل متفرغ، ألف فدائي في المدن، يساندهم ستة آلاف ثائر غير متفرغ، من القرى والبادية، يعاونون الثوار، عند اندلاع القتال في مناطقهم، ويسمون بالفزاعة.

التسليح البريطاني: الأحدث والأجود كتسليح شخصي لهم وللصهاينة تدعمهم الأسلحة المتوسطة والثقيلة، في صلب تنظيم فرقتين مشاه، والأسلحة المضادة للدبابات والطائرات المستخدمة في واجبات أرضية، كما انفردوا بالقوة الجوية (٣٠ – ٣٥ طائرة)، علاوة على الطيران المستدعى من مصر ومالطة، كما انفردوا بالمدرعات، صلب التنظيم، والدعم، وتعاون الأسطول بنيرانه وسلاحه، عندما كانت العمليات في مداه، ولحراسة الشواطئ ضد تهريب السلاح.

التسليح الفلسطيني: تسلح شخصي عتيق، بنادق صيد، بعض المسدسات، بعض الأسلحة التى يستولى عليها من مهاجمة معسكرات الجيش، ومراكز الشرطة والمستعمرات أو بالرشوة، ولم تتيسر أية أسلحة متوسطة أو ثقيلة.

الاستطلاع والمعلومات للبريطانيين:

توفرت العناصر المدربة، وكذلك معلومات الشرطة، والصهاينة، والعملاء، الذين يجدهم المستعمر في ضعاف النفوس، كما سهلت الطائرات الاستطلاع للحصول على المعلومات.

الاستطلاع والمعلومات للفلسطينيين:

وفرت خبرة الأرض، وتعاون الأهالي والوطنيين من الموظفين، وأفراد الشرطة، وتضليل الوطنيين للقوات البريطانية بالمعلومات الخاطئة.

القيادة والسيطرة للبريطانيين:

قوات دولة تنظيماتها ثابتة، وانضباط، وتسلسل قيادي مستقر، ووسائل اتصال كافية بأفراد مؤهلين للسيطرة، والقيادة، وتبليغ، واستقبال المعلومات، مدربون بالمدارس والمعاهد العسكرية، درسوا قواعد وقوانين القتال، وواجبات الأفراد في المواقف القتالية المختلفة، وتوفر ذلك للصهاينة، فمعظمهم كان مجنداً.

القيادة والسيطرة للفلسطينيين:

دفعتهم الرغبة في الجهاد والقتال، للتحوقل حول شخصيات أكثر خبرة، وأعمق فكراً، وأقدر على القيادة التقليدية، فعلى مستوى القيادة في المناطق، لم يكن هناك ما يفرض القائد سوى الوجاهة الاجتماعية، وقدرته المالية لتمويل تسليح المقاتلين وصرف مرتبات لهم، في القرى والمدن، ولكن حدثت الصراعات لتولي القيادة العامة والعليا فخراً، وزهواً، وللوجاهة الاجتماعية، ولم يحدث إجماع على قائد قبل وصول القائد فوزي القاوقجي، ومعه (٢٠٠) مقاتل سبقت لهم الخدمة العسكرية، فأجمعوا عليه قائداً، عدا منطقة عبد القادر الحسيني، في القدس، الذي رفض أن يرأسه أحد. فنظم لأول مرة، قيادة مبسطة، من غرفة عمليات، تضع الخطط، وتتابع التنفيذ، تحدد المهام، وتدققها، واستخدم الخرائط لأول مرة، ونظم أفرعاً للمعلومات، والمخابرات، والشؤون الإدارية، للإمداد بالاحتياجات، وقسَّم قواته في (٥) سرايا متجانسة الموطن، كما قسَّم فلسطين إلى مناطق خمس، ولكنه غادر فلسطين، بعد فترة (٣٧) يوم فقط. ولم يتصد أحد للقيادة، فشكلوا ديواناً للقيادة تولت فيه قيادة كل منطقة لفترة من الزمن، إلى أن توحدوا خلف عبد الرحيم الحاج محمد، الذي سار على نهج القاوقجي فقسم فلسطين إلى خمس مناطق (المنطقة الشمالية، نابلس، منطقة وسط القدس) وأبقى غزة، والمجدل، وبئر السبع، متعاونين مع بعضهم البعض، تابعة للقيادة العامة، كما أنشأ محكمة للثورة، للردع والحساب، ومحاكمة العملاء.

وللتسهيل، حصص الحاج محمد لكل منطقة (١٥٠ - ٢٠٠) مقاتل، قسموا إلى فصيل للقيادة، وفصائل كل من (١٥ - ٢٠) مقاتل، وكان السعاة هم وسيلة توصيل التعليمات والأوامر.

الشؤون الإدارية للبريطانيين:

١- منظمة تنظيماً مستقراً، هم والصهاينة للإمداد، والإخلاء. ونظراً لإمكانية حصار المستعمرات، جُهِّزت المستعمرات بالاحتياجات التي تكفيها للقتال لمدة طويلة في حصار، معتمدة على مخزونها وسلاحها وجميع احتياجاتها، لذلك سلحت كل مستعمرة بـ (١٠٠) بندقية، (٥٠) هاون (٢) بوصة، (١٠) آلاف قنبلة يدوية واحتياطات عسكرية لـ (١٠٠) رجل (١,٥) طن مفرقعات، والتجهيزات الهندسية لتحصين المستعمرة وتعويض ما يدمّر منها.
٢- الحملة والمواصلات البريطانية، ضمن صلب التنظيم، كافية للنقل والتحرك وحمل الإمدادات، مما سهّل خفة الحركة والانتقال والمناورة والإمداد والإخلاء والتعويض للبريطانيين واليهود.
٣- المرتبات: لم تكن هناك مصاعب للبريطانيين واليهود، فتلك دولة تدير، وهذه منظمة تتكفل بسخاء.

الشؤون الإدارية للفلسطينيين:

١- كانت مصادر الاحتياجات غير ثابتة، فلا دولة تصرف، ولا جهة تتكفل، واعتمدوا على التبرعات، لذلك شكلت لجان لتدبير احتياجات المقاتلين، وسلاحهم وذخائرهم، وهاجموا بنك باركليز، واستولوا على (٥٠٢٠) جنيه، وهاجموا مكتب بريد واستولوا على (٢٠٠٠) جنيه.
٢- الحملة والمواصلات: كانت بالسير على الأقدام، أساساً، وقليلاً ما دبرت دواب للتحرك، أو الخيل المستولى عليها، ونادراً ما استخدمت السيارات المؤجرة، مما أثر على خفة حركة الثوار والمناورة والإمداد بالاحتياجات.
٣- **الإمداد بالاحتياجات:**

- المرتبات: تم تدبير مرتب شهري (٢) جنيه للثائر المتفرغ، (٤) جنيه للكاتب ولقائد الفصيل، (٥) جنيه للمساعد، (٦) جنيه للقائد، وذلك من التبرعات.

- كان السلاح يدبر ذاتياً، أو بالشراء، أو بالرشوة من البريطانيين والشرطة، أو بمهاجمة المستودعات ومراكز الشرطة والمعسكرات، أو كغنائم قتال.
- الطعام والمياه كانت تبرعاً أو أريحية، من أهل القرى والمدن الذين كانوا يتطوعون لنقله إلى االثوار، حتى وهم في المناطق الوعرة، رغم عقاب الإنجليز لهم.

صور أعمال الثوار في القتال:

١- الصورة الدائمة: هي الأعمال الفردية الانفعالية بالضرب بالحجارة والعصي أو السكاكين والقنص، بالاغتيال، والخطف، وإتلاف ما يمكن من ممتلكات الحكومة والصهاينة.

٢- الصورة الثانية: تخريب الممتلكات البريطانية واليهودية، وتعطيل المعدات، وقطع وسائل الاتصال، بإتلاف طرق ومهاجمة وحرق مزارع، ومنازل اليهود، أو الإنجليز، المغتصبة مع استخدام السلاح والقنابل المتيسرة ببدء العمل الجماعي.

٣- الصورة الثالثة: وهي شبه نظامية في حرب العصابات، التي شملت ضرب القوافل العسكرية والشرطية، الإغارة على المستودعات والمعسكرات، ومراكز الشرطة، والهجوم على المستعمرات، ومراكز الحراسة اليهودية، مهاجمة الأهداف الاقتصادية، وخطوط أنابيب البترول، نسف جسور السكك الحديدية، والطرق ووسائل المواصلات، الإغارة على دوائر الحكومة، تخريب واقتلاع المزارع والمزروعات المثمرة ومهاجمة مستودعات السلاح والذخيرة، ومهاجمة البنوك والمؤسسات المالية للحصول على أموال للتمويل، وكذلك الكمائن المدبرة، ودوريات الصيد الحر، لاصطياد أي هدف وتدميره، وقد نجحت جميع العمليات، وسيطر الثوار على القرى، والمدن، والطرق، ولم يتوان الأهالي والفزيعة عن المعاونة أثناء الاشتباكات، وبعد القتال، في استيعاب الثوار، وإخفائهم مع سلاحهم.

وقد أعطى الإضراب، والعصيان المدني، والكفاح المسلح، الثوار فرصة، علاوة على ما سبق:

١- للإغارة على الأهداف المنعزلة أو بــالأطراف، والتخريــب وأعمــال الكمائن إليها ومنها، لجذب القوات إلى الأطراف وإضعاف القلب.

٢- إثارة الذعر فــي القوات، وتثبيت تحركاتها للدفاع عن نفسها.

٣- السيطرة على القرى، ومهاجمة المدن حتى احتلت أو حررت القــدس، لمدة تسعة أيام، وأدارتها قيادة الثوار.

٤- ممارسة الثوار فن الحرب، بقيام قوة صغيرة بإلحــاق الهزيمــة بقــوة كبيرة، بالتخطيط الجيد، والاقتراب الآمن، والتنفيــذ الجــريء، فـــي مفاجأة، وحشد، ومناورة، مع تأمين القتال فــي جميع مراحله، حتــى التخلص من المعركة بأسلوب حرب العصــابات، مســتغلين أرضـــهم المعروفة لديهم ومعنوياتهم العالية.

الأعمال القتالية عام ١٩٣٦:

الثورة وظهور قيادات محلية صغرى، ازدادت الخبرة بممارسة القتال، وتمت (٤٠٧٦) عملية، منها (١٩٩٦) ضد اليهود، و (٨٩٥) عمليــة ضــد ممتلكاتهم، و (٧٩٥) اعتداء وقتل ضد ضباط الشرطة والجيش، وتم تخريب وسائل المواصلات بـــ (٣٨٠) عملية، وبلغت خسائر الثوار (٢٢٤) شهيدا، (١١٠٦) جريح.

بينما بلغت خسائر الجيش البريطاني والشرطة (٣٣) قتيلا مــع جــرح (١٩٣) وخسر اليهود (٨٠) قتيلا و (٣٦٩) جريحا ودمر لهــم (٨٠) ألــف شجرة حمضيات، و(٦٢) ألف شجرة فواكه، (٦٤) ألف شجرة متنوعة، كما أحرق لهم (٤٠٠٠) فدان وكلها من الأراضي الفلسطينية المغتصــبة بــالقوة وبالتحايل، على حد سواء.

وخسر البريطانيون (٢١٠) بندقية، (٦٨) مسدسا، (٢٦٢) قنبلة يدوية، وقــد تلخصت أعمال الثوار في قذف القنابل اليدوية، وتصفية العملاء، والقــنص ضــد معسكرات الجيش، ومراكز الشرطة، ونصب الكمائن للقوافل اليهودية، ودوريــات الجيش، وإشعال النار فــي مزارع اليهود وممتلكــاتهم، وتعطيــل المواصــلات للجيش والصهاينة، لتوقف مواصلات الفلسطينيين بالإضراب.

وقد خسرت بريطانيا (٣,٥) مليون جنيه إســترليني، وتوقفــت حركــة السياحة إلى فلسطين، فــي منتصف شهر ٣٦/٥، و لجأ الثوار إلى الجبــال،

وكمنوا فـــي سفوح الوديان، ونصبوا الكمائن، وهاجموا قوافـــل الســـيارات، وأمطروها بالنيران، وكانوا يتخلصون من المعركة، ليعودوا إلـــى قـــراهم، ويخفوا سلاحهم، ويندمجوا بين الأهالي، إذ لم يكن هناك تخطيط مركـــزي، ولا معلومات كافية عن القوافل ومكوناتها، للاستعداد لها، لذلك تمت الأعمال بفكر القائد المحلي، وبأعمال الصيد الحر، وقد بلغت قـــوة الكمـــين (٥٠ – ٢٠٠) مقاتل.

بوصول القائد فوزي القاوقجي وتولية القيـــادة (١٩٣٦/٧)، وتنظيمـــة قواته، تغير حجم الأعمال الفدائية، لتجري بمـــا بـــين (٥٠ – ٧٠) مقـــاتلاً لضمان السيطرة، والنجاح وانتشر أسلوبه، ونفذه الثوار. وقد لـــوحظ مـــدح البريطانيين للعملية التي قام بها القاوقجي، للتقليل من أثـــر نجـــاح عمليـــات الثوار الأخرى، التي كان نجاحها فـــي مستوى عملية القاوقجي.

خلاصة أعمال الثوار سنة ١٩٣٧ بالتقرير البريطاني

هجمات الشرطة والجنود	٤٠٩	هجمات ضد منازل الانجليز	٢
هجمات ضد المستعمرات اليهودية	١٤٣	ضرب املاك يهودية	١٨
نسف جسور سكك حديدية	٥	قطع خطوط تلغراف/ تلف	٨٢
نسف طرق	١	ضرب مصالح حكومية	٣
اغتيال ضباط انجليز	٥	اغتيال ومحاولات ضد ضباط بريطانيين	٦١
عمليات اغتيال ضد اليهود	٨٢		

أعمال الثوار عام ٣٧:

- بزيادة دعم القوات البريطانية، حاولت أخذ المبادأة من الثوار، فشكلت دوريات بقوة متحركة للدخول فـــي معارك من الحركة، مستغلة صدمة المفاجأة.
- تربُص الثوار لهذه الدوريات، فأقاموا نقاط إنذار، فـــي مناطق تمركزهم، تلافياً للمفاجأة، وجهزوا مواقع وخططاً تمكنهم من الإحاطة بقوات العدو، وإنزال الخسائر بها، وإدارة معارك مدبرة، وقد نجحوا فـــي ذلك، وكان خير مثال لذلك معركة عرابة (١٢/٢٣/ ٣٧)، التي اســـتمرت يـــومين متصلين، لتثبت كفاءة الثوار، فـــي مواجهة هذا التكتيك الجديد للجنـــرال ويفل من دورياته، رغم قدرتها على العمل فـــي الأحوال الجوية الصعبة، أو قطع الطرق، حيث خطط لإمدادها، الطائرات والمظلات.

- وضح انضباط الثوار، وانقيادهم، وتماسكهم، مهما طال أمد المعارك، وزادت خسائرهم، لتمتعهم اللافت بروح الفريق ذي المعنويات العالية، وكفاءة تخطيطهم للتعامل مع العدو، أو التخلص من المعركة، كذلك قدرتهم على التخلص من الحصار باختراقه.

أعمال الثوار سنة ١٩٣٨:

- زاد عنف الأعمال القتالية، بالتنظيم الجيد، والخبرة المكتسبة بالاحتكاك بالعدو.
- تمت السيطرة على الطرق، والقرى، والمدن، خاصة الخليل، جنين، نابلس، المنطقة الوسطى، المنطقة الجنوبية، لطبيعة جبالها، وأشجارها الكثيفة، واقتربت الأعمال القتالية من الحدود لاحتياجهم إلى الإمداد الآمن بالأسلحة والذخائر، ولتأمين مؤخرتهم، عند الحصار.
- زاد نشاط الثوار لنسف محطات السكك الحديدية ومهاجمة معظم مراكز الشرطة، مما أدى إلى انخفاض هجرة اليهود إلى فلسطين، إلى عشرة آلاف، بدلاً من (٦٢) ألف، عام ١٩٣٠.
- بلغت خسائر بريطانيا (٦٣) قتيلا، (٢٠٠) جريحا، وقتل (١٢) شرطي، وجرح (١٥) وقتل (٢٥٥) يهوديا، وجرح (٣٩٠) آخرين، واستشهد (٣٩٠) فلسطينيا وجرح (٥٩٨) آخرين.
- من المخجل أن القيادات السياسية الرجعية في فلسطين وفي الدول العربية لم تقرأ هذا الواقع، وطالبت بالهدنة، ولم تعاون الثوار.
- امتد الكفاح، ليشمل كل فلسطين، وازداد عدد الثوار، واهتز الموقف البريطاني وهدد المشروع الصهيوني بالفشل، وقال جنرال ميتلان ويلسن إن (٥٠٠) ثائرا في الجبال لا يمكن التغلب عليهم بأقل من (١٥٠٠٠) جندي، أي بنسبة (١ : ٣٠)!

وكانت خلاصة أعمال الثوار، حسب التقرير البريطاني سنة ١٩٣٨:

- هجوم وقنص لجنود الجيش والشرطة (٩٨٦) عملية.
- هجوم وقنص على اليهود (١٧٦) عملية.

مهاجمة وسائل مواصلات	٣٣٥	اطلاق نار على المستوطنات والأحياء اليهودية.	٦٥١
القاء القنابل	٣٣١	أعمال العنف	٢١٥
اتلاف ممتلكات لليهود	٤١٠	أعمال تخريب تليفونات وبرق	٧٢٠
تخريب سكك حديد وطرق	٣٤١	اغتيال ومحاولات اغتيال	٤٩٠
تخريب خط انابيب بترول العراق	١٠٤	تخريب أملاك حكومية	٢١٠

أعمال الثوار سنة ١٩٣٩ ونهاية الثورة:

كان تحرير القدس وإدارتها تسعة أيام (سبتمبر/أيلول ١٩٣٨)، آخر عملية كبيرة، كما كانت أكبر خطيئة، لعدم تحرك الحمية الإسلامية والعربية، والتوحد الفلسطيني، لدعم الثوار، معنويا، وماديا، وقتاليا، وسياسيا، حفاظاً على هذا المكسب. مع أن الجنرال هايننج، قائد عام القوات البريطانية في فلسطين أعلن سنة ١٩٣٨، مؤكدا عدم تواجد القوات البريطانية، حيث سيطر الثوار على كل فلسطين.

كان المفروض استغلال النجاح بتعزيزه، ودعمه، وليس بالابتهاج والإعجاب، تاركين الثوار وحدهم لرد الفعل البريطاني الجريح، حتى هددوا بضرب المقدسات، ومهاجمة القدس بدروع بشرية من المدنيين، إذا لم يغادرها الثوار.

ولم تتحرك أي دولة عربية أو إسلامية، منادية بابتعاد البريطانيين عن القدس، وتركها للفلسطينيين، الذين حموا مقدسات جميع الأديان بها، طوال التاريخ، لأن عقيدتهم تعترف بكل الأديان، وتحترمها.

ولم تبرز قيادة سياسية استراتيجية توحد الشعب، وتفرز ذوي المصلحة الحقيقية في الثورة، من الذين طردوا من منازلهم، وفقدوا أرضهم، ومزارعهم، كسند للقيادة الثورية التي تقوم بالإدارة، مدركة متى تقاتل، ومتى تهدأ، وتكمن، لتخفف من معاناة الشعب، ومن إرهاق الثوار، وتستعوض حاجات الجميع، كما تعمل على تعبئة وتوعية الجماهير، وتقوي تماسكها، وصبرها، ومساندتها لطليعتها المجاهدة، وأن تواجه بالفكر والحجة الانهزاميين وتضلليهم باستحالة انتصار الثورة، وبأن في التهدئة حفاظاً على الأرواح، وتحقيقاً لرغد الحياة، كما تقوم بمواجهة الآراء الخبيثة والبلهاء التي تنادي بعدم استفزاز البريطانيين «الحلفاء»، وهم على وشك الحرب،

والانتظار عليهم حتى تنتهي حربهم، كما تحرم العملاء من استغلال معاناة الشعب للتخلي على احتضانه للثوار لينقلب عليهم، ويطعنهم في ظهورهم، كما حدث لفخري النشاشيبي وفخري عبد الهادي اللذين هاجما الثوار، وحاولا تلويث صورتهم ، بل طلب عبد الهادى السلاح من البريطانيين حتى يقضي على الثوار في منطقته. كما أثار النشاشيبي وعبد الهادي الفلاحين والعمال إستغلالاً لأحوالهم الاقتصادية المتردية من الثورة.

تعاون العملاء مع الصهاينة والإنجليز لتشكيل "فصائل السلام"، التي قامت بشق الصف الوطني الفلسطيني، بالاغتيالات في الأسر المتنافسة، للوقيعة بينها، ولتحويل الصراع إلى صراع فلسطيني – فلسطيني، كما قاموا باغتيال القيادات الثورية وقاتلوا الثوار، ليشغلوهم عن قتال البريطانيين والصهاينة، وليستدرجوهم إلى حيث يبيدهم الصهاينة والإنجليز، أو يحاصروهم، للقضاء عليهم.

وقد كانت الانهزامية، التى طلبت التهدئة، في ١٩٣٦/١٠/١٢ سببا لخروج القاوقجي، بعد (٣٧) يوما فقط من فلسطين، متخلياً عن قيادة الثوار، ورافضا العودة الى فلسطين بحجة الضغط البريطاني على العراق ونورى السعيد.

واعتقد أنه استشرف ما ستعانيه الثورة من خذلان رسمي عربي، وظهور بوادر اغتيال قادة الثورة في:

١- رفض الدكتور/ أمين رويحه (لبنان) ومحمد الأشمر (سوريا) وآخرون، تولى القيادة، حتى لجأ الثوار لتشكيل ديوان للقيادة، كما سبق وبيَّنا.

٢- عدم تصدي أحد للقيادة، بعد استشهاد عبد الرحيم الحاج محمد، في ٢٦ مارس/آذار ١٩٣٩ .

٣- مغادرة عبد القادر الحسيني، قائد منطقة القدس، في قمة انتصار الثورة، سنة ١٩٣٨، دون سبب واضح.

٤- مغادرة عدد كبير من القادة الفلسطينيين لفلسطين، دون سبب مقبول.

٥- تسليم القائد عارف عبد الرازق نفسه للقوات الفرنسية ،على حدود لبنان، وهو قائد معركة تحرير القدس.

٦- انفراط عقد «اللجنة العربية العليا»، وتوقف نشاط «اللجنة المركزية للجهاد» في سوريا.

كل ذلك لخشيتهم جميعاً الغدر والاغتيال من « فصائل السـلام»، مـع الضغط البريطاني والفرنسي خارج فلسطين على الثوار، رغم أن بريطانيـا نفسها قدمت التنازلات لتهدئة الثورة.

وقد تراجعت لندن، أيضاً، سنة ١٩٣٩ في مؤتمر سان جـيمس بلنـدن، وقدمت تنازلات حتى يهدأ بركان الثورة كالآتي:

- الحد من الهجرة اليهودية لفلسطين عشر سنوات تتوقف بعدها نهائيـاً إلا بموافقة الفلسطينيين (بمعنى عدم قيام دولة يهودية).
- الحد من بيع الأراضي لليهود (بمعنى عدم تطبيق توصيات "لجنة بيل").

إن غياب القيادة السياسية ذات البصيرة، حرم الفلسطينيين من الاسـتفادة من بشائر الحرب العالمية الثانية.

أما الصهاينة فقد استغلوا الظروف نفسها للضغط على بريطانيا، فاعتدوا على جنودها وأنشأوا (٥٥) مستعمرة جديدة، خلال فترة الثورة.

كما لم تنجح أى قيادة أو قوة سياسية فلسطينية فـي تجميع قوى الشعب، وبناء منظمات ومؤسسات ذات هيكل تنظيمي، يحقق السيطرة، ويؤسس بنية الدولة من نظام أمني ودفاعي واقتصادي وزراعي وصناعي ومنظمات للمال والتجارة نواة الدولة التي تتسلم فلسطين من دولة الانتداب.

بينما كان الجميع يرون الصهاينة يحققون ذلك، فينجحوا فـي إعـلان دولة إسرائيل، فور انتهاء الانتداب، ونحن فـي حال أسوأ من البيـزنطيين، نتجادل ونتصارع.

إن غياب قيادة سياسية استراتيجية، تسبب فـي إهمال مصالح الشـعب والثوار، فتعطلت التجـارة والزراعـة، والمواصـلات، ووصـلت الحالـة الاقتصادية إلى حافة المجاعة، خاصة حين أخذ العدو بيده المبـادأة، فـزاد حصار القرى، والمدن، وجوَّع المواطنين، ومنع التجول (١٢ -٢٢) ساعة، يوميا، وروّع الأهالي، وأجرى المحاكمات الصـوريه، والتفتـيش المهـين للمنازل، وسحب (٢٠٧٦) بندقية، (٧٨٥) مسدس، (٢٣٥) بندقية صيد، مـا كشف ندرة السلاح مع الفلسطينيين.

وجرت الاعتقالات، والحكم بالإعدام، والسـجن، فـي أحكـام بالغـة التعسف، كسجن من يحمل سكيناً سنتين، ومن يحمل قنبلة (١٢) سنة، وبلـغ عدد المعتقلين، سنة ١٩٣٩، (٥٠) ألفا في (١٤) معتقلا، وحكم بالشنق على

(١٤٦) شهيدا، ونسف أكثر من (٥٠٠٠) منزلا، واحتلت، وفتشت، ووضع تحت قيادة فصيل جنود عدد (٧٥٨) قرية، وصدر (٢٠٠٠) حكم بالمؤبد، وفقدت فلسطين (١٤٠٠٠) شهيدا.

لذلك لم تنجح الثورة، رغم (٩٥٢) عملية مؤثرة، سنة ١٩٣٩،وحدها، في تحقيق أهدافها، وأخمدت بجهودنا لهزيمة أنفسنا وبأكثر من جهود البريطانيين والصهاينة.

ملخص الأعمال المعادية للشعب الفلسطيني:

لنعرف معاناة الشعب وجهد الثوار، نعرض لمخططات العدو، وأساليبه، وأعماله، التي نفذها بقواته الضخمة وأسلحته ذات القوة التدميرية العالية.

١- اعتمدت بريطانيا، للسيطرة على فلسطين، على القوات الجوية، لقدرتها التدميرية وتأثيرها المعنوي وعدم تأثرها بالأسلحة الفلسطينية، فحمت التحركات، والدوريات، ودعمت الاشتباكات، ووزعت المنشورات، وأمدت بالاحتياجات في الأراضي الصعبة، وكان قائد القوات في فلسطين طياراً، ولما فشلت القوات الجوية البريطانية في مهامها، تم الاعتماد على القوات البرية، واستبدل القائد الطيار الجنرال دوبل.

٢- تم حشد أكبر كمية نيرانية من المدفعيات، والمدرعات، ومدفعية الأسطول، لضمان التأثير التدميري على الثوار، وكانت أوضح صورة لذلك هي:

نسف مدينة يافا القديمة:

١- ركز العدو على تدمير يافا، لأنها أحد أكبر ثلاث مدن قامت باغتيال البريطانيين، واقتناصهم. ولم تفلح الأحكام العرفية، ومنع التجول، ونفي الشباب، وإغلاق جمعياتهم، وفرض العقوبات الجماعية على المدن، ومنها نابلس، والقدس، في إخضاعهم، فاستدعى القائد البريطاني الطائرات من مدينة الإسماعيلية، والقوات من الأردن، ومصر، والعراق.

٢- تم قصف كثيف على الثوار (١٨) يوما، لإسكاتهم، حتى نفذت ذخيرتهم، وألقت الطائرات المنشورات، يوم ١٩٣٦/٥/١٦ لتعلن

بريطانيا كذباً، أنها ستجمّل مدينة يافا وتشق طريقاً لخدمـــة الجميـــع، مستغلة وجود وحدة مهندسين بريطانية، وحذرت من التعرض لأعمال النسف، مؤكدة أنها ستعوض من ستنسف منازلهم.

٣- تم تسخير الأهالي لرفع وإزالة التحصينات، ومتاريس الثوار، ثم نسفت المناطق الشرقية والغربية للمدينة، وشقت طريقاً بها.

٤- يوم ٥/١٨ استكمل نسف شمال وجنوب المدينة، وبذلك تم الآتي:

* نسف (٧٠) منزلا، تسكنها (١٧٠) عائلة.
* نسف (١٥٠) منزلا، تسكنها (٣٠٠) عائلة.
* نسف (٨٥٠) كوخا، يسكنها (٤٠٠٠) مواطن.

مما أضر بالمباني، والكنائس، والمساجد القريبة، فأصـــيبت كنيســـة الخضر، ومسجد الشيخ رسلان، الذي سقطت مئذنته على كنيسة الروم، فأتلفتها، كما أصيبت كنيسة الأرمن.

٥- فقد أكثر من (١٠٠٠٠) فلسطيني مســاكنهم، وأثــاثهم، وممتلكــاتهم، وجُمعوا فـــي مدارس غير كافية للإقامة الإنسانية.

٦- تم تعويض المواطن عن مسكنه، وأثاثه، وعمله، بـــ (٢٠) مليم، لمـــدة أسبوع واحد، فاجتاحت الثورة فلسطين كلها، وطلب القائد العام فـــايس مارشال بيرز، الدعم، حتى تضخمت قواته (من بريطانيـــا، ومالطـــه، ومصر)، لكنه فشل فـــي إخماد الثورة، وعجز عن دخول نـــابلس إلا بحراسة كتيبة مشاة وهاوتزارات الأسطول فاستبدلته بريطانيا، وتحولت بريطانيا إلى دولة احتلال.

٧- فشل دوبل، فتعين بدله الجنرال ويفل، الذي فشـــل، فخلفـــه الجنـــرال روبرت هايننج، الذي استمر فـــي تنفيذ مخططـــات ويفـــل، بتشـــكيل دوريات قتال بقوة خفيفة الحركة عالية التدريب، متعاونة مـــع قـــوات الهاغناه والأرغون، ودعم بالكابتن وينغـــت، الخبيـــر فـــــي حـــرب العصابات، والسير تيغرت، لإفشال الثورة، بشق الصف، والوقيعة بين الأسر المتنافسة وإثارة الاقتتال الفلســطيني - الفلســطيني، وإغـــراء الوجهاء، والأغنياء، وربط مصالحهم ببريطانيا وبالصـــهاينة، ونشـــر الشائعات ضد الثوار، وقياداتهم، لعزلهم عن قواعدهم الشعبية.

٨- قامت "فصائل السلام" من عملاء والصهاينة والبريطانيين بتصفية القيادات الفلسطينية حتى خرج معظمهم من فلسطين ولجأو إلى سوريا ولبنان، حيث قيدت فرنسا نشاطهم استجابة لبريطانيا وتعاوناً معها.

٩- فرضت الغرامات الباهظة، والتجويع، وحظر التجول على القرى والمدن المتعاونة مع الثوار.

١٠- إنشاء (٨٠ كم) أسوار على حدود سوريا ولبنان، بعرض (٦) متر، وارتفاع (٣) متر بهدف إعاقة مناورة الثوار، وإمدادهم، وأنشئت للغرض نفسه أسوار، على مخاضات الأردن، مدعمة بالألغام. ونجح الثوار فى إزالة (٦) كيلو أسوار، مستخدمين الجمال والبغال، وأخذ الألغام لاستخدامها كمفرقعات، فاضطرت بريطانيا إلى سحبها.

١١- استخدم الأسطول، لمنع تهريب السلاح والقصف.

١٢- استغلال عصابات الهاغناه والأرغون، وشيترن، في أعمال إرهابية، كنسف أسواق القدس، ويافا، وحيفا، والاعتداء على المدنيين العزل.

١٣- لعل أبشع عمل إجرامي غير حضاري بريطاني، هو التهديد بضرب المقدسات التاريخية في القدس، واستخدام المدنيين كدروع بشرية في الهجوم، لاسترداد القدس، بعد أن تحررت (٩) أيام، بينما انسحب الثوار، رغم إمكانهم معاملة البريطانيين بالمثل.

نماذج وصور لأعمال قتال الثوار:

• أولاً: الكمائن:

نجح الثوار في نصب الكمائن للقوافل العسكرية والشرطية والصهيونية، وكانت إما مدروسة ومدبرة، أو كصيد حر، لقلة المعلومات، وفي المناطق المحتم المرور فيها.

اختير الكمين في قطاع من الطريق له منحنيات تمنع الرؤية المتبادلة لكل عناصر الرتل، كما اختيرت في مناطق تسيطر فيها الجبال والتلال على الطريق، وتوفر للثوار الإخفاء والحماية، وتغطية بعضهم بعضاً بالنيران، مع السيطرة النيرانية على الطريق.

توفير مكان آمن للتجمع فيه بعد الكمين.

تسمح الأرض لمفارز الإنذار لوقوع مقدمة ومؤخرة الرتل فـــي الكمين، كما تسمح بمراقبة أي نجدات على طرق الاقتراب من الكمين، وتستوعب قوة لتعطيلها، وتسمح بالاستخدام الآمن للأسلحة ضد الطائرات.

تم التعاون مع قوات الوطنيين (الفزاعة) الموثوق فيهم، للضرب علـــى قوات النجدة وتعطيلها، أو مشاركة الكمين نفسه، إذا وصلت قوة النجدة، مع توفير وتنظيم التعاون، للتخلص الآمن للفزاعة من القتال.

تميزت جميع الكمائن بالثبات، والمعنويات العاليـــة، والتعـــاون، وروح الفريق، بمبدأ (عطّل – اقتحم وأحدث الخسائر – انسحب حسب الخطة لنقطة التجمع)، ولم يكن أسلوبهم أضرب واجر، وأنقذ نفسك.

قاتلت الكمائن لمدة سبع ساعات، أو سدول الليل، حين يـــتخلص العـــدو نفسه من القتال خشية التورط ليلاً.

أصرت الكمائن على تنفيذ المهـــام، رغـــم الخســـائر، أو النجـــدات، أو المعونات الجوية للعدو.

وكان إسقاط طائرات العدو بالمفارز المخصصة لذلك رافعاً لمعنويـــات رجال الكمائن، ومُحبطاً للسلطة البريطانية.

وقد نجح الثوراه بالخداع، فـــي سحب واستدراج العدو إلى الأرض قتل مدبرة. وأثّر استخدام أفراد الكمين بفواصل كبيرة، علـــى شـــغل مواجهـــة واسعة، وفرت تأمينهم، وأجبرت العدو على الانتشار، فسهل اصطياده.

لم يفلح مدح البريطانيين لكفاءة كمين القاوقجي فـــي إحباط الثوار، الذين فقـــد استفادوا من أسلوبه، وكان الذكاء الفطري للثوار مقارباً لفكر المقاتلين المحترفين.

لم توقف الكمائن المدبرة الأعمال الانتقامية لأفراد الشعب للتربص بـــأي رتل، أو عربة متحركة، والضرب عليها.

نماذج من الكمائن:

- (**كمين نور الشمس**) :

– مدبر نهاري، يوم ٣٦/٦/٢١ بقيادة عبد الرحيم الحاج محمد، بقـــوة، (٥٠) مناضلا، فـــي العاشرة صباحاً.

• العـدو:

- (٦) سيارات نقل صهاينة، بحماية فصيل جند.
- (٢) مدرعة بقوة (١٧٠) إلى (٢٠٠) فرد ودعم (٣) طائرات.

• القرار:

- مفرزة لإيقاف الرتل و (٢) مفرزة رئيسية، للهجوم، ومفرزة مؤخرة للعزل، والقطع، وتعطيل النجدة. كما عين المراقبين يمـين ويسـار الكمين، للإبلاغ بدخول الرتـل، أو لوصـول النجـدة واسـتخدمت الحجارة، لتعطيل الرتل.

• سير المعركة:

- إيقاف القافلة ثم مهاجمة المقدمة والمؤخرة لتثبيت العدو.
- مهاجمة القوة الرئيسية للكمين، وتدخل عدد (٣) طائرات ولكن صمد الكمين سبع ساعات فـي القتال.

• الخسائر :

- بريطانيا تعلن استشهاد (٢١ - ٢٥) ثائرا.
- الثوار يعلنون قتل (٥٠) جديا وتدمير (٣) سيارات وإسقاط طائرة واحدة.

• الدروس المستفادة:

١- تحققت المفاجأة، لحسن اختيار وعمل الكمين نهاراً.

٢- توزيع المهام، للاستخدام الجيد للأرض.

٣- عدم الذعر من الطيران، بل إسقاط طائرة، بأسلحة بسيطة عتيقة.

٤- تعاون الثوار مع الفزيعة، فعطلوا قوة النجدة، ولم تصل للكمين، مما أكد أهمية التعاون مع المتطوعين المحليين الموثوقين.

معركة أبو شريتح:

– كمين مدبر نهارى، سعت (١٣٠٠) .

• العـــدو:

– قافلة نقل للقوات، وفيها ضابط عميل بعدد (٢)، ســيارة بقــوة (٢٤) جنديا، وبعد الاشتباك وصلت (٢٠) سيارة للنجدة.

• الثــــــوار:

– (٣٥) مناضلا وصلتهم نجدة من القرى المجاورة، وبلغت قوتهم (١٣٠).

• القـــــرار:

١– مفرزة (أ) ٥ فرد، لرصد دخول الكمين، وإرباك العدو بطلقات نارية.

٢– القوة الرئيسية تحتل بين النقطة (أ)، (ب) بفاصل (٥) متر بين الأفراد، فـــي أوضاع دفاعية، للانطلاق منها فـــي سبيل اقتحام الكمين.

• سير العملية:

١– توقفت السيارات، فور إطلاق نيـــران الإربـــاك، وترجـــل العـــدو، واحتمى بالأرض، وتبادل النيران (٤٥) دقيقة، لذلك لم يـــتم اقتحـــام العدو، كما لم يهاجم العدو الكمين، حتى تصله القوة الرئيسية.

٢– وصلت قوات نجدة، حمولة (٢٠) سيارة، وانتشرت لاقتحام الثوار، واحتلال التل، لكنها أخفقت فى مهمتها.

٣– وصلت نجدات للثوار من القرى المجاورة من الفزاعة، وبلغ عددهم جميعاً (١٣٠)، واستمر تبادل النيران، حتى سعت (٢٠٠٠) الساعة ٨ مساء.

٤– انسحب البريطانيون، خوفاً من أعمال التطويق، ليلاً.

• الخسائر :

- (٢) قتيل بريطاني، و (٣٠) جريحا، وشهيدين، وجرح (٥) ثوار.

• الدروس المستفادة :

١- نقص المعلومات، فالعدو دفع بسيارتين للتأكد من خلو الطريق، ثم دفع بالقوة الرئيسية للقضاء على قوة الكمين.

٢- وصول النجدات للثوار، مما عزز موقفهم.

٣- لعدم التنسيق مع الفزاعة، لم يقوموا بتعطيل النجدة.

٤- كان إطلاق طلقات الإرباك خطأ، فقد كشفت الكمين، وترجل العدو، واحتمى بالأرض.

٥- جعل الفاصل (٥) متر بين الثوار خطأ، حيث المواجهة غدت صغيرة، تمكن العدو من تركيز النيران عليها، واقتحامها، والمفروض ألا تقل عن (٥٠ - ١٠٠) م.

٦- كانت نجدة الثوار للكمين دون ترتيب مسبق.

معركة بلعا:

كمين مدبر ليلة ١ /٢ شهر (٩) سنة (٣٦):

• القائد:

- فوزي القاوقجي بقوة (٥٠) مقاتلا، في (٤) مفرزة، ومفرزتين ثانويتين.

• العدو:

- (٢٠) سيارة، دعمت بكتيبة مشاة مدعمة بالمدفعية، والمدرعات، وغطاء جوي (٩) طائرة، في (١٤) طلعة.

• ميدان المعركة:

- كمين بطول (١٢) كيلو، بعد تدخل نجدة العدو.

• سير المعركة:

١- إيقاف العدو، والضرب عليه، بمفرزتي الاستدراج.
٢- انسحاب مفرزتي الاستدراج، لإيقاع قوة العدو المطارد لهما في أرض قتل للمفرزتين الرئيسيتين.
٣- وصول قوة النجدة، كتيبة مشاة مدعمة بالمدفعية، والمدرعات، بحماية (٩) طائرات في (١٤) طلعة بعد تعطل قوة النجدة، لفترة قصيرة.
٤- تطور القتال على مواجهة (١٢) كيلو، شتت العدو، وأحدث به خسائر كبيرة رغم استخدام الطيران، لأن الانتشار قلل تأثير نيرانه.
٥- استمرار القتال، حتى نفذت ذخيرة الثوار، فتخلصوا من المعركة.

• الخسائر:

- أعلن البريطانيون مقتل ضابط، وضابط طيار، وتدمير طائرة، وإصابة (٣) جنود، وادعوا استشهاد (١٤) مقاتلا.
- أعلن الثوار مقتل (٨٠) جندي، منهم (٣) ضباط، وإصابة (٣) طائرات وتعطل الرابعة، والحصول على رشاش برن خاص الطائرة.

• الدروس المستفادة:

- دراسة جيدة للأرض - تطوير الكمين بتطور القتال والقوة المضادة - نجاح عملية الخداع لسحب العدو إلى نيران القوة الرئيسية.
- الاستخدام الكفؤ والشجاع ضد الطائرات، وإخراج (٥٠%) من طيران العدو من المعركة.
- لوحظ عدم تنسيق العمل مع الفزاعة، مما أدى إلى عدم تدخلهم مع أن التعاون أحد مبادئ حرب العصابات، مع قيود التأمين.

• النتائج:

- عزل وتغيير القائد العام البريطاني.
- الأثر المعنوي لإصابة وإسقاط (٤) طائرات.

- الاستفادة من خبرة المعركة.
- ضغطت بريطانيا على الرجعية العربية والفلسطينية للتهدئة، وأعلن العراق ونوري السعيد سحب القاوقجي من فلسطين، فانسحب الأخير بعد (٣٧) يوما.

صد الهجمات المفاجئة لدوريات القتال بقوة للعدو (معركة عرابة):

أمَّن الثوار مناطق تمركزهم لصد أي عمل مفاجئ لدوريات القتال بقوة، وقد تمت العملية كالآتي :

- يوم ٣٧/٥/٢٣ أصدر المراقبون الإنذار، فاحتل الثوار مواقعهم المحددة في اتجاه التقدم المعادي.

- **القائد:**
  - قائد منطقة الجليل (أبي إبراهيم الكبير)، بقوة (٥٠) مناضلا.

- **العدو:**
  - سرية خيالة من حرس الحدود ، دعمت بكتيبة مشاة، مدعمة تحت مظلة جوية، منذ اللحظة الأولى للقتال.

- **مراحل المعركة:**
  - المرحلة الأولى: صد الثوار قوة الحدود، ودعمهم الفزاعة، فصار عددهم حوالي (٢٠٠) فردا.

- **نتائج المعركة:**
  - أعلن البريطانيون إصابة طيار، إصابة خطيرة، وإصابة (٣) طائرات، ونفوق الخيول، وزعموا أن خسائرالثوار ما بين (١٨) جريح وقتيل.
  - أعلن الثوار استشهاد وجرح (٤) أفراد ومقتل طيار، وعدد من جنود العدو، ونفوق (٥) خيول، واغتنام ثلاثة، وكمية ذخيرة، وقطع سلاح، بعد (٤) ساعات قتال.

- المرحلة الثانية: وصل الإمداد البريطاني: كتيبة مشاة، مدعمة، فانسحب الثوار وطاردتهم القوات البريطانية، ودارت معركة شرسة، حتى الغروب.
- أعلن البريطانيون مقتل ضابط وجندي، وإصابة اثنين وأن خسائر الثوار (٢٩) فراد.
- أعلن الثوار استشهاد (٨)، وجرح اثنين، وأن خسائر البريطانيين (١٢٠).

• **الدروس المستفادة:**

١- طبقت بريطانيا (جنرال ويفل) نظام دفع الدوريات المقاتلة بقوة، مؤمنة بالطيران والنجدة السريعة.

٢- ارتفع المستوى الأمني والقتالي للثوار في كافة حالاتهم لمواجهة هذه القوات.

٣- رغم فارق القوة والتسليح، أدار الثوار عملية دفاعية ناجحة، لمدة يومين، بقواتهم ونيرانهم المحدودة رغم حصارهم مرتين، لم ينهاروا، وتخلصوا من الحصار قبل نفاذ ذخيرتهم، دون الوقوع في يد العدو، لمعنوياتهم العالية وخبرتهم. وقد غنموا الخيل والسلاح والذخيرة وأخرجوا من المعركة (٣) طائرات بإصابتها.

٤- يجب أن يجهز الانتقال إلى موقع بديل مختار، مسبقاً، لاستكمال ضرب العدو، فيما لو حاول الحصار.

٥- لوحظ تواجد الثوار في المناطق الجبلية قرب الحدود، لتأمين ظهورهم ومناوراتهم وإمداداتهم، وإن كانت بريطانيا خططت لحرمانهم من هذه الميزة، لاحقاً.

معركة اليامون: **٣٨/٣/٣ بقيادة الشيخ عطية**، **أحد رجال القسام**:

- بقوة (٤) فصائل، تم دعمهم حتى (٣٠٠) من الثوار.

• **العدو:**

- بقوة ثلاثة آلاف ومفرزة من قوات الحدود.

• أسباب المعركة:

١- قام الشيخ عطية، ومعه (٤) فصائل، بتطويق مدينة جنين، والإغارة على مراكز الشرطة، والجيش، والاستيلاء على ما فيها من أسلحة وذخائر، بقوة فصيل، مع قيام فصيل آخر بمهاجمة قوات الجيش في نابلس، تحت ستر كمين على طريق نابلس جنين، مما مكنه من تنفيذ الإغارة، والانسحاب بنجاح.

٢- توقع الشيخ عطية قيام البريطانيين بعمل انتقامي، فاستعد للمعركة، ودرس مناطق تمركزه، واحتل فصيل آخر طرق الاقتراب من رابا جنين، واحتل فصيل آخر قمم الجبال من كفردان إلى اليامون.

• سير العملية:

- حاصر البريطانيون مواقع الثوار، من العاشرة صباحاً حتى المساء، ففتح الثوار ثغرة، وانسحبوا، رغم خسارة العدو (٩) طائرات، ومفرزة الحدود.

• نتائج القتال:

- اعترفت بريطانيا بمقتل ضابط، وجرح آخرين، وإصابة (٥) طائرات، وادعت مقتل (٦٠) ثائرا، وأسر (١٦) ثائرا.
- وأعلن الثوار استشهاد (٩)، منهم القائد الشيخ عطية، وثلاثين من المتطوعين الفزاعة، وجرح كثيرين.

• تطور القتال :

- حاول البريطانيون استدراج المقاتلين، ففشلوا، لتحصن الثوار على مواجهة (٢) كيلومتر حتى انسحبوا بنجاح.

• الدروس المستفادة:

- ظهرت الروح المعنوية العالية، والصمود، والانضباط، رغم الخسائر والحصار، ففشلت مفاجأة العدو، وفشل تأثير نيرانه، ونجح الثوار في اختراق الحصار، لمعرفتهم الجيدة بالأرض.

ثالثا: الهجوم والإغارة على المدن:

- في نهاية شهر ١٩٣٨/٨، رغم عنف أعمال البريطانيين ضد المـواطنين، فإن المبادأة انتقلت إلى يد الثوار، الـذين دمـروا ممتلكـات الحكومـة والطرق، لانتشار روح الثورة بين المواطنين، وظن الـبعض أن لجـوء الثوار للمدن، كان لتخفيف الضغط على الثوار فـي الجبـال، وللعمـل السهل فـي المدن، وإن كنت أرى أنه كان بداية لتكوين جيش التحريـر، بمساهمة كل القوى الشعبية، التي شجعتها الانتصارات على العدو.

الإغارة على مدينة بئر سبع:

- تمت يوم ٣٨/٩/٩ ظهرا، للحصول على أسلحة، وذخائر الشرطة.

- **القائـــد:**
  - عبد الحليم الجيلاني و (٦٠) مناضلا في أربع سيارات شحن.

- **العـــدو:**
  - خمسة أفراد شرطة بريطانيين والشرطة المدنية الفلسطينية.

- **الخطـــة:**
  - ١- الاقتراب من بئر السبع، وحصارها من الجهات الأربع.
  - ٢- دخول المدينة، وحصار مركز الشرطة، والاستيلاء على مخزنه.
  - ٣- إخلاء مركز الشرطة، وإحراقه.
  - ٤- الانسحاب، فـي اليوم التالي، بنجاح.

- **الدروس المستفادة:**
  - مهاجمة المواقع غير المتوقعة، والمتطرفة، فـي سرية، وبقوة متفوقة، اعتماداً على الرضى الشعبي.

الإغارة على طبرية:

- **القائد:** أبو إبراهيم الكبير:

– للاستيلاء على ذخائر وأسلحة البريطانيين والصهاينة، بقوة (٣٠٠) مناضل.

- **العـــدو:**

– سرايا الحكومة، بمن فيها – معسكر الجيش البريطاني والحي اليهودي.

- **الخطـة :**

١– تقسيم القوة إلى خمس مجموعات، كلفت الأولى بمهاجمـة سـرايا الحكومة، والثانية بمهاجمة معسكر الجيش ومخازنه، وكلفت الثالثـة بمهاجمة الحي اليهودي، وكلفت المجموعة الرابعة بتـأمين طريـق الاقتراب من طبريا – سمخ، لمنع النجدة، وكلفت المجموعة الخامسة بتأمين الاقتراب من طريق صفد طبريا.

٢– استمرت العملية ٥ ساعات، من العاشرة ليلة ٢–٢/١٠/٣٨ وحتـى مطلع الفجر.

- **سير العمليات:**

١– نجحت العملية، وانسحب الثوار، ولكنهم اصطدموا بدوريـة قتـال، قرب حطين.

٢– دارت معركة مع دورية القتال بقيادة كابتن وينغت، الـذي حـاول محاصرة الثوار الذين نجحوا فـي الخروج من الحصار.

رابعاً : **تحرير القدس وإدارتها تسعة أيام، منذ يوم ١٩٣٨/٩/١٣**:

- **القائـــد:**

– عارف عبد الرازق، بقوة الثوار فـي القدس.

- **° العـــدو:**

– (٣٠٠) شرطيا والعديد من الجنود المسيطرين على القدس، ومخفر البراق.

- **الخطـــة:**

١- إعلان الإضراب العام للقدس، ومنع التجول داخل المدينة.

٢- قيام الثوار الموجودين فـــي القدس بمهاجمة مراكز الشرطة، فـــي الثانية صباحاً.

٣- قيام مفرزة باحتلال مخفر شرطة البراق.

- **سير العملية:**

١- نفذت، حسب الخطة، واستولى الثوار على أسلحة وذخائر الشرطة، وقتلوا الجنود الأربعة فـــي مخفر البراق، الـــذين كـــانوا يســـتفزون الفلسطينيين.

٢- تابعت المفارز تنفيذ الخطة، حتى صارت القدس بالكامل بيد الثوار، يوم ١٧/١٠/١٩٣٨، باعتراف جنرال هايننج نفســـه، وتـــم تشـــكيل محكمة ثورية داخل الحرم، لمحاسبة الخونة.

٣- هدد البريطانيون بضرب الأماكن المقدســـة التاريخيـــة بالمدفعيـــة، واقتحام المدينة التي حاصروها تحت ستر دروع بشرية مـــن قبـــل مدنيين فلسطينيين من قواتهم (الفرقة السابعة)، التي ستهاجم.

٤- قبل الثوار الخروج، أمام هذا التصرف غيـــر الحضـــاري وغيـــر الانساني، بعد مقتل أربعين مدنياً.

- **الدروس المستفادة:**

١- لم تقم القوى، المحلية والعربية والإسلامية، بإجراء قوي، أقله الإضراب العام، لدعم هذه العملية، ذات التأثير المعنوي على الجانبين.

٢- لم يحدث إعلام، يضغط، للابتعاد عن المدينة المقدسة.

٣- كان الواجب على الثوار إعلان وضع بعـــض الأســـرى الإنجليـــز واليهود فوق أسطح الأماكن المقدسة، ووضع الآخرين على الأسوار، ليكونوا أول من سيقتلهم البريطانيون اذا ما اقتحموا القدس (معاملـــة بالمثل)، وكأن هذا التصرف سيطيل أمد التفاوض، ويسمح بقيام رأى عام ضاغط على بريطانيا، ويشجع الفلسطينيين لردود فاعلة، ولكـــن

المشكلة كانت عدم وجود مرجعية عليا، سياسية وعسكرية، تدعم القائد المحلي، بالفكر والرأي.

كانت عملية القدس آخر عملية كبيرة تمت في الثورة، رغم حدوث (٩٥٢) عملية مؤثرة، سنة ١٩٣٩، إلا أن الأثر النفسي على الثوار لم يكن إيجابياً، لعدم تعزيز نجاح تحرير القدس بقيمه المتعددة، محلياً وشعبياً وعربياً، وإسلامياً، مما أحبطهم، في ظروف بالغة القسوة، هددت بانتهائهم، فتفتتوا، وقضي على الثورة، وتُرك قادة الميدان محبطين.

الخلاصة :

لقد انتشرت الثورة وبؤرها على مستوى فلسطين ومواطنيها، وشدَّد الثوار الهجمات على العدو، حتى حققوا التوازن معه، ثم نجحوا في شل قدراته، والسيطرة على كل فلسطين، وبدأت بوادر الحرب الشعبية، وظهور جيش التحرير، لإرهاق العدو البريطاني، وإفشال المشروع الاستيطاني الصهيوني، وللأسف ضيَّع العملاء وعناصر الثورة المضادة، النجاح الذي حققته الثورة بدماء (١٤٠٠٠) شهيد وجريح، وعجز آلاف الفلسطينيين.

مراجع الفصل الثاني

استعنت فـــي مجال الوقائع العسكرية بالمراجع التالية :

١- خضر العلي محفوظ، **تحت راية القاوقجي**، ط٢، دمشق، ١٩٧٣ .

٢- د.خيرية قاسم (تقديم وإعداد)، **مذكرات فوزي القاوقجي**، ط٢، معدلة مع وثائق، دمشق١٩٩٥.

٣- صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، القاهرة، ١٩٦٧ .

٤- المقدم محمد الشاعر، **الحرب الفدائية فـــي فلسطين**، بيروت، منظمة التحريـــر الفلســـطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٧ .

٥- المقدم يوسف رجب الربيعي، **ثورة ١٩٣٦ في فلسطين: دراسة عســكرية**، ط١، بيـــروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٢.

الفصل الثالث

الحركة الصهيونية والثورة

خالد سعيد



غني عن القول إن الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩)، كانت من اكبر التحديات التي واجهت التجمع الصهيوني في البلاد، خلال عهد الانتداب البريطاني، مقارنة مع ما سبقها، أو تبعها من تحركات عربية، سياسية كانت أم عسكرية. فقد جاءت هذه الثورة بمثابة محاولة أخيرة من قبل العرب الفلسطينيين للحفاظ على طابع فلسطين العربي، ومنع تحويلها، أو أجزاء منها، إلى دولة يهودية، مما دفع العرب الفلسطينيين إلى بذل جهود مضنية، وتقديم تضحيات ضخمة. ونتيجة لذلك، لحقت بالصهيونيين أضرار كبيرة، بشرياً ومادياً، وبمدى لم يعهدوه، حتى ذلك الوقت، في مراحل صراعهم المختلفة مع العرب الفلسطينيين.

غير أن هذا الواقع المستجد، بحد ذاته، أثار لدى الصهيونيين ردود فعل مختلفة، وتفاعلات متباينة، بعد أن خلق أوضاعاً جديدة بالنسبة إليهم، سارعوا إلى استغلالها، في أكثر من مجال، للإفادة منها، وتعزيز قواهم. وتم ذلك بصورة تكونت معها مفاهيم استراتيجية صهيونية جديدة، لا يزال بعضها قائماً، حتى اليوم، خصوصاً في مجالي الأمن والاستيطان، على أهميتها. وقد تبلورت هذه المفاهيم، تدريجياً، من خلال ضرورات التعامل مع الأحداث، التي وقعت خلال هذه الحقبة، بأبعادها المختلفة من جهة، والأطراف العديدة التي شاركت فيها من جهة أخرى[1].

تمثلت الاستفادة الصهيونية من الثورة في محاور عدة، أثرت فيها، وتأثرت بها، من بينها توحد العصابات الصهيونية المسلحة، وتنظيمها من جديد، وفق الخبرة التي اكتسبتها من الثورة، ومن خلال التدريب على أيدي قوات الانتداب البريطاني، وهي العصابات التي اعتبرت النواة الأولى للجيش الإسرائيلي، مع انتهاجها سياسة ضبط النفس، وزيادة التوسع في سياسة الاستيطان، فضلاً عن شراء السلاح، وكيفية جذب الصهيونية للعالم العربي، إلى جانب تأجيجها للحرب الداخلية، واشتعال الفتنة بين الفلسطينيين. وتمثلت هذه المحاور في:

أولا : السلطات البريطانية وتعاونها مع الصهيونية:

منذ اللحظة التي اتخذت فيها الثورة العربية في فلسطين طابع الصراع المسلح ضد الصهيونيين والسلطات البريطانية، في البلاد، على حد سواء، نشأ وضع من تطابق المصالح بين الطرفين (البريطاني

والصهيوني)، خاصة فــي المجال الأمني – العسكري، بعد أن أصبح كــل منهما معنياً بقمع الثورة، والعمل على إيقاف نشاطها ضده. ومن هنا، لم تكن المسافة طويلة للوصول إلى تعزيــز التعــاون والتنســيق بــين الانتــداب والصهيونية فــي هذا المجال، لتحقيق أهدافهما المشتركة. فالبريطانيون كانوا فــي أمس الحاجة إلى مساعدة الصهاينة، لأن القوى العسكرية البريطانيــة فــي فلسطين لم تكن كافــية، فــي معظم الأحوال، للتعامــل مــع الثــوار العرب. أما الصهاينة، فقد تعاونوا مع القوات البريطانية، نتيجة لرغبتهم فــي التصدي للهجمات التي كانت تُشن عليهم من قبل العرب، أولاً؛ وللمســاعدة فــي إنهاء الثورة، بأسرع ما يمكن، حتى لا تتمكن من إحــراز انتصــارات سياسية، ثانياً؛ فــي الوقت نفسه، استغلال الأوضاع لتــدريب المزيــد مــن رجالهم عسكرياً، والحصول على مختلف أنواع الأسلحة، من خلال التعــاون مع الجيش البريطاني، ثالثاً؛ وقد مر هذا التعاون الصهيوني – البريطــاني بمراحل مختلفة، من المد والجزر، تبعاً للأوضاع السياسية التي سادت، مــن فــينة إلى أخرى.

بدأ التعاون فــــي المجــال الأمنــي – العســكري بــين الصــهيونيين والبريطانيين فــي فلسطين، خلال هذه المرحلة، فــي وقــت مبكــر للغايــة. ففــي اليوم الأول من الإضراب العربي الفلسطيني (١٩ نيسان/إبريل ١٩٣٦)، سارع رئيس "الوكالة اليهودية"، الدكتور حاييم وايزمان إلى الاتصال بسلطات الانتداب مطالباً بتعزيز قوة الشرطة فــي تل أبيب، وقد استجابت تلك السلطات لهذه المطالب، بشكل أو بآخر، إذ أوعزت بزيادة دوريــات الشــرطة فــــي المناطق القروية، وسمحت لليهود باستعمال السلاح، لحراسة أنفســهم. كــذلك سمح بفتح صناديق السلاح المختومة، التي كانت موجودة، أصلاً، فــي عــدد من المستوطنات اليهودية، تسهيلاً لاستعمالها. ومع أواخر شهر أيــار/مــايو التالي، تمت الموافقة على تعزيز قوات الشرطة بعناصر جديدة، وبدأت فــــي الخامس والعشرين من الشهر نفسه، عملية تجنيد ٤٠٠ شــرطي إضافــــي، أطلق عليهم اسم «خفر» (نوطريم)، وبوشر بتدريبهم وتوزيع السلاح علــيهم. ومع انتهاء الإضراب العربي، فــي منتصف تشرين الأول/أكتوبر من الســنة نفسها، سُمح لهذه القوات «بالخروج إلى ما وراء حدود (المستوطنات)، والقيام بحراسة الحقول، والكروم، والبساتين»[٢].

تشير الرواية الإسرائيلية الرسمية لأحداث الثورة، المأخوذة من كتــاب «تاريخ الهاغاناة» إلى أنه «سيكون من نكران الجميل عدم التنويــه بالــدور

المهم الذي قامت به الشرطة البريطانية في الدفاع عن المستعمرات اليهودية، أيام الارتباك تلك. ففي حالات كثيرة، كان الضباط والشرطة البريطانيون يغضون النظر عن السلاح غير المرخص، «كما لو أن هناك اتفاقاً ضمنياً بين (الحركة الصهيونية) وبين الشرطة»[٣].

تقول رواية ثانية من كتاب تاريخ الهاغاناه: "كان واكهوب واحداً من المندوبين الساميين (الصهيونيين) جداً، وكانت صهيونيته، طبعاً، صهيونية شخص غير يهودي من خارج المعسكر، قام بعمله بإخلاص، مست معاناة اليهود في أوروبا الوسطى شغاف قلبه، هاجر إلى البلد في عهده ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ يهودي". وفي رواية ثالثة حول الضابط البريطاني وينغيت: «لقد كان التقاء وينغيت رجال الدفاع العبريين قصيراً جداً، لكنه ترك أثراً لا يمحى في الطرفين معاً، رفع من كفاءة الشباب اليهودي القتالية، فاسم وينغيت سيبقى محفوظاً، دائماً، في تاريخ إسرائيل، وتاريخ «جيش الدفاع الإسرائيلي»[٤].

جاءت إقامة قوات الخفر بمثابة فاتحة مرحلة جديدة في تطور التنظيمات العسكرية الصهيونية في فلسطين، فالسلطات البريطانية لم تكتف بإقامة تلك القوات وغيرها من القوات النظامية فحسب، بل إنها اعتمدت، أيضاً، ضابط ارتباط بينها وبين «الوكالة اليهودية»، وهو يهوشواع غوردون، أحد المسؤولين في «الهاغاناه»، للإشراف على عملية تجنيد المرشحين لتلك القوات، ومع تجدد النشاط المسلح في فلسطين، في أواخر العام ١٩٣٦، لم توافق السلطات البريطانية على تجنيد أعداد أخرى من الخفر فحسب، بل إنها قامت، أيضاً، بتوسيع صلاحيات تلك القوات، ونطاق عملها، فضلاً عن تدريبها. ويقول الرمز الصهيوني ديفيد بن غوريون عن وينغيت: «لو عاش هذا الرجل، لقاد القوات الإسرائيلية في حرب الاستقلال»[٥].

ثانيا: توحيد المنظمات الصهيونية:

لم تقتصر ردود فعل الصهيونيين على الثورة العربية في حدود التعاون مع البريطانيين فحسب، بل تعدتها، أيضاً، لتشمل واقع قواهم العسكرية بأكملها، التي كانت قد تبلورت، مع منتصف الثلاثينات، على شكل منظمتين مستقلتين، هما «الهاغاناه» و «إتسل»، تشرف على كل منهما وتدعمهما مجموعة من الأحزاب والتنظيمات السياسية الصهيونية. فمع الإضراب، واتساع نطاقه، ثم انفلات

الأوضاع الأمنية، فتجددت الدعوات إلى توحيد القوى العسكرية الصهيونية، بدمج «الهاغاناه» و»إتسل» في منظمة واحدة، ومن ثم دعمها وتقويتها، لتصبح قادرة على مجابهة التحدي العربي المتوقع، في حال استمرار الثورة، واتساع نشاطها، وعلى الرغم من فشل مثل هذه المحاولات في السابق، فقد كان لها، في ضوء الأوضاع المستجدة، ما يبررها، كذلك، كان هنالك أساس، بالنسبة لزعامة «الهاغاناة»، على الأقل، لنجاح محاولات التوحيد هذه المرة، خصوصاً وأنه من بين الأحزاب الأربعة المشرفة على نشاط «إتسل»، كان التصحيحيون، وحدهم معنيين، عملياً، باستمرار الانشقاق، إنطلاقاً من موقفهم السياسي المعارض لموقف الجناح العمالي المسيطر على «الهاغاناه»، من أساسه، بينما لم يكن هذا هو الوضع بالنسبة إلى باقي الأحزاب، وخاصة «الصهيونيين العموميين» و«المزراحي».

وقد تنبه الجناح العمالي لهذه الثغرة، وركز ضغوطه عليها. وفي أوائل آب/أغسطس ١٩٣٦، وقع الحاخام مئير بار-إيلان، زعيم المزراحي، على اتفاق مع بيرل كاتسنلسون، باعتباره ممثلاً للهستدروت و»الهاغاناه»، قضى بتوحيد المنظمة مع «إتسل»، بهدف «وضع حد لأية ازدواجية، ولانعدام الانضباط القومي في هذا المجال». إلا أن قائد «إتسل» فلاديمير جابوتينسكي عارض الاتفاق، الذي تم من خلال اعتبار قيام «إتسل» كمنظمة مستقلة ظاهرة من «انعدام الانضباط القومي»، وطالب جابوتنسكي باتفاق سياسي شامل، لا عسكري فحسب، بين أتباعه في منظمة الصهيونيين التصحيحيين، وبين «المنظمة الصهيونية العالمية» و»الوكالة اليهودية»، وهو ما رفضه الجناح العمالي، لاقتناعه بأن لا جدوى من مثل هذا الاتفاق، وربما ثمة استحالة الوصول إليه، نظراً للخلافات العقائدية العميقة بين المعسكرين[٦].

أدى هذا الموقف إلى تعميق الخلافات بين الأطراف المشاركة في قيادة «إتسل»، إلى درجة دفعت جابوتينسكي، في محاولة لرأب الصدع، إلى توقيع اتفاق مع قائد المنظمة، إبراهام نعومي، في مطلع كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٦، بهدف حل تلك الخلافات، أو تجميدها، على الأقل إلا أن هذا الاتفاق كان عديم الجدوى، إذ استمرت الخلافات على حالها، بل راحت تتعمق، تدريجياً، وخصوصاً في أعقاب فشل المحاولة التي قام بها الياهو غولومب، زعيم «الهاغاناه»، في لندن، أواخر سنة ١٩٣٦، للوصول إلى اتفاق مع جابوتينسكي حول الوحدة. وقد نجم هذا الفشل عن رفض جابوتينسكي وضع أتباعه تحت إمرة «الوكالة اليهودية». ونتيجة لذلك، استمرت حملات بن غوريون على التصحيحيين، ومطالبته بتوحيد

المنظمتين، كما استمرت الضغوط من جهات أخرى، فاضطرت قيادة «إتسل» إلى اتخاذ قرار مبدئي، في أواخر كانون الثاني/يناير ١٩٣٧، يقضي بتوحيد منظمتها مع «الهاغاناه»، تحت إشراف «المجلس الملي اليهودي»، الذي يضم ممثلين عن «التصحيحيين»، على عكس «الوكالة اليهودية»، وذلك في محاولة لإبقاء الباب مفتوحاً أمام إمكانية انضمام منظمة «إتسل» إلى المنظمة الموحدة، في حال قيامها.

في ٢٦ نسيان/إبريل ١٩٣٧، وقّع كل من غيفن وغولومب وافيغور، عن «الهاغاناه»، ونداف نعومي، عن «إتسل»، على مذكرة قضت بدمج المنظمتين، وتوحيدهما تحت سلطة إدارة «الوكالة اليهودية» و«المجلس الملي اليهودي»، اللذان يعينان لجنة مركزية للتنظيم الموحد، تضم ١٦ عضواً، نصفهم من ممثلي الجناح العمالي والنصف الآخر من ممثلي الأحزاب الأخرى، وذلك إضافة إلى قيادة من ٦ أعضاء، يتوزعون، أيضاً، مناصفة بين الطرفين. كذلك سمح بموجب الاتفاق، للمنظمة «إتسل»، بالاحتفاظ بوحداتها التنظيمية، ومخازن أسلحتها، لفترة انتقالية، مدتها ٩ أشهر، تدمج، في نهايتها، كل الوحدات في المنظمتين ببعضهما البعض[٧].

بدوره أوضح كتاب «تاريخ الهاغاناه»، حول توحيد المنظمات الصهيونية، قائلاً: «لكن من يقوّم التوحيد، الذي أنجز سنة ١٩٣٧، في ضوء الطاقة البشرية والأسلحة التي ضمت إلى (الهاغاناه) في أعقابه، لن يكون منصفاً، فالتوحيد أنقذ المئات من الأنفار والقادة من التيه والارتباك، وضمهم إلى المجموع المنظّم، والخاضع، خضوعاً تاماً، للمؤسسات القومية. كما أنه رصّ صفوف أشخاص، وأوساط مهمة في الجناح المدني، وقوّى ولاءهم لـ (الهاغاناه)، وأظهر مبادئ، وجعل أوساطاً واسعة في اليشوف تدرك أهمية (الهاغاناه)، بصفتها إطاراً رسمياً وحيداً، وصفتها ذراع اليشوف والصهيونية في نضالهما ضد المتآمرين عليهما»[٨].

ثالثا: مفاهيم أمنية جديدة:

خلال فترة السنة، الواقعة بين أيلول/سبتمبر ١٩٣٧ وأيلول/سبتمبر ١٩٣٨، التي استعر فيها النشاط الثوري العربي، مجدداً، على نطاق واسع، وفي معظم أنحاء فلسطين، وصل التعاون بين السلطات البريطانية والصهيونيين في البلد إلى أوجه، مما أسفر عن فوائد جمة للصهيونيين، في أكثر من مجال، وخصوصاً المجال العسكري. ونتيجة لذلك، نمت قوى

الصهيونيين، من حيث تدريبها، وتسليحها، وإعادة تنظيمها، بشكل لا مثيل له، حتى ذلك الوقت، كانت له انعكاساته في المستقبل، بعد أن خلعت (الهاغاناه) طابع الميليشيا الفضفاض، الذي كان يغلب على نشاطها، واستبدلت به، بفضل جهود البريطانيين، تنظيماً شبه عسكري منضبطاً ومدرب جيداً. حيث انقلبت وحدات الشرطة اليهودية إلى قوة عسكرية «شرعية» مسلحة، بلغ حجمها، في عام ١٩٣٧، حوالي ٣٨٠٠ يهودي. ولم يكن هذا الرقم سوى الجانب العلني للقوة السرية اليهودية، التي بلغت عشرين ألف رجل، يعملون تحت ستار «شرطة المستعمرات». ويعلق بن غوريون على تكوين الشرطة اليهودية، بقوله: « كان لظهور آلاف من الشبان اليهود حاملين الأسلحة المرخصة، أثر سريع في تحسين مركزنا الدفاعي». وكانت هذه المجموعات العسكرية هي العمود الفقري الذي نمى حوله الجيش الصهيوني، فيما بعد(٩).

نُظّمت هذه الشرطة في ١٠ ألوية، ووزعت على شتى المناطق التي يتواجد فيها اليهود في فلسطين. ومع صيف تلك السنة وصل عدد أفراد تلك القوات، بين نظامية واحتياطية، إلى نحو ٢٢ ألف رجل، تحت تصرفهم ٧٨٦٠ قطعة سلاح مختلفة (وبقيت تلك الشرطة قائمة، بإطارها المستقل، حتى إنشاء الدولة الإسرائيلية). وكانت السلطات قد أقامت، أيضاً، خلال شهر آذار/مارس من السنة نفسها، «لجنة الدفاع عن المستعمرات اليهودية»، بهدف تنسيق أنشطة الأجهزة المختلفة في هذا الصدد، بينما ثابرت على اعترافها، وتعاونها مع ضباط الارتباط، الذين عينتهم «الوكالة اليهودية» لمتابعة شئوون رجال الشرطة، والذين كانوا، بدورهم، على علاقة وثيقة بقيادة «الهاغاناه».

لم يقتصر التعاون في المجال الأمني العسكري بين الصهيونيين والبريطانيين على إقامة قوات الخفر فحسب، بل تعداه، أيضاً، ليشمل إنشاء وحدات أخرى خاصة، ضمن تلك القوات أو إلى جانبها، لتأدية مهام محددة، أو للتصدي لتحديات معينة، خلال فترة ما. وكانت سنوات الثورة العربية قد شهدت إقامة أكثر من وحدة خاصة من هذا النوع. ففي الأول من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧، يوم إعلان سلطات الانتداب عن حل «اللجنة العربية العليا»، أقيمت، ضمن قوات الخفر، وحدات «الحراسات المتحركة» (مشميروت ناعيم)، وهي عبارة عن دوريات تتجول في شاحنات صغيرة مصفحة، هدفها حماية المستوطنين لدى ذهابهم إلى عملهم، وعودتهم منه، وتأمين طرق المواصلات بين المستوطنات. ومع إعادة تنظيم قوات الخفر، في أواخر سنة ١٩٣٨، دعمّت هذه الوحدات بالقوى البشرية والسلاح،

فضمت نحو ٤٠٠ شخص، موزعين على نحو ٦٠ وحدة. وفـي الوقت نفسه، أقامت «الهاغاناه»، أيضاً، وحدات «حراسة متحركة»، أطلق عليها اسم «كتائب الميدان» (بلوغوت ساديه؛ فوش)، وكانت أساليب العمل قد حددت، على النحو التالي(١٠):

١- القيام بأعمال الدورية فـي المناطق التي تضم حقولاً وبساتين يعمل فـيها عمال، أو توجد فـيها محاصيل، أو قطعان غنم، أو بقر.
٢- القيام بأعمال الدورية علـى الطرقـات، والـدروب التـي يسلكها المستوطنون، فـي أثناء خروجهم للعمل، وعودتهم منه.
٣- إظهار وجودهم للأصدقاء، المهددين من الأعداء.
٤- نصب الكمائن فـي الطرقات، التي يسلكها المهاجمون عادة.

بيد أن أكثر الوحدات اللافتة للنظر، التي أقيمت خلال هذه الحقبة من التعاون الصهيوني- البريطاني، كانت تلك التي عرفت باسم «الوحدات الليلية الخاصة» (بلوغات هليلاه هميوحيدت)، وانشـئت فـي صيف ١٩٣٨، وجاءت من أجل التصدي لمحاولات تهريب السلاح للعرب الفلسطينيين من سوريا. حيث ارتأى الضابط البريطاني وينغيت أن خير وسيلة للتصدي لعمليات التهريب هي التغلغل إلى عمق المناطق العربية، ليلاً، بلباس مدني، مع الاستعانة ببعض رجال قوات الخفر اليهود. وفـي منتصف تموز/يوليو ١٩٣٨، وبعد اشتداد هجمات الثوار الليلية على أنبوب النفط، أقيمت أول وحدة ضمن «الوحدات الليلية الخاصة»، ومركزها مستوطنة عين حارود، وكلفت بحراسة ذلك الأنبوب، ثم أقيمت، تدريجياً، وحدات أخرى مماثلة، فوصل عدد الذين سمح لهم بالعمل، ضمن إطار هذه الوحدات إلى نحو ١٠٠ يهودي، و٥٠ بريطاني؛ ومارست هذه الوحدات عملها، بحماس بالغ، من خلال ارتكاب الفظائع ضد القرويين العرب، وإرهابهم(١١).

كيفـية التدريب، والتخطيط، والتنظيم، يقول يعقوب الياب، الإرهابي الصهيوني، حول عمليات الإرهاب التي اقترفتها الحركة الصهيونية، خلال الثورة: «كنت أدرب زملائي على العمل بتلك الوسائل القتالية المتوفرة لدينا، وبالوسائل المحدودة التي بحوزتنا، فمثلاً كنت أحدد هدف الهجوم، مثل: زعيم عربي، قيادة عربية، مخزن أسلحة، مصنع يدوي، لإنتاج الأسلحة، وما شابه ذلك، فكنت أقوم على التنفـيذ، بمراحل: جمع المعلومات، وضع خطة عمل، استغلال مزايا المنطقة، دراسة استخبارية قبل بدء العملية، تنفـيذ العملية، الانسحاب، الإختفاء. كان كل ذلك يتم فـي ظل ضـآلة فـي الإمكانات

والوسائل. وجرت التدريبات مرة في الأسبوع، على الأقل، داخل المدارس، في المدارس الدينية، في المصانع اليدوية، في الحمامات، والكنس، وبقية المؤسسات العامة، في الأمسيات، وعندما كان العمال يغادرون المكان، كنا نتسلل إلى الداخل من أجل التدريب»(١٢).

«منذ الأيام الأولى للاستيطان الصهيوني، كانت مشكلات الحراسة والدفاع تتصدر قائمة هموم المهاجرين القادمين للاستيطان. وعملياً، كان الدفاع في صلب مشروع الاستيطان، الذي لولاه لما قام أي دفاع في البلد، ولكانت قامت، في أفضل الأحوال، منظمات حراسة ودفاع محلية في المدن، على غرار مجموعات الدفاع في المنفى»، بهذه الكلمات بدأ الفصل الخامس والأربعون من كتاب «تاريخ الهاغاناة»، حول عملية «السور والبرج»، وهو تنظيم دفاعي، ابتدعه المستوطنون الصهاينة، عند إنشائهم لأي مستوطنة، حيث يقيمون سوراً حول المستوطنة، وبرجاً عالياً وسطها، يتناوب على حراسة المستوطنة بعض الشبان الصهاينة. يأتي هذا في وقت أُرسيت فيه أسس صناعة عسكرية، وطوِّرت مصلحة المخابرات (شاي)، وبوشر بتدريب عدد من العناصر في مجالي البحرية والطيران. وفي صيف ١٩٣٨، أُقيمت، أيضاً، مؤسسة مالية، سميت «كوفير هاييشوف» (فديت اليشوف)، بهدف تغطية المصاريف المالية الناجمة عن الأوضاع المضطربة.

رابعا: استراتيجية الاستيطان:

استندت الاستراتيجية الصهيونية الجديدة على الدور الذي يمكن أن تلعبه المستوطنات كرأس حربة «للشعب اليهودي العائد إلى فلسطين». ولذلك، فإن التركيز على خلق «المقاتل البناء» لم يكن وليد التجربة فحسب، بل أصبح هو من صلب الخطة، ومن مقومات الفكر الصهيوني السياسي العسكري، ومن هنا فإن فكرة «المستوطنات» – فضلاً عن دورها الاجتماعي والاقتصادي – كانت وسيلة أصيلة لتحقيق الأهداف الصهيونية الرامية إلى غرس الوجود الصهيوني في فلسطين، رغم إرادة سكانها، في شكل معسكرات محصَّنة، قادرة على الاستغناء، مؤقتاً، عن العالم الخارجي، ومقاومته أي أعتراض على وجودها، تمهيداً لاغتصاب البلاد، بالقوة والقهر(١٣).

بدا واضحاً للصهيونيين أن هناك ضرورة قصوى للاستيطان الصهيوني، كي يلائم المتطلبات السياسية والاستراتيجية، وهو ما ظهر جلياً لهم، خلال مفاوضات التقسيم التي اقترحتها «لجنة بيل» الملكية البريطانية، في عام

١٩٣٧، حيث رأى الصهاينة أن المناطق التي لم تطأها قدم مستوطن يهودي، ستظل، تلقائياً، خارج حدود الدولة اليهودية، لذا عملوا على زيادة الاستيطان القائم على العمل البعيد عن الأضواء، وبالدفاع المدني اليومي عن المواقع التي احتلت، وأدركوا أن التصريحات السياسية والبنود في الوثائق السياسية، لا يمكن أن تشكل إلا تكريساً لما هو قائم في الواقع، بل وسيلة لاحتلال البلاد سياسياً، أيضاً!

ونتيجة لإضطراب الأوضاع الأمنية، تقلص رأس المال الخاص اليهودي، في سوق شراء الأراضي في فلسطين، الأمر الذي مكّن «الصندوق القومي اليهودي» (كيرن كايميت)، من أن يكون أكبر مالك للأراضي في فلسطين، مما سّهل على مؤسسات الاستيطان الصهيونية، تخطيط إقامة المستوطنات على الشكل الذي تراه مناسباً. رغم أساليب التحايل والرشوة التي لجأت إليها، نتيجة للمقاومة الشديدة التي أبداها الثوار العرب لعمليات بيع الأراضي، وقيامهم بإعدام أكثر من سمسار، أو متورط في مثل هذه العمليات. فخلال السنوات ١٩٣٧- ١٩٣٩، تمكن الصهيونيون من شراء أو حيازة نحو ١٤٠,٨٠٠ دونم آخر من الأراضي، منها نحو ٨٤,٧٠٠ دونم تم تسجيل بيعها، رسمياً، في مكاتب تسجيل الأراضي (٢٩,٤٠٠ دونم، سنة ١٩٣٧، ٢٧,٣٠٠ سنة ١٩٣٨، و ٢٨,٨٠٠ سنة ١٩٣٩) بينما كان نحو ١٠,٠٠٠ دونم آخر منها من الأملاك العامة التي سلمتها السلطات لليهود لإستغلالها.

وبذلك، أصبح مجموع ما يملكه اليهود أو يسيطرون عليه من أراض في فلسطين، مع نهاية سنة ١٩٣٩، نحو ١,٥٣٣,٣٠٠ دونم. ومن هذه المساحة كان هنالك نحو ١٧٧,٨٠٠ دونم من الأملاك العامة. وعلى الرغم من أن كل تلك الأراضي لم تكن تشكل، آنذاك، إلا نحو ٥,٨٣ بالمئة من مجموع مساحة فلسطين اليابسة، فإن معظمها كان من الأراضي السهلية الخصبة، الصالحة للاستغلال الزراعي، بشكل كثيف، مما سهّل استيطانها، والإفادة منها، على نطاق واسع [١٤].

ومن الأسباب التي ساعدت على اتساع نطاق الاستعمار الصهيوني، وجود الشرطة اليهودية الرسمية، حيث قامت «الهاغاناه» بإنشاء وحدات عسكرية من المهندسين، أخذت على عاتقها تصميم، وتصنيع، وإقامة مستعمرات «مسبقة الصنع»، ومعدة في الوقت نفسه، لأعمال الدفاع، أي تتحول إلى قلعة عسكرية، بمجرد إنشائها. وبالتالي أصبح التخطيط الاقتصادي والزراعي غير

كاف، فمن الضروري أن يصاحبه التخطيط العسكري، كما كان على الميزانية أن توجه عنايتها للسيف، كما توجهها للمحراث»(١٥).

يشير كتاب «تاريخ الهاغاناه» إلى كيفية بناء المستوطنات، في البداية، حيث بنيت داخل سور من قوالب خشبية، محشية بالحصى، يحيط بساحة مربعة، يبلغ طول ضلعها ٣٥ متراً، وتضم أربعة أكواخ، وأربعة مواقع حراسة في زواياها الأربع، ويحيط بالسور، على بعد مسافة معينة منه، سياج من الأسلاك الشائكة، وينتصب في وسط الساحة برج مراقبة، يعلوه كشاف ضوئي، ويزود مولد كهربائي مركب في البرج نفسه الكشاف الضوئي بالتيار، ويبنى خزان ماء في البرج لتلبية حاجات المعسكر، وعرفت طريقة الاستيطان هذه بأسم «السور والبرج» (حوماه ومغدال).

وبناء على هذه الاستراتيجية أنشئت مستوطنات لم يستكمل بناؤها إقتصادياً، إلا بعد إقامة «إسرائيل»، حيث فضل الصهيونيون الاعتبارات السياسية على الاقتصادية، فقد أنشئت ٩ مستوطنات وفق طريقة «السور والبرج»، خلال النصف الأول من سنة ١٩٣٧. ومع استئناف النشاط الثوري العربي، في خريف سنة ١٩٣٧، إثر مقتل اندروز، وحلّ «اللجنة العربية العليا»، توقفت عمليات الاستيطان، كلياً، على مدى خمسة أشهر، نظراً لاشتداد عود الثورة العربية، إلى أن استؤنفت تلك العمليات تلك العمليات، في أواخر آذار/مارس ١٩٣٨.

خامساً: سياسة ضبط النفس:

جرت أحداث سنة ١٩٣٦ في ظل سياسة "ضبط النفس"الصهيونية. وقد شاع هذا التعبير، منذ بداية الأحداث، وأثار جدلاً مريراً، لم يتوقف حتى قيام دولة إسرائيل. وكما يحدث، عادة، في كل جدل، تتصارع فيه أحزاب وأوساط مختلفة، تعرَّض، أيضاً، مضمون «ضبط النفس»، ومغزاه لاعتبارات سياسية – للتشويه، وتم تزوير حقائق كثيرة. ولذا، يجدر بنا تفحص تسلسل الأمور التي قادت اليشوف إلى تبني سياسة ضبط النفس، في صيف سنة ١٩٣٦، وذلك من أجل إظهار الحقائق كما هي.

قبل وقوع الأحداث سنة ١٩٣٦، كان اليشوف يرد على الأعمال العسكرية العربية بالدفاع السلبي، وترك، بصفة عامة، أمر مطاردة للمقاتلين العرب ومعاقبتهم للسلطات البريطانية. وفي الواقع كان هناك، خلال تلك

الفترة، ردات فعل وأعمال انتقامية عفوية، وغير مدروسة، قام بها أعضاء من «الهاغاناه»، أو أشخاص غير منتمين إليها. وكانت ردات الفعل هذه منسجمة مع مفاهيم الشرف، وأصول التصرف السائدة في المجتمع العربي، واعتبرها العرب رداً طبيعياً. لكنها كانت تترك، دائماً، رواسب ثقيلة في أوساط اليشوف العبري. فقادة اليشوف و«الهاغاناه» كانوا مقتنعين، بصورة عامة، بأن مضار الانتقام أكثر من فوائده، فسعوا لتوجيه الشعور بالانتقام إلى سبل قانونية».(١٦)

قضت هذه السياسة بأن يقتصر الرد، في مثل هذه الحالات، قدر الإمكان، على المسؤولين، مباشرة، عن تلك الهجمات، أو من له علاقة بها، والامتناع عن التعرض، بصورة شاملة، للعرب كافة، وشن الهجمات عليهم، وقتلهم، دون تمييز. وعلى الرغم من أن بعض قادة «الهاغاناه» عرضوا هذه السياسة كأنها ناجمة عن «مبدأ» الحفاظ على «طهارة السلاح» اليهودي، فقد كان لهذا الاتجاه، أساساً، اعتباراته العملية الكامنة وراءه. فقد سعت قيادة «الهاغاناه» إلى عدم التورط في «الأخطاء» التي ارتكبت خلال التحركات الثورية العربية السابقة في فلسطين، والامتناع عن إضفاء طابع الصراع العربي- اليهودي على الثورة في البلاد، وبالتالي عدم اللجوء إلى الوسائل التي اتبعها العرب، وبدلاً من ذلك التعاون مع سلطة الانتداب لإعادة الأمن والاستقرار إلى نصابهما، من خلال عرض الثوار العرب كمجموعات من الخارجين على القانون. كذلك، قدر الصهيونيون حجم المشاكل الأمنية – الاقتصادية التي عاناها البريطانيون في فلسطين، نتيجة للثورة، حق قدرها، وقرروا الامتناع عن التسبب في زيادتها، خشية أن ينقلب البريطانيون عليهم، أيضاً. كما كان لسياسة «ضبط النفس» منافعها المادية، إذ نتيجة لها نقلت، مثلاً، المكاتب الحكومية من يافا العربية إلى تل أبيب اليهودية، وافتتح ميناء في الأخيرة، بعد أن عمَّ الإضراب ميناء يافا، وأُقيمت قوات الخفر، وباقي الوحدات العسكرية اليهودية. كذلك سهّلت هذه السياسة عمليات الاستيطان اليهودي في مناطق مختلفة من فلسطين (١٧).

انتهج «التصحيحيون» في فلسطين سياسة مخالفة لتلك التي اتبعتها «الوكالة اليهودية»، و«الهاغاناه». ففي الوقت الذي كانوا يدعون فيه إلى التمسك بضبط النفس، أرسل جابوتنيسكي، في أواخر نيسان/ابريل ١٩٣٧، بتعليمات إلى أتباعه بالرد على هجمات الثوار العرب. واستمر الوضع على ما هو عليه بين أخذ ورد، من هدوء تتبعه هجمات على العرب (!)، ووصل

الأمر بين منظمتي «إتسل» و«الهاغاناه» إلى حد ينذر بنشوب حرب أهليـــة، لكنهما، على أي حال، رأوا أن كل الطرق تؤدي إلى روما.

سادسا: جذب العالم الغربي:

ما من شك فـــي أن الصهيونيين قد لعبوا على وتـــر الحـــديث الشّـــيق واللبق، وبأسلوب عاطفـــي جداً، حول التعرض لمشكلة اليهود فـــي العـــالم، وتعبير «اليهود تعساء الحظ»، حيث استخدمت هذه العبارة، كجملة رئيســـية، تكرر ورودها فـــي خطابات مؤيدي الصهيونية، فلم يتم بحث مستقبل اليهود كشعب بانفصال عن مستقبل فلسطين، حتى أن ونستون تشرشل، أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني آنذاك، ذكّر زملاءه بأنه لا يستطيع بحث الهجـــرة اليهودية إلا بارتباطها بفلسطين. كما صرح الكولونيل ويـــدجوور، عضـــو مجلس العموم البريطاني عن حزب العمل بأنه «إذا نظرتم حول العـــالم لـــن تجدوا مكاناً يذهب إليه هؤلاء التعساء». فـــي إشارة إلى اليهود. وتحدث د. هوبكن، عضو مجلس العموم البريطـــاني، عـــام ١٩٣٥، عـــن «المعجـــزة العصرية»، فـــيما يتعلق بما يقوم به اليهود فـــي فلسطين، وشدد على الفوائد التي يجنيها العرب نتيجة التحديث اليهودي، وعقد مقارنة لإظهار هذه الفوائد: «إنه لمن الضروري السير فـــي طريق وادي شارون فحسب، لتقارن الفوائد بين قراه العربية، والقرى العربية الواقعة على التلال». وكـــان الافتـــراض، بالطبع، أن القرى العربية فـــي الوادي تعرضت للتأثير اليهودي، بخلاف تلك الواقعة على التلال، والتي كانت بعيدة عن المستعمرات اليهودية [١٨].

على النقيض، كانت التعليقات التي أطلقها العديد من المتحدثين المؤيدين للصهيونية عن العرب، مهينة، تنطوي على تعميمات وتفكير نمطي. وفـــي الواقع، كانت الحقيقة الأكثر إذهالاً عن المتحدثين تصويرهم للعرب كأنـــاس غير متحضرين. وفـــي الحقيقة، كانت صورة العرب عاملاً مهمـــاً فـــي التوجهات السلبية للأعضاء، ويمكن للمرء أن يضيف بأن هذه الصورة كانت مشكلة فـــي السياسة البريطانية بوجه عام [١٩].

لعبت الحركة الصهيونية فـــي الخارج على كيفـــية جذب العالم الغربي إليها، وخاصة فـــي بريطانيا، إبان الثورة، واهتمامهـــا بالقضـــية، «قضـــية الشعب اليهودي المضطهد»، بشكل عاطفـــي جداً ومؤثر، ربمـــا بالتمثيـــل، أحياناً، إنهم شعب مضطهد، وهو ما جعل الغرب يتعاطف مع اليهود، فهو لا

يعرف عن العرب سوى أنهم مجموعة من السكان الأصليين، البدائيين، المتخلفين، وسوف يعمل الصهاينة على تطويرهم، وتحديثهم، وإدخالهم ركب الحضارة والتقدم، في وقت لم يدرك فيه العرب ذلك، وأن هناك إنطباعاً سيئاً في أذهان العرب عنهم!

نزاع فلسطيني:

أسباب كثيرة، ومتعددة، وأخطاء كثيرة أدت إلى النهاية المحزنة المنتظرة للثورة الفلسطينية. ومن أهم هذه الأسباب، الصراع العائلي الشخصي البغيض بين عائلات الحسيني والنشاشيبي، في القدس، وعبد الهادي، في نابلس، الذي امتدت جذوره إلى كل مدينة، وقرية، وقبيلة في فلسطين. واستغل الصهيونيون هذا الأمر، أحسن إستغلال، ولعبوا على بث الفرقة بين العائلات الفلسطينية، وبعضها البعض، ودس الفتنة، ودفع الرشاوي والتحريض على القتل، إلى جانب تأجيج هذه الفتنة على صفحات الجرائد الصهيونية، منهية الثورة بنتيجة محزنة ومؤلمة، مخلفة وراءها المآسي والآلام [٢٠].

التسليح :

رغم أن الصهيونيين كانوا متخمين بالسلاح المهرَّب، وغير المهربّ، فإنهم استغلوا وقوع الثورة في البلاد، ليطالبوا حكومة الانتداب بالسماح لهم بالحصول على السلاح، وهو ما تم علناً وسراً، ومن أكثر من جهة، فقد عمل الصهيونيون على تطوير فرعين للحصول على الأسلحة، أرسى أساسهما في عشرينات القرن العشرين، وهما (ريخش/قسم مشتريات السلاح)، لشراء الأسلحة من مصادر أجنبية في البلاد وخارجها؛ و(تاعاس) لصناعة الأسلحة والذخيرة في الورش والمصانع السرية التابعة للمنظمة الصهيونية.

لعل بولندا من أهم مصادر الأسلحة للصهيونيين، التي كان يتطلع حكامها، حينئذ، إلى الخلاص من اليهود، وإزاحتهم من مواقعهم الاقتصادية، وتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين، فاستمر تهريب الأسلحة من بولندا، بلا توقف، حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية (أيلول/سبتمبر ١٩٣٩)، بالإضافة إلى مصدر آخر، وهو فنلندا، عن طريق تشيكوسلوفاكيا، إلى جانب إزدهار الصناعة العسكرية الصهيونية، آنذاك.

الهجرة اليهودية:

تأثرت موجات الهجرة بالثورة في فلسطين، في الفترة من عام ١٩٣٦- ١٩٣٩، ويوضح الجدول التالي أعدادهم منذ عام ١٩٣٣:

سنة الهجرة	أعداد المهاجرين
١٩٣٣	٣٠٣٢٧
١٩٣٤	٤٢٣٥٩
١٩٣٥	٦١٨٥٤
١٩٣٦	٢٩٧٢٧
١٩٣٧	١٠٥٣٦
١٩٣٨	١٢٨٦٨

يتضح من الجدول أن نسبة أعداد المهاجرين، قبل إندلاع الثورة، كانت كبيرة، في حين انخفض هذا العدد بصورة ملحوظة، أثناء سنوات الثورة (١٩٣٦- ١٩٣٩) [٢١].

ملامح تأثر أخرى:

أنزل العرب بالصهاينة خسائر جسيمة، خاصة في مزارعهم، وحمضياتهم، فقد قدرت «الوكالة اليهودية» حجم ما أتلفه العرب، في تلك المرحلة بـ ٨٠ ألف شجرة حمضيات، و ٦٢ ألف شجرة من فواكه أخرى، و٦٢ ألف من أشجار الغابات، و ١٦,٥ دونم من المزروعات، وحدث هبوط آخر في التقدم الصناعي في عامي ١٩٣٦- ١٩٣٧، عاد، غالبا، إلى الهبوط في دخول رؤوس الأموال، وعدد المهاجرين، فقد هبطت رؤوس الأموال الجديدة المستخدمة في الصناعات اليهودية من ١,٨ مليون ليرة فلسطينية، في عام ١٩٣٥، إلى ١,٢ مليون ليرة عام ١٩٣٦، وإلى مليون ليرة، عام ١٩٣٧.

لعل من أهم ما تحقق للصهيونية نتيجة للثورة، إنشاء ميناء تل أبيب اليهودي. فقد انتهز اليهود فرصة إغلاق ميناء يافا العربي، وقام الصهيونيون بدعاية كبيرة للحيلولة دون تفريغ البضائع المرسلة إلى ميناء يافا، وهدد «بنك أنغلو – فلسطين» اليهودي عملاءه، الذين لا يلتزمون بذلك، بحرمانهم من

كل التسهيلات المالية والمساعدات النقدية، كما حاول وكلاء البواخر الأجنبية من اليهود حض السفن على تفريغ حمولاتها فـــي ميناء تل أبيب.

رغم الأحداث الجسيمة للثورة، فإن إهتمام الصـــهيونيين إزداد بإصـــدار الصحف والمجلات. ففـــي عام ١٩٣٧ كان يصدر، فـــي مدينة تـــل أبيـــب وحدها، ٤ جرائد يومية، و ١٣ مجلة أسبوعية، و ٧ مجلات نصف شهرية، و١٨ مجلة شهرية، و٦ مجلات كل شهرين، و٣ مجلات فصلية[٢٢].

وبعد، فإنه يتبين من هذا كله أن الصهيونية نمت وتدعمت، خلال الثورة، رغم كل الصعوبات التي اعترضتها، بسبب الثورة، حتى أنه يمكن القول إن دولة إسرائيل استكملت مقوماتها الأساسية، قبل قيام الحرب العالمية الثانية.

هوامش الفصل الثالث

١- صبري جريس، الصهيونيون والثورة العربية الكبرى فـي فلسطين، **شؤون فلسطينية** (نيقوسيا)، العدد ١٥٠- ١٥١ أيلول/ سبتمبر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٥، من ص ٥٦ إلى ص ٧٤ .

٢- المصدر نفسه.

٣- يهودا سلوتسكي، **تاريخ الهاغاناه**، انظر الترجمة العربية فـي كتاب (الثورة العربية الكبرى فـي فلسطين)، ترجمة أحمد خليفة، ط١، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٨٩، ص ٦١.

٤- **المصدر نفسه**، ص ٣٦١ .

٥- محمد حسنين هيكل، **العسكرية الصهيونية**، (انظر المجلد الأول المؤسسة العسكرية الصهيوينة) - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فـي الأهرام، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١٠٣ .

٦- جريس، **مصدر سبق ذكره**.

٧- **المصدر نفسه.**

٨- سلوتسكي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢١.

٩- هيكل، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٨ .

١٠-سلوتسكي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٢١ .

١١-جريس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٢ .

١٢-يعقوب الياب، **جرائم الأرغون وليحـي ١٩٣٦- ١٩٤٨**، (ترجمة غـازي السـعدي)، دار الجليل للنشر، عمان، أيار/مايو، ١٩٨٥، ص ٢٩.

١٣-هيكل، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٦ .

١٤-جريس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩ .

١٥-هيكل، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٧ .

١٦-سلوتسكي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣٦ .

١٧-جريس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٤ .

١٨-واصف عبوشي، **فلسطين قبل الضياع**، (ترجمة علي الجرباوي)، ريـاض الـريِّس للكتـب والنشر، لندن، ١٩٨٥، ص ١٤٥ .

١٩-**المصدر نفسه**، ص ١٤٣ .

٢٠-نجيب الأحمد، **فلسطين تأريخاً ونضالاً**، ط١، دار الجليل للنشر، عمان، ١٩٨٥، ص ٢٨٣ .

٢١-د. عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦ حتى الحـرب العالميـة الثانية**، جامعة عين شمس وجامعة قطر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٣٤٠ .

٢٢-**المصدر نفسه**، ص ٣٣٦.

الفصل الرابع

محاولات عقد اتفاق عربي - يهودي

د.محمد عبد الرؤوف سليم

شهدت الفترة الزمنية القصيرة ما بين (١٩٣٦ - ١٩٣٨) محاولات للتوفيق بين العرب واليهود في فلسطين، بهدف إيقاف الثورة الفلسطينية الكبرى والإضراب، ثم اتجهت الجهود إلى محاولة عقد اتفاق عربي - يهودي، يضع حداً للصراع الدائر في الأراضي المقدسة، بين الفلسطينيين من ناحية والبريطانيين و»الوكالة اليهودية» من ناحية أخرى. وكان طبيعياً أن تشترك في هذه التحركات شخصيات يهودية، وصهيونية، وعربية، فلسطينية، وغير فلسطينية، وبريطانية. غير أن هذه الجهود فشلت في تحقيق أهدافها، وانتهت المسألة بعقد مؤتمر سان جيمس في لندن، ثم صدور «الكتاب الأبيض» لعام ١٩٣٩، وتوقفت الثورة.

مجموعة الرجال الخمسة:

منذ أن نشبت الثورة الفلسطينية الكبرى، بدأت جهود المندوب السامي البريطاني في فلسطين، من أجل الجمع بين العرب واليهود للتفاوض في العاصمة البريطانية، وكان لا بد من تحديد النقاط الأساسية، التي يمكن التفاوض بشأنها، بموافقة «الوكالة اليهودية»، و»اللجنة العربية العليا». وقد أعد موشى شرتوك (شاريت) - رئيس الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية لفلسطين - تقريراً عن نتائج المحاولات الصهيونية، التي جرت قبل نشوب الثورة، واستمرت، في سبيل الاتصال بالدوائر العربية، بهدف التوصل إلى اتفاق. واتصل بنحاس روتنبرج[١] بالمندوب السامي، مشدداً على ضرورة أن يحاول اليهود الاتفاق مع العرب؛ فربما كان ذلك بديلاً عن إرسال اللجنة الملكية إلى فلسطين، لتقصي الحقائق. وفي الوقت نفسه اجتمع خمسة رجال، هم: يهودا ماجنس[٢]، ونوفومسكي[٣]، وبنحاس روتنبرج، وموشى سميلانسكي[٤]، وفرمكين[٥]. وكان هؤلاء يمتلكون خلفيات فكرية وسياسية مختلفة، إلى حد كبير، فمن روتنبرج، أحد رموز المؤسسة الاستيطانية، إلى يهودا ماجنس، صاحب المفاهيم الليبرالية[٦]. ويذكر فرمكين أن فكرة تجمع الرجال الخمسة، تبلورت عندما التقى مع ماجنس، في مايو/أيار ١٩٣٦، بعد بداية الثورة الفلسطينية الكبرى بأسابيع قليلة، واتفق الرجلان على الاجتماع بزملائهم الثلاثة الآخرين، لدراسة الموقف، والتخطيط لعمل ما يقومون به. وفي ٢٣ مايو/أيار اجتمع فرمكين مع شرتوك، وأخبره مناقشات جرت بينه وبين القاضي مصطفى الخالدي،

وموسى العلمي، الذي بدا أنه عازم على التوصل إلى تفاهم، علـــى أســـاس هجرة يهودية محدودة إلى فلسطين، تصل بنسبة اليهود إلى أربعـــين فـــي المائة من السكان؛ وأفاد فرمكين شرتوك أن مجموعة الرجال الخمسة سوف تعقد أول اجتماعاتها فـــي اليوم التالي (٢٤ مايو/أيار). وفـــي هذا الاجتماع أخذ فرمكين على عاتقه إعداد صياغة لنص المقترحات التي اتفقوا عليهـــا، والتي على أساسها يتم التوصل إلى اتفاق مع العرب. وكان الرجال الخمســـة يعملون فـــي تنسيق مع «الوكالة اليهودية»، بدليل أن شرتوك كتـــب فـــي يومياته، بتاريخ ٢٥/أيار ١٩٣٦، عن محادثاتـــه مـــع المنـــدوب الســـامي البريطاني، أخبره خلالها أن روتنبرج يرى أنه لو توصل اليهود والعرب إلى إتفاقية ما، لا يكون من الضروري إرسال اللجنة الملكيـــة، التـــي اقترحـــت بريطانيا وصولها إلى فلسطين، لتقصي الحقائق، حال توقف أعمال الثـــورة. وفـــي الثاني من يونيو/حزيران، كشف شرتوك عن نشاط الرجال الخمســـة فـــي اجتماع اللجنة التنفـــيذية للوكالة اليهودية، كما أسر شرتوك إلى اللجنة بما جرى فـــي اجتماع ضمه مع روتنبرج، وفرمكين، وبيرل كاتزنلســـون(٧) فـــي ٢٩ مايو/أيار، وخلال المناقشات، ذكر أن يهودا ماجنس التقى بموسى العلمي، واتفق الرجلان على ضرورة إجراء مباحثات مباشرة وفورية بـــين اليهود والعرب، دون تدخل الحكومة البريطانيـــة، وعلـــى إيقـــاف العـــرب لإضرابهم، وعلى أن يظهر اليهود علامة على صدق عزيمتهم، بالتوقف عن استخدام شهادات الهجرة، خلال فترة التفاوض. وقيل وقتها أنه خلال عشـــر سنوات يكون اليهود أربعين فـــي المائة من عدد سكان فلسطين(٨). ويكـــون ذلك التوقف بشروط(٩):

أ- يكون حجم الهجرة ثلاثين ألفاً، خلال السنوات العشر التالية، وبالتـــالي يصير عدد سكان فلسطين من اليهود ثمانمائة ألـــف نســـمة، بحســـاب الزيادة الطبيعية فـــي عددهم، أي يرتفع عددهم إلى ضعف العدد القائم وقت التفاوض، بينما يكون عدد السكان العرب مليوناً ومـــائتي ألـــف نسمة، بحساب تسعمائة ألف وقت التفاوض، ويضـــاف نـــاتج الزيـــادة الطبيعية فـــي عددهم، وقدره ثلاثمائة ألف. وعلى ذلك تصل نسبة عدد اليهود إلى أربعين فـــي المائة من إجمالي سكان فلسطين، وتقترب من سبعين فـــي المائة من عدد السكان العرب. وألحق بهذا الشرط توظيف اليهود نسبة من العمال العرب فـــي المشروعات اليهودية.

ب- لا يشتري اليهود من الفلاح العربي كل أرضه. فلو أن عربياً كان يــزرع مائة دونم، يُشترى منها خمسة وسبعون، وفــي الوقت نفسه يساعد اليهود بالمال والتقنية، فــي تطوير زراعة الأرض التي فــي حوزته.

ج- يشترك العرب واليهود فــي إدارة فلسطين، وإذا عيّن يهــودي رئيســاً لإدارة، يكون نائبه عربياً، وبالعكس، ويتكون مجلس تشــريعي، علــى أساس من الحقوق المتساوية بين الطرفــين.

وقد فاز البند الأخير بموافقة شرتوك، بينما رفض البند الخاص بالهجرة، والوعد بتوظيف العرب. وكان شرتوك على استعداد للقبول بإبقاء نسبة مــن الأرض للفلاح العربي، غير أنه رفض تحمل الجانــب الصــهيوني عــبء المصادر المالية الإضافــية، التي تخصص لتطوير المزارع العربية. وكــان مستعداً للقبول بمبدأ عدم مقاطعة العمل العربي، فــي حالة عــدم مقاطعــة العرب «للعمل العبري»، أو للمنتجات العبرية الزراعية والصناعية، وأخيراً اشترط شرتوك ألا تكون هناك هجرة عربية وافدة إلى فلسطين مــن أقطــار عربية أخرى(١٠).

وقد أرسل تقريراً إلى رئيس الوكالة اليهودية، ديفيد بن جوريون، فــــي الثاني من يونيو/حزيران ١٩٣٦، نص على أنه من الممكن ألا يكون لمسألة الاتفاق مع العرب ظل من الحقيقة العملية، ليس بسبب العداء الحالي الــذي كان واضحاً بين العرب واليهود، خلال فترة الثورة، ولكن بفعــل التنــاقض السياسي الأساسي بين الطرفــين، وبصفة رئيسية على مسألة الهجرة. فلــم تكن هناك قيمة للتطور الاقتصادي لفلسطين عند العرب(١١).

وقد أفادت «الوكالة اليهودية» مجموعة الخمســة رجــال، فـــي ١٦ يونيو/حزيران سنة ١٩٣٦، بإمكان الموافقة على مبدأ تثبيت حصة الهجرة، خلال فترة معينة، على أن تتساوى تلك الحصة مع حجم الهجرة اليهودية إلى فلسطين، عام ١٩٣٥، وهو العام السابق على قيام الثورة الفلسطينية الكبرى، أي ليس أقل من أثنين وستين ألف مهاجر، سنوياً، وأن تدار المباحثات بــين العرب واليهود من خلال «الوكالة اليهودية»، ودون أن تطرح مسألة إيقــاف الهجرة اليهودية، لمدة معينة، على بساط البحث(١٢).

اجتمع الرجال الخمسة، وأعدوا مذكرة، قدمت إلى اللجنة التنفــيذية للوكالــة اليهودية، استهلت ببيان نص على أنه بات واضحاً، منذ بداية ذلــك الإضــراب الطويل فـــي فلسطين، أن تلك «الاضطرابات الدموية» كانت ستســتغرق وقتــاً طويلاً، وقد ينجم عن ذلك إجراءات حكومية، تصــيب الأهــداف الصـــهيونية

بالضرر. والهدف من جهود الرجال الخمسة يتحقق، أولاً، بتغيير الآراء الصهيونية في الموقف كله، والنظر فيما إذا كان من الممكن تنفيذ برنامج معتدل، يقوم على التباحث مع أعضاء ذوي نفوذ بين العرب الفلسطينيين، بهدف إنهاء الإضراب، من خلال هدنة، قد يعقبها عقد اتفاق يرسي أُسس سلام دائم بين العرب واليهود. لقد عاش الرجال الخمسة في فلسطين، وكان لكل منهم اتصالات وثيقة مختلفة الجوانب مع أعضاء عرب قياديين في فلسطين، وشرق الأردن، ومصر، وسوريا، والعراق، وأُتيحت لهم فرص عديدة للاطلاع على آراء العرب في تلك المشكلة الملتهبة، وهي العلاقات بين العرب واليهود. وفضلاً عن ذلك، كان الرجال الخمسة جميعاً على اتصال بالمسؤولين من رجال حكومة فلسطين البريطانيين، الذين كانت لهم آراؤهم ومشاعرهم حول الموضوع، ويعتقدون أنهم الأكثر قدرة تفسيرية. وقد تبادل الرجال الخمسة الآراء، خلال مناقشات جرت فيما بينهم، وكتبوا بنود مذكرتهم تلك(١٣).

وفي الرابع عشر من يونيو/تموز ١٩٣٦، أرسل الرجال الخمسة بمذكرة إلى «الوكالة اليهودية»، جمعت بين عدة تفصيلات للمقترحات التي عرضوها، وكانت تلك المذكرة تقوم على ست نقاط أساسية(١٤):

١- لا يمكن إنجاز الهدف الصهيوني في البناء الناجح للوطن القومي اليهودي، دون التوصل إلى اتفاقية مع عرب فلسطين.

٢- حتى لو استمر هذا البناء رغم المعارضة العربية، وفي جو تسيطر عليه تلك «الاضطرابات»، التي لا يمكن تحملها، بما يتضمنه ذلك من خسائر في الأرواح، فضلاً عن الخسائر المادية الهائلة، وإحباط كم كبير من الجهود، ومضيعة جسيمة للوقت اللازم للعودة إلى الوضع السوي، فإن الاستعمار اليهودي، بموافقة العرب، يقدم ميزات أكثر لا تقارن.

٣- رغم أنه ثمة صعوبة في التوصل إلى اتفاق مع العرب، بشكل أكبر مما كان منذ الأعوام العشرة أو الخمسة عشر الماضية، وهي المدة التي نما فيها جيل جديد من العرب، الذين اصطبغت عقولهم بالصبغة القومية، إلا أن خبرات واضعي المذكرة، والتي اكتسبوها من خلال اتصالاتهم بزعماء عرب مسؤولين، قبل نشوب الثورة الفلسطينية الكبرى وأثنائها، تجعلهم مقتنعين بأنه ما يزال من الممكن التوصل إلى تفاهم مع زعماء ذوي نفوذ في الحركة العربية، وهؤلاء على استعداد لبذل جهودهم، في سبيل جعل هذا التفاهم مقبولاً لدى الأغلبية في مجتمعاتهم.

٤- تعتقد كل الطبقات والشرائح الاجتماعية فـــي فلسطين – بلا استثناء – بأن استمرار معدل الهجرة اليهودية على ما كان عليه يؤدي، فـــي الحال، إلى وجود أغلبية يهودية فـــي فلسطين، ويكون العرب عنصراً تابعـــاً فـــي بلادهم. ولذلك أضحى الرجال الخمسة على قناعة بأن مبدأ أساسياً للمناقشة مع العرب يمكن أن يتحقق، لو أن تثبيت الهجرة على معدل معين، خـــلال فترة زمنية محددة، يشكل نقطة مركزية فـــي تلك المناقشة.

٥- أصبح بعض الرجال الخمسة – من خلال محادثـــاتهم الخاصـــة التـــي جرت مع وجهاء عرب – على اقتناع بأن تثبيت الهجرة عنـــد معـــدل أقصاه ثلاثين ألف مهاجر، سنوياً، خلال فترة زمنية تمتد عشر سنوات، يشكل مبدأ أساسياً للمحادثات مع الزعماء العرب، مع أمل كبير فـــي النجاح. ورغم أن هذه الأرقام نالت، بالفعل، موافقة عربية، فإن الرجال الخمسة ساد لديهم إحساس بأنه لو التقى الجانبان، يوماً، على مبدأ تثبيت الهجرة على فترة محددة، فإن ذلك يمهد لمحادثات تالية.

٦- اعتقد الرجال الخمسة أن اتفاقاً على المسألة الرئيسية، وهي الهجرة، ربمـــا يمهد الطريق إلى تسوية سلمية بين العرب واليهود، حول تلك المسائل المعلقة الأخرى، مثل تنظيم حيازة الأرض، وتوظيف العمل، والإعداد السياسي لنظام حكم، يضمن المساواة لكل من أبناء «الأمتين»، العربية واليهودية.

رغم أن قيادات صهيونية معينة كانت ترى أن الثورة الفلسطينية جسدت علامات على نهاية الأمل فـــي إيهام العرب بجدوى التفاهم مع اليهود، فـــإن جماعات أخرى فـــي المعسكر الصهيوني عارضت السياسة التـــي اتبعتهـــا قياداتهم، طيلة السنوات السابقة على قيام الثورة الفلسطينية، واقترحوا إقامـــة دولة ثنائية القومية، تضم العرب واليهود[١٥].

واقترح الرجال الخمسة نصاً لاتفاقية بين العرب واليهود، كالآتي[١٦]:

١- **الاتفاقية:** تتراوح مدة سريانها من خمس إلى عشر سنوات، وتعقد فـــي الحال دون تدخل من جانب الحكومة البريطانية، ولكنها ترتبط بموافقتها النهائية، وتغطي بنودها كافة الاعتبارات الاقتصادية والسياسية الخاصة بالمسألة موضوع البحث.

٢- **الهجرة:** لا يسمح بدخول عمال عرب من أقطار أخرى إلى فلسطين.

أ- ترتبط هجرة العمالة اليهودية بمقدرة البلاد على الاستيعاب الاقتصادي، وتخصص نسبة للعمال العرب، عندما تتاح فرص يهودية جديدة للعمل.

ب- لا تغيير بالنسبة لهجرة أصحاب رؤوس الأموال، وأقاربهم.

ج- يوظف اليهود فـي المشروعات الحكومية، بنسبة لا تقل عن قوتهم العددية.

د- يوضع فـي الاعتبار - من بين عوامل أخرى ذات الصلة بتحجيم القدرة على الاستيعاب - تحديد عدد العاطلين، مرة كل ستة أشهر. ويسجل هؤلاء الذين يكسبون أجوراً فحسب، وليس العمال الزراعيين الموسميين، أو البدو.

ه- فـي حالة ما إذا كانت البنود السابقة كافية من أجل عقد اتفاقية، يسلم بتثبيت مؤقت للهجرة، فـي فترة تمتد بين خمسة أعوام وعشرة أعوام، على أساس أن تصل نسبة السكان اليهود فـي فلسطين إلى نحو أربعين فـي المائة من إجمالي عدد السكان.

٣- الأرض:

أ- لا حيازة للأرض، فيما عدا تطبيق مبدأ عدم طرد مزارع الأرض العربي من الأرض التي يزرعها، سواء كان مالكاً أم مستأجراً، بدون موافقته، ما لم توضع فـي حوزته قطعة من الأرض، مساوية فـي القيمة عند تركه الأرض التي يزرعها، لتطويرها زراعياً فـي المناطق المجاورة، أو أي مكان آخر، وبموافقته.

ب- يسمح للفلاح العربي ببيع ما يوازي خمسة وسبعين فـي المائة فقط من الأرض التي يمتلكها، ويزرعها، وتبقى له حصة من الأرض قابلة للتنمية، وملكيتها غير قابلة للتحويل، وتقدم له المساعدة المالية والعملية الضرورية لتنمية هذه الأرض من قبل الحكومة، وبالمشاركة اليهودية الممكنة.

ج- لو بيعت هذه الأرض التي يزرعها المستأجرون العرب، تخصص لكل منهم حصة أرض أخرى، وتقدم لهم المساعدة فـي تنمية هذه الأرض من قبل الحكومة، وبالمشاركة اليهودية الممكنة.

٤- التكوين السياسي:

أ- يتكون مجلس تشريعي، على أساس من التكافؤ بين «الشعبين»، العربي واليهودي، وبالشكل الذي لا يجعل أياً منهما يسيطر على الآخر.

ب- يطبق مبدأ المشاركة المتزايدة اليهودية والعربية فـي الإدارة الحكومية، كرؤساء الإدارات، وكأعضاء فـي الجهاز التنفيذي الحكومي. وكبداية، يعين عربي ويهودي رئيسين لإدارتين حكوميتين، ويهودي وعربي عضوين فـي المجلس التنفيذي.

٥- مراحل المباحثات:

أ- تخول «الوكالة اليهودية» لجنة غير رسمية، تتكون من خمسة أعضاء، سلطة اختيار أي أشخاص، تكون مهمتهم، وبإتفاق متبادل بين تلك اللجنة واللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، إشراك عرب غير رسميين في فحص دقيق لإمكانيات التوصل إلى تفاهم حول النقاط الرئيسية الخاصة بالهجرة، ومشكلة الأرض، والمجلس التشريعي.

ب- ما لم يتضح من هذه المحادثات الخاصة، أن هناك إمكانية للاتفاق مع العرب حول النقاط الرئيسية السابق ذكرها، تعمل اللجنة غير الرسمية المشار إليها أعلاه، وبتصديق من اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، على تكوين لجنة غير رسمية مماثلة من العرب، بغرض إعداد نص يحال إلى الجهازين الرسميين، اليهودي والعربي.

ج- تدرس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، واللجنة العربية العليا هذا النص، وتفيد كل منهما اللجنتين غير الرسميتين بالرأي.

د- لو أمكن التوصل إلى اتفاق حول النقاط الرئيسية (الهجرة ومشكلة الأرض والمجلس التشريعي)، تجتمع اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية و«اللجنة العربية العليا» لإذاعة البيان التالي:

«قررت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، واللجنة العليا الدخول في مباحثات رسمية. وخلال تقدم هذه المباحثات، تصدر اللجنة العربية العليا دعوة لإيقاف الإضراب، بدءاً من شهر يونيو/حزيران، وتؤجل الوكالة اليهودية جدول الهجرة العمالي الجديد».

وبينما ترك النص المقترح للاتفاقية موعد بداية المباحثات الرسمية لمشيئة الجهازين الرسميين، اليهودي والعربي، أشفع به ملحق عن أرقام الهجرة اليهودية الممكنة إلى فلسطين[١٦].

قد نوقش هذا النص في اجتماع ضم ممثلين عن «الوكالة اليهودية»، ومجموعة الرجال الخمسة، ثم اجتمعت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، واتخذت قراراً، بالإجماع، يؤيد التباحث مع العرب، وعدم التخلي عن حق استخدام شهادات الهجرة التي كانت الحكومة قد سمحت بها، فعلاً، وانقسمت الآراء «بالتساوي» حول مسألة تثبيت الهجرة، ورؤي إرجاء اتخاذ قرار في هذا الشأن، لحين الوقوف على ما يشير به عضوا اللجنة التنفيذية: حاييم

وايزمان، وديفيد بن جوريون، وكانا، وقتئذ، موجودين في لندن. وقد حث شرتوك على تقديم إجابة سريعة، إذ تطورت الأمور بسرعة، واشتد ساعد الثوار في فلسطين، حتى بات واضحاً أن الفرص التي بدا أنها كانت مواتية، في ذلك الوقت قد لا تكون متاحة بعد ذلك. وكان شرتوك يحث على بدء المباحثات، بكل سرعة ممكنة. وكان واضحاً أن تسرُّع موشي شرتوك ارتبط، بالدرجة الأولى، بأحداث الثورة، وباستمرار الإضراب، وكان هذا الارتباط عاملاً على بروز تساؤلات هامة: متى تبدأ المحادثات العربية الصهيونية؟ وهل تدعو «اللجنة العربية العليا» لوقف الاضراب، قبل الجلوس إلى مائدة التفاوض؟ أم تكون دعوتها استجابة – للبداية الفعلية لمثل هذه المحادثات؟ أم تبدأ المحادثات، ويستمر الإضراب، حتى يتم التوصل إلى اتفاق؟[١٧]

رغم ما بدا من بعض آمال في التوصل إلى تسوية حقيقية، إلا أنه كانت هناك اعتبارات معينة بددت هذه الآمال، وأفشلت جهود الرجال الخمسة. فكانت الشكوك تساور نوفومسكي في إمكان النجاح في اجتياز محنة الإضراب، وإحداث تغيير كبير في الموقف، بالنظر إلى غياب أعضاء عرب معينين إما عن القدس، أو عن فلسطين ذاتها. وتبين للرجال الخمسة أنه لو أن رجالاً، مثل القاضي مصطفى الخالدي، وموسى العلمي، كانوا على استعداد للقبول ببنود مذكرة الرجال الخمسة، فإن هذا القبول كان يعتبر هجراً للمطالب الرسمية التي أعلنت «اللجنة العربية العليا» عنها.[١٨] وهناك تفسير لموقف «الوكالة اليهودية»، يقول بأن قيادتها لم تكن تبغي عقد اتفاق مع العرب، ينطوي على «تنازلات» يقدمها الصهيونيون للعرب[١٩]. وهناك سبب آخر لفشل جهود الرجال الخمسة، تمثل في الأصول غير الرسمية لهذه الجهود. لقد كان واضحاً أنه لو بدأت المباحثات ذات مرة، فإنه كان يجب فتح الطريق أمام الزعامة المسؤولة على كلا الجانبين لبدء مباحثات تصل إلى نتيجة ناجحة. لقد كان هناك أمل يحدو الرجال الخمسة في أن تثق اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية فيهم، وتسمح لهم بالاتصال بالعرب، باسمها. وبدلاً من هذا كان بعض أعضاء اللجنة، وعلى رأسهم موشي شرتوك نفسه، يتصفون بالعناد، والحرص على إخراج المسؤولية من أيدي الرجال الخمسة. وبينما كانت الشكوك تساور العديد من الصهيونيين حول الحكم على هؤلاء الرجال، من الناحية السياسية، كان آخرون أكثر اهتماماً بإضعاف سلطة اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية[٢٠].

اقتراح جبهة عربية ـ يهودية مضادة للتقسيم:

كانت هناك اعتبارات خاصة بالدفع والتوقيت خلف القلق المتجدد للمناورات الدبلوماسية بين العرب واليهود، بين عامي ١٩٣٧

١٩٣٨ . ومنذ البداية صممت الشائعات التي حامت حول نشاط اللجنة الملكية غالبية تلك الاعتبارات، إلى أن اتضحت النتائج الحقيقية لجهود لجنة بيل. فقد علم وايزمان، في ٨ يناير/كانون الثاني، أن أعضاء تلك اللجنة قد يدرسون تقسيم فلسطين إلى دولتين في إطار من الجدية، التامة. ولمدة ستة أشهر تالية، استخدمت الشائعات حول احتمال تقسيم فلسطين، كستارة خلفية في مسرح المناورات التفاوضية العربية – الصهيونية. وكانت ردود الفعل داخل القيادة الصهيونية توحي بأن التقسيم، مثل التحويل إلى كانتونات، كان نتاجاً غير مرغوب فيه، من وجهة نظر «الوكالة اليهودية» لفلسطين[٢١]، ثم تحول الإيحاء إلى افتراض تغير، تدريجياً، خلال الأسابيع والشهور التالية، إلى النقطة التي جعلت موشى شرتوك، رئيس الإدارة السياسية في «الوكالة اليهودية، يشعر بأن الحركة الصهيونية يجب أن تكون على استعداد للقبول بدولة يهودية في جزء من فلسطين، ولكن (لأسباب تكتيكية) على الصهيونيين ألا يعلنوا هذا الاستعداد، في هذا الوقت المبكر من «المباراة». وكان على بن جوريون أن يتحمل تحوله الشخصي، خلال هذه الفترة، من حالة معاداة للتقسيم إلى تأييد له[٢٢].

في أوائل مارس/آذار ١٩٣٧، اتخذت الشائعات عن التقسيم شكلاً يهودياً خاصاً، وكانت تتبئ بإعطاء معظم فلسطين الوسطى ضمن الأراضي المخصصة للضم إلى مملكة الأمير عبد الله المقبلة، ومن شارك بعض الصهيونيين الأمير في التطلع إلى مثل هذه النتيجة، رغم أن أحداً لم يجرؤ على أن يبوح بذلك، علناً. فإنه بالنسبة لبعض الزعماء العرب، كان احتمال إقدام عبد الله على الاستيلاء على أجزاء من فلسطين، أمراً مثيراً للاعتراض، أكثر من الاعتراض العربي على منح اليهود ما أسموه «دولتهم الخاصة بهم»، في أجزاء أخرى من البلاد، حتى أن القنصل التركي في القدس كتب عما أشيع بأن الحاج أمين الحسيني كان معادياً لهذه الفكرة، لدرجة أنه قد يدرس التعامل مع اليهود، في هذا المضمار. وقد عرض القنصل استعداده للقيام بدور الوسيط بين الطرفين. ورغم أن شيئاً لم ينجم عن ذلك، فإنه يصور كم امتلك بعض الفلسطينيين كراهية قوية لرؤية عبد الله بن

الحسين يحكمهم، بشكل يكفـي لتكون أساساً للتعامل مع اليهـود(*). وكـان فقدان تأكيد هذه الشائعات وما صاحب ذلك من تأجيل متكرر، انتظاراً لإعلان تقرير لجنة بيل، ينظر إليهما من قبل الصهيونيين على أنهما يمنحان فرصـاً للوصول إلى اتفاق مع العرب. بقي رؤية ما إذا كانت البنود الأفضل تـأتي من خلال اتفاق اختياري عربي – يهودي فحسب، أم من خلال أمر واجـب التنفـيذ، يصدر من قبل البريطانيين. بدأ العرب، أيضاً، يزنون أمور اتفاقية اختيارية، مقارنة بما يمكن أن يصدر به مرسوم فـي تقرير اللجنة الملكية، الذي كان على وشك الصدور[٢٣].

طلب شرتوك، فـي أوائل أبريل/نيسان ١٩٣٧ لقاء مـع عـوني عبـد الهادي، بقصد «عرض مفاوضات سلمية»، على أنها الطريق الممكن، وقتئذ. وكان شرتوك يعتقد أنه لو لم ينجم شيء عن مثل هذا اللقاء، فإنه شـعر أن اللقاء سيكون» مهماً، لنتعرف فـي المقام الأول على الإطار الـذي يحـيط بالعقل العربي». وقد اعتبر شرتوك هذا اللقاء مهماً، أيضاً، «فـي الاستمرار فـي التسجيل بأنه فـي هذه الساعة الثانية عشرة، وقبل مولد الطفل، فإننـا عرضنا السلام مرة أخرى». وخلال حديثهما، أفاد عوني شرتوك، بحـزم، ولكن بصدق وإخلاص، أن على العرب أن يحاربوا التقسيم، والبريطـانيين، والهجرة اليهودية، كجزء من نفس المعركة، وأنه ليس هناك أساس تبنى عليه تسوية عربية – صهيونية. وشعر عوني عبد الهـادي أن الجبهـة العامـة المقترح تكوينها ضد التقسيم لا يمكن أن تمر، «لأن اليهود يتمتعون بحمايـة البريطانيين، بينما يحارب العرب بريطانيا»[٢٤].

شرتوك إلى العمل خارج فلسطين مع عرب غير فلسطينيين بما يمثـل عودة إلى الدبلوماسية الوقائية، التي استهدفت الاتفاق مع زعماء عرب غيـر فلسطينيين، والضغط على الحاج أمين الحسيني ورفاقه من منطلقـات هـذا الاتفاق، وسبيلاً إلى وضع حد لتنامي الروح المعنوية بين عرب فلسـطين، وتحييد مصادر المساندة الدبلوماسية للحق العربي خارج فلسطين[٢٥].

وكان أن اتجهت جهود «الوكالة اليهودية» نحو زعماء «الكتلة الوطنية» فـي سوريا. وكان على وكيل صهيوني(*) أن يوظف مخاوف جميل مـردم من قوة اليهود فـي العاصمة الفرنسية، وقت أن كان التوقيع على مشـروع

---

* من رسالة موشى شرتوك إلى حاييم وايزمان، في ١٩٣٧/٤/٢٢.

* هو إلياهو ساسون.

معاهدة ١٩٣٦ بين سوريا وفرنسا مؤجلاً. وناشد الوكيل رئيس الوزراء السوري أن يصطنع حاجزاً أمام استمرار نشاط شخصيات سورية معينة مساندة للحق العربي في فلسطين(٢٦).

وقد تعاون بعض السياسيين اللبنانيين، بجدية، مع الجانب الصهيوني، في مجال محاولات تطويق نشاط الحاج أمين، وجماعته، ولكن هذه الجهود لم تكن ذات فاعلية في تحييد عرب فلسطين، الذين كانوا موجودين، وقتئذ، في بيروت، ومراكز عربية أخرى(٢٧).

وفي مسعى مواز هدف إلى «تكوين جبهة عربية – يهودية ضد التقسيم»، أوفد شرتوك دوف هوص Dov Hos، وإلياهو إبشتين Eliahu Epstein للقاء جميل مردم في دمشق، على افتراض أنه لو فضل العرب «التوصل إلى ترتيبات مع اليهود من أجل الحفاظ على فلسطين سليمة»، فإن السوريين ربما «ينتصرون على أصدقائهم هنا بأن يروا مبرراً، قبل فوات الأوان». وبدا أن مردم قد تقبل محاولات هوص وإبشتين بأن التقسيم «يمكن أن يكون مدمراً لمصالح كل من اليهود والعرب في فلسطين... وحتى في سوريا»، وأنه «لم تكن هناك إمكانية لمنع تقسيم البلد، إلا من اتفاقية يهودية عربية». ووفقاً لما جاء في تقرير لإبشتين، ميز الزعيم السوري بين ثلاثة أطراف: العرب، واليهود، والبريطانيين، ورأى بأنه يجب أن يكونوا مقتنعين بحل لمشكلة فلسطين، ووعد «بأن ينقل تقريراً عن محتوى المحادثة إلى حكومته، من أجل الاتصال بالحاج أمين الحسيني، بهدف التأثير عليه وعلى غيره من الزعماء الفلسطينيين، بألا يضعوا عقبات في طريق التباحث معنا». ولكن أياً كان ذلك الذي فعله مردم، أو قاله في اتصاله بالفلسطينيين، في اتجاه تحقيق وعده لممثلي الصهيونيين، فقد رفضت «اللجنة العربية العليا»، بحزم، محاولات إقامة جبهة عامة ضد التقسيم. كذلك اتخذ المفتي خطوات لتحييد هذه المحاولة، الرامية إلى إيجاد تعاون صهيوني – سوري بالكتابة إلى شكري القوتلي، محذراً من مغبة الانسياق وراء هذه الازدواجية الصهيونية. وكان واضحاً أن القيادة العربية الفلسطينية تخطط لمقاومة التقسيم، ليس من خلال التفاوض مع اليهود، ولكن من خلال تجديد الثورة ضد الحكم البريطاني، وضد الصهيونية في آن(٢٨).

اتخذ الصهيونيون نتائج مناورة شرتوك (الساعة الثانية عشرة) مع عوني عبد الهادي، أداة توضح أن «فرص تحقيق اتصالات مثمرة مع الدوائر العربية في فلسطين لم يكن لها وجود، في ذلك الوقت»، مما ترك للقادة

الصهاينة مبرراً لتركيز جهودهم على وجه الحصر فـي «الميدان التنافسي» غير الفلسطيني، حيث استمرت الاتصالات، دون أن تخمد، طوال الأشـهر التالية. وبدا فـي خلال مايو/أيار ويونيو/حزيران سنة ١٩٣٧، أن التخمين بأن لجنة بيل قد توصي بالتقسيم، يمكن أن تثير مفاتحات وعروضاً عربية متزايدة. وفـي مسألة حدود المنطقة التي كانت ستخصص فـي إطار التقسيم لإقامة الدولة اليهودية، استثمر الصهيونيون العلاقات «الأخوية» بينهم وبين بعض من موارنة لبنان فـي الضغط على كلا الطرفين: الحكومتين البريطانية والفرنسية، من أجل إرساء قواعد مبدأ أن يشارك لبنان المسيحي، فلسطين اليهودية فـي حدود دولية[٢٩].

أحضر الاحتفال بعيد جلوس الملك جورج السادس إلى لندن العديد من ممثلي الدول وأصحاب المقامات الرفيعة بها من العالمين العربي والإسلامي، واختير إلياهو إيشتين لإجراء لقاءات بالعديد منهم، ممثلاً عن «الوكالة اليهودية»، وباسمها، وكان ذلك فـي مايو/أيار سنة ١٩٣٧.

رغم أن هذه اللقاءات تركت علامات غير متوقعة لم تأت بنتائج مباشرة، فإنها كانت ضرورية ونافعة للصهيونيين فـي إبطال «تلك الدعاية الواسعة المدى، والنشطة، التي لاحظوا أن عرب فلسطين انخرطوا فيها بين المسلمين والعرب فـي لندن». ويرى إيشتين أن مجرد منح الآخرين «الإحساس بأن اليهود لا يتجاهلون العرب، وأنهم حضروا من أجل الحديث معهم»، كان، فـي حد ذاته، ذا قيمة كبيرة فـي إفساح الطريق أمام علاقات صهيونية أفضل مع العالم العربي[٣٠].

توفرت فرصة أخرى للمحادثات السياسية بين اليهود، أثناء ذلك الاحتفال، على الأمير عبد الله مع هؤلاء اليهود، الذين كانوا يحاولون تقويم حالات الغموض فـي موقف الأمير بالنسبة لتوطين اليهود فـي منطقة شرقي نهر الأردن. وكان المحرض الرئيسي لهذه المحادثات هو بنحاس روتنبرج، الذي كان نافذ الصبر فـي متابعة استجابة الأمير المشروطة لخطته، التي عرضها، فـي يوليو/تموز عام ١٩٣٦، وأن يهرب من «الدائرة الشريرة»، التي أحاطت بالعلاقات بين الأمير عبد الله بن الحسين واليهود والبريطانيين. وكان حاييم أرلوزوروف قد حدد هذه الدائرة الشريرة، قبل ذلك بخمس سنوات، كالآتي: إذا تحدثت مع المندوب السامي يحيلك إلى لندن، وإذا تحدثت مع وزارة المستعمرات فإنها تحيلك إلى المقيم البريطاني فـي عمان، وهو يحيلك إلى الأمير عبد الله. وإذا تحدثت مع الأمير، فإنه يحيلك

إلى الزعماء في إمارته، وهم ذوو النفوذ من المشايخ والباشوات. وإذا تحدثت إلى هؤلاء، فإنهم يحيلونك، مرة أخرى، إلى البريطانيين.

بدأ روتنبرج بالاقتراب من وزارة المستعمرات، وهو محتفظ بمهمتين في ذهنه: (أ) أن يتأكد من أن اللجنة الملكية في مداولاتها النهائية لن تضع في اعتبارها قيمة لمعارضة العرب لعملية التوطين اليهودي شرقي الأردن، أو وضع أي توصيات تعوق هذا التوطين. و(ب) متابعة وزير المستعمرات، وحثه على عقد لقاء بينه وبين الأمير عبد الله، كان يأمل أن يربط الأمير بالسير قدماً في طريق تنفيذ خطته للتوطين[٣١]. وكان زعماء «الوكالة اليهودية»، العارفين بتحركات روتنبرج، أكثر تفاؤلاً بالنسبة للهدف الأول من الثاني، ومثلهم كان المسؤولون في وزارة المستعمرات، يشكّون في أن يكونوا قادرين على ربط الأمير، وكانوا حذرين، بدرجة كبيرة، من أن يورطوا الحكومة في أي عمل يمكن أن يفسر على أنه توضيح لتغيير طرأ على السياسة البريطانية، وقت أن اقترب موعد الإعلان المتوقع عن تقرير اللجنة الملكية. وفي لقاء له مع الأمير عبد الله، أشار باركنسون Cosm Parkinson(*)، بكيا إلى خطة روتنبرج، وأخبر بأن الأميركان «في غير عجلة من أمرهم»، لكي يتقدم في هذه المسألة، وأنه يشارك، تماماً، الموقف البريطاني المستمر، منذ مدة طويلة، القائم على تركه للمندوب السامي في القدس، لكي يعمم، ويقرر اللحظة المناسبة لدخول اليهود إلى شرق الأردن[٣٢].

ويرى مؤرخ إسرائيلي أن بعض الزعماء العرب وجد في تجدد أعمال الثورة شكلاً من أشكال محاربة اقتراح التقسيم داخل فلسطين، ولممارسة ضغط دبلوماسي في الخارج، اختار البعض الآخر استخدام اتصالاتهم باليهود، في محاولة إسقاط أحد افتراضات بيل الأساسية الذي يعني أن اتفاقية طوعية بين العرب واليهود ليست في الإمكان. وفي الوقت نفسه تنبأ بعض زعماء «الوكالة اليهودية» بأن ما ورد في تقرير بيل في هذا الشأن، كان من الممكن أن يحقق الشعور بأن تقرير بيل قد يولد اتجاهاً بين الزعماء العرب، لأن «يتقدموا نحو الاشتراك مع اليهود في مناقشة بنود معينة أكثر من مواجهة التقسيم»، وذلك من خلال عرض دعوة حقيقية للمباحثات مع «المراجع الرسمية اليهودية». ورغم ذلك فإنه بالنظر للتوقيت، بدا أن تقرير بيل أكثر تبشيراً بالنجاح، ذلك لأن نظرة إلى البنود التي التصق بها فكر، كل من الطرفين تؤكد أن فجوة هائلة

(*) من المسؤولين في وزارة المستعمرات البريطانية.

استمرت فـــي الفصل بينهما. وكما قرأها بن جوريون، يُفهم أن توصيات اللجنـــة الملكية خلقت محيطاً كاملاً لدبلوماسية عربية – صهيونية مستقبلية، جعلته يقــول: «للوهلة الأولى نحن شركاء فـــي النقاش، لقد أصبحت طرفاً لم يعد فـــي الإمكان تجاهله... نحن عامل له منزلته، ولسنا عنصراً سياسياً فحسب... لسنا أقلية ناميـــة – ولكن نحن قوة تقف على عتبة سلطة ذات سيادة». غير أن رئــيس «الوكالـــة اليهودية» أضاف سريعاً أن الأحداث سوف تبرهن أن تحفظه قد لقي تبريراً واسع النطاق، بأن اليهود ما يزالون يمتلكون قليلاً من التماسك يستخدموه مع العرب، لو أن تلك المباحثات قد بدأت، فـــي وقت من الأوقات.

وكانت «الوكالة اليهودية»، وقتئذ، تظن أنها تمثل موقع الطرف الواثــق من نفسه، ويتملقه العرب، كمخرج مريح للتقهقر والتراجع، لو بــدئ فــــي تنفــيذ شكل من أشكال التقسيم. لقد شعر الصهيونيون، فـــي تلك الآونة، أن على العرب أن يسلكوا طريقاً هاماً، فـــي اتجاه تلاقي مطـــالبهم مـــع بنـــود اتفاقية مع اليهود؛ وعلى الصهيونيين أن يسائلوا أنفسهم، عند كل تحول فـــي مسار العرب السياسي: هل كان العرب يقدمون «عرضاً أفضل» مما كـــان معروضاً من قبل البريطانيين؟ كان بن جوريون مستعداً لأن يحبّذ عقد اتفاقية مع العرب، تتخطى مبدأ التقسيم، وتتقدم عليه، لو أن مثـــل هـــذه الاتفاقيـــة تضمنت النقاط «الجوهرية» الآتية فحسب(٣٣):

أ- الاعتراف بتصريح بلفور، والوطن القومي اليهودي من قبل الزعماء العرب، مخولي السلطة.

ب-إقرار الهجرة اليهودية، وفقاً لقدرة البلاد على الاستيعاب.

ج-توحيد شرق الأردن مع فلسطين الغربية.

د- توزيع المناصب فـــي الأجهزة الحكومية بين العرب واليهود، بالتساوي.

ورغم ذلك، فإن بن جوريون عندما حدد نقاطه الجوهرية تلك، أضـــاف أنه ليست هناك إمكانية حقيقية فـــي أن يقبل المتحدثون باسم العرب التخلـــي عن إصرارهم على «تشكيل حكومة وطنية» لا يعتبر اليهود فـــي ظلها أكثر من ضيوف على فلسطين.

وبعد نحو أسبوعين، من نشر تقرير اللجنة الملكيـــة، اتصـــل مســئولان عربيان(*)، ملاصقان لدوائر «اللجنة العربية العليا»، فـــي تحركين متـــوازيين،

---

* هما رشيد الحاج إبراهيم، والدكتور حسين فخري الخالدي.

بالقيادة الصهيونية. ولم يكن هذا الاتصال بشكل مباشر، وإنما من خلال حاييم مارجوليث كالفارسكي Kalvaryski Hayim Margoliut(**)، الذي عرف بين بعض العرب بكثرة انتقاداته للسياسة الصهيونية. وقد أخبر كالفارسكي شرتوك بهذا الاتصال، وأفرغ إليه محتوى رسالة بأن «اللجنة العربية العليا» ترغب في الجلوس على مائدة مستديرة، للتباحث مع اليهود، على أن يمثل كل طرف سبعة أعضاء، يُختار إثنان منهم بواسطة الطرف الآخر. وكان العرب يحتفظون في عقلهم بدعوة يهوديين معاديين للتقسيم، مثل هربرت صموئيل، ويهودا ماجنس، وكالفارسكي، وأجاب شرتوك بالقبول المتردد، ولكن مع رفض الشرط المسبق الخاص باختيار عضوين من أعضاء الوفد الذي يمثل الطرف الآخر، وطلب شهادة واضحة بأن يكون الوفد الممثل للعرب مخولاً بالتفاوض من قبل «اللجنة العربية العليا». ويذكر كالفارسكي أنه اجتمع، في لبنان، مع شكيب أرسلان، وكان هذا اللقاء عاملاً شجعه على الاستجابة لما فاتحه به رشيد الحاج إبراهيم، وفي الوقت نفسه وصل إلى كالفاركسي تقرير يفيد بأن جمال الحسيني، أيضاً، كان يقترح اجتماع مائدة مستديرة. وعندما تسلم دكتور جوزيف Dr.Joseph(***) مسؤولية التعامل مع مفاتحات العرب، والعروض التي تقدموا بها في يوليو/تموز سنة ١٩٣٧، وعندما كان شرتوك غائباً، فإنه دخل في الموضوع بنفس التفحص الدقيق، ودس الأنف بقوة، مثلما تعامل مع مجموعة الرجال الخمسة. وقال جوزيف لكالفارسكي، يوم الثالث من أغسطس/آب: «لقد تعودنا في الوكالة اليهودية أن نقيّم ونقدر كل هؤلاء الرجال القادمين إلينا حاملين مقترحات من هذا العربي أو ذاك... وأنا أعتقد بأن العرب كلهم محتالون، مخادعون، وكذابون. إنهم يريدون أن يكسبوا الوقت فحسب». وحتى قبل التأكد من البنود التي يقترحها العرب، انتقد جوزيف، بقوة، ذلك الذي اعتبره عقبات خطيرة في المنطقة المحيطة بالمفاوضين، وتوقيت الدوافع التي حفزت العرب على اقتراح التفاوض.

** ولد في بولندا، في عام ١٨٦٨، ووصل إلى فلسطين، عام ١٨٩٥، وتولى مسؤولية «الأيكا»، كمدير للاستعمار الصهيوني، حتى عام ١٩٢٣، ثم عين مديراً للمكتب العربي التابع للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية، في العام نفسه، وقد استخدمه وايزمان في إحداث شقوق في داخل الحركة الوطنية الفلسطينية، من خلال إنشاء الجمعية الإسلامية الوطنية، والحزب الوطني، وحزب الزرّاع، ولكن جهوده فشلت، في النهاية.

*** محام يهودي، كندي المولد، تعاون مع الادارة السياسية للوكالة اليهودية، خلال الثورة الفلسطينية الكبرى، وكان ينوب عن موشي شرتوك، في حالة غيابه.

اتخذ جوزيف الرأي القائل بأن اليهود لم يعد عليهم بعد ذلك أن يتعاملوا مع ما أسماه «ثقوب ركنية فـي أسلوب التفاوض مع العرب أجبرتنا، حتـى الآن، على أن نذعن من أجل القبول بلقاء سري وفي أماكن بعيدة فحسب»[٣٤]. وفي الرأي الصهيوني أن العرب لو كانوا يرغبون في تعامل نهائي مع الصهيونيين، لكان عليهم أن يظهروا، كما يقول جوزيف: «جدية كافية، واحتراماً كافياً لليهود، الممثلين عن طريق الانتخاب، لكي يكونوا عازمين على الالتقاء بأعضاء من الوكالة اليهودية»، بشكل مباشر، ومفتوح. إن استخدام العرب لوسطاء منهم، واقتراحهم بتسمية إثنين من أعضاء الوفد اليهودي، من أجل الموافقة على الجلوس إلى طاولة المحادثات – كل هذا أثار شكوك جوزيف، نحو صدق العرض الذي تقدم العرب به [٣٥].

لم يكن جوزيف، وحده، يعيش أسير هذه الشكوك، ولكنها انتقلت إلى صهيونيين غيره بسبب الشعور بأن العرب رغبوا – على وجه التقريب – في ظهور احتمال التوصل إلى اتفاق عربي – صهيوني، يوفر مسلكاً جانبياً لمناقشة توصيات «لجنة بيل»، على صعيد اللجنة الدائمة للانتدابات في جنيف. وكوسيلة لاختبار صدق عزيمة العرب، شعر جوزيف بأنه يجب على كالفارسكي أن يقطع الاتصال مع العرب، لأسابيع قليلة، ويرى ما إذا كان الاهتمام نفسه في التحدث مستمراً، بعد اجتماعات جنيف. وبعد ذلك بأسابيع تأكدت شكوك جوزيف، عندما وصلته «معلومة موثوق بها»، عن مناقشة جرت بين «سياسيين عرب مرموقين، وتبعاً لهذه المصادرّ الموثوق بها، كان العرب يحاولون أن «يرتبوا الأمور بالأسلوب الذي يظهر أن العرب عازمون على الالتقاء، بينما اليهود غير عازمين»، وفي الوقت نفسه «بذروا بذور الشقاق بين الكوادر اليهودية». وبعد انتظار إجابة خطية من رشيد الحاج إبراهيم عدة أسابيع، سلمت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية بأن العرض الذي تقدم به العرب لم يكن جاداً. العامل الثاني الذي جعل عرض العرب أقل جاذبية، مما كان يبدو عليه عند النظرة الأولى، كان يتمثل في تلك الإعلانات المتكررة للمتحدثين باسم القيادة الفلسطينية القائلة بأن: «العرب مصممون على أن تكون البلد دولة عربية محضة». هذا بينما نصح الدكتور أحمد سامح الخالدي(*)، اليهود، بألا يأخذوا مثل هذه البيانات مأخذ الجد. وكان عوني عبد الهادي صريحاً في محادثاته الخاصة، وفي تعبيراته العامة،

---

* هو ابن الشيخ راغب الخالدي، تخرج من كلية الصيدلة في الجامعة الأمريكية ببيروت، سنة ١٩١٧، وخدم في الجيش العثماني، ثم عمل مفتشاً للتعليم، في لوائيْ يافا وغزة، فمديراً للكلية العربية في القدس.

وفــي إحدى المحادثات العديدة مع أجرونسكي Agronsky Gershon محــرر إحدى الصحف اليهودية التي كانت تصدر وقتئذ فــي فلسطين – جاء قول عوني عبد الهادي بما يعني أن العــرب «يمكــن أن يفعلــوا أي شــيء... لــو أننــا (الصهيونيين) نتعهد بألا نصبح أغلبية يوماً ما»، وخرج أجرونسكي من المحادثــة بانطباع مفاده أن العرب «يجب أن يحكموا، ويجب أن يسيطروا – لــيس هنــاك عربي يفكر فــي غير ذلك، وليس هناك عربي يقبل بأي ترتيبات تحرم العــرب من حقهم فــي أن يحكموا فــي بلدهم. يمكن أن يواجهوا بالقوة، ولكنهم لن يقبلوا، وليس لهم حق فــي أن يقبلوا... لو أننا (اليهود) نرغب حقاً فــي صداقة العرب، فإن علينا أن نحيط الحكومة البريطانية علماً بأننا رفضنا التقسيم، وفــي الوقــت نفسه نفــيد العرب. أننا لن يكون لنا (أي جزء فــي الــوطن العربــي) بــدون موافقتهم. يجب علينا حينئذ أن نرحل عن البلد، ونتركها للعرب، مقابــل تعبيــرهم عن العزيمة الصادقة، والإيمان الصادق فــي توطين أكبر عدد ممكن من اليهــود فــي الأرض التي يوجدوها لنا خارج فلسطين وداخلها، أيضاً». وفــي إجابــة على سؤال وجهه أجرونسكي، عما إذا كان فــي مقدور اليهود مواصلة الهجــرة إلى فلسطين، وفقاً لقدرة البلاد على الاستيعاب، قال عوني عبــد الهــادي: حتــى الوقت الذي يهددون فــيه العرب، كأغلبية. وبعد أن وصــلت هــذه الإشــارات المتكررة من قبل زعماء فلسطينيين لهم كيانهم، بأن الأســاس الوحيــد الممكــن لاتفاقية، هو أن يكون على اليهود الموافقة على أن يبقوا أقليــة فــي فلســطين، طورت قيادة «الوكالة اليهودية» استراتيجية، تتجنب أي ضغوط فــي سبيل إجراء محادثات مع العرب. وهكذا انتهى الرأي فــي اللجنة التنفــيذية للوكالة اليهودية – التي قاد بن جوريون أعضاءها – إلى أن البريطانيين وليس العرب، هــم الــذي يحتلون جبهة الحسم، فــي مرحلة ما بعد «لجنة بيل». وكان لا يزال هناك قــدر كبير من النشاط فــي القسم العربي، التابع لــلإدارة السياســية فــي «الوكالــة اليهودية»، فــي مجالات ثلاثة[٣٦]:

أ- التعاون مع العرب المعتدلين فــي فلسطين، وهم المعارضــون للمفتــي، الذين من المتوقع أن يسيروا فــي اتجاه شكل ما من أشكال التقسيم، على أن راغب النشاشيبي هو الذي كان من المتوقع أن يساند مبدأ التقسيم.

ب- تحييد التدخل «غير المرغوب فــيه» من قبل السياسيين العرب غير الفلسطينيين.

هـ- تقدير حذر للعروض التي استمرت فــي الانطلاق من الجانب الآخر (العربي).

ولغم الصهيونيين وكدرهم، أن الأنظمة الحكوميــة العربيــة المجــاورة لفلسطين، والتي أظهرت، فــي وقت سابق مبكر، بعــض التعــاطف مــع

احتياجات ومصالح اليهود فـــي فلسطين (رغم أنها لم تكن فـــي نظرهـــا حقوق ثابتة لليهود)، أصبحت هذه الأنظمة تظهر مساندة صـــريحة للقضـــية العربية الفلسطينية، فـــي كل من الشرق الأوسط، ومكاتب «عصبة الأمـــم» فـــي جنيف، وتم حشد مساعدات تنظيمية ومالية للثورة المتجددة مع نشاطات «إرهابية»، تدار من الأرض السورية[٣٧].

عاد المسؤولون الصهيونيون إلى «الدبلوماسية الوقائية»، كمدخل استخدم فـــي محاولات لتحييد التدخل الخارجي العربي «غير المرغوب فـــيه»؛ وبدا أن خطوات اتخذت لرعاية «روابط أخوية» مع زعماء عرب غير فلسطينيين كانوا – طوال السنة الماضية – أي منذ بداية الثورة،لا يتمتعون بأية أهميـــة لدى الجانب الصهيوني. وقد أثبتت كل التخمينات الصهيونية الســـابقة بـــأن العراق وسوريا كانتا مشغولتان بشؤونهما الداخلية، دون أن يكون لأي مـــن القطرين العربيين اهتمام نشط بفلسطين، أثبتت أن أساسها غير ســـليم. وقـــد عبر وايزمان عن الإحباط الذي أصابه، فـــي مدار أحداث الثـــورة، حـــين كتب، بإفراط، عن القيادات العربية غير الفلسطينية، وقال: «كـــل زعمـــائهم المغامرين وسياسييهم، الذين يمثلون أعضاء فـــي عصابة، يـــؤدون أفضـــل أداء، ليخلقوا تحولاً بالإلتفاف حول فلسطين، آملين بذلك أن يوجدوا شـــهادة للبطولة الأعظم». وحتى رئيس الجمهورية اللبنانية إميل إده، الدي كان مـــن المعتقد أنه كان لا يزال يحتفظ بقدر من التنسيق الأكثر تماسكاً للمصالح بينه وبين الجانب الصهيوني، كان لا بد أن يزوره دكتور جوزيف، بحثـــاً عـــن تأكيدات جديدة بأن اللبنانيين لن ينشـــروا أي بيانـــات مضـــادة للتقســـيم، أو المشاركة فـــي المؤتمر القومي العربي الخاص بفلسطين، والذي عقد، بعـــد ذلك، فـــي بلودان بسوريا، فـــي أغسطس/آب ١٩٣٧، وتقهقر الأمير عبـــد الله، بطريقة مماثلة، وبترتيب مقصود به غرض معين عن مبادرته المؤيـــدة للتقسيم، فـــي ظل ضغوط، وفقدان المساعدة المتوقعة من حلفائه التقليـــديين فـــي دوائر المعارضة العربية الفلسطينية (النشاشيبي). ومع إفـــلات الحـــاج أمين الحسيني إلى بيروت، فـــي الأيام الأولى مـــن أكتـــوبر/تشـــرين الأول ١٩٣٧، أصاب الأمير عبد الله قدر من الشجاعة، فـــي محاولة أكثر فاعليـــة لملء الفراغ الذي نجم عن غياب الحاج أمين عن القدس. غير أن تقـــديرات الإدارة السياسية للوكالة اليهودية أشارت إلى استنتاج أن كلاً مـــن عبـــد الله والنشاشيبي كان يحتل ذلك الموقع الضعيف، لدرجة أنه ليكون مضيعة للوقت والمال. وعلى العكس من الموقف الدفاعي السائد لدى دوائر الوكالة اليهودية، تحرك إحساس بالنشاط والإلحاح، دفع أقلية معادية للتقسيم من اليهود إلـــى

محاولة التفاوض، بشكل رسمي، على اتفاقية مع أصحاب العزيمة من العرب. وقد عمق هذا النشاط التفاوضي انشقاقاً بين العناصر الصهيونية، إنه شرخ ليس قائماً على مواقف متضادة حول المسائل الأساسية لدولة يهودية، وأقلية يهودية، ولكنه انشقاق اكتسى بصدامات شخصية، وجروح لم تندمل، تعود إلى تحركات مجموعة الرجال الخمسة[٣٨].

وقبل نشر تقرير بيل، بشكل رسمي، بنحو ستة أسابيع، كتب فلكس واربرج(*) وكانت تجمع بينه وبين يهودا ماجنس صداقة حميمة، ومساند لجهوده التوفيقية بين العرب واليهود، كتب(**) إلى حاييم وايزمان، على أمل أن يتأجل نشر التقرير، إلى الدرجة التي توفر الوقت اللازم «لبذل كل الجهود، للتوصل إلى اتفاقية مع العرب، تطبيقاً بمبدأ «أعط وخذ». وفي الأيام السابقة مباشرة على نشر التقرير، انخرط واربرج هو الآخر في الترتيب لاجتماع بين صهيونيين أمريكيين وثلاثة من الناطقين باسم العرب في نيويورك. وكان واربرج يكتنز قدراً كبيراً من الأمل الحقيقي وغير الزائف في نتائج إيجابية لهذه المحادثات، منذ أن شعر أن العرب «لم يبد عليهم أن عقلهم يحيا أسير أطر مستحيلة». وعلى العكس من زعماء «الوكالة اليهودية» في القدس، لم يكن أمام الصهيونيين الأمريكيين عائق، يمنعهم من فتح مفاوضات، لأنهم كانوا على علم بأن العرب كانت تحددهم في «أن تكون المحادثات على أساس اتفاقية، تنص على ضرورة أن يكون للعرب أغلبية سكانية دائمة في فلسطين... إنهم مستعدون لرؤية السكان اليهود في فلسطين يزيدون بأعداد كبيرة، ولكن شريطة ألا يزدادوا عدداً عن العرب، أو يتساوون معهم»(***). وعلى أساس من رغبة في عقد مناقشات، في اتجاه التوصل إلى اتفاقية، أصبح الزعماء الصهيونيون الأمريكيون(****) شركاء يمتلكون العزيمة، في يوليو/ تموز سنة ١٩٣٧. وهكذا جمع واربورج بين معارضين للتقسيم، حثهم افتراضان: الأول أن التقسيم لا يمكن تنفيذه، سوى بالقوة، والثاني أن تسوية مقبولة، كانت مفضلة على تسوية مفروضة. وهما افتراضان كان من الصعب أن يشاركهم

---

* زعيم يهودي أمريكي، وهو أحد أعضاء القسم الأمريكي غير الصهيوني في مجلس «الوكالة اليهودية» لفلسطين، بعد توسيعها، في عام ١٩٢٩، لتضم يهوداً غير صهيونيين.

** في ١٩٣٧/٥/٢٤.

*** من رسالة واربورج إلى يهود ماجنس، في ١٩٣٧/٦/٣٠.

**** هم : Backer, Stook, Walman، فيما ضم الوفد العربي كلا من : أحد قادة الصف الثاني في الشورما، وعزن طنّوس، وأمين الريحاني (شخصية لبنانية معروفة بعروبتها)، وموسى الحسيني وآخرين.

بن جوريون وشرتوك وجوزيف في الاقتناع بهما، وهم الذين وضعت في أيديهم أمانة الشؤون السياسية في «الوكالة اليهودية». وعندما أبرق واربورج إلى وايزمان، لكي يفيده بخطط «بيان سلمي» عربي يهودي مشترك، يمكن توجيهه إلى اللجنة الدائمة للانتدابات في جنيف، حذر وايزمان، وأنذر من أن مثل هذه الجهود المنفصلة يمكن أن تكون «مهلكة، في هذا الموقف الدقيق». وقال رئيس «المنظمة الصهيونية العالمية» في إجابته أن مناقشة التقسيم في جنيف يجب أن تباشر بدون تعقيدات، حتى يمكن وضع اليهود في مكان أفضل في المساومة مع العرب، فيما بعد[٣٩].

غير أن واربورج وزملاءه واصلوا نشاطهم، وأمدوا المكتب الصهيوني في لندن بتفاصيل المباحثات التي جرت. ورأى الصهيونيون علامات تباين حاد بين الهدف من تكوين جبهة عامة عربية – صهيونية رافضة لمبدأ التقسيم، كتلك التي حاول شرتوك تنظيمها مع العرب، وبين«مناورات» العرب في الولايات المتحدة الأمريكية بخصوص عمل مشترك عربي – صهيوني. على أن تلك «المناورات»، وصلت بسرعة إلى مرحلة متقدمة، أفضت إلى مناقشة بنود اتفاقية، مدتها عشر سنوات، تستمر الهجرة اليهودية إلى فلسطين خلالها، ولكن وفقاً لقدرة البلاد على الاستيعاب الاقتصادي، وطالما لم تزد نسبة السكان اليهوديين عن (٤٠%) من إجمالي عدد سكان فلسطين، في هذه الفترة. وعندما أبرق واربورج إلى وايزمان بذلك(*)، أجاب وايزمان، بنكد، عن احتمال الموافقة على التعامل مع أمر له هذه الأهمية عنده «حتى اللحظة الأخيرة»، وفي وقت كان يخوض فيه معركة ضد «العقبات المهلكة»، وقد اقترح ضرورة النظر في الأمر كله، بعد اجتماعات اللجنة الدائمة للانتدابات في جنيف، وكرر تقديراته بأن العرب، كلما كانوا مقتنعين أكثر بتصميم الحكومة البريطانية على فرض التقسيم، كلما كان الصهيونيون مهيئين «للوصول إلى ترتيب مقنع» معهم. وقد انتهز وايزمان هذه الفرصة، ليلقي ظلالاً من الشك حول تمثيل واربورج للمنظمة الصهيونية العالمية، وهو يهودي غير صهيوني، وبالتالي فهو غير مخَّول بسلطة التباحث مع شركاء؛ وأنذر وايزمان اليهود الأمريكيين غير الصهيونيين بأن «أي مقترحات تحدد القاعدة السكانية اليهودية في فلسطين بشكل خاص بحدود الأقلية، سوف تكون غير مقبولة بالتأكيد لدى الحركة

* في ١٩٣٧/٧/١٧.

الصهيونية، ككل، والشعب اليهودي فـي شرق أوروبا». وعلى الرغم من هذه التحفظات، فإن الزعيم الصهيوني أقر بأن اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية» كانت دائماً تعد للقاء»، يجمع بين زعماء فلسطين وصهيونيين، لمناقشة الأمر(٤٠).

نجح وايزمان، بإصراره القوي، فـي أن يوقف الأمريكيين، مؤقتاً، على أن يعودوا إلى اتصالاتهم، بعد اجتماعات اللجنة الدائمة للانتدابات. وكان أن تزامن مع هذه الاتصالات، ولكن بشكل منفصل عنها، مناقشة جرت فـي لندن بين نورمان بنتويتش Bentwich Norman، ذلك اليهودي الذي كان يشغل منصب المدعي العام فـي حكومة فلسطين، وجمال الحسيني، العضو البارز فـي «اللجنة العربية العليا». وإن كان من غير الواضح من الذي بادر بالاتصال، ولكن من المحتمل أن تكون المناقشة قد جرت، بشكل تلقائي، عندما كان الرجلان مدعوين إلى إذاعة الـ B.B.C لكي يدليا بتعقيبات متناظرة على تقرير «لجنة بيل»(٤١).

كان الحال فـي الاتصالات العربية – الصهيونية فـي الولايات المتحدة الأمريكية، كانت أرضية اجتماع بنتويتش وجمال الحسيني تتمثل فـي معارضة الطرفين للتقسيم المقترح لفلسطين. ولو أن بنتويتش كان قد نجح فـي جذب اهتمام القيادة الصهيونية إلى ست نقاط، كأساس للمناقشة، فإن جمال الحسيني كان مستعداً للاستمرار فـي المحادثات، على مستوى رسمي أكبر، خلال وساطة عراقية فـي سويسرا. وكانت الملامح الرئيسية فـي صياغة بنتويتش – الحسيني: استقلال ذاتي قائم على نظام الكانتونات، وتحديد الهجرة اليهودية، وتوحيد فلسطين الغربية مع شرق الأردن. وبدأ بنتويتش يشاور الأصدقاء فـي لندن، ومرر نسخة من الاقتراح على المكاتب الصهيونية، غير أن هؤلاء لم يبدوا أي رغبة فـي متابعة الأمر(٤٢). وقد أرسل بنتويتش بذلك إلى ماجنس، فـي ٢٣ يوليو/تموز سنة ١٩٣٧.

ورغم أن واربورج وزملاءه أبقوا على اتصالاتهم بالمتحدثين باسم العرب، خلال شهري أغسطس/آب وسبتمبر/أيلول سنة ١٩٣٧، وإن ممثلين عن اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، أو اللجنة العربية العليا لم يشتركوا فـي مباحثات سياسية شبه رسمية، من خلال هذه القناة، أو الاتصال بين بنتويتش وجمال الحسيني. ولم يكن الأمل يحدو أياً من الزعماء العرب أو الصهيونيين فـي مراجعة الحد الأدنى من شروطهم، فـي سبيل الالتقاء على أرضية تفاوضية، حتى لو كان ذلك تحت ضغط التهديد بتقسيم فلسطين(٤٣).

وكما حدد شرتوك، فـــي أواخر أكتوبر/تشرين الأول، كانت الشـــروط المقبولة، صهيونياً، على أمل اتفاق عربي – صهيوني على فلســطين غيــر المقسمة، هما(٤٤):

١– يجب أن يكف العرب عن الكلام على أنهم السادة الوحيدون، وعلــى أن اليهود، فـــي أفضل وضع لهم، ضيوفاً عليهم، وفـــي أسوأ وضع فإنهم المتطفلين غير المرغوب فــيهم.

٢– يجب السماح للهجرة اليهودية، دون تحديد أكثر من تعهد صــهيوني بألا ينجم عنها نزع ملكية عرب.

وعندما أصبح واضحاً أن عروض العرب من أجل التفاوض كانت قائمة على افتراض مسبق، بأنه لا يجب أن يصبح اليهود أغلبية ســكانية، تحــول المتحدثون باسم الصهيونية إلى الجهة البريطانية، وضغطوا من أجل تنفــيذ مصمم للتقسيم. وكان المبرر الصهيوني هو أن العرب لم يكونوا على استعداد لعقد اتفاقية اختيارية من أجل فلسطين غير المقسمة على شروطهم، وعندئــذ ربما يكون الأمر الواقع بالنسبة لدولة يهودية، مفروضة بمساعدة من خــلال الحزم البريطاني، عاملاً على خلق ظروف أفضل لاتفاق عربي – صهيوني، فـــي وقت ما، مستقبلاً(٤٥).

وكان الصهيونيون جميعاً، فـــي خريف ١٩٣٧، لا يزالون تحت ضغط دراسة مختلف المقترحات، من أجل عقد اتفاقية مع العرب، يمكن أن تشــغل مكان التقسيم المقترح لفلسطين. وجاءت العــروض الخاصــة بالمــداولات والمناقشات الخاصة بخطط السلام وإيقاف الثورة، من عدة أركان، بما فـــي ذلك فخري النشاشيبي، وراغب النشاشــيبي، وعمــر صــالح البرغــوثي، وخلوصي الخيري فـــي فلسطين، بينما فـــي دمشق حبذ الزعيمان السوريان، شكري القوتلي، وجميل مردم، أن تدخل اللجنة التنفــيذية الصهيونية فـــي محادثات مباشرة مع فلسطينيين عرب، بعد لقاء تم بــين إيبشــتين وإليــاهو ساسون مع شكري القوتلي، وفخري البــارودي، وفــواز شــعلان، فـــي ديسمبر/كانون الأول سنة ١٩٣٧(٤٦).

فـــي وقت متزامن، أتت مبادرتان من نوري سعيد، والدكتور عبد الرحمن شهبندر، بمفهوم أنه خلافاً لحالة الإخفاق الكامل فـــي الوصول إلى اتفاق لتسوية النزاع فـــي فلسطين، وإيقاف الثورة، يمكن أن يحدث التفــاهم الإيجــابي بــين العرب واليهود، فـــي إطار فــيدرالية عربية. وكان كلا الرجلين، فـــي ذلــك

الوقت، يقودان المعارضة كل فـي بلده (العراق، وسوريا). وكانا يقترحـان أن يمنح اليهود ضمانات لوضع أقلية فـي فلسطين، بينما يعرضان استيعاب ثلاثـة ملايين من اللاجئين اليهود الأوروبيين فـي البلاد العربية المجاورة لفلسـطين، والأعضاء فـي الفـيدرالية المستقبلة. وقد اقترحت خطة نوري السعيد الإبقـاء على النسبة القائمة بين العرب واليهود فـي فلسطين، متواصلة، بينمـا كانـت خطة عبد الرحمن الشهبندر قائمة على السماح لليهـود بالوصـول إلـى الحـد الأعلى، وهو (٣٦%) من إجمالي عدد السكان[٤٧].

خلال محادثاته مع إثنين من الصهيونيين المقيمين فـي بـاريس، عبَّـر عبد الرحمن الشهبندر عن اعتقاده فـي أن يحسن وايزمان استقبال أفكـاره، غير أن البيانات العامة، والخاصة الصادرة عن وايزمان، وقادة صـهيونيين آخرين، أوضحت، وقتئذ، للسياسي السوري أنه لن تعقد اتفاقية، بعد ذلك،على أساس حفظ اليهود أقلية فـي فلسطين[٤٨].

كذلك رفضت خطة شهبندر، فلسطينياً، إذ تسرب خبر صحفـي كشف عنها للنشطاء الفلسطينيين، الذين انتهزوا الفرصة لتذكيره بأن نسبة الـ (٣٦%) قـد تخطتها قرارات «مؤتمر بلودان»، التي عرضت على اليهود وضمانات حقـوق أقلية، فحسب، فـي حدود النسبة القائمة (أي ٢٨,٥%) [٤٩].

كان نوري السعيد، فـي غضون هذه الأحداث، نشطاً مع البريطـانيين، والفرنسيين، وزعماء فلسطينيين فـي بيروت. وقد حـاول إقنـاع هـؤلاء الزعماء الفلسطينيين بإنهاء الرعب Terror، والموافقة على تقديم بينة للجنة ودهيد، التي كان عليها أن تصل فلسطين لممارسة عملها، بالموافقة علـى الالتقاء باليهود فـي مؤتمر، لمناقشة اتفاقية تسير على هَدي خطته الخاصة بالفـيدرالية العربية. وتبعاً لما أوردته مصادر المخـابرات الصـهيونية،فإن نوري السعيد أكد للفلسطينيين بأن هذه هي فرصتهم الأخيرة، لتجنـب «الحل المتطرف الخاص بالتقسيم»، بالبرهان على أنهم كـانوا يتصـرفون بمسؤولية وبعقلانية، بينما يلقون بعبء المسئولية على اليهود، لكي يعممـوا تنالازت، وبذلك يمهد الطريق إلى اتفاق عربي – بريطاني – يهودي. وتبعاً لما أوردته المصادر نفسها، تابع المفتي، من منفاه فـي بيـروت، علـى مضض، المسير مع بعض مقترحات نوري فحسب. وكـان هنـاك شـعور مختلط بين الوطنيين العراقيين، حول ما أُشيع عن خطـط نـوري بصـدد فلسطين، وبشكل خاص عن فكرة استيعاب الفـيدرالية العربيـة المنتظـرة لملايين اليهود. ورغم أن نوري السعيد صادف أُذناً متعاطفة بين المبعـوثين

الدبلوماسيين البريطانيين، والأمريكيين، فـــي القاهرة وبغداد، وإنه فشل فـــي أن يؤثر على المسؤولين البريطانيين فـــي لندن، بينما تحدث وايزمان ليحط من قدر ذلك «البلل»، الذي أحدثه الزعيم العراقي فـــي مقترحـــات الســـلام. وبعد لقائه مع ماجنس، فـــي فبراير/شباط سنة ١٩٣٨، كف نوري الســـعيد عن هذه المحاولات الأخيرة بالوساطة فـــي مشكلة فلسطين(٥٠).

مقترحات هيامسون ـ نيوكمب:

وسط الشائعات والتعليقات الصحفـــية، التي كانت، فـــي أواخـــر عـــام ١٩٣٧، تشير إلى احتمالات عقد اتفاق عربي – صهيوني وشيك، وهو الأمر الذي لم يتحقق، أبداً، ظهرت تعليقات مؤيدة من جانـــب بعـــض المســـاندين للقضية العربية، حول اقتراحات تقدم بها هربرت صموئيل، مفادها أن يسمح لليهود بزيادة أعدادهم فـــي فلسطين، حتى تصل إلـــى نســـبة (٤٠%) مـــن إجمالي سكانها، بعد انقضاء عشر سنوات. وكان أحد الشبان الفلســـطينيين، الذين لم يسبق لهم الانخراط، علناً، فـــي المباحثات – وهو موسى الحسيني– ظهر نجمه بشكل كبير فـــي لندن، مؤيداً لصيغة هربرت صـــموئيل، فـــي مواجهة عديد من اليهود والبريطانيين، وحقق موسى الحسيني اتصالات مـــع نيوكمب(*)، وكانت له محادثات عديدة مع بن جوريون(٥١).

استجاب الزعماء الصهيونيون لهذه الاقتراحات العامة، التي اســـتهدفت تحقيق اتفاقات عربية – صهيونية، متخذين موقفاً دفاعياً شـــابه شـــيء مـــن الغضب، منذ أن اعتبروا تلك الاقتراحات دعاية فـــي هيئة تسويات، الغرض منها تخريب عملية فرض التقسيم ليس إلا ، وزيادة حـــالات التـــردد فـــي الدوائر الحكومية، حول فرض خطـــة إقامـــة دولـــة يهوديـــة. وقـــد رأى الصهيونيون فـــي هذه العروض ما يتعارض مع شـــروطهم. ولكـــن ذروة تأثيرها فـــي الدوائر البريطانية، وحتى فـــي الرأي العام اليهودي، جعلـــت وايزمان وآخرين يشنون حرباً مضادة، صممت لتثبيت القوة الدافعـــة التـــي بدأت تضعف فـــي مجال فرض التقسيم. وقال وايزمـــان لزملائـــه فـــي الولايات المتحدة الأمريكية: «لقد كان لها سحر حقيقي، كسحر يوم السبت». كما وضع الشخصيات البريطانية والعربية، التي أشيع أنها بدأت فـــي مناقشة المقترحات التي تحض على تجنب التقسيم. وقد حذر من أن «الهدف الواضح

* مسؤول بريطاني، اتهمه الصهيونيون بالميل نحو الحق العربي في فلسطين، وهو أحد مؤسسي "المكتب العربي" في لندن.

لكل هذه الجهود هو استخدام الحالة (الحاضرة) لعدم التوصل إلى تسوية، في خنق الوطن القومي. ولسوء الحظ... فإن الانطباع الذي يكسب أرضاً هو بالنظر للمعارضة الصلبة للعرب ولأقسام ذات نفوذ بين اليهود، يجب النظر إلى التقسيم على أنه غير عملي، وأن الانتداب قد انهار، بالنتيجة، وبواسطة اللجنة الملكية. وهكذا يكون الحل الوحيد هو التسليم بالمطالب العربية، وإنهاء الوطن القومي اليهودي، ومنح اليهود حقوق الأقلية، بينما كل المقاصد والأغراض ترمي إلى أن تكون دولة عربية» (٥٢).

عكست مناقشات وايزمان ذلك الطابع السلبي شديد الشك والارتياب، الذي تفشى بين الدوائر القيادية الصهيونية، التي دعت في نوفمبر/تشرين الثاني سنة ١٩٣٧ وفبراير/شباط سنة ١٩٣٨، للتعامل مع سلسلة من المقترحات المعقدة والطموحة، التي تعمل على تحقيق تسوية عرفت بمقترحات هيامسون(*) – نيوكمب. وتفهم المقترحات التي حملت إسمي Albert M. Hyamson و Col. F. Steuart Newcombe، بشكل ما، على أنها تفرعت عن المباحثات، التي جرت في لندن ونيويورك، في منتصف عام ١٩٣٧ . وفي مايو/أيار سنة ١٩٣٧ بدأ هيامسون يشارك الأفكار التي شاعت حول تسوية للمشكلة العربية – الصهيونية مع كولونيل نيوكمب، الذي كان، وقتئذ، يعمل كوسيلة ضغط لمركز الإعلام الفلسطيني في لندن. على أن قوة الدفع المناسبة لأول صيغة للمقترحات التي قدمها هيامسون إلى وزارة المستعمرات البريطانية وللمنظمة العالمية الصهيونية، في أكتوبر/تشرين الأول ونوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٣٧، كانت اقتراحاً، قدمه نيوكمب، والظاهر أنه كان مبادرة من قبل أعضاء «اللجنة العربية العليا»، من خلال جورج أنطونيوس. وقد تمثل هذا الاقتراح في شكل خطة ذات تسع نقاط، دعت إلى أن تستقل فلسطين، استقلالاً تاماً، قائماً على فترة انتقال لاستقلال ذاتي وطني طائفي Communal-Nazional Autonomy، يفضي إلى تكوين وطن قومي يهودي، وليس دولة يهودية، وحدّ أعلى لنسبة اليهود بين سكان فلسطين، بعد ضمها إلى شرق الأردن، يمكن أن تصل إلى (٥٠%) من إجمالي السكان(٥٣).

تبع ذلك عدة أشهر من المناورات والمباحثات المركزة، وإعادة صياغة الخطة، صهيونياً، حتى تحولت إلى شيء عرضي، أكثر في عدم الجدوى، وأكثر صعوبة من مواجهة نشاط الرجال الخمسة. ذلك لأن هذه الصياغة

(*) يهودي بريطاني غير صهيوني، كان مديراً للهجمة في حكومة الانتداب بفلسطين، بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٣٤.

الثانية ارتبطت، بشكل كاف، بالحد الأدنى للمطالب العربية الفلسطينية، التي كانت تتمتع بمساندة رسمية عربية، رغم أن المسؤولين البريطانيين والصهيونيين دعوا إلى تقويم عباراتها، مع أنها كانت مقترحات عربية حقيقية للتسوية. والحق أن بعض الزعماء الصهيونيين شكوا في الأمر، منذ بدايته. وبشكل خاص بعد محادثة خاصة جرت مع موسى الحسيني، في لندن، في منتصف ديسمبر/كانون الأول سنة ١٩٣٧، قيل إنها تتعارض، تعارضاً خطيراً، بين ما أكده هيامسون من أن شخصيات قيادية عربية تساندها من ناحية، والتي نظر إليها المفتي نفسه وعرب آخرون، حتى كولونيل نيوكمب، على أنها تشمل بنوداً مقبولة من ناحية أُخرى. وحتى يهودا ماجنس، يبدو أن هيامسن أساء توجيهه إلى أن تلك الصياغة حظيت، بالفعل، بمباركة أعضاء قياديين في «اللجنة العربية العليا»(٥٤). وقد أدار ممثلو «الوكالة اليهودية» في لندن والقدس اختبارات متوازية ومتعاطفة مع المقترحات لتوضيح معنى عبارات معينة وللتمييز بين الوسطاء البريطانيين من ناحية، والأوضاع الحقيقية للزعماء العرب من ناحية أُخرى. وكان معظم المسؤولين الصهيونيين، في أفضل الأحوال، حذرين بشكل خاص، وفي أسوأ الأحوال معادين للخطة ولواضعي أُصولها. وفي هذا المضمار، كتب شرتوك إلى زملائه في لندن، يقول: «ربما لا يكون الأمر كله سوى شَرَكٍ أو مناورة، لإلحاق الهزيمة بخطة التقسيم، وقيام الدولة اليهودية، يشترك فيها يهود معينون، وبريطانيون، وعرب». ولكن «اللجنة العربية العليا» كانت مرتبطة، أخلاقياً، بفحص كل المقترحات الهادفة إلى إيجاد حل للصراع مع العرب. وكانت ذكريات جهود الرجال الخمسة لا تزال ماثلة في ذهن شرتوك، الذي قال إن اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية «يجب أن تعطي إجابة سلبية، لا مبّرر لها، أو مبتسرة، يمكن أن تفسر على أنها مجرد عناد من جانبنا، وتسمح ببروز أسطورة جديدة عن أننا أُتيح لنا مرة أُخرى فرصة ذهبية، في التوصل إلى سلام مشرِّف مع العرب، الذين قتلتهم حماقة الوكالة اليهودية»(٥٥).

واستمر شرتوك يبدي ملاحظاته التي صورت المدخل التكتيكي الحاذق، في الرأي الصهيوني، فقال: «... ومن ناحية أُخرى يجب أن نسعى إلى إجراء مناورة مع الطرف الآخر، أو مع الوسطاء، حتى نصل إلى الوضع، الذي يجب أن يلقوا فيه بكل الكروت التي يحتفظون بها، حتى الآن، هذه المناورة تجعل من الضروري أن نقول لا. ولو أنها من ذلك النوع الذي يغلف الاقتراح بغلاف يظهر لنا أنه يستحق الاهتمام، عندئذ لن يكون هناك ضرر من أن نتخذ خطوة

جديدة. وقبل بروز المقترحات، وقبل تفحصها، أمكن لممثلي «الوكالة اليهودية» ألا يجدوا دليلاً يشير إلى أي متحدث باسم العرب، يكون عازماً على رؤية اليهود يصلون، عددياً، إلى ما نسبته ٤٩% من إجمالي عدد السكان، فقد أشير إلى نسب ٣٠ و ٣٥ و ٤٠ في المائة. وكان نيوكمب نفسه ينوّه إلى أرقام تصل إلى ٣٠ أو ٣٥ في المائة، على أنها تمثل الحد الأعلى للنسبة المئوية لعدد اليهود التي يمكن أن يسمح بها العرب [٥٦].

كذلك وجد الجانب الصهيوني، أيضاً، أن بنود مقترحات هيامسون – نيوكمب، بعد إنعام النظر، أقل جاذبية مما كانت عليه، عند النظر إليها أول مرة. كان يمكن حث القيادة الرسمية على الموافقة على «هدنة»، أو فرصة، لالتقاط الأنفاس، تستغرق عدداً محدداً من السنوات، لا يمكن خلالها أن يزيد عدد السكان اليهود عن نسبة معينة، أو رقم ثابت. ولكن هذا التحديد يمكن دراسته لو وضع في الاعتبار أنه إجراء انتقالي فحسب، دون أن يحيق بالضرر تسوية نهائية، ما يمكن لليهود أن يصبحوا فيها أغلبية سكانية؛ ولو كانت الأعداد أكبر. ولكن مسودة الخطة عبرت عما يدور في ذهنية هيامسون ونيوكمب – بشأن الترتيبات النهائية المرغوب فيها، بشكل أكبر. لقد شارك الرجلان أعضاء «اللجنة العربية العليا»، منذ البداية، فحسب بأن [٥٧]:

أ- فلسطين، وحدها، لا يمكن أن تقدم حلاً للمشكلة اليهودية، التي تسير من سيء إلى أسوأ في وسط أوروبا.

ب- ليس هناك عرب من المتوقع أن يدخلوا في محادثات، إلا إذا كانت على أساس أغلبية عربية مؤكدة في فلسطين.

وكانت الشكوك تساور زعماء «الوكالة اليهودية»، وتفاقمت الحالة، في أوائل ديسمبر/كانون الأول سنة ١٩٣٧، عندما انتشرت شائعات عن اتصالات عربية – صهيونية. ورغم أن مضامين هذه الشائعات غير دقيقة، فقد أنكر بن جوريون، بشدة، سريان مفاوضات متطورة، أثناء مؤتمر صحفي، عقد خصيصاً لهذا الغرض. لقد انتهز رئيس «الوكالة اليهودية» الفرصة، لكي يؤكد أن اليهود كانوا عازمين على التفاوض على أى مقترحات هامة، يمكن أن تنبثق عن الدوائر العربية، ولكنه انتهى إلى أن لا مجال لأية محادثات قائمة على أن يبقى اليهود أقلية، سواء كانت تمثل (٣٥%) أو (٤٩%) من سكان فلسطين، وقال: «الرجل الذي لا يعرف اليهود فحسب، هو القادر على تصور سخافة أن يوافق اليهود على خلق جيتو في فلسطين، وضع تحت حماية السادة الحاج أمين الحسيني (قائد عصابة التمرد) وفوزي

القاوقجي، وأصدقائهما». وأنذر بن جوريون بأنه قبل أن يصير ممكناً التوصل لاتفاقية حقيقية، فإن من الضروري بالنسبة للعرب أن يخلّصوا أنفسهم من» ذلك الانطباع الخاطئ، بأنه كانت هناك الفرصة الهزيلة لعقد اتفاقية على أساس تثبيت اليهود كأقلية في فلسطين». أما بالنسبة للمفتي «الطريد» إلى بيروت، فقد تفوه بن جوريون بكلمات، عكست وجهة نظره الخاصة بعقم المفاوضات مع اليهود، وأكدتها. وطالما كانت القيادة الصهيونية لا توافق، بشكل اختياري، على أن يبقى اليهود أقلية في فلسطين، فإن يلقي بالمسؤولية على عاتق بريطانيا، لتقويض أركان ذلك المأزق، بفرض التسوية العادلة التي – في رأيه – تعني أن التقسيم قد تم استثناؤه. على أن «اللجنة العربية العليا» – أنكرت بشكل مطلق – في إجابتها على الشائعات الخاصة بالمفاوضات، أنها انخرطت، أو تورطت في أى محادثات مع اليهود، أو كانت تفكر في ترتيبات تتوافق مع مطالب الأمة، كما جاء في مذكرتها، المؤرخة في ١٩٣٧/٧/٢٣ إلى "عصبة الأمم"، وفي «المؤتمر القومي العربي»، الذي عقد في بلودان، في خريف العام نفسه [٥٨]. وربما تكون مقترحات هيامسون – نيوكمب قد لقيت حتفها، بعد ذلك الاستقبال الجماعي البارد، الذي لازمها في وزارتي المستعمرات والخارجية البريطانيتين، واللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، واللجنة العربية العليا[٥٩]. غير أن اتحاد مجموعة من العناصر أدى إلى إنعاشها، في شكل صياغة جديدة، أعلنت في بيروت، في ١٢ يناير/كانون الثاني سنة ١٩٣٨.

وقد اشترك هيامسون ونيوكمب، وماجنس من جانبهم في صقل ردود الفعل السلبية وغير المساعدة، التي أعلنت على العامة من جانب القيادتين الصهيونية والعربية الفلسطينية؛ وتقدموا نحو الدكتور عزت طنوس، والمطران الأنجليكاني في القدس، حتى يقدما مزيداً من التوضيحات للأسس التي قامت عليها الصياغة المعروضة للمناقشة، والبحث. كذلك شرع نوري السعيد في بذل الجهود من أجل حث الحاج أمين على دراسة وسيلة للتغلب على المأزق الفلسطيني، على هدى الخطة التي وضعها من أجل الفيدرالية التي نادى بتكوينها. ووفقاً لما أورده صحفي في بيروت، توصل المفتي ونوري السعيد إلى اتفاق على محاولة إجراء محادثات من أجل اتفاق عربي – صهيوني، أولاً بواسطة محادثات غير رسمية، تضم وسطاء غير فلسطينيين، وثانياً محاولة التوصل إلى أساس مؤقت وغير نهائي لاتفاق في هذا الاتجاه، حتى تعطي القيادة الفلسطينية قرارها النهائي في العلن. ولو أن صياغة هيامسون ألصقت بها نقيصة أنها لم تكن مطابقة، بشكل كاف،

للمطالب الحقيقية للدوائر القيادية الفلسطينية، فإن الصياغة المنّقحة، التي أعلنت في يناير/كانون الثاني سنة ١٩٣٨، جاءت خلواً من هذه النقيصة.

لقد قيل بأن المفتي كان سيوافق عليها، هو وأصدقاؤه المقربين إليه في بيروت، بينما ساندها دكتور عزت طنوس، ويهودا ماجنس، والمطران براونBrown-Graham Bishop في القدس. ولكن صياغة بيروت لم تكن محسنة، بالشكل الذي يكسبها مساندة عربية قوية، ورغم ذلك فإنها وعدت بقليل من الأمل في مفاوضات ناجحة، إذ أنها أوحت بفجوة أوسع بين موقفي كل من الطرفين، تجلت أكثر في إعلان أن «الحد الأعلى للرقم الدال على عدد السكان اليهود، وهو أن يكون الرقم الحالي». وعندما نقل ماجنس صيغة بيروت إلى شرتوك، رفضها رئيس الإدارة السياسية للوكالة اليهودية، رفضاً باتاً، ليس بسبب ما اشترطت عليه فحسب، ولكن أيضاً لأن شرتوك شعر أن مجرد فقدان العزيمة بين اليهود في مناقشة مثل هذه البنود، يدمر وضعهم السياسي، بشكل خطير في مواجهة إنجلترا. وطلب شرتوك من ماجنس أن يخبر العرب أن «الوكالة اليهودية» كانت لا تزال على استعداد لعقد لقاء عربي – صهيوني، ولكن على أساس أن يعلم العرب أن الصياغة الأخيرة كانت مرفوضة، رفضاً تاماً. وعلى ذلك لم تكن الصياغة الأولى ولا الصياغة الثانية تصلح، أساساً، لأن توافق اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية و«اللجنة العربية العليا» على البدء في المناقشات(٦٠).

لكن رغم الاعتراضات الواضحة، والمستندة إلى السلطة من كل من موشي شرتوك وعزت طنوس، حسب ظروف كل منهما، فإن يهودا ماجنس واصل محاولات الإعداد لإجتماع بين الطرفين، على أي أساس. لقد وجه الدعوة للاجتماع من واقع اعتقاده أن حقيقة جمع الفريقين هو الأهم. وكان شرتوك – في الوقت نفسه – يفترض (ليس للمرة الأولى، أو الأخيرة) أن الحادث العارض كله قد «صُفّي»، وأنه كان مندهشاً أن يعلم أن يهودا ماجنس كان لا يزال يحاول، في أواخر يناير/كانون الثاني، تنظيم اجتماع، وحتى بعد أن أصبح واضحاً له أن العرب قد اتخذوا موقفاً، دون التزحزح عن الموقع الذي اعترض الصهيونيون عليه، تماماً، ويرفضون أن يضعوه في اعتبارهم. وكان ماجنس في بيروت في الحال وجهاً لوجه في نقاش مع نوري السعيد، وكانت مشاركة الأخير تلقى ترحيباً من قبل ماجنس. وحتى من يقللون من شأنه رأوا فيه مجالاً لاستخدام النفوذ المعتدل بين الزعماء العرب غير الفلسطينيين، في سبيل المساعدة في تضييق الفجوة بين الفلسطينيين والصهيونيين(٦١).

ونجم عن اجتماعهما، الذي استمر أربع ساعات، مراجعة أخرى لمقترحات هيامسون – نيوكمب، ولكن لصيغة بالأصل. غير أن تعقيدات خطيرة برزت لتمنع اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية من تقييم الصيغة الأخيرة للمقترحات، كما تستحق. وفي نقله رأيه في اجتماع بيروت إلى البريطانيين، ادعى نوري السعيد أن ماجنس لم يعد بالعمل من أجل التوصل لاتفاقية قائمة على مبدأ وضع الأقلية الدائمة لليهودفحسب، ولكنه تنبأ، أيضاً، بأنه لو أن الوكالة لم تقبل بهذا الأساس للمباحثات، «فإن اليهود البريطانيين، والأمريكيين، والألمان سوف ينسحبون من اللجنة التنفيذية، ويعملون منفصلين من أجل تسوية»(٦٢).

تلقت الإدارة السياسية للوكالة اليهودية معلومات عن اجتماع ماجنس ونوري في بيروت. ووجد ماجنس، الخارج دائماً على الصهيونية، أن مصداقيته أمام الدوائر الصهيونية صانعة القرار انحدرت إلى المستوى الأدنى. لقد أنكر ماجنس، بقوة، أنه صنع هذه التعديلات التي أدخلت على مقترحات هيامسون – نيوكمب، وكتب إلى نوري بطلب خطاب توضيح، ولم يجد رداً».

ورأت «الوكالة اليهودية» أن الضرر قد حدث، بالفعل، منذ أن وصلت الشائعات إلى آذان البريطانيين، تقول إن أعضاء في اللجنة التنفيذية كانوا على استعداد للالتحاق بماجنس، في موافقته على أن يبقى اليهود أقلية في فلسطين، في سبيل عقد اتفاقية مع العرب. وفي عيون بن جوريون وماجنس أن الأحداث ذهبت، آنئذ، خلف النقطة التي كانت حداً لضريبة بغيضة، مشكوك في قيمتها، مما جمع بين عدة عوامل، شكلت منطلقاً للهجمات الخطيرة على الوضع السياسي للجنة التنفيذية للوكالة اليهودية(٦٣).

موشى شرتوك، ذلك الرجل الذي كان يتعامل مع يهودا ماجنس، يوماً بيوم، فإنه علق على نشاط هذا المفاوض «حسن النية، الذي وظف نفسه، وهو ساذج سريع التصديق» بأن هذا النشاط تسبب في كم كبير من الأذى. وعلى ذلك ألقت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية جانباً أي تفكير في صياغة نوري، واستدارت – بدلاً من ذلك – إلى تعويض الدمار المدرك عن طريق الحواس، وأصدرت إلى ماجنس توجيهات: إما أن (تنهي هذه المباحثات كلها)، أو المخاطرة (بحرب مفتوحة) من قبل اللجنة التنفيذية ضده»(٦٤).

نهاية فبراير/شباط، بدأ المسؤولون الصهيونيون يعبرون عن بعض الفرج، بأن «حذر» اللجنة التنفيذية، منذ نوفمبر/تشرين الثاني، قد أنقذها من الشَّرَكْ الذي نصبه لها شخص ما، من خلال خطط هيامسون – نيوكمب. إن شَرَكْ

المفاوضات اليهودية – العربية، التي استمر بن جوريون وشرتوك يعتقدان أن صمم فحسب «لخلق الانطباع المزيف بأن السلام بين الطرفين كان ممكناً، ولذلك كان التقسيم غير ضروري [٦٥]. أما المذكرات والبيانات، والمراسلات، التي صدرت عن الأركان الصهيونية، فإنها لم تضف إشارة جديدة لا إلى اجتماع ماجنس – نوري/ أو صياغة خطته الأخيرة [٦٦]، على أمل أن توضع مسألة هيامسون – نيوكمب في سلة الإهمال، في النهاية. غير أن هيامسون ظل، لمدة قصيرة، في أوائل عام ١٩٣٨، يحدوه الأمل في أن ضغطاً كافياً يمكن توفيره لحمل القيادة المعارضة في كلا المعسكرين، عن طريق طرف ثالث، يمتلك النفوذ. أما كولونيل نيوكمب، فقد كان – كما جاء في التقارير – يحبذ تخلي المفتي عن «الهدف المستحيل» في حث اليهود على القبول بوضع أقلية دائمة، مع تقدم المفاوضات، بينما جادل المطران جراهام براون – دون جدوى – لكي يحصل من الحاج أمين على مصادقة، أو توقيع، يفيد قبوله بالصياغة الأخيرة للخطة، و»إدانته للإرهاب» المتعاظم في فلسطين. ولكن مقترحات هيامسون – نيوكمب، تخطت، في ذلك الوقت، وضع الأساس الممكن لسير الزعماء العرب والصهيونيين معاً، بشكل اختياري. وقد حاول هذان اللذان توليا الخطة بالرعاية، أن يجدا لها سوقاً رائجة بين البريطانيين، كأساس مقترح لتسوية مرفوضة. ولما وضح لهما أنه لا المفتي ولا رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية، سوف يوافقان على الخطة التي حملت إسميهما، حول كولونيل نيوكمب وألبرت هيامس، اهتمامهما إلى أعضاء البرلمان البريطاني، ومسؤولين في الحكومة البريطانية. مثل هذا التحول، عكس ذلك الإحباط الذي شاركهما فيه أشخاص آخرون، من هؤلاء الذين كانوا، وقتئذ، يبدون للعيان رغبة في أن يطلبوا إلى البريطانيين فرص تسوية، تكسر الإخفاق الكامل في الوصول إلى اتفاق حول تسوية النزاع. وحتى يهودا ماجنس الذي وقف، في السابق، ضد الاستعمار، فإنه يئس من فرص التوصل إلى اتفاقية اختيارية، وبدأ يحض على فكرة تسوية بريطانية مفروضة، رغم أن الخطوط التي رغب فيها، لم تكن تلك التي كان هيامسون أو نيوكمب يدافعان عنها [٦٧].

في منتصف سنة ١٩٣٨، كان الأمل يحدو نيوكمب في أن يتولى البريطانيون عقد مؤتمر تجريبي، يجمع بين العرب واليهود، لمناقشة تسوية؛ وكان الشيء الذي له مغزى خاص، هو أنه تحول إلى الصياغة الثانية للخطة (صياغة بيروت)، مزكياً هذه الخطة بأنها النسخة المعَّدلة التي «قبل بها المفتي، وكل العرب الذين اطلعوا عليها»، وكان كل ما تبقي هو أن على البريطانيين أن «يمارسوا الضغط حتى يقبل وايزمان بها» [٦٨]. وخلال زيارة

صيف للشرق الأوسط، دعم نيوكمب آراءه بتقارير إلى لندن، مقتبساً من يهود معادين للصهيونية، من أنقره، واسطنبول، وبغداد. وفي مناقشة مع عرب فلسطينيين خارج فلسطين، أُدخلت تعديلات طفيفة على صياغة بيروت، حتى تصير بنودها متناغمة مع "الميثاق الوطني"، الذي ووفق عليه في بلودان. غير أن العرب ثبَّطوا همة كولونيل نيوكمب في الضغط بشدة لعقد مؤتمر يهودي -عربي، أو الموافقة على إضافة مزيد من اللاجئين من يهود أوروبا في البلاد العربية المحيطة بفلسطين (٦٩).

عاد نيوكمب إلى لندن، تأكدت دعواته المستمرة إلى وزارتي الخارجية والمستعمرات البريطانيتين، بتحذيرات طرأت على الموقف الدولي السيء، إذ بدأت نذر الحرب العالمية الثانية تلوح في الأفق، وبرز إلى الأذهان خطر إعلان «الجهاد المقدس» ضد البريطانيين، والصهيونيين في فلسطين(٧٠).

أضاف ألبرت هيامسون صوته إلى تلك الأصوات التي كانت تطالب بدور فعال بريطاني في دفع العرب واليهود إلى الجلوس في مؤتمر يجمع بين مندوبين عنهم. وحاول أن يقنع المسؤولين في الحكومة البريطانية بالوقوف إلى جانب عرب معينين، ويهود غير صهيونيين، يعتقدون في إمكان تنفيذ مقترحات. وحاول – في الوقت نفسه – أن يحض اليهود على الاعتقاد في أن عرباً بارزين، بمن فيهم الحاج أمين نفسه، كانوا عاقدين العزم على الالتقاء مع اليهود، ومفاهيمهم، على أساس صياغة نوري الأخيرة لخطته. غير أن جهود هيامسون الضاغطة صادفت الكثير من الشكوك في الدوائر البريطانية والصهيونية، وصُرف النظر عنها(٧١). ولكن مؤتمر سان جيمس انعقد، في أوائل عام ١٩٣٩، وصدر الكتاب الأبيض (مايو/أيار ١٩٣٩). وتوقفت الثورة الفلسطينية الكبرى. وتوقفت طبخة الحصى!

هوامش الفصل الرابع

(١) **بنحاس روتنبرج**: مهندس ورجل صناعة، طرد من روسيا، بعد الإطاحة بعـرش القيصـر، فـي عام ١٩١٧ . أعد خطة لتنمية أراضي وادي الأردن، ومنح امتيـاز شـركة كهربـاء فلسطين، عام ١٩٢١. وصار عضواً فـي اللجنة التنفـيذية للوكالة اليهوديـة، فـي عـام ١٩٣٠ .

أنظر: محمد عبد الرءوف سليم: **محاولات التوفيق بين العـرب واليهـود**، دار الزهـراء، القاهرة، ١٩٩٨ . ص ٢٤٧.

(٢) من اليهود الليبراليين، وكان على صلة وثيقة ومستمرة بأحاد هاعـام – زعـيم الصـهيونية الثقافـية، وكان يؤمن بالتقريب والتوفـيق بين العرب واليهود على مبادئ بريـت شـالوم، والدولة ثنائية القومية فـي فلسطين، وأسس حركة إيحود، أثناء الحرب العالمية الثانية، تطبيقاً لهذه المبادئ. وكأن أول رئيس للجامعة العبرية فـي القدس، منذ إنشائها، فـي عام ١٩٢٥، واستمر فـي رئاستها، حتى قامت دولة إسرائيل، فـي عام ١٩٤٨ . **المرجع السـابق**، ص ١٩٠ .

(٣) كيميائي ومهندس صناعي متخصص فـي دراسة المعادن. درس تحليلاً لمياه البحر الميـت، وقت أن استقر فـي فلسطين، منذ عام ١٩٢٠، ومنح امتياز شركة استخراج أملاح البوتـاس من مياه البحر الميت، عام ١٩٢٩ . المرجع نفسه، ص ٢٥٠ .

(٤) ولد في كييف بأوكرانيا (١٨٧٤) وهاجر إلى فلسطين، عام ١٨٩١ . وهـو مـن مؤسسـي رحبوت، واعتبر نفسه من تلاميذ أحاد عام المؤمنين بأفكار فـي الصهيونية الثقافـية أنظر:

Hatti ،Susan Lee ;The Binational Idea in Palestine during Mandatory Times .Shimona Publishing Company ،Haifa ،Israel .١٩٧٠ ،p.١٤٤ .

(٥) ولد في القدس (١٨٨٧)، وأصبح قاضياً فـيها، بعد دخول البريطانيين المدينة، بقيادة اللنبـي فـي التاسع من ديسمبر/كانون الأول ١٩١٧، وهي الوظيفة التي جعلته على اتصال يـومي بالعرب، طوال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين. أنظر:

Raphael ،Pataied ; Encyclopedia of Zionism and Israel ،Herzl press ،New York .١٩٧١ ،p.٤٥٩ .

(٦) Gorny ،Yosef ;Zionism and the Arabs ١٩٤٨-١٨٨٢ ،A study of Ideology . Clarendon Press .London .١٩٨٧ ،p.٢٨٢ .

(٧) روسي المولد، شارك فـي تأسيس أحدوت هاعا فـوذا (١٩١٩)، والهسـتدروت (١٩٢٠)، ورئيس تحرير «دافار»، منذ بدايتها كأول جريدة يومية، تتحـدث باسـم الحركـة العماليـة اليهودية فـي فلسطين، عام ١٩٢٥ .

انظر: سليم، **مرجع سبق ذكره**، ص ٢٤٧ .

(٨) Hatti of cit, p .p.١٤٦-١٤٥ .

(٩) Ben Gurion ،David ;My talks with Arab leaders .Translated from the Hebrew by Aryeh Rubinstein and Misha lowvish .London,١٩٦٠ ،, pp . .٧٥-٧١

(١٠) Ibid .p .٧٥ .
(١١) Hatti ;op.cit ،pp.١٤٨-١٤٧ .
(١٢) Ben Gurion ;op.cit ،.p.٧٧ .
(١٣) Ibid .p.٩٧ .
(١٤) Hatti ;op .cit ،.pp.١٤٨ - ١٤٩.
(١٥) Flopan ،Simha ;Sionism and the Palestinians .London .١٩٧٩ ،p.١٦٣
(١٦) Hatti ;op .cit ،.pp.١٥٠ - ١٥١ .
(١٧) Caplan ;Neil ;Futile Diplomacy .Volume Two، Arah – Zionist Negotiations and the End of the Mandate .Frank Cass ،London .١٩٨٦p.٣٧ .
(١٨) Ibid .p.٣٦ .
(١٩) Flopan ;op .cit ،.p.١١٩ .
(٢٠) Caplan ;op .cit ،.p.٣٨ .
(٢١) Weizmann ،chaim ;Trial and Error .London .١٩٤٩ ،p.٨٢ .
(٢٢) Ben Gurion ،Daivd ;Letters to Paula Transl .From Heb .By Auhrey Hodes ،Vallentine ،Mitchell ،London .١٩٧١ ،pp.١٣٠-١٢٨ .
(٢٣) Caplan ;pp .٦٢ - ٦٣.
(٢٤) Flapan ;op .cit ،.p.٢٦٨ .
(٢٥) F .O-٣٧١ /٣٦٨ .E٧٥ / ١٥٠ / ٢٣ /١.
(٢٦) Ben Gurion ;Mytalks .P.١٥١ .
(٢٧) Caplan **;op .cit** ،.p.١٦٣ .
(٢٨) Caplan **;op .cit** ،.p٦٣
(٢٩) Ben Gurion **;Letters to Paula** .P.١١٨ .
(٣٠) C .O .٣٤١/٧٣٣ .file. ٧٥٥٢٨ / ٤٤.
(٣١) C .O .٧٣٣ /٣٨١ .File.٧٧٠٣٣
(٣٢) C .O٧٣٣ / ٣٨١ / ٤١. File.٧٧٠٣٤
(٣٣) Caplan ;op .cit ،.pp .٧٠ - ٧١.
(٣٤) في مذكرة له عن لقاء جمعه بمغنّم مغنّم، فـي ١٩٣٧/٧/٢٥ .
(٣٥) Caplan **;op .cit** ،.pp .٧١ - ٧٢.
(٣٦) Porath ،Yehoshua **،The Palestinian Arab National Movement** ، **:١٩٣٩-١٩٢٩From Riots to Rebellion** ،Cass :London .١٩٧٧ ،p٢٢٩ .
(٣٧) Ben Gurion **;letters to Paula** .P.١٤٧ .
(٣٨) Caplan ;op .cit ،.pp.٧٤-٧٣ .
(٣٩) Idib, pp.٧٤ - ٧٥.
(٤٠) Ben Gurion ;My talks ،p.١٤١ .
(٤١) C .O ،٧٣٣ /٣٥١ .File.٧٥٧١٨ /٣.
(٤٢) Hatti ;op .cit ،.p.١٩٦ .
(٤٣) C .O ،٧٣٣ /١٢٨ .File.٧٧٠٥٠

(٤٤) Esco Foundation for Palestine ; **Palestine :A study of Jewish ، Arab ،and British policies** .Vol.II ،p.٧٤٩ .
(٤٥) Ben Gurion ;**letters to Paula** .P.١٤٥ .
(٤٦) Ben Gruion ; **My talks** .P.١٥١ .
(٤٧) C .O ،٧٣٣ /٣٥٣ .File٧٥٧١٨ /٣٦.
(٤٨) Ben Gurion ;**My talks** .P.١٦٤ .
(٤٩) Parath ;**op .Cit.**, p.٢٤٢ .
(٥٠) Caplan ;op .cit ،.pp.٧٧ - ٧٨.
(٥١) Ben Gurion ; **My talks** .Pp.١٨٢ -١٨٣ .
(٥٢) Caplan ; **op .cit** ،.p.٧٨
(٥٣) Idib. p.٧٩
(٥٤) Ben Gurion ; **My talks** .P.١٥٦ .
(٥٥) Caplan ;op .cit ،.p.٨٠ .
(٥٦) C .O٧٣٣ /٣٦٩ .File.٧٥١٥٦ /٣٣.
(٥٧) C .O ٣٣٣/٧٣٣ .File.٧٥١٥٥ /٣٣.
(٥٨) Caplan ،**op .cit** ،.pp.٨١ -٨٢.
(٥٩) C .O ،٣٣٣/٧٣٣ .File.٣٣/٧٥١٥٦
(٦٠) Caplan ; **op .cit** ،.p.٨٢ .
(٦١) Ben Gurion ;My talks .Op .cit ،.p١٨٢ .
(٦٢) F .O ،٣٧ / ٢١٨٧٤.file ٩٨٥/١٠/٣١ .
(٦٣) Ben Gurion ; **My talks** .P.١٨٥ .
(٦٤) Ibid .p.١٦٥ .
(٦٥) Ibid .p١٨٥ .
(٦٦) C .O ، ٧٣٣ /٣٦٩ .file.٣٣/٥٧١٥٦
(٦٧) C .O ، ٧٣٣ /٣٧١ .file.٨٦/٧٥١٦٥
(٦٨) C .O ،٣٦٩/٧٣٣ .file٣٣/٧٥١٦٥
(٦٩) Hatti ; **op .cit** .p.١٩٢ .
(٧٠) C .O ،٧٣٣ /٣٦٩ .file٥٧١٥٦ /٣٣.
(٧١) Caplan ; **op .Cit** . p.٩٥ .

الباب الثالث

الأبعاد



الفصل الأول

البعد الطبقي للثورة

معالي أحمد عصمت

لعل من نافلة القول إن الثـورة هـي أعلى أشكـال الصراع الطبقي. إنهـا التغيير الجـذري فـي البنى الاقتصاديـة، والاجتماعية، والسياسية، والثقافـية. وهي إطاحة طبقة اجتماعية بطبقة أخرى. ولقد جاءت ثـورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية فـي سبيل كنس الاحتلال البريطاني، وتحقيق استقلال فلسطين.

مدخل:

ساد فلسطين، حتى أواخر العهد العثماني، نظام شبه إقطاعي، قام علـى الالتزام بجمع الضرائب. واختلف النظام (شـبه الإقطـاعي) عـن النظـام الإقطاعي، الذي ساد أوروبا فـي العصور الوسطى، بأن المالك الكبير فـي فلسطين لم يكن يملك الأرض بمن عليها. وربما أسهم ذلك، بالإضـافة إلـى اعتماد الزراعة فـي فلسطين على الري بالأمطار، فـي تكـوين شخصـية الفلاح الفلسطيني، وطبعها بسمات الثورية والاستقلالية، حيث كـان الفـلاح فـي فلسطين قادراً على الانتقال من ناحية لأخرى، كما كان باستطاعته أن يبيع قوة عمله لمن يشاء. ويمكن تقسيم التكوين الطبقي فـي فلسطين حتـى عام ١٩١٨ كما يلي[(١)]:

أولاً: طبقة كبار الملاك:

حصلت هذه الطبقة على أملاكها نتيجة النظام شبه الإقطاعي، وما لازمه من نظام الالتزام الضريبي، حيث سجل الفلاحون أملاكهم لبعض أفراد الأسر الكبيرة، تجنباً لدفع الضرائب الباهظة المفروضة علـى الأراضـي. ومـن الناحية السياسية، كانت طبقة كبار الملاك متحالفة مع العثمانيين، عبر علاقة من المنافع المتبادلة، وسيطرت طبقة الوجهاء هذه على المناصب الحكوميـة والدينية الهامة، كما تم تعيين أبنائها فـي الجيش العثماني.

ثانياً: الطبقة المتوسطة:

تألفت هذه الطبقة من كبار التجار، أو البرجوازية التجاريـة، وسـكان المدن، حيث كان من نتائج تطور رأس المال التجاري، النمو السريع للمـدن الساحلية، عن طريق عمليات الاستيراد والتصدير التي كانت تتم. ويتكـون

سكان المدن من متوسطي وصغار التجار، ومتوسطي وصغار موظفي الحكومة، وبعض الحرفيين الممتازين.

ثالثاً: طبقة الفلاحين:

قام اقتصاد فلسطين الأساسي على الزراعة، التي كان يعمل بها نحو ٦٠-٧٠% من السكان، ولكن سيادة النظام شبه الإقطاعي، وكثرة الضرائب المفروضة على الفلاح، فضلاً عن استيلاء السلطة العثمانية على المحاصيل والدواب - في بعض الأحيان - أدى إلى إفقار الفلاح ولجوئه إلى تسجيل أرضه، باسم كبار الملاك، هرباً من هذه الظروف.

رابعاً: طبقة العمال:

تميَّز الإنتاج الصناعي في فلسطين قبل عام ١٩١٨، بالضعف الشديد، وكانت نسبة العاملين في الحرف والصناعات، في جميع أنحاء سوريا، عشية الحرب العالمية الأولى، نحو ١٠% من السكان، نالت فلسطين منها حصة ضئيلة.

أثر الانتداب والهجرة على التكوين الطبقي:

اقترنت الهجرة الصهيونية بخطوة احتلالية أُخرى، هي سلخ الأراضي الزراعية الخصبة من العرب، وقد ساعدت السلطات البريطانية الحركة الصهيونية، باستعمال المادة ٦٠ من معاهدة الصلح مع تركيا، سنة ١٩٢٥، والتي نصت على أن الدول المنسلخة عن أراضي الدولة العثمانية ، لها الحق في امتلاك ما فيها من أموال وممتلكات، دون دفع قيمتها. وتأسيساً عليه، سنّت سلطات الانتداب، سنة ١٩٢٦، قانون نزع الملكية، والذي أتاح للسلطة نزع الأرض، عن طريق مراجعة قيود الأملاك وفرز الأراضي المشاع، والتصرف بها[٢]. وبالطبع، كان التصرف هو بيع هذه الأراضي للشركات الصهيونية وللمستوطنين اليهود.

عندما بدأ المستوطنون بإجلاء الفلاحين من الأراضي، التي اشتراها الصهاينة من الحكومة وكبار الملاك، بدأت الصدامات المسلحة بينهم وبين الفلاحين العرب. ففي عام ١٨٨٦، بدأ الفلاحون المطرودون بمهاجمة

الخضيرة وبتاح تكفا (ملبّس)، قراهم المغتصبة التي أُجلـوا عنهـا، رغـم إرادتهم، وتوالت الصدامات بعد ذلك(٣).

أما الطبقة المتوسطة، والتي حصل أبناؤها على نحو أو آخر من التعليم، فقد بدأت تدرك الخطر المحدق بها، «فالمالك الصغير بوسائله القديمة غيـر المتطورة، يدرك أنه لا يستطيع الحفاظ على مركـزه فـي وجـه العلـم اليهودي، والتاجر الصغير ينظر إلى اليوم الذي من المحـتم أن تـدفع بـه المشروعات اليهودية إلى خارج السوق. والموظف يجد أن اليهود يشـغلون الوظائف الحكومية الهامة فـي مختلف أنحاء البلاد، فـي حـين يُسـتبعد العرب من هذه الوظائف فـي كل مكان»(٤).

نتيجة للسياسة التي اتبعتها حكومة الانتـداب البريطـاني، مـن إفقـار للفلاحين، وطرد للعمال، واتباع سياسة «العمل العبري» و«احتلال العمل»، ساءت الأحوال المعيشية للشعب الفلسطيني، بكل طبقاته وفئاته، ما أدى إلـى مقاومة هذه الطبقات للحكومة البريطانية، كل حسب طريقتـه والاضـطهاد الواقع عليه. حيث لجأ الفلاحون إلى طرق الكفاح الإيجابي، فشـنوا بعـض الهجمات على المستوطنات، وسادت الصدامات الطائفـية بـين العـرب واليهود(ابريل/نيسان ٢٠، مايو/أيار ١٩٢١، مارس/آذار ١٩٢٤)، وإن كانت هذه الصدامات وطنية وطبقية، فـي جوهرها، بفعل ممارسات المسـتوطنين اليهود ومؤسساتهم ممارسات طبقية ضد المواطنين العرب،. فإن البرجوازية الفلسطينية الناشئة، أخذت تعبِّر عن مقاومتها، بشكل مباشر، أو عن طريـق طلائعها المثقفة. وفـي نيسان/ أبريل ١٩٢٢، عكف بعض المثقفـين العرب الفلسطينيين على تأسيس كلية إسلامية، تعبيراً عن مقاومة المثقفـين لسياسة الانتداب التعليمية الرامية إلى تضييق التعليم. كما تألفت جمعيـة اقتصـادية عربية، ودار البحث حول إمكانية تأسيس بنك عربي، للـتخلص مـن رأس المال الأجنبي(٥). ويلحظ المرء هنا الطابع الاقتصـادي والأخلاقـي لهـذه المطالب، وغياب الطابع السياسي عنها، فـي الوقت نفسه.

بالرغم من اتساع دائرة معسكر الثورة، كـرد فعـل علـى السياسـات والممارسات السالف ذكرها، ناهيك عن جرح الكرامة الوطنية الفلسـطينية، نتيجة للاحتلال البريطاني، والفزع الذي أصاب الشـعب الفلسـطيني علـى وطنه، جراء المشروع الصهيوني، فإن قيادة الحركة الوطنية، والتي احتكرها كبار الملاك، بسبب وهن البرجوازية، ومعها العمال والفلاحون، قد حصرت معسكر الأعداء فـي اليهـود، دون الحركـة الصـهيونية، أو الاسـتعمار

البريطاني الذي حكّمته – تلك القيادة – فـــي الصراع الناشب. ناهيك عــن اتباع أساليب الكفاح السلبي، والاكتفاء بمــذكرات الاحتجـــاج والمــؤتمرات والوفود إلى لندن، أو إلى المندوب السامي فـــي القدس.

هبّة البراق:

وصل عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، رسمياً، حتـــى بدايـــة عـــام ١٩٢٩، إلى نحو مائة ألف مهاجر، عدا الآلاف من المتسللين، فـــيما وصلت الأراضي المملوكة لهم نحو مليون دونم، بعد أن كانوا يمتلكون، عام ١٩١٨، ٤٣٠ ألف دونم فقط[٦].

خلال هذه الفترة، حاول البريطانيون منع الشعب العربي الفلسطيني من الكفاح ضد الإمبريالية، ودفع كفاحه إلى مزالق الصراع الـــديني الطائفـــي ضد اليهود. وقد نجح البريطانيون فـــي ذلك بعض الشيء. فقـــد حـــدث أن دخل بعض المستوطنين اليهود استعراضاً للقوة، وهتفـــوا بجـــوار «حـــائط البراق» صيف ١٩٢٨، "الحائط حائطنا"، ثم أعادوا الكرَّة، صـــيف ١٩٢٩، فاندلعت هبَّة وطنية، امتدت ما يربو عن الأسبوعين، وشملت القدس، والخليل وصفد. وانحاز البريطانيون، علناً، إلى الطرف الصهيوني، فـــيما تمخضت الهبَّة عن عدد غير مسبوق، من القتلى فـــي الطرفـــين[٧].

لم يدرك البريطانيون أنهم حين دفعوا المشكلة إلـــى مزالـــق الصـــراع الطائفـــي، قد أججوا الصراع الطبقي فـــي القرية العربية، كما أن الصـــراع الطائفـــي هذا أفضى إلى تشديد الكفاح ضد المستعمرين أنفسهم.

فـــي المجمل جاءت هبَّة البراق، لتوضح حقيقتين هامتين أمام الجمـــاهير، الأولى أن الصهيونية كانت تعتمد على الحراب البريطانيـــة، ومـــن ثـــم فمـــن الضروري محاربة بريطانيا أولاً. والحقيقة الثانية، هي ضعف كبـــار المـــلاك، وعدم قدرتهم على قيادة الجماهير، لارتباط مصالحهم بمصالح بريطانيا.

لقد كانت هبَّة البراق –فـــي جوهرها– وطنية، هدفها الأرض والحرية، بالرغم من أن الأسباب الدينية هي التي أشعلتها. وكانت الشعارات الأساسية التي رفعتها الجماهير العربية الفلسطينية إبان الهبَّة هـــي: إلغـــاء الانتـــداب البريطاني ومنح فلسطين الاستقلال الوطني وإلغاء وعد بلفور، وقف الهجرة اليهودية، ووقف بيع الأراضي للصهيونيين.

المرحلة الثانية:

بانتكاسة هبَّة آب/أغسطس ١٩٢٩، تأكد للجماهير العربية الفلسطينية عقم أساليب النضال السلبية التي (انتقتها) لها قيادتها الرجعية. وفـي تقريره إلى وزير المستعمرات لورد باسفيلد، لاحظ المندوب السامى البريطانى فى القدس، تشانسلور، فـي ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٢٩، تصاعد الشعور المعادي للحكومة البريطانية لدى العرب، واستجابة القرويين للدعاية السياسية الوطنية نتيجة أزمتهم الاقتصادية وانتزاع أراضيهم وطردهم منها(٨).

أما اللجنة التنفيذية العربية، فقد دعت إلى مقاطعة المنتجات اليهودية، وتشجيع الصناعات اليهودية(*)، وقد أتى هذا الموقف ليؤكد الوزن المتزايد للعناصر البرجوازية داخل الحركة الوطنية الفلسطينية.

إلا أنه اتضح للحركة الوطنية أن سلاح (المقاطعة) لا يكفـي للوقوف أمام الاقتصاد اليهودي للنهوض بالاقتصاد الوطني، نظراً لمساندة حكومة الانتداب للصناعة الصهيونية. مما دفع الحركة الوطنية إلى التحول نحو مواجهة الاستعمار البريطاني، العدو الرئيسي لها، فاكتسبت بذلك الملامح الكاملة للحركات الوطنية.

تطور طبقي:

جاء النهوض الثوري، الذي شمل البلاد (١٩٣٠-١٩٣٩)، تعبيرا عن نمو الطبقات الجديدة: البرجوازية بفئاتها، والعمال. ومن جهة أخرى، كان هذا النهوض الثوري رد فعل لتزايد عمليات طرد الفلاحين من أراضيهم، ولإجراءات الحكومة ومواقفها. فقد مضى الانتداب فـي تشويه النمو الاقتصادي الفلسطيني، بحيث تأخر نمو الطبقات الجديدة. ومع ذلك، أخذت طبقة العمال فـي النمو. كما أن طبقة المثقفين، أخذت هي، أيضاً، تنمو وتتسع. وفـي الريف تم الاستقطاب الطبقي مع نشوء البرجوازية الزراعية العربية.

كل هذا انعكس فـي المجال السياسي، وأدى إلى إحداث تمايز، تمثل فـي تبني كبار الملاك للاتجاه الديني، وتبنى العناصر البرجوازية الاتجاه القومي الليبرالي.

---

* تألفت في القدس لجنة عربية لمقاطعة البضائع اليهودية، ثم انتقلت المقاطعة من القدس إلى باقي المدن، وقد بلغت حركة المقاطعة حدا باهرا في يافا، فأجبرت الجماهير مجلس بلدية المدينة على اتخاذ قرار بمقاطعة شركة كهرباء (روتنبرج)، وإنارة الشوارع بالمصابيح البترولية.

تميزت هذه المرحلة بقيادة البرجوازية، والتي تمتعت ،أنـذاك، بثورية نادرة، لكونها ناشئة، وتجارية متلهفة على امتلاك سوقها، ولوقوعها تحت الضغط المزدوج للاستعمار والصهيونية، فانعكس هذا كله على مواقفها السياسية، وطبعها بالعنف والثورية.

وقد عبر المثقفون في المجال السياسي، عن مطامع البرجوازية ومصالحها. كما أسهموا بقسط وافر في إثارة الجماهير وتنويرها، بالخطب والمقالات والندوات. ولعبوا دورا فعالاً في الأحزاب السياسية العربية الفلسطينية كافة.

تكوين الأحزاب [٩]:

كان «حزب الاستقلال العربي» أول الأحزاب العربية الفلسطينية التي ظهرت، حيث تأسس في القدس عام ١٩٣٢، وبالرغم من أن تركيب الحزب الطبقي كان من المثقفين وأبناء كبار الملاك والبرجوازيين، فإنه كان أقرب الأحزاب السياسية تعبيراً عن مصالح البرجوازية.

أما «الحزب العربي الفلسطيني»، والذي تأسس عام ١٩٣٥، فقد عبَّر عن الاتجاه الإصلاحي في الحركة الوطنية، المعبِّر عن الكتلة الكبيرة من كبار الملاك.

فيما تضمن برنامج «حزب الإصلاح»، المؤسس في القدس بتاريخ ١٨/٦/١٩٣٥، هدف استقلال فلسطين ضمن الوحدة العربية، والسعي من الحكومة لعقد معاهدة بين العرب والإنجليز، على غرار المعاهدة العراقية – الإنجليزية. أما بالنسبة لحزب «الكتلة الوطنية»، فقد اعتبر هدفه الرئيسي «السعي إلى استقلال فلسطيني تام والمحافظة على عروبتها ضمن الوحدة العربية».

أحوال الطبقات عشية الثورة:

تزايد تسرب الأرض من أيدي الفلاحين، وأصبح لدى الجماعات الصهيونية عام ١٩٣٠، نحو (١٢٥٠٠٠٠) دونم من الأرض أي حوالي ثلث الأرض الزراعية. وتضاعف عدد الفلاحين المطرودين من الأرض، وتدهورت حالتهم إلى فقر مدقع. ولقد كان في فلسطين في عام ١٩٣١، نحو (٥٠٠٠٠٠) فلاح عربي [١٠].

كان التمايز الطبقي فــي الريف بالغ الحدة، إذ كان (٣٠%) من الفلاحين العرب بلا أرض، فــيما كان (٥٠%) من الفلاحين يملكون أرضاً صغيرة لا تقيم أودهم. كل هذا جعل الفلاحين يتصدرون النهــوض الثــوري، ومــزج شعارات التحرر الوطني بشعارات الأرض.

مع اتساع الهجرة اليهودية، ازدادت أزمة العمال العرب حــدة، حيــث توسع الصهيونيون فــي الاستغناء عن العمال العرب، الذين كانوا يعملــون لديهم. وفــي عام ١٩٣٥ كان اليهود يســيطرون علــى (٨٧٢) مؤسســة صناعية، من أصل (١٢١٢)، ما زاد من الأزمــة(١١). فشــهدت الحركــة العمالية تعاظماً، وتزايدت االإضرابات المطلبية، حيث وصلت، فــيما بــين (١٩٣٢ – ١٩٣٥) إلى (٢٦) إضرابا، شارك فــيها أربعــة آلاف عامــل عربي(١٢).

بالنسبة للبدو، ازدادت أوضاعهم الاقتصادية سوءا، وكانت كــل عائلــة بدوية تخسر نحو (٢٣٦٥) جنيها فــي العام، على أغنامها التي تربيها.

كان طبيعياً إزاء كل ما سبق، أن تنجذب طبقــات الشــعب الفلســطينية للحركة الوطنية، وأن تتفاوت ثورية كل منها بالقدر الذي يتفاوت حجم القهر الطبقي والوطني الذي تتعرض له. وكان الحادث الذي دل على التحول فــي الحركة الوطنية الفلسطينية اجتماع عقد فــي ١٩٣٣/٣/٢٦، تقرر فيه مبــدأ اللاتعاون مع الحكومة، ثم وقعت مظاهرات أكتوبر/تشــرين الأول ١٩٣٣، والذي هتف فــيها المتظاهرون ضد اليهود والحكومة معاً(١٣).

حركة القسام (*):

بينما كانت القيادة التقليدية الفلسطينية تبحث عن طريق مقاومة ســلمية لمواجهة السياسة الإنجليزية، الموالية للصهيونية، قرر القسام مواجهة حكومة الانتداب بالسلاح.

---

* **الشيخ عز الدين القسام:** وفد من سوريا، ١٩٢٢، مفلتا من حكم إعدامه مــن قبــل ســلطات الانتداب الفرنسي، بعد اشتراك القسام في ثورة صالح العلي، ضد القوات الفرنسية. وأتيح للشــيخ القسام أن يتجول في قرى فلسطين، بصفته موظفا رسميا في المحكمة الشــرعية، وفــي مطلــع ثلاثينات القرن العشرين أخذ ينظم الخلايا، ويجمع التبرعات لشراء كميات صغيرة من الأســلحة والتحضير للثورة، في جو من السرية التامة.

فـي ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٣٥، اصطدمت قوة بريطانية بفرقـة عربية مسلحة فـي جبال جنين، وخلال المعركة الحامية، قتل أربعـة مـن الفرقة، بينهم الشيخ عز الدين القسام.

لقد كشف هذا الاصطدام وجود تنظيم سري يؤمن بالثورة المسلحة ويعد لها. ولكن الأهم أن هذا التنظيم السري جرى فـي عزلة عن القيادة القومية التقليدية وكفر بأساليبها ، وكان يعتمد على الفئات الشعبية ويعمل بين العمال والفلاحين. ثم أن دعوة الحركة امتازت بالوضوح، إذ رأت العدو الجوهري فـي الانتداب البريطاني، وبذلك خلت من الملامح الرجعية التي كانت تخلط بين الصهيونية واليهود.

كان لاستشهاد القسام البطولي أثره العميق فـي فلسطين كلها، فأصـبح رمزاً للتضحية والفداء، وشيّع جثمانه فـي حيفا، فـي تظاهرة وطنية كبرى، نادت بسقوط الإنكليز والوطن القومي اليهودي، ورجم المتظاهرون، فـي أثنائها، الشرطة بالحجارة.

أما الزعماء السياسيون، فقد تخلفوا عن السير فـي الجنـازة، وكانـت برقيات التعزية التي أرسلوها فاترة، إذ لم يَفُتهُم التنبه إلى أن ثـورة القسـام كانت بمثابة دليل على عقم أساليبهم.

الإضراب الكبير:

كان التوتر بين العرب واليهود، يزداد حدة باطراد، منذ خريـف عـام ١٩٣٥؛ وذلك نتيجة اعتراض الصهيونيين على إقامة مؤسسات الحكم الذاتي للشعب الفلسطيني، فضلاً عن استمرار الهجرة اليهوديـة، وبيع الأراضـي، على نطاق واسع. وفـي فبراير/شباط ١٩٣٦ تعاقدت الحكومـة مـع أحـد المقاولين اليهود على بناء ثلاث مدارس فـي يافا، ورفض ذلـك المقـاول تشغيل عامل عربي واحد[١٤].

كان ذلك بمثابة الشرارة الأولى لانفجار كان لا بد من وقوعه، بعـد أن طفح الكيل من الضغط والقهر الأنجلو – صهيوني، على الشعب الفلسطيني. فقد بلغ عدد فقراء العرب الذين لا يملكون أرضاً نحو ربع الفلاحين، حيـث وصل عدد الفلاحين الأجراء (٢٩,٥٨٩)، من أصل (٦٥,٥٦٦) فلاح. أمـا باقي الفلاحين فكانوا ينزحون إلى المدن، فـي الغالب، ليصبحوا أيدٍ عاملـة غير ماهرة ورخيصة[١٥].

لم تكن حال الفلاحين أحسن، بأي صورة، من حال العمال العرب، ففي الفترة ما بين عامي ١٩٣٢، ١٩٣٥ دخل البلاد (١٤٤,٠٩٣) مهاجرا يهوديا[١٦]. وكان معنى هذا، بطبيعة الحال، ازدياد عدد الطبقة العاملة اليهودية، وبالتالي تقلص عدد العمال العرب.

في ١٤ إبريل/نيسان ١٩٣٦، هاجمت مجموعة قسامية مسلحة قافلة سيارات يهودية، في منطقة المثلث الفلسطيني (نابلس – جنين – طولكرم)، وقتلت بعض ركابها، وردت العصابات الصهيونية بقتل بعض العرب في مدينة يافا[١٧]. ما دعا رجال مدينة نابلس وشبانها الوطنيين لعقد اجتماع، تضامناً مع أهالي يافا، قرروا فيه «الإضراب العام، إعلاناً لسخط العرب على الخطط الفاسدة التي يقصد منها إبادة العربي في بلده العربي»[١٨]. وكان موقعو ذلك البيان أول لجنة قومية تشكلت في البلاد للإشراف على الإضراب، وتوالى بعد ذلك تشكيل اللجان القومية في يافا، والخليل، وبيسان، وقلقيلية، وحيفا، وعكا.

امتاز الإضراب بالحماسة والعفوية(*)، ومشاركة جميع طوائف الشعب وطبقاته؛ وبذلك صدرت الدعوة للإضراب وتنظيمه وتنفيذه عن اللجان القومية، ولم تأت عبر القيادة التقليدية، الأمر الذي دل، بوضوح، على قدرة الهيئات الشعبية واللجان القومية على أخذ زمام المبادرة وقيادة الشارع.

أما الأحزاب العربية الفلسطينية، فقد سارعت إلى التجاوب مع الإضراب، وارتبطت أحزاب الكتلة الوطنية، ومؤتمر الشباب، على التوالي، باللجنتين القوميتين في نابلس ويافا، وسارع الحزب العربي بإعلان تأييده للإضراب، في اليوم التالي لبدايته[١٩].

اللجنة العربية العليا:

بعد خمسة أيام من بدء الإضراب، شكلت لجنة ضمت رؤساء الأحزاب العربية، ووافق الحاج أمين الحسيني، بعد تردد، على قبول رئاستها، وعزا أسباب تردده إلى خشيته من أن « لا يتعاون معه زعماء الأحزاب الأخرى». ولكن يبدو أن السبب الحقيقي لهذا التردد كان، على الأرجح، هو عدم رغبته في الاصطدام مباشرة مع سلطة الانتداب.

---

* في تلك اللحظة، ظهر فرحان السعدي، أحد مساعدي القسام، وقتل ثلاثة من اليهود، كإشارة لاندلاع حرب العصابات ضد الصهاينة.

ووسط موجة من الحماس، أعلنت اللجنة أن الزعماء، الآن، أصبحوا بمثابة لجنة «لمواصلة الإضراب العام، إلى أن تغير الحكومة الانجليزية سياستها، فتوقف الهجرة اليهودية، وبيع الأراضي لليهود، وتقيم حكومة وطنية نيابية»(٢٠).

حاولت هذه اللجنة مسايرة التطورات السياسية في البلاد، دونما أي محاولة جادة منها لتطوير الإضراب، أو تصعيد أشكاله الكفاحية. ووصف أحد قادة الحركة الوطنية الفلسطينية، من زعماء حزب الاستقلال، اللجنة بأنها كانت أقل اندفاعاً وحماساً من الشعب، بحيث يصح أن يقال « إنها كانت مسبوقة بحماس الشعب واندفاعه، أكثر منه سابقة لها»(٢١). بينما وصفها مؤرخ يساري فلسطيني بأنها «الوتر الرخو في قيثارة الثورة»(٢٢). فهذا المندوب السامي يكتب إلى وزير المستعمرات، في ١٩٣٦/٦/٧، مشيداً باعتدال المفتي، وانعكاس هذا على خطبة الجمعة في المساجد.

أهملت اللجنة تعبئة وتنظيم الجماهير، فقد تم تسليح الجماهير ذاتياً، ووصل الأمر بالفلاح أن باع كل ما يمتلكه من أجل شراء بندقية وبضع طلقات. وتجلى التردد والوهن في مواقف اللجنة في مطالباتها بعقد فلسطين -بعد إلغاء الانتداب- معاهدة مع انجلترا تقوم بموجبها «حكومة وطنية في البلاد»(٢٣).

مؤتمر اللجان القومية، وإعلان العصيان المدني:

في الأسبوع الأول من شهر مايو/أيار ١٩٣٦، وقبيل انعقاد مؤتمر اللجان القومية العام، عقدت النساء العربيات مؤتمراً لهن في القدس، صدر عنه نداء حث «اللجنة العربية العليا»، واللجان القومية على مقاطعة الحكومة، والامتناع عن الدخول معها في مفاوضات، قبل أن تتحقق المطالب العربية(٢٤). وقد لعبت النساء دوراً رئيسياً في حث الشعب على الكفاح، والمساهمة في أعمال التمريض.

مع نهاية الأسبوع، في ١٩٣٦/٥/٨، عقد في القدس، مؤتمر لجميع اللجان القومية، ولم يكتف بالإعلان عن مواصلة الإضراب فحسب، بل تجاوز ذلك إلى تبني مبدأ «لا ضرائب بدون تمثيل»، وأعلن أن هدف النضال الفلسطيني هو «استقلال فلسطين في إطار الوحدة العربية»(٢٥).

في يوم الجمعة (١٩٣٦/٥/١٥)، بدأ العصيان المدني بالامتناع عن دفع الضرائب، وقامت مظاهرات ضخمة في جميع مدن فلسطين، للإعلان عنه(٢٦).

بيد أن الطبقة الوسطى، وعلى رأسها الفئات المثقفة -التي فهمت العلاقة بين الاستعمار البريطاني والصهيونية- هي التي استطاعت تنظيم حركة الإضراب والعصيان المدني، بعد أن كانت، في أول الأمر، تلقائية. وربما يفسر ذلك طبع الثورة، خاصة في مرحلتها الأولى، بالطابع البرجوازي، فالمثقفون جزء من الطبقة البرجوازية، إذ جعلت سياسة الانتداب التعليمية، التعليم محصوراً بين أبناء الموسرين في الريف والمدينة.

لقد كان المثقفون، آنذاك، يشملون ثلاث فئات، هم[٢٧]: الطلبة، وذوي المهن الحرة، والموظفين. أما الطلبة فهم جنود العمل السياسي في الثورة، وقد تحولوا بعد الإضراب، إلى شبه جنود يأخذون على عاتقهم حراسة الإضراب في المدن والقرى. أما المهنيون فقد شكلوا الكتلة الرئيسية في القيادة الثورية، حيث قرر اجتماع واسع للأطباء معالجة «جميع الفقراء والمنكوبين مجاناً»، وقرر المحامون في يافا، الإضراب عن حضور المحاكمات والمرافعات، فيما قرر الصحفيون، في ١٩٣٦/٥/٢٧ «الإضراب مبدئياً والتوقف عن إصدار الصحف لمدة ثلاثة أيام».

أما موظفو الحكومة فقد خرجوا على الإجماع، واكتفوا بتقديم المذكرات. ويرجع موقف الموظفين هذا إلى ارتباطهم بخزينة السلطة، أكثر من أي شيء آخر.

من المظاهرات إلى الثورة:

لم تدم الحركة الوطنية على الصورة المسالمة، التي تنطوي على الإضراب والمظاهرات. ففي ٢٣ مايو/أيار١٩٣٦، تم إلقاء القبض على (٦١) مناضلا عربياً، من المشرفين على تنظيم الإضراب، ولم تكد أنباء ذلك تنتشر، حتى هرع المتظاهرون إلى الشوارع، وأطلق البوليس النار على المتظاهرين، فقتل أربعة أشخاص وجرح سبعة. وتوجه عدد من القرويين المسلحين إلى طولكرم، فاصطدموا بالبوليس، قرب قرية بلعا، وعند هذا الحد تحول الإضراب السلمي في لواء السامرة إلى ثورة كاملة[٢٨]. قاومتها الحكومة بزيادة قواتها العسكرية إلى (١٠,٠٠٠) جندي[٢٩].

كان لتصعيد الكفاح المسلح، أثره في زيادة الضغط على الهيئات العربية الفلسطينية، التي لم تكن قد انضمت للأحزاب، حتى ذلك الحين، مثل البلديات، وموظفي الحكومة، وعمال مرفأ حيفا العرب. فقد عقد رؤساء البلديات اجتماعاً

سرياً، فـــي ١٩٣٦/٥/٣١[٣٠]، وقرروا أن يُضرب نصفهم. فـيما أعفى عمال الكهرباء والنظافة من الالتزام بالإضراب، أما موظفـــي الحكومـة والقضـــاة العرب، فاكتفوا بارسال مذكرة إلى الحكومة، أوصوا فـــيها بوقــف الهجــرة، وقالوا «إن القضاء على الإضراب لا يمكن أن يتم بالقوة، بل بإزالة أسبابه»[٣١].

بالرغم من أن المقاومة المسلحة كانت، فـــي الدرجـة الأولـــى، ثــورة فلاحين، فإنها لم تكن مقصورة على قطاع الفلاحين. فقبل أن تدخل القـــوات البريطانية نابلس، أواخر شهر مايو، نصبت المتاريس فـــي الشوارع والأزقة الضيِّقة، وتعرض معسكر القوات البريطانية لإطلاق نيران كثيفة، وما جرى فـــي نابلس، جرى فـــي طولكرم، وضواحي القدس، وغزة [٣٢].

الفلاحون عماد الثورة:

خرجت الثورة من قاعدة المجتمع الفلسطيني، فمن بـــين (٢٨٢) قائـــدا عسكرياً للثورة، وجد أن (٦٥%) منهم من الفلاحين[٣٣]. وبـــالاطلاع علـــى المنشور الذي كانت قد أصدرته حكومة الانتداب إبان الثورة، والذي وعـــدت فـــيه بمكافآت مالية ضخمة لمن يرشد عن القادة العسكريين للثورة، نجد أنه قد تضمن أسماء (٢١) قائدا للثورة، بينهم (١٧) فلاحا[٣٤].

بيد أن ارتباط حياة الفلاحين ومعاشهم بالأرض، جعلهم أكثـــر غضـــباً وعنفاً تجاه الملاك والسماسرة، الذين سَّهلوا أعمال بيع الأراضي لليهود، وإذا كان بعض أولئك الملاك قد اشترك فـــي هيئات وطنية عربية، فإن هذا نفسه قد زاد الفلاحين الثائرين غضباً، وجعلهم أقل إنقياداً لنفوذ الزعماء.

أدارت المقاومة الثورة، عن طريق تنظيمات الكفـــاح المســـلح، والتـــي تكونت من مجموعات، عدد الواحـــدة منهـــا مـــن (٥٠ - ٧٠) رجـــلا[٣٥]. وانقسمت تلك التشكيلات إلى ثلاث فئات، الأولـــى تتـــألف مـــن مجاهـــدين متفرغين معتصمين بالجبال، كانوا يشكلون عمود الثورة الفقري، ويجابهون قوات الجيش البريطـــاني، ويقومـــون بنســـف خطـــوط البتـــرول، وقلـــب القطارات[٣٦]. أما الفئة الثانية فتألفت من فدائيي المدن، الـــذين يمارســـون حياتهم المدنية المعتادة، ولكنهم ينجزون مهام عسكرية محددة، بنـــاء علـــى طلب قادتهم. أما الفئة الثالثة، وهي كبرى الفئات عدداً، فهي الأنصار الـــذين كانت غالبيتهم الساحقة تتألف من الفلاحين العاديين، الذين يهُّبون إلى حمـــل السلاح، ونجدة المجاهدين، عندما تنشب معركة فـــي منطقتهم.

امتد انتقام الفلاحين إلى الأراضي التي انتزعها منهم الصهيونيون، فقد أعلنت «الوكالة اليهودية» أن (٨٠,٠٠٠) شجرة من الحمضيات و(٦٢,٠٠٠) أشجار أخرى، و.(٦٤,٠٠٠) أشجار غابات، كلها للمستوطنين اليهود، قد أتلفها العرب[٣٧].

وقف الإضراب:

خدمة للاستعمار البريطاني، حاولت أنظمة عربية وقف الإضراب، الأمر الذي نجح فيه «بيان الملوك والأمراء العرب»، الذي وجهوه «إلى أبنائنا» الشعب الفلسطيني، يطلبون فيه وقف إضرابه، فاستجابت «اللجنة العربية العليا» للنداء، وطلبت إلى الشعب الفلسطيني وقف الإضراب، بعد أن استمر (١٧٥) يوما[٣٨].

يرجع كثير من المؤرخين استجابة اللجنة للنداء بهذه السرعة، إلى اقتراب موسم الحمضيات الذي يمس مصالح الكثيرين من الوجهاء، وإن كانت جهات أخرى عارضت فكرة الإضراب من مواقع وطنية، حيث رأت «جمعية العمال العربية»، أن للإضراب مخاطر اقتصادية جسيمة على العمال، فأشار سامي طه، أحد أبرز قادة الجمعية إلى، أن (٩٠%) من عمال مرفأ يافا كانوا من العرب، وحين عادوا إلى العمل، بعد انتهاء الإضراب، وجدوا جميع المراكز في يد الشركات اليهودية. وفي شركة نيسر للأسمنت كان هناك (٣٠٠) عامل عربي، استبدلوا بهم، أثناء الإضراب، عمالاً من اليهود، كما أدى تعطل العمل في ميناء يافا العربي إلى ازدهار ميناء تل أبيب اليهودي[٣٩].

دب الخلاف داخل «اللجنة العربية العليا»، إذ انقسمت إلى قسمين، «المتطرفين»، و«المعتدلين» بحسب تسمية الاستعمار وأعوانه، وتمثل قسم «المعتدلين»في حزب «الثورة المضادة»، حزب الدفاع. الذي لم يتوقع أن تتجدد الثورة المسلحة، وقد دلت المعارك المنظمة، مثل معركة طولكرم (٣/٩/ ١٩٣٧)، على انهيار نفوذ «حزب الدفاع» داخل اللجنة، ومن ثم انسحب منها[٤٠].

لجنة بيل:

في ١١ نوفمبر/ تشرين الثاني، ١٩٣٦ وصلت لجنة التحقيق الملكية، برئاسة إيرل بيل، إلى فلسطين «لتتثبت» -كما جاء في براءة تعيينها- من «الأسباب الأساسية للاضطرابات التي نشبت في فلسطين، في أواسط

شهر نيسان (إبريل)، ولتحقق فـي كيفية تنفيذ صك الانتداب فـي فلسطين إزاء التزامات الدولة المنتدبة نحو العرب ونحو اليهود».

فـي الوقت الذي غادرت فيه اللجنة إلـى فلسطين، أعلن وزير المستعمرات البريطانية، أن الهجرة لن تتوقف، خلال عمل اللجنة. وفـي اليوم التالي، نددت اللجنة العربية العليا بهذا البيان، وقررت عدم التعاون مع لجنة بيل، إلا أنها عادت وشهدت أمام اللجنة تلبية لدعوة الملوك العرب!.

فـي عرضها القضية، انطلقت «اللجنة العربية العليا» –التي قرأ رئيسها الحاج أمين الحسيني بيانها أمام لجنة التحقيق– من «أن القضية العربية فـي فلسطين هي قضية قومية استقلالية لا تختلف، فـي جوهرها، عن قضايا العرب، فـي سائر البلاد العربية»(٤١).

لذلك استخلصت «اللجنة العربية»، بعد أن استعرضت الكفاح العربـي، خلال الحرب العالمية الأولى، وخيبة أمل الجماهير العربية من جراء "وعد بلفور"، وأخطار الوطن القومي اليهودي على مستقبل الشعب العربي فـي فلسطين، استخلصت ضرورة «العدول عن تجربة الوطن القومي اليهودي الفاشلة، التي نشأت عن وعد بلفور، وإعادة النظر فـي جميع الأمور، التي نتجت عنها، والتي ألحقت الأضرار والأخطار بكيان العرب وحقوقهم». وطالبت «اللجنة» بوقف الهجرة ومنع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود، وبحل القضية الفلسطينية «على الأسس التي حلت عليها قضايا العراق وسوريا ولبنان بإنهاء عهد الانتداب وعقد معاهدة بين بريطانيا وفلسطين تقوم بموجبها حكومة مستقلة وطنية ذات حكم دستوري تتمثل فيها جميع العناصر الوطنية ويضمن للجميع فيها العدل والتقدم والرفاهية»(٤٢).

أما الموقف الصهيوني، فقد عرضه أكثر من شاهد أمام اللجنة الملكية، ولكن الشاهدين الرئيسيين كانا حاييم وايزمن، زعيم المنظمة الصهيونية وممثل القوى الجوهرية فـي الوطن القومي اليهودي فـي فلسطين، وزئيف جابوتنسكي، زعيم الإصلاحيين.

قسمت اللجنة الملكية تقريرها إلى قسمين: ضمَّنت الأول الأسباب الحقيقية لانفجار الثورة، ودعت فـي القسم الثاني إلى حل جذري، اعتقاداً منها أنه لا سبيل آخر للخروج من الأزمة.

وردت اللجنة الملكية أسباب انفجار الثورة إلى سببين رئيسيين، هما: رغبة العرب فـي نيل الاستقلال القومي، وكرههم لإنشاء الوطن القومي اليهودي، وتخوفهم منه. ولكن اللورد بيل وضع ما أسماه بالعوامل الثانوية، والتي تتلخص فـي:

- انتشار الروح القومية خارج فلسطين.
- ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين.
- فزع العرب من استمرار شراء الأراضي من قبل اليهود[٤٣].

أي أن الأسباب الاقتصادية، كان لها أثر كبير في إندلاع الثورة برأي "لجنة بيل".

أما الحل الجذري فكان التقسيم على اعتبار أنه من غير الممكن لأي من العنصرين حكم فلسطين بأسرها، وليس هناك ما يمنع أي (عنصر) منهما من تولي الحكم في قسم منها، إن كان ذلك ممكناً، « فالتقسيم يفسح المجال لتوطيد السلام في النهاية، الأمر الذي لا يتيحه أي مشروع آخر».

تجدد الثورة[٤٤]:

كان الرد العربي الفلسطيني على توصية التقسيم هو الاستمرار في الثورة، ومن هنا اتخذ البريطانيون إجراءين لحصر ردود الفعل العربية، وقمعها، فقد بادروا، من جهة، إلى إعلان إيفاد لجنة إلى فلسطين، لإعداد التفاصيل المتعلقة بالتقسيم (لجنة وودهيد). كما اتخذوا إجراءات عسكرية لسحق الثورة الوشيكة التجدد من جهة أخرى. وإثر اغتيال حاكم لواء الجليل وحرسه في عملية فدائية جريئة، اتخذت السلطات إجراءات ضد القيادات والهيئات السياسية في البلاد وأقصت الحاج أمين عن جميع مناصبه، ونفت عدداً من السياسيين وقبضت على المئات من المناضلين والثوار المشتبه بهم.

في ١٤ أكتوبر/تشرين الأول، شن الثوار العرب هجوماً عاماً في مختلف أنحاء البلاد، شمل خطوط النفط، والتليفون، والسكك الحديدية، وفي الليلة التالية أحرق الثوار مرافق مطار اللد. وكان رد السلطات عنيفاً، ففرضت الغرامات الجماعية الباهظة، وهدمت المنازل. على أن الثوار تمكنوا من اجتذاب مزيد من المتطوعين وأحكموا تنظيم ثورتهم، فشكلوا «اللجنة المركزية للجهاد»، في دمشق، وأنشأوا محاكم ثورية، ومراكز إدارية، ودوائر استخبارات في المناطق التي يسيطرون عليها، وبدأوا جباية الضرائب من السكان.

اعترف قائد القوات البريطانية في فلسطين، الجنرال هايننج، في يوليو/تموز ١٩٣٨، بأن عدد الثوار أخذ في الازدياد، كما أن تنظيمهم أخذ في التحسن، وأن قواته تواجه شعباً ثائراً . فقد كتب إلى وزير الحربية البريطاني، يقول : «لقد بلغت سيطرة عصابات الثوار على جماهير الشعب

حداً كبيراً، بحيث يحق أن يقال إن كل عربي فـــي البلاد هو عـــدو كـــامن للحكومة، مهما بلغت عواطفه الشخصية الخاصة من الاعتدال».

فـــي المحصلة كانت ثورة ١٩٣٦، ثورة وطنية ديمقراطيـــة، ركـــزت شعاراتها على الأرض والحرية. وتأكد الطابع الوطني للثورة من الطبقـــات والفئات التي شاركت فـــيها (فلاحون/ عمال/ برجوازية وطنية / مثقفون).

استنتاجات:

- ليست الهجرة اليهودية إلى فلسطين، مسألة قومية فحسب، بل كانت لها انعكاسات اقتصادية مباشرة، ذات تأثير يومي متزايد، وملموس علـــى الشعب العربي فـــي فلسطين، وخصوصـــاً علـــى صـــغار الفلاحـــين وقطاعات من البرجوازية الصغيرة والوسطى.
- تختلف الحياة الزراعية فـــي العالم العربي، عنها فـــي الـــدول الأخـــرى، فالزراعة ليست نمطاً من الإنتاج فحسب، بل هي أيضاً وبدرجة مســـاوية أسلوب حياة اجتماعية ودينية راسخة. وبالتالي فإن الصـــدام علـــى هـــذا الصعيد ، أخذ، بالدرجة الأولى، شكل الصراع القومي البحت.
- تمثلت الأسباب الحقيقية للثورة، فـــي وصول حدة التناقض فـــي عملية انتقال المجتمع الفلسطيني من الاقتصاد الزراعي – الإقطاعي العربي، إلى الاقتصاد الصناعي البورجوازي اليهودي (الغربي) إلى ذروتهـــا، فعملية تعميق الاستعمار وتجذيرها، ونقلها من حالة الانتداب البريطاني إلى حالة الاستعمار الإحلالي الصهيوني، وصلت إلى ذروتها، فـــــي منتصف ثلاثينات القرن العشرين.
- لعبت عوامل متناقضة ومختلفة فـــي دفع القيادة الفلسطينية التقليدية إلى تبني شكل الكفاح المسلح: أولاً: حركة عز الدين القسام. ثانياً: سلســـلة الإخفاقات التي منيت بها هذه القيادة، حتى فـــي ما يتعلـــق بالمطالـــب الجزئية الصغيرة، التي لا يتردد المستعمرون، عـــادة، فـــــي تلبيتهـــا لغرض امتصاص النقمة. ثالثاً: العنف اليهودي (الحاميـــات – شـــعاراً "العمل العبرى "واحتلال العمل") مضـــافاً إلـــى العنـــف الاســـتعماري (الطريقة التي قمعت فـــيها هبَّة البراق).

هوامش الفصل الأول

١. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطـاني ١٩٢٢-١٩٣٩**، م. ت. ف.، مركـز الأبحاث الطبعة الأولى، ١٩٧٤، ص ص ٢٧-٢٨.

٢. سميح شيب، **الأصول الاقتصادية والاجتماعية للحركة السياسية فـي فلسـطين ١٩٢٠-١٩٤٨**، عكا، مؤسسة الأسوار بالتعاون مع وزارة الثقافة الفلسـطينية، الطبعـة الأولـى، ١٩٩٩، ص ٤٢ .

٣. عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٧٠، ص ٤٨ .

٤. تقرير كلايتون، عن الحالة السياسية فـي فلسطين. أورده : الكيالي، **المصدر نفسـه**، ص ١٢٣ .

٥. عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، ط١، بيـروت، م. ت. ف.، مركز الأبحاث، سلسلة دراسات فلسطينية رقم (١٠٢)، مايو/أيار ١٩٧٥، ص ٢٧ .

٦. شبيب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٥ .

٧. عبد القادر ياسين، الحركة الوطنية الفلسطينية، القـاهرة، دار الكلمـة، الطبعـة الأولـى، ٢٠٠٠، ص ١٢.

٨. الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٥-٢٤٧ .

٩. غسان كنفاني، ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ فـي فلسطين.. خلفـيات وتفاصيل وتحليل، **شـؤون فلسطينية**، (بيروت)، كانون الثاني/ يناير ١٩٧٢،ص ص ٤٥-٧٥ .

١٠. الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٢ .

١١. كنفاني، **مصدر سبق ذكره**.

١٢. إميـل تومـا، **جـذور القضـية الفلسـطينية** (الأعمـال الكاملـة)، المجلـد الرابع،http://nakba.sis.gov.ps

١٣. صادق سعد، **فلسطين بين مخالب الإستعمار**، القاهرة، لجنة القاهرة للتأليف والنشر، مارس ١٩٤٦، ص ٩٢ .

١٤. كنفاني، **مصدر سبق ذكره**.

١٥. الكيالي، **مصدر سبق ذكره** ، ص١٣٢ .

١٦. خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٩٧ .

١٧. خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٧٨ .

١٨. لمعرفة المزيد من التفاصيل، راجع: عيسى السفري، **فلسـطين العربيـة بـين الانتـداب والصهيونية**، يافا، مطبعة مكتبة فلسطين، الطبعة الأولى، ١٩٣٧، ص ص ١٠-١٦ .

١٩. أنظر نص الإعلان: السفري، **المصدر نفسه**، ص ص ١٧-١٨ .

٢٠. الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٤ .

٢١. محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية فـي مختلف مراحلها**، صيدا، المكتبة العصـرية، ١٩٥٩،الجزء الأول، ص ٨٠ .

٢٢. ياسين، كفاح..، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٢ .

٢٣. **المصدر نفسه**، ص١٨٤ .

٢٤. سعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٠ .
٢٥. الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٦ .
٢٦. **المصدر نفسه**، ص ٣٠٧ .
٢٧. السفري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٨ .
٢٨. ياسين، كفاح..، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨١ .
٢٩. السفري، **مصدر سبق ذكره**، ٦٩-٧٦ .
٣٠. سعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٦ .
٣١. الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١٠ .
٣٢. الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١١ .
٣٣. عبد الناصر حجازي، مقارنة بين ثورة ١٩٣٦وانتفاضة الأقصى والاستقلال، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، العدد ١٢٩-١٣٠، تموز/كانون الأول ٢٠٠٢، السنة ٢٤، ص ص ٧٦-٩١ .
٣٤. **المصدر نفسه**.
٣٥. ياسين، كفاح..، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٢ .
٣٦. الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٦ .
٣٧. السفري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢ .
٣٨. الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٢٢ .
٣٩. ياسين، محطات..، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٢ .
٤٠. سعد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٧ .
٤١. محمد توفيق جانا، **الشهادات السياسية أمام اللجنة الملكية في فلسطين**، دمشق، مطبعة الشعب، ١٩٣٧، ص ٦٣ .
٤٢. **المصدر نفسه**، ص ٧٠ .
٤٣. كنفاني، **مصدر سبق ذكره**.
٤٤. http://alkawther.com.

الفصل الثاني

الدور العربي في الثورة

سارة نور

في تاريخ أمتنا صفحات امتزجت فـيها الحدود، وقضايا تخطت ما هو قطري إلى ما هو قومي، وثورات أخرى أجبرت الحكام على الإرتقاء إلـى مستوى شعوبهم، مؤقتاً، قبل أن يستدير بعض هؤلاء الحكام، ينكفئوا علـى أنفسهم، وإن اختلفت مواقفهم، ومصالحهم، والدور الذي قام به كل من هؤلاء الحكام، قوةً أو ضعفاً.

ولعل من أهم ثورات أمتنا، ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، وتمكن أهميتها فـي أن فلسطين قضية عربية، ليس لأنها جزء من الوطن العربي، فحسب، بل أيضاً لأنه الهجمة الصهيونية تستهدف كل الوطن العربي، وما فلسطين إلا رأس جسر لهذه الهجمة، التي تبغى الأراضي الممتدة «من النيل إلى الفرات»، وهـذه الهجمة هي التي عمقّت الطابع العربي للقضية الفلسطينية.

وما أن هلّت ثلاثينات القرن العشرين، حتى اجتاحت الأقطار العربية حركات ثورية إستقلالية؛ فـي العراق، التي حازت علـى إسـتقلالها، ١٩٣٢، وفـي مصر، التي أجبرت بريطانيا، تحت ضغط النشاط الجماهيري والطلابي، والوحدة الوطنية، على إعادة دستور ١٩٢٣، وفتح باب المفاوضات مع ممثلي الأحـزاب السياسية فـي مصر، فـي مارس (آذار) ١٩٣٦، وهي التي انتهت بعقد معاهدة، ٢٦ أغسطس (آب) ١٩٣٦. وفي سوريا أعلنت (الكتلة الوطنية) إضـراباً عامـاً فـي البلاد، بدأ فـي دمشق، يوم ٢٠ يناير (كانون الثاني)، واسـتمر مـدة ٥٠ يوماً. وفـي أول مارس (آذار) ١٩٣٦، اعلنت الحكومة الفرنسية عـن عزمهـا للدخول فـي مفاوضات مع «الكتلة الوطنية»، تلك المفاوضات التي انتهت بعقـد معاهدة التحالف الفرنسية – السورية، فـي ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٣٦، على غرار المعاهدة البريطانية – العراقية، لعام ١٩٣٠[١]، ما حفز الشعب الفلسطيني علـى التحرك فـي سبيل انتزاع إستقلاله الوطني، وكان له صداه فـي فلسـطين، مـا اسهم فـي إندلاع ثورة ١٩٣٦، الوطنية الفلسطينية فما كان لهذا النهوض العربي إلا أن يترك صداه على فلسطين.

ثورة ١٩٣٦:

فـي ٢٥ ابريل (نيسان) ١٩٣٦، تألفت «اللجنة العربية العليا»، كجبهة تضـم قيادات الأحزاب العربية الفلسطينية، ودعت تلك اللجنة، فـي بيان أصدرته، فـي اليوم التالي لتأليفها، إلى الإضراب العام، فـي الوقت الذي كان الشـعب لا يـزال مستمراً فـي إضرابه، قبل سبعة أيام من إصدار اللجنة لبيانها![٢] ومن الملاحـظ أن كلمة «العرب»، التصقت بلجان أخرى، مثل: «اللجنة العربية التنفـيذية»، التي قادت

الكفاح الوطني الفلسطيني فـــي العشرينات وحتى ١٩٣٤، كما أن نصف الأحـــزاب الفلسطينية التي تشكلت فـــي النصف الأول من ثلاثينات القرن الماضي، مضت كلمة العربي(*)، عدا حزب الكتلة الوطنية، وحزب الدفاع الوطني، وحزب الإصلاح.

لم تنحصر ثورة ١٩٣٦ الوطنية داخل فلسطين فحسب، بل امتدت إلـــى العراق، وسورية، ولبنان، وشرق الأردن، ومصر، حيـــث تشـــكلت لجـــان وطنية، لنصرة شعب فلسطين، ودعم ثورته، وقامت تلك اللجنان، باســـتقبال الجرحى والمصابين، من المجاهدين الفلسطينيين، والعناية بهم، فـــي بغـــداد، وبيروت، وعمان، ودمشق[٣].

العـــراق:

فـــي العراق كان نوري السعيد، وزيراً للخارجية، مدفوعاً إلى التـــدخل فـــي فلسطين، فقد كان فـــي سباق مع مختلف القـــوى الوطنيـــة العراقيـــة، وخشي أن يفلت منه الشارع العراقي، فقرر أن يتدخل، دون أن يفقد صـــداقة بريطانيا[٤]. وإن كانت للحكم العراقي مصالح إقتصادية من وقف الثورة، ذلك أن أنابيب البترول التابعة لشركة بترول العراق قد تعرضت، أكثر من مرة، وفـــي أكثر من نقطة، للضرب والتخريب[٥]. وفـــي القـــدس قـــدم نـــوري السعيد، وقابل المندوب السامي البريطاني، آرثر واكهـــوب، واجتمـــع الأول برئيس وأعضاء «اللجنة العربية العليا»، وكانت مهمته التوفـــيق بين وجهتي نظر الحكومة البريطانية وعرب فلسطين.

فـــي ٢٦ أغسطس (آب) ١٩٣٦، وبحضور زعماء فلســـطين، وافـــق المجتمعون، بالإجماع، على قبول وساطة الوزير العراقي، الذي مَثّل فـــــي وساطته الحكومات العربية الثلاثة. وأصدرت «اللجنة العربية العليا»، فـــــي ٣١ أغسطس (آب) ١٩٣٦ بيانا، أوضحت فـــيه أسس الوســـاطة للأمـــراء والملوك العرب، على النحو التالي:[٦]

أولاً: تُصدر اللجنة العربية العليا بياناً، للشعب بوقف الإضراب و»أعمال العنف»؟!

ثانياً: تُوقِف الحكومة الهجرة اليهودية، مؤقتاً، حتى تأتي اللجنـــة الملكيـــة، وتضع تقريرها!

ثالثاً: تقوم حكومة العراق بالسعي لدى بريطانيا، لإنجاز مطالب فلسطين المشروعة، سواء ما كان منها يتعلق بأساس القضية، وما كان منها ناشئاً عن الثورة.

---

* الحزب العربي، حزب مؤتمر الشباب العربي، حزب الاستقلال العربي.

رابعاً: تصفية الثورة على أساس:

أ- إلغاء الغرامات.

ب- وقف عمليات التفتيش.

ج- إطلاق سراح المعتقلين.

د- العفو العام عن المتهمين بحوادث الثورة.

هنا يَصدُق القول بأن التاريخ لا يعيد نفسه إلا مرتين، الأولى على شكل مأساة، والأخرى في صورة ملهاة.

لقد انتعشت آمال العرب، إعتقاداً منهم بأن ملوكهم وأمراءهم، الذين لا بد أن يكونوا مطمئنين إلى نجاح وساطتهم، وأن نوري السعيد لم ينزل ضيفاً على المندوب السامي، والمداولات التي جرت بينهما، ثم بينه وبين «اللجنة» لن تكون عبثاً، وخاصة لأنهم رأوا في تدخل ملوك العرب وأمرائهم وحكوماتهم، وموافقة الإنجليز عليه، تطوراً عظيم الخطورة في قضيتهم، يعيدها إلى نطاق الحركة العربية العامة، بعد أن كادت تُصبح قضية فلسطينية - يهودية - إنجليزية، فحسب(٧).

وقد كان هذا البيان مخالفاً لما أرادته بريطانيا، ولهذا أبرقت وزارة الخارجيةالبريطانية، في ٣١ إغسطس (آب) ١٩٣٦، إلى القدس، وإلى بغداد، بأن نوري السعيد «ذهب بعيداً جداً»، وأن هناك فرق بين وساطة خاصة وبين اعتراف رسمي بموقف العراق في فلسطين، وإنه «واضح» بأن نوري استغل الوضع الحالي لأجل إيجاد أكبر قدر لاحتمالات تدخل عراقي، في المستقبل، في شئون فلسطين، وللتمهيد لآرائه العربية العامة، وأن الموضوع بأكمله سيقدم، في ٢ سبتمبر (أيلول)، إلى مجلس الوزراء. وفي الوقت ذاته لا يمكن قبول صبغة تُلزم حكومة لندن(٨).

في جو شَبَهُ تضارب المواقف، والمصالح، وصراع بين ما هو رسمي من جهة، وما هو قومي ووطني من جهة أخرى، وفي مايو (أيار) ١٩٣٦. جَّهز العراق (الرسمي)، سراً، والشعبي، (علناً) قوة عسكرية وافية، تألفت من متطوعين للجهاد، كان بين أفرادها ضباط وجنود من رجال الجيش العراقي، وأسندت قيادة هذه القوة إلى فوزي القاوقجي(*)، وقد دَخَلت هذه

---

* اسمه بالكامل فوز الدين القاوقجي، من طرابلس الشام. عمل ضابطاً مع الأتراك في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، ثم خدم في ثورة جبل العرب بسوريا (١٩٢٥)، وحكمت عليه سلطات الانتداب الفرنسي هناك بالإعدام. وبعد إخفاق الثورة توجه القاوقجي إلى الحجاز، =

القوة الأراضي الفلسطينية، فـي أوائل يولية (تموز) ١٩٣٦. واتخذت لهـا منطقة المثلث (نابلس- طولكرم- جنين)، والتحق بها الكثير من المجاهـدين من أبناء هذه المنطقة. وقامت هذه القوة بأعمال هامة ضد الأعداء. وعنـدما أعلن وقف الثورة، فـي ١٣ أكتـوبر (تشـرين الأول) ١٩٣٦. انسـحب القاوقجي، ورجاله إلى العراق وسورية، وعاد المتطوعون الفلسطينيون فـي هذه القوة إلى مدنهم وقُراهم[٩].

كان لقدوم حملة القاوقجي تأثير عظيم على عـرب فلسـطين، فـازداد حماسهم، واندفاعهم، وانتعشت آمالهم، حيث أدركوا بأن ثورتهم وقد تَجَلَـت فـيها القيمة الحزبية لفلسطين، والنظام العسكري الفني، كما كان لتلك الحملة تأثير عظيم كذلك على الإنجليز والصهاينة، الذين وجدوا أن الخطـب أخـذ يتفاقم، وأن الثورة قد إنتقلت إلى مرحلة ثورية قوميـة، شـاملة، ومنظمـة. وأرسل الإنجليز، الجنرال ديل، ليقود التحركات العسكرية البريطانية، كنتيجة لذلك التأثير، وهذا التطور[١٠].

بالرغم من العمل البطولي الذي قامت به حملة فوزي القـاوقجي، فـإن هناك بعض التساؤلات حول دخول القاوقجي إلى فلسطين بقوة عراقية، فمن ناحية كانت «معاهدة التحالف الأنجلو- عراقية»، عام ١٩٣٠، تتضمن مادة تمنع العراق من القيام بأي عمل معادٍ لمصالح بريطانيا. ومن ناحية أُخرى، فإن طريق مرور هذه القوات إلى فلسطين، كان عبر سـوريا، لكـن حجـم القوات، كما ذكر، لم يكن صغيراً، بحيث لا يمكن للسلطات البريطانية كَشْفِه) ويبدو أنه قد تكون هناك رغبة من القيادة الفلسطينية التقليدية، فـي نهايـة الأمر، بتطويق الثورة، ثم إحتوائها، وكبح جماحها[١١].

لكن ليسَت كل المواقف العربية من النوع نفسه، فهناك موقـف الملـك غازي بن فـيصل، ملك العراق، الذي وقف إلـى جانـب ثـورة ١٩٣٦، وخصص إذاعة من قصرة، لُتذيع وقائع الثورة وبياناتها وتنـدد بالإسـتعمار البريطاني والصهيونية، حتى أن الكثير من الشكوك حامت حول أيدٍ بريطانية وقفت وراء حادث السيارة، الذي أودى بحياة الملك[١٢].

=وأصبح المستشار العسكري للملك عبد العزيز آل سعود. وفي يوليو / تموز ١٩٣٢، وهو الشهر الذي قتل فيه ابن رقادة، أُلقي القبض على القاوقجي، وسُجن في الرياض، إلى أن أطلق ابن سعود سراحه، بعد توسط "اللجنة التنفيذية العربية" في فلسطين، وبعض الشخصيات الإسلامية والعربية، فذهب القاوقجي إلى العراق، حيث عمل مدرساً في الكلية الحربية. وقد منحه أمير شرقي الأردن عبد الله بن الحسين رتبة عسكرية، ومن بعدها الباشوية.

الأردن:

أما شرق الأردن، فيمكن أن يقال إنها، إجمالاً، عاشت، طيلة أشهر الإضراب والثورة، في جو الثورة الفلسطينية، حيث تكررت المظاهرات والإضرابات فيها، بل أخذت تبدو بوادر حركة ثورية فيها، وخُربت الأنابيب الممتدة في أراضيها، أكثر من مرة(١٣).

وقد أرسل المعتمد البريطاني في عمان، المستر كوكس Cox رسالة إلى الأمير عبد الله، أكد فيها أن المندوب السامي «سيكون مسروراً»، إذا اشترك الأمير «بأي نداء يصدر من قِبَل ملوك العرب إلى عرب فلسطين، مُشيراً عليهم بإنهاء الإضراب، على شرط ألا يتضمن أية وعود وشروط، يمكن أن يتمسك بها بأنها مُلزمة لإجراء أو سياسة حكومة جلالته في المستقبل»(١٤). وبناء عليه، دعا الأمير عبد الله «اللجنة العربية العليا» إلى عمان، في ٦ يونيه (حزيران) ١٩٣٦، وعرض عليها الأمر، فصارحت اللجنة سموه، بأنها لا تستطيع إيقاف الإضراب، إلا إذا أُوقفت الهجرة اليهودية. وفي ٧ أغسطس (آب) دعاها سمو الأمير، ثانية، ولكن نتيجة هذه الدعوة لم تكن خيراً من سابقتها(١٥).

وقد أرجع البعض فشل محاولات الأمير عبد الله مع اللجنة إلى عاملين، أولهما توجس الحاج أمين الحسيني، وثانيهما علاقة الأمير عبد الله الوديّة بحزب الدفاع. كما أن الحكومة البريطانية لم تكن تعتمد، كلية، على الأمير عبد الله، في مسألة الوساطة. ذلك أن ظروفها في الشرق الأوسط كانت سيئة، بسبب الحرب الإيطالية – الحبشية، وإستمرار حملة الدعاية التي تشنها محطة باري Bari الإيطالية ضدها، وتخلخل النفوذ البريطاني في المنطقة، إثر ثورة فلسطين، في الوقت الذي كانت تقوم بريطانيا بإجراء مفاوضات مع الحكومة المصرية، التي انتهت بعقد معاهدة بينهما(١٦).

السعودية:

وَجّهت بريطانيا اهتمامها إلى الملك عبد العزيز آل سعود للتدخل، وهي تعلم، تماماً، مدى الصلة الوثيقة القائمة بينه وبين مفتي فلسطين، الحاج أمين الحسيني(١٧). وقد أرسل ابن سعود، في ١٥ يوليو (تموز) ١٩٣٦، كتابا إلى الأمير عبد الله، جاء فيه أنه نظراً «لأننا ندري عواقب الأمور، ونخشى من أمر يفرط، يكون على العرب عامة وأهل فلسطين خاصة ضرره، فهل توافقون على التقدم؟ لتوجيه نداء عام، نشترك فيه مع سموكم، وجلالة

الآخرين: الملك غازي، والإمام يحيى، لتوقيف الإضطراب، ليفسحوا للحكومة البريطانية المجال لإنصافهم، في جو هادئ؟! فإن مثل هذا النداء، إذا قُبِلَ، ووقفت الحركة، بعده، يكون لنا جميعاً وجه عند الحكومة البريطانية، في (رجائها) بقبول مطالب أهل فلسطين وإنصافهم؟!»[١٨].

بيد أن المملكة السعودية وجدت حرجاً بين إرضاء «الصديقة» إنجلترا، وبين الدور الوطني المنتظر، وقد حاولت المملكة السعودية الخروج بموقف مشّرف، حيث أنه، في ١١ أغسطس (آب) ١٩٣٦، أخبر السفير السعودي في لندن، وزارة الخارجية البريطانية بأنه: «نظراً لعدم وجود اتصال مباشر لصاحب الجلالة الملك عبد العزيز مع عرب فلسطين، فإنه قد اتصل بممثلين في مصر، وسوريا، والعراق، وطلب إليهم إيقاف الإضطرابات»!، وقد أجابوه بأنهم يودون العمل بنصيحته، إلا أنه ثمة شك، نظراً للإعتقاد المنتشر بين العرب بأن الصهاينة يرغبون في الإستئثار بفلسطين، بدون أي عربي، لذلك فقد الزعماء كل سيطرة على الجمهور، وأنه ينبغي إيقاف الهجرة، وإطلاق سراح السجناء، وبدون هذا كله لا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً[١٩]، ولكن هذا الموقف سرعان ما تم التراجع عنه، ففي ١٢ أغسطس (آب) ١٩٣٦، بعث الملك عبد العزيز ببرقية إلى «اللجنة العربية العليا»، أشار فيها إلى اتصاله مع الحكومة البريطانية، وأنها «على استعداد للنظر في قضية فلسطين بعين العطف على العرب؟! بعد أن تهدأ الحالة»![٢٠]، والجدير بالذكر أن الوساطة العربية السعودية قد أثمرت، في ٣ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٦، عن إتفاق بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا، على تجديد معاهدة جدة(*) لمدة سبع سنوات أخرى![٢١]

طلب المندوب السامي البريطاني بفلسطين إلى الأمير عبد الله، والملك عبد العزيز بن سعود، التدخل «لوقف الثورة». فسارع زعماء العرب (الملك عبد العزيز، والأمير عبد الله، والملك غازي، والإمام يحيى)، إلى تبني صيغة بيان كتبه المندوب السامي البريطاني في فلسطين، واكهوب، بنفسه، وتظاهر حكام العرب، بأنهم من أصدر البيان، في ٩ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٦، ناشدوا فيه عرب فلسطين «الإخلاد إلى السكينة، حقناً للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا، الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل»![٢٢]. وللحقيقة فإن ابن سعود قد شطب كلمة "حليفتنا"، واحل محلها" صديقتنا!

* **معاهدة جدة**: معاهدة صداقة وحسن تفاهم بين حكومتي الرياض ولندن، عقدت في ١٩٢٧/٥/٢٠، ثمناً لإخلاص ابن مسعود لبريطانيا. وفي ١٩٣٦/١٠/٣، جرى تعديل لهذه المعاهدة، تم بموجبه تنازل بريطانيا عن حقها في عتق الأرقاء، الذين يلجأون إلى القنصلية البريطانية في جدة!

أذاعت «اللجنة العربية العليا» بياناً، جاء فيه: «ولما كان الإمتثال لإرادة أصحاب الجلالة والسمو، ملوك العرب وأمرائهم، والنزول مع إرادتهم من تقاليدنا الموروثة، ولما كانت اللجنة العربية تعتقد بأن أصحاب الجلالة والسمو، لم يأمروا أبناءهم، إلا بما فيه مصلحتهم، ندعو الشعب العربي الكريم، إلى إنهاء الإضراب، إنفاذاً لهذه الأوامر السامية، التي ليس لها من هدف إلا مصلحة العرب»[٢٣].

سورية:

أما سورية، فإن قضيتها السياسية كانت، آنذاك، في عز أزمتها، ولم توقع المعاهدة التي نشأ عنها العهد الوطني الأول، إلا في سبتمبر (أيلول) ١٩٣٦ . كما أن الكتلة الوطنية لم تقم إلا في نوفمبر (تشرين الثاني)، أي بعد حل الإضراب. على أن الكتلة الوطنية، التي كانت تحمل لواء الحركة الوطنية، غدت مندمجة، بل مغذية لما كان يبدو في سورية، من عواطف، ويبدو عنها من مساعدات مالية وكفاحية[٢٤].

بالرغم من ذلك، فقد كانت هناك جلسات بين الجانبين السوري والصهيوني، وكان على جدول الأعمال في تلك الجلسات مسألتين، أولاهما: العلاقات بين اليهود والعرب في فلسطين، أما الثانية فاقتصرت على ما بين العرب واليهود بصفة عامة. وكانت بداية تلك الجلسات، في ٩ أغسطس (آب) ١٩٣٦[٢٥].

لبنان:

أما الطوائف اللبنانية، فقد كانت المناطق الآهلة بالطوائف الإسلامية في لبنان هي الأكثر اهتماماً وعطفاً على قضية فلسطين، فتكررت المظاهرات، والإضرابات، في طرابلس، وصيدا، وصور، بنوع خاص، وتسرب مسلحون عديدون من أهل هذه المناطق، وجمعت بعض التبرعات، واشترك فيها بعض الطوائف المسيحية[٢٦].

لكن هناك الطوائف اللبنانية التي أقامت علاقات وثيقة مع مؤيدي الصهيونية والصهاينة، مثل إميل أده، الذي كان يترأس، في فترة، «الكتلة الوطنية»، الموالية لفرنسا، والبرت نقاش، من مؤسسي «رابطة الفينيقيين الشبان» في لبنان، والتي كان هدفها الإنسلاخ الروحي والثقافي عن المحيط العربي[٢٧].

مصر:

فـــي مصر رفض مصطفى النحاس، رئـــيس وزراء مصـــر، آنـــذاك، إرسال عمال مصريين للحلول محل العمال الفلسطينيين المضربين، وحـــين طُلب إليه أن يَضع توقيعه على نداء الملوك والأمراء العرب، إياه، رفـــض المشاركة فـــي هذا التوقيع. وحين أصدرت «لجنة بيل» الملكية البريطانيـــة تقريرها، التي أوصت فـــيه بتقسيم فلسطين، بين العرب واليهود والإنجليز، تصادف أن التقى النحاس بالمعتمد البريطاني فـــي مصـــر، آنـــذاك، مـــايلز لمبسون، وأكد الأول للمبسون أن مصر لن يهنأ لها بال، إذا ما قامت دولـــة يهودية على كتفها الأيمن[٢٨].

ومن الملاحظ أن حزب الوفد المصري، قبل ١٩٣٦، وقبل توليه الحكم، كان تركيزه على مناوأة الإستعمار البريطاني، عقب هبَّة البراق الوطنيـــة الفلســـطينية، وأن الإستعمار البريطاني أساس كل مشاكل المنطقة العربية. كما رأى الوفـــد أن الصهيونية قد تجاوزت حدودها، بتشجيع من حكومة الإنتداب البريطاني، فتركزت دعاية الوفد على مقاومة بريطانيا، سواء فـــي مصر أو فلسطين[٢٩].

لم تكن الحكومة المصرية ممثلة فـــي مصطفى النحاس، فحسب، الـــذي كان له موقف واضح وصريح مـــن ثـــورة ١٩٣٦، فللأحـــزاب المصـــرية المعارضة موقف ضاغط على الحكومة الوفدية، كي تتدخل بفاعليـــة أكبـــر فـــي قضية فلسطين، فعلاوة على العاطفة الدينية والعربية، كان هناك دافعين آخرين لموقف الأحزاب المصرية من قضية فلسطين، فقد كانـــت المصـــلحة المصرية وأمن مصر القومي عاملاً أساسياً فـــي الموقف الحزبي من قضية فلسطين، إضافة إلى أن هذه الأحزاب استخدمت قضية فلســـطين، لتوضـــيح عجز حكومة الوفد، فـــي التعامل معها، كما استخدمت ذات القضـــية فـــي الهجوم على معاهدة ١٩٣٦، وبيان فشلها[٣٠].

خلال هذه الفترة، نَمت جماعة الإخوان المسلمين، وكانت ثورة فلسطين فرصة، سنحت لزعيم الجماعة، حسن البنا، لممارسة العمل السياسي خـــارج حدود مصر، ولإيجاد جسر بين الدعوة الدينية، هدف الجماعـــة الأساســـي، وبين العمل السياسي، واكتسب البنا تأييد وعطف أمـــين الحســـيني، مفتـــي فلسطين، كما تقرب إلى البنا، علي ماهر ليستفـــيد مـــن شـــعبية الجماعـــة، وتقرب البنا إليهم، لتأييد الدولة له، كمـــا إتصـــل بحكـــام الـــبلاد العربيـــة والإسلامية، وملوكها[٣١] – وإن كان هذا الجسر استمر، إلى يومنـــا هـــذا- ليمتزج العمل السياسي بالدعوة الدينية، دون معرفة الخط الفاصل بينهما؟!

لعل من أبرز الأدوار على المستوى العربي ككل، الدور النسائي تجـاه قضية فلسطين. ففـي ٩ يونيه (حزيران) ١٩٣٦، عقد «الاتحـاد النسـائي المصري» إجتماعاً، لبحث الحالة فـي فلسطين، وأصدر، بإجمـاع الآراء، قرارات عدة، منها ضرورة فتح اكتتاب عام، والاحتجاج على تنفـيذ «وعد بلفور»، وإرسال برقيات إلى وزير خارجية ومستعمرات بريطانيا، ورئـيس مجلس العموم، للمطالبة بوضع حد لسياسة بريطانيا الخرقاء، إضـافة إلـى مناشدة الإتحاد لنساء العالم، وعصبة الأمم، تأييد نسـاء فلسـطين، ووقـف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والجدير بالذكر أن نشاط رئيسة الاتحاد النسائى المصرى، هدى شعراوي، لم يقتصر على الاحتجاج لـدى بريطانيـا علـى سياستها إزاء فلسطين، بل مارست ضغطاً على حزب الوفد الحاكم، فأرسلت إلى النحاس، فـي ١٤ يوليو (تموز) ١٩٣٧، بـرقيتين، طالبتـه فـيهما بالتصريح عن موقف الحكومة المصرية، تجاه قضية العرب فـي فلسطين، أسوة بما اتبعه رؤساء الحكومات العربية، وأسفر ذلك عن مـؤتمر نسـائي كبير، أقيم فـي القاهرة، فـي ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٨، للـدفاع عن فلسطين، حمل إسم «المؤتمر النسائي الشرقي»[٣٢].

اما داخل فلسطين، فقد كانت الجالية المصرية خلال الثورة الفلسـطينية من أكبر الجاليات، ولذلك فقد أضيف إلى الرأي العام المصري فـي الداخل، رأى المصريين داخل فلسطين نفسها، حيث مصالحهم، ومركزهم الأدبي بين عرب فلسطين، وأبناء الجاليات العربية الأخرى هناك. وقد كان نابعـاً مـن الضرر الإقتصادي الذي لحق بهم، وردة فعل تجاه السياسة الوفدية "الهادئـة تجاه القضية الفلسطينية". خاصة وأن حكومات أخرى، كـالعراق – الـذي تشابه مع مصر فـي العلاقة السياسية ببريطانيا– أعلنت موقفهـا المضـاد للتقسيم، وبصورة قوية، بالإضافة إلى وجود موقف عدائي ضد المصـريين فـي فلسطين، نتيجة ما شاع من أن السلطات الإنجليزية استقدمت عدداً من المصريين للعمل فـي وظائف «بوليس تحري»، كجواسيس على العـرب، وذلك لمعرفة هؤلاء المصريين اللغة العربية! وقد اضطر القنصل المصري إلى نفـي هذه الإشاعة، التي كانت سبباً فـي إغتيـال أحـد المصـريين، وسلوك بعض الموظفـين المصريين العاملين فـي جهاز الشرطة – علـى نحو تجلى فـيه حرص بعضهم على مناصبهم، إلى تفضيل الحياد من أحداث الثورة الفلسطينية، وبذلك لم يشاركوا العرب فـي ثورتهم، مما جعل عـرب فلسطين يتصورون أن هؤء المصريين يناهضون ثورتهم، ما أدى إلى اغتيال بعض هؤلاء، أمثال حليم أفندي بسطا، مساعد مدير شرطة حيفا، وسيد أفندي

غريبة، الضابط بشرطة يافا، وأخيراً فقد حدا الضيق الإقتصـادي بـالعرب فـي فلسطين إلى النظر لكل وافد للعمل فـي فلسطين على أنـه يشـاركهم رزقهم. وبالرغم من تلك الأزمات، والمواقف المتضاربة، فإنه يبقـى أمـر واحد، وهو ما ذكره القنصل المصري، فـي إحدى رسـائله، مـن أن أول شهداء الثورة الفلسطينية، على الإطلاق، كان مصرياً، واسمه السيد محمـد العطيفـي، الذي شارك، جماعة عز الدين القسام حركتهم. وقد اختلف أكثـر من مصدر على اسم الشهيد المصري، وعن نشاطه داخل فلسطين، لكنهم لم يختلفوا على أن أول دم أُريق فـي الثورة، كان دماً مصرياً[٣٣].

مقاطعة اللجنة:

أوقف العرب إضرابهم، وثورتهم، ترقباً لما سيأتي به الغد، وما ستسـفر عنه جهود الملوك والأمراء العرب، وأخذوا يهيئون أنفسهم لعـرض قضـية فلسطين على اللجنة الملكية أما الحكومة البريطانية – وقـد اطمأنـت إلـى «عودة الهدوء والسلام»– فإنها استأنفت جهودها السابقة، لتفرقة الصـفوف، وتشتيت وحدة الأمة[٣٤]. لكن حكومة لندن أعلنت، فـي ٥ نوفمبر (تشـرين الثاني) ١٩٣٦، وهو اليوم الذي غادرت فـيه اللجنة الملكية لندن متجهة إلى القدس، «موافقة الحكومة البريطانية على قرار المندوب السامي بمنح ١٨٠٠ شهادة هجرة يهودية، للفترة من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٦ إلـى إبريـل (نيسان) ١٩٣٧». وردا على هذا القرار، أصدرت «اللجنة العربية العليـا» بياناً، فـي ٦ نوفمبر (تشرين الثاني)، أعلنت فـيه استنكارها بشـدة هـذا الموقف، وعدم التعاون مع اللجنة الملكية، ودعت الأمة للعمل بقرار مقاطعة اللجنة الملكية البريطانية[٣٥].

ضغوط الملوك والأمراء لدعم اللجنة الملكية:

أبحرت اللجنة الملكية، بينما الضغوط تتوالى علـى «اللجنـة العربيـة العليا» من عمان، والرياض، وبغداد، وكان إلحاح الإنجليز ظاهراً فـي هذا الضغط، الذي بدأ به عاهل الأردن، حيث أرسل يُخَطِئ اللجنة العربية فـي قرار المقاطعة، وبعث ببرقيات بهذا المعنى إلى بغداد، والرياض، وتوالـت رسائله ورسله، مُلحاً تارةً بضرورة اللقاء مـع اللجنـة الملكيـة، وأُخـرى بضرورة الإتصال بها، والعدول عن مقاطعتها. وقد جاء الأمير إلى القـدس،

عقب وصول اللجنة، واجتمع بها مرحباً، ودعاها إلى عمان، وحاول عاهل الأردن، وهو في القدس أن يُقنع اللجنة العربية بالإتصال باللجنة الملكية، أو تفويضه، كتابة، ليتكلم معها بإسم فلسطين ومن جانب أخر أخذت برقيات الرياض تتوالى مُلّحة بالإتصال، ومُنذرةً بأوخم العواقب، ولاحظت اللجنة العربية من برقيات الملك السعودي، بأنه غير محيط بقضية فلسطين، وجوهرها، وإنه كان يرسل برقياته، وكأنما هي تنفيذ رغبة وإنذار، حيث كان ينصح مرة بوجوب عدم تجاوز المعقول والإعتدال بالمطالب، ومرة بقبول ما يعطى، والمطالبة بالباقي، بالتدريج.وما أشبه اليوم بالبارحة! وكأن التاريخ يرجع إلى الوراء، وقد امتد ذلك لقول صاحب الرياض، إن من واجبنا أن ندلي ببياناتنا، فإن نَتَج عنها إيجاب، فهو خير، وإلا فنكون قد أدينا واجبنا.. إلخ، وقد كتبت له اللجنة العربية أكثر من برقية ورسالة، مُفصلة له الحالة، وطالبة منه بذل جهده وإلحاحه في لندن. وقد قال صاحب الرياض، في هذا الصدد، إن المقاطعة قطعت عليه طريق التشبث، وأن العدول عنها هو الذي يطلق لسانه!

انضمت حكومة بغداد إلى قافلة الملحين المنذرين، وأسَهم هذا كله في بلبلة اللجنة العربية، فسافر وفد مؤلف من أربعة يمثلونها (الشيخ كامل القصاب، عوني عبد الهادي، وعزة دروزة، ومعين الماضي)، إلى بغداد، حيث اجتمعوا بالملك غازي، وأعضاء حكومته، ولم يكن عند القادة العراقيين شئ يعَّول عليه من الإنجليز، كوعود أو تطمينات إيجابية، إلا الإستعداد لتنفيذ توصيات اللجنة الملكية، وخطورتها في التقاليد الإنجليزية، ولم يبد من الملك العراقى وحكومته إلحاح شديد!، وكل ما كان من أمرهم النصح بالتجربة والإستعداد لمواصلة المساعي، وكتابة نداء جديد، يحفظ للجنة العربية العليا هيبتها. وفي الشام، لم يجد وفد اللجنة العليا شيئاً مختلفاً، حيث اجتمع مع أركان الحكومة السورية، التي قامت نتيجة المعاهدة الجديدة (١٩٣٦) – وكان من رأي كبار المسئولين السوريين كذلك الإتصال، وعدم إضاعة الفرصة، وعاد الوفد إلى فلسطين، فنقل ما جرى إلى اللجنة العربية، وبناءً عليه، وخشية إغضاب الملوك والأمراء، وانعزال فلسطين، وضياع فرصة سانحة للكلام!، قررت «اللجنة العربية العليا»، بتاريخ ٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٣٧، «إن اللجنة استمعت إلى بيانات الوفد، الذي عاد من رحلته، واطلعت على كتابي صاحبي الجلالة، ملك العراق، وملك المملكة السعودية، فلم يسعها إلا أن تستجيب (للطلب السامي)، فقرر الإتصال باللجنة الملكية، وبسط القضية العربية لها»[٣٦].

ذهل الشعب العربي فـي فلسطين لموقف قيادته، التي قـررت، فـي ١٩٣٦/١١/٦، مقاطعة اللجنة العربية، وعادت، فـي ١٩٣٧/١/٦، عـن قرارها السابق، من غير حيثيات جديدة، سوى الرضـوخ لرغبـة الملـوك والأمراء العرب، فـي جو من الضغوط البريطانية(٣٧).

بالرغم من ذلك، أوقف العرب الفلسطينيون إضرابهم وثورتهم، ترقباً لما سيأتي به الغد، وما ستسفر عنه جهود الملوك والأمراء، وأخـذوا يهيئـون أنفسهم لعرض قضية فلسطين على اللجنة الملكية.(٣٨)

التأثير المتبادل بين ثورة ٣٦ والأقطار العربية:

ميز ثورة ١٩٣٦ العربية الفلسطينية، نمو التضامن العربي، وامتداده إلى أقطار عربية جديدة، وَبَرز هذا التضامن فـي انضمام عدد من المحـاربين العرب فـي سوريا، والعراق، والأردن، إلى الثورة، وفـي النشاط السياسي الناشئ، لتأييد الكفـاح الوطني العربي الفلسطيني(٣٩). سبقتها مواقف عربية فلسطينة، مشجعة للحركات التحررية العربية.

فقد أوقفت، قبل ذلك، الجرائد العربية الفلسطينية، أعمدتها على حـوادث مصر، مهنئة المصريين بنجاحهم فـي إعادة الدسـتور ١٩٢٣، بانضـمام صفوف أحزابهم فـي جبهة واحدة(٤٠)، وأكد على هذا التأثير المتبادل، تقرير اللجنة الملكية ذاته، حيث ورد فـيه: «فكما أن ضغط اليهودية الأوربية على فلسطين كان، فـي ذلك الحين، على أشده، كذلك كان تأثير الحوادث التـي وقعت فـي البلاد المجاورة، أيضاً، ففـي شتاء سنة ١٩٣٥-١٩٣٦ نفسـه، عاد (الهياج)! الوطني، فاستفحل فـي مصر وسوريا، إلى درجة مكّنت كـلا من هذين القطرين، فـي غضون بضعة أشهر، من إدراك الهدف الذي يصبو إليه، ألا وهو نيل الاستقلال القومي(٤١).

كما أنه حين دعت حكومة لندن إلى إنعقـاد مـؤتمر فـي العاصـمة البريطانية، لمناقشة قضية فلسطين، فـي فبراير (شـباط) ١٩٣٩، سـارع رئيس وزراء مصر، محمد محمود باشا، إلى دعوة وزراء خارجية العـرب للإلتقاء فـي القاهرة، فـي سبيل بلورة موقف عربي موحد تجـاه القضـية الفلسطينية، وقد حدث، الأمر الذي أُعتبر حجر الأسـاس للنظـام السياسـي العربي، وذلك قبل تأسيس جامعة الدول العربية بنحو ٦ سنوات(٤٢).

بالرغم من المحاولات الصهيونية، التي سعت إلى توطيد العلاقات مع بعض الدول العربية، سعياً وراء تحييد القضية الفلسطينية، فلم تستطع -في تلك الفترة- الوصول إلى ذلك، بشكل كامل. فقد أكد لطفي الحفار، عضو الحكومة السورية، أنه جرت مشاورات في بغداد، وفي أماكن أخرى، حول القضية الفلسطينية، وأن «العرب الوطنيين»، الذين يلتقون في حفلة واحدة، سيقومون ببحث القضايا العربية المختلفة، ومن ضمنها المشكلة الفلسطينية، وذلك رداً على تساؤلات صهيونية، عن العلاقات السورية - الفلسطينية[٤٣].

وقد اعترفت اللجنة الملكية، في تقريرها، بأن الثورة الفلسطينية أثارت إهتمام الشعوب العربية المجاورة، وأن الأهم من ذلك، من وجهة نظر اللجنة، كان اهتمام الحكومات العربية -لأول مرة- بالصراع المحتدم في فلسطين[٤٤].

من الملاحظ أن القدس لم تعد المركز الرئيسي للقيادة الوطنية، إذ انتقل نشاط «اللجنة العربية العليا»، والكثيرين من أعضاء اللجان القومية، وزعماء الشباب إلى بيروت، فغدت المركز الرئيسي لقيادة القضية الفلسطينية، واختيرت دمشق لتكون مركزاً ومصدراً لتموين الثورة، ومد المجاهدين بالسلاح، والعتاد، والمال، وتألفت للقيام بهذه المهمة، لجنة ذات طابع سري، من عدد من السوريين، والعراقيين والفلسطينيين[٤٥].

مؤتمر بلودان:

طلبت اللجنة العربية إذناً، من السلطات البريطانية، لعقد مؤتمر عربي عام، يقول كلمة العرب جهرة ومجتمعة، كما فعل اليهود، فأبته عليها السلطات البريطانية، بذريعة محذور «التهييج»، فاتفقت اللجنة العربية مع «لجنة الدفاع عن فلسطين» في سورية، على عقد هذا المؤتمر في بلودان - سورية، وأرسلت الدعوات إلى عقد الهيئات والشخصيات العربية، وقد توافدت الوفود من مصر، والعراق، ولبنان، وسورية، وشرق الأردن، وفلسطين، حتى بلغ عدد الوافدين، أربعمائة وخمسون مدعواً، وأقيم المؤتمر، في سبتمبر (أيلول) ١٩٣٧، واختير لرئاسته ناجي السويدي، أحد رؤساء وزراء العراق السابقين، وقد اتخذ المؤتمر قرارات عديدة، منها أن فلسطين جزء لا ينفصل عن الوطن العربي، وأن العرب يرفضون تقسيم فلسطين،

وإنشاء دولة يهودية فيها، وأن العرب يصرون على طلب إلغاء الإنتداب، ووعد بلفور، وسيادة الشعب العربي الفلسطيني في بلاده، ووقف الهجرة وبيوع الأراضي العربية، فوراً، وإعلام بريطانيا أن استمرار الصداقة بينها وبين الأمة العربية، متوقف على استجابتها لذلك، وأن إصدارها على سياستها الحاضرة، يجعل العرب على اتخاذ اتجاهات جديدة. ثم توجت القرارات بميثاق، أقسم عليه المؤتمرون، أن يستمروا في الكفاح والنضال في سبيل فلسطين، إلى أن يتم إنقاذها وتتحقق السيادة العربية عليها(٤٦).

الجانب السلبي من التضامن العربية:

إن التضامن العربي على اتساعه، وعمقه، وفائدته العملية للكفاح الوطني الفلسطيني، آنذاك، إلا أنه تضمن جانباً سلبياً، أيضاً، إذ أدت المبالغة في قوته وفعاليته، إلى تعويل الجماهير الفلسطينية عليه، أكثر مما يجب، كما أن تلك المبالغة فتحت الباب واسعاً أمام تدخل حكام العرب، لوأد الثورة(٤٧).

الدروس المستفادة:

- الإقليمي والقومي وجهان لعملة واحدة، في مواجهة عدو مشترك، ومصالح متبادلة.
- عقم الوهم بأن الإكتفاء بالمطالبة بالإصلاحات فحسب، دون الإستقلال والحرية، سوف يُغري المحتل للتفاوض، أو إقناعه بإعتدال القيادة الوطنية.
- التسول والتوسل، لا يجدي مع الأعداء. ومغازلة الدول العظمى بعدم مجابهتها بالمطالب الأساسية، إعتقاداً بأن ذلك سيحول الرأي العام الغربي إلى جانب العرب، لا يوصل إلى تسوية عادلة.
- رغم أن إيجابية موقف الشعوب لم تترجم إلى مواقف، أحياناً، فإن الشعب لا يستطيع ترجمة مواقف، إما بسبب ضعف الشعوب، أو بسبب رزوحها تحت إحتلال غاشم، أو أنظمة فاسدة.
- معظم حكام العرب عمدوا إلى التنازل عن فلسطين، لحساب قضايا أقطارهم.
- ظهور سُحُب الحرب العالمية الثانية، في الأفق، اضطر الإستعماريين الإنجليزي والفرنسي للتضافر ضد الحركات الوطنية في مستعمراتيهما.

هوامش الفصل الثاني

(١) د. كامل محمود خله، **فلسطين والإنتداب البريطاني من ١٩٢٢- ١٩٣٦**، ط٢، طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٢، ص ٥٩٧ .
(٢) عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، مايو (أيار)، ١٩٧٥، ص ١٦٤.
(٣) لمزيد من التفاصيل حول هذه اللجان، يمكن الرجوع إلى:
- **الموسوعة الفلسطينية**، ط٢، القسم العام، المجلد الأول، دمشق، ١٩٨٤، ص ٦٢٦، ص ٦٣٠ .
- ثروت كاتبة، الثورة والوطن العربي، **الطليعة** (القاهرة)، العدد ١٤، السنة السابعة، إبريل (نيسان)، ١٩٧١، ص ٩٩: ١٠٢ .
- ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٦ .

(٤) **جلسة مع عبد القادر ياسين**، في منزله، بالقاهرة، في ٢٠٠٥/٩/١٥م.
(٥) خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٤٠ .
(٦) عيسى السفري، **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية**، ج١، الكتاب الثاني، مكتبة فلسطين الحديثة، ١٩٣٧، ص ١٣٥: ١٣٦ .
(٧) محمد عزة دروزة، **حول الحركات العربية الحديثة**، ج٣، صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٥٦، ص ١٤١ .
(٨) دافيد بن غوريون، **لقاءات مع زعماء العرب**، عام عوبيد، تل أبيب، ١٩٦٧، زحمة الهيئة العامة للاستعلامات بوزارة الإرشاد، القاهرة، ص ٢٦٤: ٢٦٥ .
- أورده: خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٤٦ .

(٩) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٢٦ .
(١٠) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ج٣، ص ١٣٥ .
(١١) خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٤١ .
(١٢) جلسة مع عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**.
(١٣) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٧ .
(١٤) الملحق رقم ٤٦، **وثيقة غير منشورة** من مجموعة المرحوم عوني عبد الهادي أورده: خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٥٠ .
(١٥) **تقرير اللجنة الملكية**، الكتاب الأبيض رقم ٤٥٧٩، النسخة الرسمية العربية، القدس، ١٩٣٧، ص ١٣١ .
(١٦) خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٣٨ .
(١٧) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(١٨) وثيقة غير منشوره من مجموعة المرحوم عوني عبد الهادي. أورده: خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٣٩ .
(١٩) بن غوريون، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤٨-٢٤٩ .
- أورده: خله، **المصدر نفسه**، ص ٦٣٩ .

(٢٠) **الرابطة العربية**، (القاهرة)، العدد ١٣، ١٩، أغسطس (آب) ١٩٣٦ . أورده: خله، **المصدر نفسه**، ص ٦٤٠ .
(٢١) البلاغ الرسمي السعودي رقم ١١٣، فـي أم القرى، ٦١٨، ١٩٣٦/١٠/٣ . أورد: خلـه، **المصدر نفسه**، ص ٦٥٢ .
(٢٢) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٠ .
(٢٣) إميل الغوري، **المؤامرة الكبرى لاغتيال فلسطين ومحو العرب**، ط٢، القاهرة، دار النيـل، ١٩٥٥، ص ٨٤ .
(٢٤) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٦ .
(٢٥) لمزيد من التفاصيل الرجوع إلى:
– الياهو غيلات، العودة إلى صهيون والعرب، **الأفق** (نيقوسيا) العـدد ٤١ السـنة الأولـى، ١٩٨٠/١٠/١٨، ص ٨: ١٢ .
– الياهو ساسون والاتصالات العربية، **الأفق**، العدد (١٧-٢٦)، ١٩٨٠/١٢/٢٧، ص ١١١ .
(٢٦) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٧ .
(٢٧) لمزيد من التفاصيل الرجوع إلى:
–الياهو ايلات، **مصدر سبق ذكره**، العدد ١٠، ١٩٨٠/١٠/٢٨ .
–الياهو ساسون، **المصدر نفسه**، العدد ٢٥، ١٩٨٠/١٢/٣ .
(٢٨) جلسة مع عبد القادر ياسين، **مصدر سبق ذكره**.
(٢٩) د. أحمد حامد السيد، **الوفد والقضية الفلسطينية** (دراسات وثائقية لسياسة حزب الأغلبيـة تجاه قضية فلسطين، ١٩٣٦-١٩٤٩، القاهرة، كتاب الوفد، يونيو (حزيـران) ٢٠٠١، ص ٢٣-٢٤ .
(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ٣٥ .
(٣١) **المصدر نفسه**، ص ٦٩ .
(٣٢) لمزيد من التفاصيل الرجوع إلى: **المرأة العربية وقضية فلسـطين: المـؤتمر النسـائي الشـرقي**، القاهرة، المنعقد بدار جمعية الاتحاد النسائي المصري من ١٥ إلى ١٨ أكتـوبر ١٩٣٨ عن فلسطين، المطبعة العصرية، ص ١٣:١٧ .
– أورده: السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤-٣٥ .
(٣٣) لمزيد من التفاصيل: الخارجية المصرية، **الأرشيف السري الجديد**، محفظة ٨٢٩، ملـف ١٣/٧/١٦٣، ج٢، محتويات سرية، من قنصل مصر العام بالقدس إلـى مـدير الشـئون التجارية بالخارجية فـي ٢٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٤٠ .
– أورد: السيد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٩: ٤٣ .
(٣٤) الغوري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٥ .
(٣٥) خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦٠ .
(٣٦) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٢: ١٥٤ .
(٣٧) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً فـي الحياة العربية والدولية**، بيروت، ١٩٦٩، ص ١٦٩ .
(٣٨) الغوري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٥ .
(٣٩) إميل توما، **جذور القضية الفلسطينية**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٣، ص ٢٣٩ .
(٤٠) **المقطم** (القاهرة) ١٩٣٥/١٢/١٧ .

- أورده: خله، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٤٤ .

(٤١) تقرير اللجنة الملكية، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٢ .

(٤٢) جلسة مع ياسين، **مصدر سبق ذكره**.

(٤٣) الياهو ساسون، **الأفق**، العدد ١٩، ٦/١١/١٩٨٠، ص ١١:١٠ .

(٤٤) تقرير اللجنة الملكية، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٤-١٠٥ .

(٤٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٣٠ .

(٤٦) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، ج١، صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٥٩، ص ١٨٣: ١٨٥ .

(٤٧) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٦: ١٧٧ .

الفصل الثالث

البعد الإسلامي للثورة

محمود عبده

ما كان للإسلام أن يغيب عن نضال الأمة، ومسيرة كفاحها، كيف وهذا الدين قد جاء ثورة على الظلم، والطغيان، والاستكبار في الأرض؟. جاء ليحرر عقل الإنسان، وقلبه، وبدنه، من كل عبودية لغير خالقه، وليحفظ للمرء كرامته، وحقوقه!

وعلى أرض العروبة والإسلام، وخلال تاريخنا العربي الإسلامي، كان للإسلام دوره في صراعات الأمة، ومعاركها، ومثلت مبادئ الإسلام، وقيمه السامية، زاداً للمناضل العربي، وسلاحاً معنوياً حاسماً، كان الفيصل في أحرج الأوقات، وفي معارك الأمة المصيرية.

وعلى أرض فلسطين، في ثلاثينيات القرن المنصرم، ومع الجهود الصهيونية الدائبة لسرقة الأرض والتاريخ، قامت الثورة، ثورة وطنية صهرت في داخلها عرب فلسطين، على اختلاف انتماءاتهم الدينية والسياسية، وأفكارهم، ومشاربهم، متكاتفين لإنقاذ الأرض، واسترداد الحقوق، وقد وحدهم حب الوطن، وجمعهم نداؤه.

كانت تجربة نضالية ثرية، ومحطة كفاحية زاخرة بالأحداث والدروس، نقصد منها، ها هنا، البعد الإسلامي لتلك الثورة، راغبين في استلهام الدروس، والخبرات، التي تنفعنا في نضالنا ضد الصهيونية، ومن يناصرها في عدوانها على أمتنا، آملين في حسن تدبر ماضينا، لعلنا نربح مستقبلنا.

أولاً الحركة القسامية تشعل الثورة:

أجمعت المصادر التي تناولت ثورة ١٩٣٦ على اعتبار الانتفاضة القسامية، التي فجَّرها الشيخ عز الدين القسام (١٨٨٢- ١٩٣٥)، البداية الحقيقية لتلك الثورة[١]. ولم تكن الأشهر الخمسة التي فصلت استشهاد القسام، وصحبه، عن اندلاع ثورة ١٩٣٦، إلا الفرصة التي تمكّن فيها رفاق القسام من التقاط أنفاسهم، ولم شتاتهم، لينجح التنظيم القسامي في تفجير الثورة[٢].

لجأ الشيخ عز الدين عبد القادر مصطفى القسام إلى فلسطين، في عام ١٩٢٢، مخلفاً في بلده، سوريه، ثورة منتكسة، قامت ضد الاحتلال الفرنسي، وحكماً عليه بالإعدام، لاشتراكه مع الشيخ صالح العلي في قيادة تلك الثورة (١٩٢٠-١٩٢١). وقد اختار القسام ورفيقاه، الشيخان: محمد الحنفي، وعليّ الحاج عبيد، حيفا مقاماً لهم[٣]. وفي فلسطين، حيث البلاء

المزدوج: الانتداب البريطاني، والاستيطان الصهيوني، بدأ الشيخ فصلاً جديداً من جهاده، وكفاحه.

أحس القسام خطر الاستعمار البريطاني، والصهيونية، علــى فلســطين، ورأى مخططاً استعمارياً ينفذ على أرض الواقع، لم تشهده الــبلاد العربيــة، على اختلاف تجاربها مع المستعمرين، الذين تداعوا إلى المنطقة، فــي القرن التاسع عشر، ربما باستثناء الجزائر، التي شهدت استعماراً استيطانياً، هــدف إلى «فرنسة» الجزائر، ومحو هويتها العربية الإســلامية؛ ولكــن المخطــط الصهيوني كان أدهى وأمر، لأنه قام على طرد عرب فلسطين، أو إبــادتهم، ليحُل محلهم اليهود الصهاينة، الحالمون «بوطن قومي» للجماعات اليهوديــة فــي العالم.

لذا سرعان ما تأهب الشيخ للجهاد، والعمل لإنقاذ فلسطين، وبدأ فــي رصد الواقع، ودراسة أوضاع الجماهير العربية فــي فلسطين، مستفــيداً من العلم الذي حصله فــي الأزهر، على أيدي العلماء المصريين، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده، الذي قام منهجه على فهم الواقع، والأخذ بالأســباب، دون التواكل أو الركون إلى الكرامات، وخرق نواميس الحياة. كما استوعب القسام خبرات ودروس ثورة صالح العلي المنتكسة، ووعي دروس ضمانات أمــن الثورة واستمرارها، المتمثلة فــي: التنظيم، والتسليح، والتدريب، والبرنامج السياسي السليم، والتكتيكات الصائبة، والتحالفات الصحيحة[٤].

شرع القسام فــي بناء تنظيم سري، يقوم على نظام الخلايا، ويُختار أعضاؤه ممن يلمس فــيهم الشيخ الصلاح، والاستعداد لجهاد المحتلين، وكان معظم هؤلاء من المشايخ، والفلاحين، لتكون حركة القسام ضميرها الــدين، وفلاحيــة فــي جوهرها، معبرة عن امتزاج الدين بالوطنية، والتحام المثقف بالشعب[٥].

بعد عشر سنوات من الإعداد، التقط القسام «اللحظة الثوريــة»، فــي الوقت المناسب، وقرر الشيخ وعصبته القيام بأعمال الجهاد علانيــة، لرفــع معنويات الجماهير العربية، وإبرازاً للأهداف التي يجاهدون فــي ســبيل تحقيقها، وإحباطاً للدعاية المعادية، التــي كانــت تحــاول إظهــار أعمــال القساميين، فــي السنوات السابقة، على أنها أعمال إجرامية، وأن أصحابها لم يكونوا سوى عصابة للسلب والنهب. فعندما اشتد خطر الهجرة الصــهيونية، أصبح الوضع السياسي لا يحتمل مزيداً من التمهل، وتقرر البدء بالتحرك من أجل الثورة فــي الأراضي الجبلية. وعقد القساميون اجتماعاً، فــي مدينــة حيفا (مركز الثورة الرئيسي)، ليلة الثاني عشر من تشرين الثــاني/نــوفمبر

١٩٣٥، فـي عقبه باع أصحاب القسام حلي زوجاتهم، وبعض أثاث بيوتهم، ليشتروا بالثمن رصاصاً وبنادق، وقصدوا أحراش «يعبد»، القريبة من حيفا، بل القريبة من مرسى الأسطول البريطاني، غير عـابئين بقـوة بريطانيـا المسلحة، يحمل كل منهم مصحفاً، مدركين أن مصيرهم إلى «الاستشـهاد»، مرحبين بهذا المصير، الذي يعني الفوز برضوان الله، والخلـود فـي دار النعيم. وبالفعل استشهد القسام، وبعض رفاقه، فـي التاسع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٥، وأُصيب آخرون من رفاقه، وقبض على معظم من لم ينل الشهادة، بعد معركة بطولية مع شرطة الاحتلال البريطاني[٦].

استشهد القسام (١٩/١١/١٩٣٥)، دون أن تحقق حركته الأهداف التـي قامت من أجلها، بيد أن الحركة القسامية تضـمنت عـدداً مـن الـدلالات والإيجابيات الهامة، التي يمكن حصر أبرزها فـيما يلي[٧]:

- كانت الحركة كالومضة، فـي قوة وهجها، وسرعة خبوئها، غير أنهـا كانت عميقة الدلالة، فهي المبادرة الأولى، فـي ظل الانتداب البريطاني، لخوض الكفاح المسلح بشكل منظّم، والمرة الأولى التي يتم فـيها تحرك ثورى، بمعزل عن القيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية.
- حفزت الحركة، على الرغم من أنها لم تدرك غايتها، الجماهير العربيـة الفلسطينية على مضاعفة النضال، وأبانت الحركة لها السبيل، وأضـاءت أمامها طريق حريتها، وأوضحت لها إمكان الكفاح المسلح وضـرورته، فـي مواجهة القهر الاستعماري/الصهيوني.
- كشفت الحركة ضعف قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية التقليدية، وترددها.
- فتحت حركة القسام أمام الجماهير الباب لانتزاع زمام المبادرة من القادة التقليديين فى الحركة الوطنية الفلسطينية فنشبت ثـورة ١٩٣٦ بمبـادرة شعبية خالصة وبمعزل عن القيادة التقليدية، وإن نجحت هذه القيادة فـي تطويق الثورة، واحتوائها، فـي وقت لاحق.

وبذلك يكون الشيخ القسام أول من عمل عملاً مركّـزاً للثـورة، وزرع بذور الوعي بخطورة الاستعمار البريطاني لفلسطين، وتـرك عشرات من رجاله يقومون بالدور البارز فـي الثورة، التي انـدلعت نيسـان / أبريـل ١٩٣٦، وكان استشهاد القسام وصحبه من الحوافز النفسـية القويـة لتلـك الثورة، حتى إن بعض المراجع العربية ترى أن ثورة ١٩٣٦ قد بدأت يـوم

خرجت حيفا بشيوخها، وشبابها، ونسائها، تضطرب في موجة حزن، حاملة أعلامها، وراياتها، مودعة الشيخ وصحبه[٨].

وإذا اتفقت المراجع على اعتبار حركة القسام مقدمة، وعاملاً رئيسياً من عوامل اندلاع ثورة ١٩٣٦، فإن الآراء اختلفت حول البعد الكامن في تلك الحركة: هل كان بعداً قومياً، يقوم على وحدة النضال العربي ضد الاستعمار المزدوج في فلسطين؟ أم كان بعداً طبقياً، قام على قيادته رجل دين «تقدمي»، استوعب ثقافة ثورية راقية، وأبدع مفاهيم ثورية، انتفع بها ثوار لاحقون، كمفهوم «البؤرة الثورية»، الذي أخذ به «جيفارا» في ستينيات القرن العشرين؟ أم كان دافع الحركة الأول دافعاً دينياً، ارتبط بمفهوم «الجهاد»، وما ينبني عليه من مفاهيم شرعية، مثل «بيع النفس والمال» كثمن للجنة؟

ساعد على تعدد الآراء في المسألة، تعدد أبعاد شخصية القسام، وظهور أكثر من وجه لحركته، ولعل شخصية القسام تشكل، في نفسها، نقطة التقاء رمزية لمجموعة هائلة من العوامل المتداخلة، التي تشكل، في مجموعها، ما صار يسمى، تبسيطاً : «القضية الفلسطينية»؛ «فسورية» القسام (هو من مواليد بلدة جبلة، قضاء اللاذقية)، تمثيل للعامل القومي العربي في المعركة، و«أزهرية» الشيخ تمثيل للعامل الديني الوطني، الذي مثله الأزهر في بداية القرن العشرين، و«نضالية» القسام (اشترك في ثورة صالح العلي ضد الاحتلال الفرنسي لسوريه)، هي تمثيل لوحدة النضال العربي[٩]، واعتماد القسام، أساساً، على الفلاحين والعمال، يعكس تميُّزاً «طبقياً لحركته. بيد أن ثمة مؤشرات تغلّب البعد والجوهر الديني لحركة القسام.

- كانت الصبغة الغالبة على شخصية القسام هي الصبغة الدينية، بحكم النشأة، والثقافة الأزهرية، وبحكم مسار حياة الرجل، الذي عكف على التدريس في جامع السلطان إبراهيم ابن أدهم، في سوريه، ثم تولى التدريس في جامع النصر في حيفا، وكان خطيباً لجامع الاستقلال في المدينة نفسها، وعيِّن مأذوناً شرعياً من قبل المحكمة الشرعية عام ١٩٢٩[١٠]، وانضم إلى جمعية الشبان المسلمين، فكان رئيسها في حيفا، وحامل رايتها[١١].

- حرص القسام على اختيار أعضاء تنظيمه من أهل الدين، والعقيدة الصحيحة، وكانت المساجد من المراكز الرئيسة لانتقاء هؤلاء الأعضاء، وللدعوة إلى الثورة والجهاد[١٢]، وكان معظم عناصر عناصر تنظيم القسام من علماء

الشرع، فمن بين أربعين عضواً نشرت أسماؤهم، سبق أسماء ٣٧ منهم لقب «شيخ»، مما استحق معه أعضاء التنظيم صفة «المشايخ»(١٣).

- كان خطاب القسام خطاباً دينياً وطنياً ثورياً، لرجل يؤمن بأن حصر دور علماء الدين في إمامة فروض الدين، كالصلاة، والصوم، والزكاة، لا يؤدي إلى إخلال الإمام برسالته الدينية فحسب، وإنما أيضاً يدفع المسلمين إلى الاستكانة، والتواكل، ويسهم في عزلهم عن قضاياهم وقضايا شعوبهم. وطالما دعا الشيخ المسلمين الراغبين في الحج إلى إرجاء رغبتهم، وتحويل ما ادخروه لشراء السلاح، لأن جهاد المحتل أولى من فريضة الحج، كما حارب الشيخ الطرق الصوفية، والأفكار المبتدعة المشوهة لهدى الإسلام، داعياً إلى القيم الوطنية والجهاد(١٤).
- لا يعيب الحركات النضالية أن تتخذ بعداً دينياً، فالأديان السماوية تحض على القيم السامية، والمثل العليا؛ والثورة على المحتل، والعمل لإنقاذ الوطن، من هذه المثل وتلك القيم، التي أكدت عليها رسالات السماء، والإسلام، بجعله «الجهاد» ذروة سنام الدين، وبرفعه منزلة «الشهداء»، الذين يبذلون أرواحهم رافضين الظلم والاستكبار في الأرض؛ يحمل راية الدفاع عن الوطن، وعن الأمة؛ ويحرض أتباعه على الاستبسال في هذا الدفاع.
- كانت لحركة القسام ملامح قومية وطبقية، لا شك، ولكنها جاءت في إطار عمق تكوين الرجل، ونضجه النضالي، وتلك الملامح لا تُنقص من البعد الإسلامي لحركة الرجل؛ إذ لا تعارض ولا تناقض، كما يظن بعضنا، بين المرتكز الديني، والحقائق الموضوعية في الحياة، كما لا توجد حدود صارمة بين التيارات الفكرية، والأيديولوجيات، تمنع التأثير المتبادل بينها، وتفاعلها، وتبادل الخبرات النضالية بين أبناء تلك التيارات، مع تشابه الظروف، والمواجهات، وأساليب العدو. لذا يحسب للقسام، لا عليه، ثقافته الثورية الرفيعة، وإبداعه التكتيكي والخططي، وإدراكه لظروف مجتمعة، وأناته في تحين اللحظة المناسبة للثورة، .. وغيرها من دلائل نضجه، وعمق تكوينه.

ثانياً: القساميون فاعلون في الثورة:

اندلعت الثورة، وهبَّ الشعب الفلسطيني، بكافة طوائفه وفئاته، ثائراً على المحتل، مستلهماً روح القسام، سائراً على دربه.

لم يلق القساميون السلاح، بعد استشهاد قائدهم، بل قاموا باختيار قائد من بينهم، هو الشيخ فرحان السعدي، الذي طمح إلى انطلاقة أقوى وأوسع، ليكون قدر الشيخ أن تشتعل الشرارة الأولى للثورة على يديه، عندما قام السعدي، على رأس مجموعة قسامية، بقتل مستوطنَيْن صهيونيين، وجرح ثالث على طريق نابلس/طولكرم، في ١٥ نيسان/أبريل ١٩٣٥، ليرد الصهاينة باغتيال عربيين، في اليوم التالي، ثم تطور الأمر إلى صدامات واسعة، بين العرب والصهاينة في منطقة يافا، يوم ١٩ نيسان/أبريل، أشعلت نيران الثورة[١٥].

تصاعدت أعمال الثورة، ودخلت فلسطين في إضراب عام، دام ستة أشهر متواصلة (من نيسان/أبريل حتى تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٥)، ثم دخلت البلاد، بعد توقف الإضراب، في شبه هدنة مؤقتة، بانتظار نتائج توصيات اللجنة الملكية البريطانية (لجنة بيل)، التي أُرسلت للتحقيق في مطالب أهل فلسطين. وامتدت مرحلة التوقف المؤقت للثورة من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٦، حتى أيلول/سبتمبر ١٩٣٧، حين اشتعلت شرارة المرحلة الثانية من الثورة.

كان اشتعال هذه الشرارة على أيدي جماعة القسام، أيضاً، فكان اغتيال الجماعة لحاكم لواء الجليل، (أندروز andrews)، المؤشر البارز على بدء المرحلة الثانية من الثورة الفلسطينية (أيلول/سبتمبر ١٩٣٧– أيلول/سبتمبر ١٩٣٩)، فقد مثل مقتل أندروز صدمة كبيرة للسلطات البريطانية، إذ كان أول اغتيال لشخصية مدنية ذات مكانة، واعتبر إعلاناً صريحاً للثورة ضد الحكم البريطاني، ولتُستأنف الثورة[١٦].

وقد أسهم القساميون في تنظيم وقيادة الثورة، فشارك ثلاثة منهم (من أصل ستة) في عضوية القيادة العسكرية، التي اختارت في ٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦، فوزي القاوقجي قائداً عاماً للثورة، الذي استمر في القيادة، حتى نهاية المرحلة الأولى من الثورة، في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٦[١٧].

كما استطاعت جماعة القسام أن توحد، تحت قيادة «أبو إبراهيم الكبير»، مناطق شمال فلسطين، وقسماً من مناطق نابلس، وقسماً من منطقة القدس الشمالية، وهي من أكثر المناطق التي تركزت فيها الثورة [١٨]. وأبلى القساميون في الثورة، بلاء حسناً، وشاركوا سائر أبناء الشعب جهادهم، وعملياتهم ضد المحتلين، وبشكل عام فقد كان لجماعة القسام دور رئيس في الثورة الكبرى: قيادة، وتوجيهاً، وأفراداً، وتضحيات[١٩].

ثالثاً ـ منظمة الجهاد المقدس:

كان لعبد القادر الحسيني (ابن زعيم الحركة الوطنية في فلسطين، موسى كاظم الحسيني)، دور رئيس في إنشاء هذه المنظمة، وقيادتها. وعبد القادر من الشخصيات الفلسطينية التي اشتهرت بوطنيتها الصادقة، والتزامها الإسلامي[٢٠]. درس في الجامعة الأمريكية بمصر، وعاد إلى فلسطين، في تموز/يوليو ١٩٣٢، ليبدأ في إنشاء تنظيم سري عسكري، من الشباب الوطني المتحمس، بهدف مقاومة السلطات البريطانية، وتحطيم المشروع الصهيوني. أخذ ذلك التنظيم كيانه، في آذار/مارس ١٩٣٤، برياسة عبد القادر الحسيني، وأُطلق عليه، بعد ذلك، اسم «منظمة المقاومة والجهاد»، واتسع ليشمل مناطق مختلفة من فلسطين، غطت ١٧ فرعاً في مدن فلسطين، ووصل عدد أعضائه إلى ٤٠٠ شخص، كما أوجد التنظيم سبعة مراكز سرية للتدريب. وقد اصطبغ هذا التنظيم بالصبغة الوطنية، وشارك في عضويته عدد من النصارى، كان من أبرزهم: إميل الغوري، وحنا خلف[٢١].

يذكر إميل الغوري، أن الحاج أمين الحسيني، كان يتابع هذا النشاط السري، دون أن يلاحظ أعضاؤه ذلك، وفي صيف ١٩٣٥، دعا الحاج أمين عبد القادر الحسيني، وزملاءه المسئولين، وطلب منهم توحيد جهودهم مع الجهود التنظيمية السرية، التي كان الحاج أمين يعدها، ويضيف الغوري أنه نتيجة هذا التوحيد، تشكلت «منظمة الجهاد المقدس»، برعاية الحاج أمين، وتحت إشرافه. ويقول الغوري، مضيفاً: إنه لما تشكلت «اللجنة العربية العليا لفلسطين»، في نيسان/أبريل ١٩٣٦، برياسة الحاج أمين، تبنت اللجنة «منظمة الجهاد المقدس»، فأصبحت المنظمة في مكانة الجهاز العسكري للجنة، وأسند الحاج أمين قيادة المنظمة لعبد القادر الحسيني[٢٢].

تولى عبد القادر الحسيني، فعلياً، قيادة منطقة القدس، في أثناء ثورة ١٩٣٦، وفي بداية الثورة، اجتمع عبد القادر، ونفر من إخوانه المجاهدين، في منطقة القدس، حيث أدوا الصلاة متضرعين إلى الله (تعالى) أن يأخذ بأيديهم، وأن ينصرهم على عدوهم، مؤكدين على أن هجرتهم خالصة لله (سبحانه وتعالى)، وعزمهم على ترك مدينة القدس، والاعتصام بحبالها «لا تشرداً ولا بطراً، ولكن حباً لله، وجهاداً في سبيله، ونصرة للدين، وذوداً عن الوطن، ودفاعاً عن الحرمات، والأعراض، والحريات، والمقدسات».

أخذت فصائل المجاهدين، بقيادة عبد القادر الحسيني، تهاجم القوات البريطانية، وتجمعات الصهاينة، وتقطع طرق المواصلات في البلاد، وكان

من أشد المعارك التي خاضها عبد القــادر الحســيني معركــة «حوســان- الخضر»، فــي ٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٦، التي انتهت باستشهاد البطل السوري، سعيد العاص، وأصيب فــيها عبد القادر، نفسه، بجراح، ثم أســر، بعد ذلك، وقبيل أن تحاكمه السلطات البريطانية بيوم واحد، استطاع البطــل الإفلات، فــي ١١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٦، إلى العراق[٢٤].

ثم استطاع عبد القادر الحسيني العودة إلى القدس، فــي خريف ١٩٣٧، بعد أن تلقى تدريباً عسكرياً، فــي ألمانيا، وفــي القدس رتب الفصائل، وقاد أعمال الجهاد، من جديد، وكان من أهم المعارك التــي خاضــتها فصــائله «معركة تمرتوف الكبرى»، فــي ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧، ومعركة «بني نعيم الكبرى، فــي ٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٨، التي أصيب فــيها عبد القادر بجراح. ومع تغير ظروف الثورة، وزيادة الــبطش البريطــاني، ونشوب الحرب العالمية الثانية، توقفت الثورة فــي منطقة القدس، وغــادر عبد القادر الحسيني فلسطين إلى العراق[٢٥].

رابعاً: الإخوان المسلمون[٢٦]:

بدأ اهتمام حركة الإخوان المسلمين بقضية فلسطين يبرز، بشكل واضح، أمام عامة الناس، مع انفجار ثورة ١٩٣٦الوطنية الفلسطينية ، فقــد نشــط الإخوان المسلمون فــي الدعاية الإعلامية لقضية فلسطين، فــــي مصـــر، نشاطاً كبيراً، فشكلوا لجنة لمساعدة فلسطين، ودعوا إلى مشـــروع «قـــرش فلسطين»، لدعم أهل فلسطين، وثورتهم، وطبعوا المنشورات التـــي تهـــاجم الإنجليز وسياستهم فــي فلسطين، وركز الإخوان فــي مجلتهم، «النـــذير»، على خدمة قضية فلسطين، وإبرازها إعلامياً، واستفادوا من منابر المســـاجد للدعوة للقضية، وأرسلوا الطلاب، فــي الصــيف، فــــي أنحــاء القطـــر المصري، للدعوة للفكر الإسلامي، وإلى مساعدة أبناء فلسطين، كمـــا دعـــوا الإخوان إلى مقاطعة المحلات اليهودية فــي مصر، ووزعوا كتاب «النـــار والدماء فــي فلسطين» (الذي أصدرته «اللجنة العربية العليا»)، بشكل واسع، فــي مصر، فكان له أثر إعلامي عظيم، كما دعوا إلى القنوت فــي الصلاة من أجل فلسطين، وأرسل الإخوان المسلمون الرســائل، والبرقيــات، إلـــى المسئولين فــي الدولة المصرية، وأصحاب النفوذ فــيها، للتدخل لمســاعدة فلسطين، وللعمل الجاد لحل قضيتها.

وعندما انعقد المؤتمر العربي لنصرة قضية فلسطين في «بلودان»، في ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٣٧، أبرق حسن البنا، باسم الإخوان المسلمين في مصر، برقية إلى المؤتمر، يعلن فيها استعداد جماعته للدفاع عن فلسطين، بدمائهم، وأموالهم. ونظم الإخوان، مع «جمعية الشبان المسلمين»، مظاهرة كبرى في مصر، في حزيران/يونيو ١٩٣٨، لنصرة فلسطين، وقد اصطدم المتظاهرون بقوات الشرطة، مما أدى إلى اعتقال ٣٤ منهم.

كما نظم الإخوان مظاهرة كبرى، بمناسبة ذكرى «وعد بلفور» المشئوم، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، وشملت المظاهرة جميع أرجاء مصر، وكانت تنبيهاً قوياً للشعب المصري على أهمية قضية فلسطين.

أما عن اشتراك الجماعة في أعمال ثورة ١٩٣٦، فيبدو أن الإخوان المسلمين المصريين قد شاركوا بشكل محدود في الثورة، فيذكر كامل الشريف أن عدداً من شباب الإخوان قد استطاعوا التسلل إلى فلسطين، والاشتراك مع المجاهدين، خاصة في مناطق الشمال (حيث جماعة القسام)، وهذا التسلل لا يستبعد وقوعه بشكل فردي من بعض أفراد الجماعة، ولكنه لم يكن عملاً مقرراً من قيادة الجماعة، التي كانت في طور النمو والنضج، ولم تكن ظروفها مواتية للمشاركة في النضال المسلح ضد محتلي فلسطين، الأمر الذي تحقق في معارك سنة ١٩٤٨ .

كنت جماعة الإخوان، حينما قامت الثورة، في مستهل نشاطها على أرض فلسطين، وكانت أولى الإشارات لنشر دعوة الجماعة في فلسطين، هي قيام عبد الرحمن الساعاتي، ومحمد أسعد الحكيم، بزيارة فلسطين، في آب/أغسطس ١٩٣٥، حيث لقيا ترحيباً من الحاج أمين الحسيني، وبدءاً في نشر دعوتهما، ولم تكن المدة، بين بداية الدعوة وقيام الثورة، كافية لضم عدد كبير من الأفراد، يسهمون في الثورة تحت راية الإخوان المسلمين، من ثم بقيت راية القساميين هي الأعلى، والأكثر أتباعاً من المجاهدين الإسلاميين في ثورة ١٩٣٦ .

المهم أن ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية نقلت الاخوان المسلمين من جماعة خيرية إلى تنظيم سياسي. هكذا انخرط نفر من أبناء فلسطين في جهاد وطنهم تحت راية الجهاد الإسلامي، ممتلئين بالإيمان، والرغبة في التضحية، والاستشهاد، وسطروا صفحات مضيئة في سِفر الحركة الوطنية الفلسطينية، الذي يزداد تألقاً، يوماً بعد يوم.

هوامش الفصل الثالث

(١) غسان كنفاني، ثورة ٣٦-١٩٣٩ في فلسطين: خلفيات وتفاصيل وتحاليل، **شؤون فلسطينية**، (بيروت)، العدد ٦، كانون الثاني/يناير، ١٩٧٢، ص ٤٥-٧٧ .
(٢) العماد مصطفى طلاس، **الكفاح المسلح في وجه التحدي الصهيوني**، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط٢، ص١٩٨٩، ص ٦٥ .
(٣) عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني حتى العام ١٩٤٨**، دمشق، دار الجليل للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٨٤، ص ١٥٠-١٥١ .
(٤) **المصدر نفسه**، ص ١٥١ .
(٥) انظر: **المصدر نفسه**، ص ١٥١-١٥٤ .
(٦) عادل حسن غنيم، ثورة الشيخ عز الدين القسام، **شؤون فلسطينية**، (بيروت)، العدد ٦، كانون الثاني/يناير، ١٩٧٢، ص ١٨١-١٩٢ .
(٧) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٠ .
(٨) غنيم، **مصدر سبق ذكره.**
(٩) كنفاني، **مصدر سبق ذكره.**
(١٠) غنيم، **مصدر سبق ذكره.**
(١١) عمر أبو النصر، إبراهيم نجم، أمين عقل، **جهاد فلسطين العربية**، يافا، ط١، ١٩٣٦، ص ٢٧٠ .
(١٢) غنيم، **مصدر سبق ذكره.**
(١٣) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٤ .
(١٤) علي حسين خلف، **تجربة الشيخ عز الدين القسام**، ج١، عمان، دار ابن رشد، ١٩٨٤، ط١، ص ٤٥-٤٦ .
(١٥) د. محسن محمد صالح، فلسطين: **دراسات منهجية في القضية الفلسطينية**، القاهرة، مركز الإعلام العربي، ط١، ٢٠٠٣م، ص ٢٨٠-٢٨١ .
(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٣ .
(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٥ .
(١٨) محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٥٩، ص ٢١١-٢١٢ .
(١٩) صالح، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٧٦ .
(٢٠) عيسى خليل محسن، **فلسطين الأم وابنها البار عبد القادر الحسيني**، عمان، دار الجيل، ١٩٨٦، ص ١٤١ .
(٢١) إميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عاماً**، ج٢، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٣، ص ٢٣٢-٢٣٥ .
(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٣-٢٤٤ .
(٢٣) صالح، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧١ .
(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ١٧١-١٧٦ .
(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ١٧٧-١٩٥ .
(٢٦) لمزيد من التفاصيل، انظر: صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٦-٣٣٨ .

الفصل الرابع

البعد الدولي للثورة

د. عبد التواب مصطفى

يضئ هذا الفصل واحداً من أهم جوانب أو أبعاد هذه الثورة الرائدة، ألا وهو البعد الدولي، الذي يمثل البيئة الخارجية بأبرز معطياتهـا، وعناصـر التأثير والتفاعل المتوفرة فـيها، سواء ما شكل من هذه العناصـر عوامـل دافعة لاندلاع الثورة المذكورة، وما كان بمثابة أصداء أو ردود فعـل لهـا، فـي هذه البيئة.

بينما تتعدد الأبعاد والمستويات التحليلية لثورة ١٩٣٦، يأتي البعد الدولي متوجاً لهذه الأبعاد، ليس بسبب كونه الأعلى سقفاً فحسب، بل لأنه – أيضاً– يتضمن بعض المعطيات المتوفرة فـي المستويات التحليلية الأدنى، خاصـة فـي النطاقين الإقليميين: العربي والإسلامي.

إلى جانب عدة أسباب ثانوية، لاختيار «البعد الـدولي لثـورة ١٩٣٦» موضوعا لهذا الفصل، يأتي السبب الرئيسي، وهو الإسهام فـي الاحتفـاء بالذكرى السبعين لهذه الثورة الخالدة، التي أججها الشعب الفلسطيني الباسل، فـي وجه سلطات الانتداب/الاحتلال البريطاني، بل فـي وجـه الشـرعية الدولية المزعومة، الممثلـة فـي «عصـبة الأمـم»، ممطيـة الأطمـاع الاستعمارية، والأطماع الصهيونية فـي أرض فلسطين.

فـي أدبيات كثيرة تحدثت عن مسيرة الحركـة الوطنيـة الفلسـطينية، تناثرت فقرات وصفحات قليلة عن البعد الدولي لهذه الثورة. وإذ يلاحظ ندرة الدراسات التي انصبت فـي جملتها على ثورة ١٩٣٦، فإن الأبعاد المختلفة لهذه الثورة يمثل تراكماً علمياً ملموساً، يفـي الثـورة المـذكورة، وشـعب فلسطين، بعض حقهم على الجماعة العلمية والبحثية من أبناء الوطن العربي.

يستوعب الإطار الزمني لهذا الفصل مقدمات الثورة ١٩٣٦، وفعالياتها، ونتائجها –فـي بعدها الدولي– إلى المدى الذي يلتحم بمحطة رئيسية أخرى لاحقة، فـي مسيرة كفاح الشعب الفلسطيني.

وبديهي أن يأتي هذا الفصل فـي إطار البحوث المكتبة، التـي يعتمـد فـيها الباحث على المتاح من المصـادر والمراجـع ذات الصـلة، فـي المكتبتين العربية والأجنبية، وفق المـنهج التـاريخي، بنظريتـه التقليديـة والحديثة، وموظفاً أسلوبَيْ تحليل البيانات، الكمي والكيفـي، حسبما يقتضـي المقام، أو السياق.

وفـيما يلي أبرز مؤشرات وشواهد البعد الدولي لهذه الثـورة الوطنيـة الديمقراطية:

أولاً: ثورة ١٩٣٦ في مواجهة الشرعية الدولية المزعومة:

اندلعت هذه الثورة ضد الانتداب/الاحتلال البريطاني والحركة الصهيونية العالمية، المتشحين بشرعية دولية ممثلة في «صك الانتداب»، الصادر عن «عصبة الأمم»، ذلك الصك الذي نص – على غير العادة – على أن تعمل قوات الانتداب على تهيئة السبيل لإقامة وطن قومي لليهود، في أرض فلسطين، الأمر الذي شكل أبرز عوامل الاستفزاز الوطني الثوري لدى الشعب الفلسطيني، في مواجهة تلك الشرعية الدولية، وفي باطنها سلطات الدولة المنتدبة، وفي باطن باطنها، الحركة الصهيونية.

لقد أصرت بريطانيا على أن تُنتدب على فلسطين، وفعلت من أجل ذلك الكثير؛ لأن ذلك سيساعدها على الوفاء بما قطعته على نفسها من التزامات للمنظمة الصهيونية العالمية، حين وعدت بريطانيا تلك المنظمة – في «تصريح بلفور»، في ١٩١٧/١١/٢– بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[١].

بالرغم من تعدد الوعود التي منحتها القوى الطامعة في أرض وموقع فلسطين، لليهود، ثم للحركة الصهيونية، يظل «وعد بلفور» أكبر تلك الوعود أثراً في إنزال النكبة بالشعب الفلسطيني، وأرضه، باسم المجتمع الدولي، إذ تم إدراج ذلك الوعد/الالتزام البريطاني في «صك الانتداب»، الذي أصدرته «عصبة الأمم»، في ١٩٢٢/٧/٢٤، بانتداب بريطانيا على فلسطين، بما وفره من ضمانات – باسم المجتمع الدولي أو الشرعية الدولية – للهجرة اليهودية المكثفة إلى فلسطين، وكذا لبناء مؤسسات الدولة اليهودية المرتقبة، ومهَّد لصدور قرار التقسيم الشهير ١٨١ ،في ١٩٤٧/١١/٢٩ [٢].

إذا كان القرار المذكور هو ما تحققت به أحلام الحركتين: الاستعمارية الغربية والصهيونية العالمية، فإنه قد سبقته مشاريع تقسيم عديدة، صدرت كلها عن أطماع استعمارية في أرض فلسطين، وفي مقدمتها مشاريع الوكالة اليهودية والمشاريع الأنجلو أمريكية.

وبينما كانت بريطانيا تصدر كتباً بيضاء – وعوداً– تحاول بها أن تمتص بها ثورات الغضب العربية، كانت تلحقها بمشاريع تقسيم وكتب سوداء، تؤكد فيها التحالف الصهيوني البريطاني[٣] تحت مظلة «الشرعية الدولية»، ورغم مخاولاتها المعلنة، على مدى ثلاثين عاماً (١٩١٧– ١٩٤٧) في سبيل تحقيق صور مختلفة (حكم ذاتي – دولة مستقلة – تقسيم) وصولاً بفلسطين إلى الاستقلال[٤]، فإن المتواتر علميا وتاريخياً أن بريطانيا تنازلت –

فـــي مخالفة لمهمتها كدولة منتدبة وباسم الشـــرعية الدوليـــة – عـــن أرض فلسطين العربية للحركة الصهيونية، كي تجعل منها إقليمـــاً لدولـــة يهوديـــة مستقلة، ومكنت جماعة أجنبية –اليهود– من الاستيطان فـــي هـــذه الأرض والسيطرة عليها[٥].

وهكذا، جاء الاستفزاز/الاستنفار الوطني الفلسطيني فـــي ثـــورة ١٩٣٦ محصلة لجملة تساؤلات، اعتملت فـــي قلوب وعقول أبناء هذا الـــوطن إزاء الممارسات البريطانية/ الصهيونية المتشحة بوشاح الشرعية الدولية الزائفة، المسماة بالانتداب.

موجز هذه التساؤلات المولدة للثورة[٦]:

- هل كانت بريطانيا تتمتع بأي صفة قانونية، تمنحها الحق فـــي إصدار وعد لليهود/الصهاينة بإنشاء وطن قومي لهم فـــي فلسطين؟!
- على أي أساس قانوني قبلت «عصبة الأمم» أن تجعّل فحوى ذلك الوعـــد ضمن «صك الانتداب»، وما مدى مسئولية المنظمة الدولية عـــن جريمـــة تبينها أ»ماع الدول الاستعمارية؟!
- ما أبعاد المسئولية القانونية لجريمة بريطانيا فـــي حق الفلســـطينيين، المتمثلـــة فـــي عدم قيام بريطانيا بمهام (الدولة المنتدبة)، وإحالتها هـــذا الانتـــداب إلـــى احتلال، وظفته لتكريس الممارسات الصهيونية التهويدية الاستيطانية.

ثانياً: ظاهرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين تكرس البعد الدولي لثورة ١٩٣٦:

أثبتت لجان التحقيق البريطانية أن الهجرة اليهودية، وتلاحق موجاتهـــا، كانت هي الدافع لثورة عرب فلسطين ضد سلطات الانتداب[٧]، وكان فـــي صدارة شعارات ثورة ١٩٣٦ (وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين)[٨] الأمـــر الذي يؤكد ان المواجهة بـــين الثـــورة المـــذكورة وبـــين القـــوى العديـــدة (اليهودية/الصهيونية/الاستعمارية) المنظمة، والداعمة لتلـــك الهجـــرة، هـــي مواجهة ذات بعد دولي؛ فـــي ضوء انتشار القوى المشار إليها فـــي شـــتى أنحاء العالم، فالعدو الذي تواجهه الثورة الفلسطينية هذه هو عـــدو ذو صـــفة دولية عالمية، وليست قطرية أو إقليمية فحسب.

يذكر أن المادة السادسة من «صك الانتداب» البريطاني على فلسطين – الصادر عن «عصبة الأمم»، الممثلة للإرادة الدولية – توجب على حكومة فلسطين، تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين[٩]. وأن «الوكالة اليهودية»، التي تم توقيع ميثاق تأسيسها عام ١٩٢٩– ب

تنظيم ودعم الهجرة اليهودية إلى فلسطين– مدعومة من جانب كل الأطراف المشار إليها سابقاً[١٠].

لقد اعتمد الغزو الصهيوني لفلسطين – الذي بدأ في أواخر القرن التاسع عشر في شكل موجات هجرة –على العنصر البشري. كأحد أركانه الأساسية. وتمت الموجة الأولى بين عامي ١٨٨٢– ١٩٠٣، وكان أغلبها من روسيا القيصرية. وقدرت ما بين ٢٠– ٣٠ ألف مهاجر. ثم قدم إلى فلسطين ما بين ٣٥– ٤٠ ألف من يهود روسيا، أيضاً، ما بين ١٩٠٤– ١٩١٤ ليشكلوا الموجة الثانية. وإذا كان عدد السكان اليهود في فلسطين قد انخفض من ٨٥ ألفاً، عام ١٩١٤، إلى نحو ٥٥ ألفا، عام ١٩١٨، بسبب عمليات النفي الجماعي، التي قامت بها السلطات العثمانية، إبان الحرب، وبسبب نزوح قسم من اليهود إلى الخارج، فإنه مع الاحتلال البريطاني، فتحت أبواب الهجرة اليهودية ثانية. وتعددت، في هذه المرحلة، البلاد التي قدم منها المهاجرون اليهود إلى فلسطين، فقد كان منهم يهود سوفيت، وآخرون من بولونيا، ورومانيا، وبريطانيا، ومن بلدان أخرى من أسيا الوسطى، ومن دول أوربا الشرقية الصغيرة[١١]، وأوربا الغربية وأمريكا الشمالية وشمال أفريقية وأمريكا اللاتينية[١٢].

مع بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، شهد قانون الهجرة اليهودية إلى فلسطين تعديلات من جانب حكومة الانتداب البريطاني، أسهمت في فتح أبواب فلسطين لأكبر عدد من الفئات اليهودية المهاجرة إليها، خاصة بعد وصول النازيين للحكم في ألمانيا، واضطهادهم اليهود هناك. ثم كان لظروف خارجية أخرى أثرها في زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، لعل أبرزها[١٣]:

١– ظهور الحركة الصهيونية الحديثة.

٢– الاضطهاد الديني الذي لاقاه اليهود في شرق أوربا، وخاصة في الامبراطورية القيصرية الروسية.

٣– القيود التي فرضتها بعض الدول – مثل بريطانيا والولايات المتحدة– على الهجرة اليهودية إليها.

يذكر أن جميع موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين تمت بطرق غير شرعية، أو سرية. فهي إما تمت بالمخالفة للقوانين التي أصدرتها الدولة العثمانية، بحظر دخول اليهود إلى فلسطين، وإما تمت في ظل حماية السلطات الانتدابية التي بنيت بدورها على "وعد بلفور"، الباطل قانوناً[١٤]. وكما أكد تقرير لإحدى اللجان الملكية البريطانية ذات الصلة بهذا الشأن، فقد اتخذت الهجرة غير الشرعية عدة أشكال. منها[١٥]:

- الاحتيال على القانون.
- البيان الكاذب.
- الزواج الصوري.
- المعارض اليهودية.
- دورات الألعاب الخطابية (أعوام ١٩٢٧، ١٩٢٩، ١٩٣١، ١٩٣٣، ١٩٣٥).
- السياحة.

ثالثاً ـ ثورة ١٩٣٦ في مواجهة تحالف القوى الاستعمارية الدولية:

تعد القضية الفلسطينية في بعض جوانبها - إحدى تبعات «المسألة الشرقية»، تلك المسألة التي كانت بدورها إحدى بقيا الحروب الصليبية.

لقد كانت المسألة الشرقية -التي انبعثت في القرن التاسع عشر- بمثابة تفاهم بين الدول الاستعمارية على توزيع تركة «الرجل المريض»، أي الامبراطورية العثمانية، في مرحلتها الأخيرة[١٦].

كانت مقدمات تلك المسألة قد تمثلت فيما عرف بالامتيازات الأجنبية، التي سمحت بها الدولة العثمانية لصالح الدول الاستعمارية، خاصة في فلسطين ولبنان، بذريعة حماية الطوائف المسيحية[١٧].

برغم أن تلك الذريعة أصبحت جسراً للدول الاستعمارية الأربع الكبرى، في منتصف القرن التاسع عشر (فرنسا، إنجلترا، روسيا، بروسيا [ألمانيا]، وظفته لخدمة مصالحها في منطقة الشرق الأوسط، والشام خاصة، وانتهى بتمزيقه.

برغم أن الدافع الأول - المعلن- لتوجه الصهاينة اليهود نحو فلسطين هو دافع ديني، فقد تغلبت على هذا الدافع دوافع أخرى استعمارية تقليدية، تشاطر بها الحركة الصهيونية تلك الدول الاستعمارية الكبرى أطماعها في أرض فلسطين.

صرح الزعيم الصهيوني ناحوم غولدمان(*)، في مونتريال، عام ١٩٤٧، قائلاً: «كان ممكناً لليهود أن يحصلوا على أوغندا، أو مدغشقر، وغيرهما، لينشئوا هناك وطناً قومياً لهم، ولكن اليهود لا يريدون، على الإطلاق، سوى فلسطين، ليس لاعتبارات دينية، أو لسبب إشارة التوراه إلى فلسطين، وليس لأن مياه البحر الميت تستطيع أن تعطي -عن طريق التبخير- ما قيمته خمسة آلاف مليار دولار من المعادن والأملاح، وليس لأن تربة فلسطين الجوفية تحتوي -كما يقولون- على كميات من البترول، تزيد على احتياطيه في الأمريكيتين فحسب، بل لأن فلسطين هي ملتقى الطرق بين أوربا وأسيا وأفريقيا، ولأنها هي المركز الحقيقي للقوة السياسية والعالمية، والمركز العسكري الاستراتيجي للسيطرة على العالم»[١٨].

ثم لم يخفِ آباء الصهيونية الأوائل الطابع الاستعماري لحركتهم، وأنها ستكون - من خلال مشروعها الاستيطاني في فلسطين- أداة في يد الإمبريالية الغربية. لقد أرسل هرتزل إلى س. رودس - أحد صانعي الأمبراطورية البريطانية- يقول: إن برنامجي هو برنامج استعماري، وعلى الصهاينة أن يكونوا جزءاً من متراس قلعة أوربا ضد آسيا، ومركزاً للثقافة الغربية يوصلها إلى آسيا[١٩].

وعندما ذهب وفد «المنظمة الصهيونية العالمية» إلى باريس، لعرض المسألة الصهيونية على «مؤتمر السلام»، عام ١٩١٩، أصدر بياناً تفصيلياً، تحدث فيه عن مقومات الدولة المرتقبة لهم، وأنها يجب أن تكون قادرة على خدمة الدول الاستعمارية، التي ترعى قيامها، جزاء ما أسدته من معونة لتمكين الحركة الصهيونية - من تحقيق مخططها في فلسطين[٢٠].

وهكذا، بات على الشعب الفلسطيني، من خلال ثورته الرائدة، عام ١٩٣٦، أن يواجه عدواً مركباً ذات طبيعة أو صفة عالمية، هو التحالف الصهيوني الاستعماري، فكرَّس ذلك كله البعد الدولي لهذه الثورة.

رابعاً ـ ثورة ١٩٣٦ تفتقد الظهير الدولي:

جاء افتقاد هذا الظهير نتيجة سببين رئيسيين: أولهما أن غالبية القوة الفاعلة على الساحة الدولية - في ذلك السياق- هي قوى استعمارية، لها

* أصبح رئيسا للمنظمة العالمية، لاحقا.

أطماعها في فلسطين، ويستبعد، منطقياً، أن تتبنى تلك القوى الدولية الاستعمارية القضية الفلسطينية، التي هي، في جوهرها، (تحرير الأرض وتقرير مصير الشعب)، في اتجاه معاكس لتوجهات/أطماع تلك الدول. وثاني السببين هو انشغال تلك القوى الفاعلة على الساحة الدولية بهموم وأعباء خاصة وثقيلة، في وقت كانت فيه نذر الحرب العالمية الثانية قاب قوسين. وبيان ذلك في السطور التالية:

١ـ القوى الدولية الاستعمارية لا تدعم ثورة ١٩٣٦ الوطنية:

يذكر أن «اتفاق سايكس/بيكو» الشهير لم يقسم منطقة الشرق الأوسط بين بريطانيا وفرنسا فحسب، بل لقد تحددت في هذا الاتفاق مناطق لروسيا، أيضاً، غير أنها كانت تقع خارج المنطقة العربية. ثم عادت روسيا، فطالبت بمطالب أخرى في فلسطين؛ إذ كانت لها مدارس وأديرة، وبخاصة في الناصرة، ونابلس، والخليل. وحاولت روسيا أن تجعل «البلاد المقدسة» كلها محمية روسية، فعارضت ذلك كل من بريطانيا، وفرنسا. ثم وجدت روسيا أنه من الحكمة أن تتنازل عن بعض تلك المطالب، مؤقتاً، وأعلنت أنها ترضى بنظام يقضي بجعل فلسطين تحت إشراف دولي، على شرط أن يشمل ذلك الإشراف كل البلاد المقدسة، وهكذا كانت مصالح الدول الاستعمارية الثلاث هي التي رسمت حدود المنطقة «البنية»، أي فلسطين، وهي، أيضاً، التي قررت دوليتها. وظل «اتفاق سايكس/بيكو» سراً في الأوساط الشعبية في الشرق الأوسط، حتى قامت الثورة البلشفية، في أكتوبر/تشرين الأول ١٩١٧، فنشرت خبر هذا الاتفاق، مع غيره، من المعاهدات السرية[٢١].

هذا، ويمكن إرجاع فكرة «الانتداب» جملة، إلى ما تضمنته مواد «اتفاق سايكس/بيكو»، إذ جاء «صك الانتداب» الخاص بفلسطين مشوباً بمخالفات قانونية عديدة، تؤكد عزم بريطانيا على تهيئة فلسطين.

واصل الإنجليز جهودهم لتحقيق أطماعهم، وأطماع الحركة الصهيونية، في فلسطين، بتبني حل –اقتراح – التقسيم الوارد في تقرير «لجنة بيل» الملكية البريطانية، التي تشكلت في ١٩٣٦/٧/٢٩، «للتحقيق في أسباب الاضطرابات التي نشبت في فلسطين في ابريل ١٩٣٦» وكيفية تنفيذ «صك الانتداب» على فلسطين. وقد صدر التقرير، في ١٩٣٧/٧/٧، متناولا في بابه الثالث –: الفصل ٢١– تقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية،

على أن تبقى الأماكن المقدسة - باعتبارها أمانة مقدسة فـي عنق المدنية- مع ممر يافا، تحت انتداب بريطاني جديد من «عصبة الأمم»، وأن ينهى الانتـداب، ويستبدل به نظام معاهدات مع الدولتين الناشئتين. وبذا تظل بريطانيا محتفظـة بمركزها الاستراتيجي فـي المنطقة، ويصبح الصـهاينة مطلقـي الأيـدي - السيادة- فـي غرب وشمال فلسطين، غير أن العرب رفضوا تقريـر اللجنـة المذكورة، وتجددت الثورة، ثم بدأت «اللجنة العربية العليـا» إرسـال برقيـات الاحتجاج إلى لجنة الانتدابات الدائمة و«عصبة الأمم»[٢٤].

عندما ذهب وفد الحكومة البريطانية إلى جنيف - «عصـبة الأمـم»- لطلب موافقة العصبة على فكرة التقسيم، حتى تتمكن الحكومة المذكورة مـن إعداد مشروع كامل للتقسيم، لم يكن الأمر يسيراً على الوفد، إذ طال جـدل عنيف، ونقاش حاد، دام نحو أربعة أسابيع - من أواخر يوليو/تمـوز إلـى أواخر أغسطس/آب ١٩٣٧- وضيَّق كثير من أعضاء لجنة الانتدابات الخناق على الوفد الإنجليزي، فمنهم من كان يرى التقسيم شذوذاً على ميثاق «عصبة الأمم»، وخروجاً على روح الانتداب، وخطراً على السلم...، ولـم توافـق اللجنة المذكورة على درس تقرير اللجنة الملكية، مما عُدَّ إخفاقاً للوفد[٢٥].

بعد أيام من انعقاد المؤتمر العربي فـي بلودان بسوريا (سبتمبر/أيلـول ١٩٣٧)، اجتمع مجلس «عصبة الأمم»، ثم هيئة العصبة فـي جنيف، وألقى وزير الخارجية البريطان - انطوني ايدن - خطاباً أمام المجلس، كرر فـيه أن الحل الوحيد للقضية الفلسطينية هو التقسيم، وطلب من المجلس التفويض فـي وضع الخطط لتفاصيل المشروع، على أن ينال موافقة المجلس، فـي النهاية. فقرر المجلس الموافقة على الطلب، على أن يظل محتفظـاً لنفسـه بوجهة نظره، وبقراره فـي الموضوع، احتفاظاً تاماً[٢٦].

أشار إيدن، فـي خطابه أمام مجلس العصبة، فـي ١٩٣٧/٩/١٤، إلى رغبة بريطانيا فـي تشكيل لجنة فنية لوضع مشروع تقسيم جديد، يأخذ فـي اعتباره توصيات لجنة التحقيق الملكية. وقد أيـد مجلـس العصـبة رغبـة بريطانيا، فـي قرار أصدره فـي ١٩٣٧/٩/١٦، غير أن بريطانيا أتبعـت ذلك بإصدار كتاب أبيض، فـي ١٩٣٧/١٢/٢٣، اتضح منه أن بريطانيا - مع اقتناعها بالتقسيم لحل قضية فلسطين- فإنها ترغب فـي أن يمتد تحقيـق اللجنة المذكورة - المشهورة بلجنة (وودهيد) - شهوراً كثية، حتى تستطيع القضاء على الثورة العربية فـي فلسطين، أولاً. ولتتمكن من تحديد علاقاتها من الخطر النازي الفاشي، الذي بدأ يهدد كل أوروبا[٢٧].

٢ـ الحرب العالمية تشغل الدول الاستعمارية عن ثورة ١٩٣٦:

تداعى بناء «عصبة الأمم»، وانسحبت منها بعض الدول، تباعا، لتمارس الاعتداء، والهجوم على جيرانها، كما فعلت اليابان، التي اعتنقت شريعة الحضارة الغربية في الغزو والاستعمار، فهاجمت جارتها العظيمة، الصين، وأعقب اليابان إيطاليا، التي قام على رأسها موسوليني، يبشّر بسياسة القوة، والغلبة، وإعادة المجد الروماني، فأطلق على البحر الأبيض اسم «بحرنا». وإذ كانت إفريقيا كلها مستعمرة للدول الأوروبية، وليس فيها سوى دولة واحدة مستقلة، هي الحبشة، فقد أقدم مولسوليني على احتلالها، عام ١٩٣٥ . وكذلك قام في ألمانيا رجل على غرار موسوليني، هو هتلر، يدعو إلى إعادة تسليح ألمانيا، والأخذ بالثأر من الحلفاء، جزاء ما لقيته ألمانيا على أيديهم، في الحرب العالمية الأولى. وأعاد هتلر إلى ألمانيا كل صيحات الاستعلاء الكريهة(٢٨).

بعد أن احتلت إيطاليا الحبشة - في مايو/أيار ١٩٣٦- توترت العلاقات بين بريطانيا وإيطاليا، وكان على بريطانيا أن تعيد النظر في موقفها في البحر المتوسط، فاتجهت - على سبيل المثال- إلى عقد اتفاقية ١٩٣٦ مع مصر، وسعت بنشاط ملموس لإجهاض الثورة الفلسطينية، في العام نفسه. ومن ناحية أخرى، فإن وجود إيطاليا في الحبشة، أدى إلى تعلقها بقناة السويس، لأنها الطريق الأقصر إلى مستعمراتها في شرق أفريقيا، كما أن وجودها في ليبيا - غرب مصر- قد زاد من حرج بريطانيا، ولذا عمدت بريطانيا - منذ أواخر ١٩٣٧- إلى تحويل فلسطين إلى قاعدة عسكرية(٢٩).

من ناحية أخرى، زاد احتلال إيطاليا الفاشية للحبشة من أزمة العمل في فلسطين؛ نتيجة هجر معظم السفن طريقها إلى الحبشة، والتي كان لا بد لبعضها أن يمر بفلسطين، بعد أو قبل المرور بقناة السويس. كذلك، زاد هذا الاحتلال من أهمية فلسطين الإستراتيجية في نظر الإنجليز، مما جعلهم يتمسكون بها أكثر، ويزدادون شراسة في قمع الحركة الوطنية بها(٣٠).

ولم يكن تخلي بريطانيا، نهائيا، عن مشروع التقسيم نتيجة لاقتناعها باستحالة تنفيذه فحسب، بل - أيضاً- نتيجة لما طرأ على الوضع الدولي من تغيير، في خريف ١٩٣٨، فقد عقد مؤتمر ميونخ، في ١٩٣٨/٩/٢٩، بين هتلر وموسوليني وتشمبرلين - رئيس وزراء بريطانيا- ودلادييه - رئيس الوزارة الفرنسية وأسفر عن (اتفاقية ميونخ)، التي مكنت بريطانيا من

أن تجمع وترسل قوات إضافية إلى فلسطين، واستطاعت القوات البريطانية أن تتخذ موقف الهجوم ضد الثوار، وأن تسلبهم الأراضي التي كانوا يعملون عليها، بحرية، وكان نتيجة ذلك أن ضعفت شوكة الثوار، وفقدوا سيطرتهم على كثير من المدن(٣١).

أسهم الوضع الدولي، أيضاً، في دفع بريطانيا إلى ممارسة وعودها الكاذبة المعتادة مع العرب.

بدءاً من مارس/آذار ١٩٣٩ شهد الوضع الدولي عدة تغييرات دولية، أسهمت في إضعاف موقف بريطانيا السياسي، واستراتيجيتها العسكرية، فأسرعت إلى إصدار مجموعة «ضمانات بالاستقلال» لعدد من مستعمراتها العسكرية، ونتيجة لهذه الأوضاع ولفشل مؤتمر لندن - مطلع ١٩٣٩- اصدرت نظمته الحكومة البريطانية، وكذلك فشل مباحثات القاهرة (العربية اليهودية البريطانية) لتسوية القضية الفلسطينية (نيسان/إبريل ١٩٣٩)، أصدرت الحكومة المذكورة، في ١٩٣٩/٥/١٧، كتابا أبيض، تعهدت فيه بمنح فلسطين الاستقلال، بعد عشر سنوات، وبوقف الهجرة اليهودية. وقد جاءت هذه الوعود الزائفة من جانب بريطانيا، في محاولة منها لضرب الثورة الفلسطينية، التي كانت قد أخذت تستعيد فعاليتها، منذ أوائل العام ١٩٣٩(٣٢).

إن الوضع الدولي، في الفترة ما بين الحربين العالميتين، لم يكن مواتياً لانتصار حركات التحرر الوطني في العالم. فالدول الاستعمارية كانت تهيمن على العلاقات الدولية، كما أن الظاهرة الاستعمارية لم تكن قد انحسرت، بعد. أما الدولة الرئيسية الوحيدة «المعادية للاستعمار» فقد كانت في مرحلة الدفاع عن النفس، ضمن استراتيجية ستالين «بناء الاشتراكية في بلد واحد». أضف إلى ذلك أن الصهيونية كانت تحظى بتأييد إجماعي من الدول الاستعمارية الغربية، بينما كان العرب في موقع الصراع مع الدول المذكورة(٣٣).

ولأن الاتحاد السوفيتي كان محاصراً داخل «الستار الحديدي»، الذي ضربه الغرب حوله، فقد فقدت الثورة الفلسطينية ١٩٣٦ نصيرا كان من الممكن أن يساندها، ولم تحاول القيادة الفلسطينية مد الجسور مع هذا الطرف، خشية اتهامها من جانب الغرب بتبني أو محاولة نشر الأفكار الشيوعية(٣٤).

بقيت نقطة بالغة الأهمية، وهي المتعلقة بادعاء بعض المصادر الأجنبية بأن ثورة ١٩٣٦ كانت على علاقة بقوى أجنبية، تموّلها، وتدعمها، وتعمل

على استمرارها، إذ تم دحض هذه الإدعاءات من جانب مصـــادر أخـــرى، عربية وأجنبية، وتبين أن الاتهامات المتكررة بأن ثورة عب فلسطين ١٩٣٦ كانت توجه وتموّل بواسطة الإيطاليين، والألمان، قد بالغت فـــي الموضوع، فبرغم أن القوتين الأوروبيتين أمدتا الثوار الفلسطينيين بـــبعض المســـاندة، المادية والمعنوية، فليس هناك ما يؤكد ذلك سوى قرائن ثانوية (٣٥).

لا شك أن عدم وجود قيادة عسكرية موحدة، وقيـــادة سياســـية واعيـــة، والافاق من القتال، والضغط العسكري البريطاني المتواصل. وتغير موقـــف فرنسا من الثورة، والأمل فـــي تحقيق بعض جوانب «الكتاب الأبيض» لسنة ١٩٣٩، بالإضافة إلى العجز فـــي الأسلحة والذخيرة، كل ذلـــك أدى إلـــى عرقلة استمرار الثورة (٣٦).

هكذا، التقت، أو تضافرت هذه الجملة من المؤشرات، والشواهد، لتؤكـــد البعد الدولي لثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية، وأنها قد قرر لها، دون بقيـــة الثورات الوطنية، أن تنهض أو تهب فـــــي وجـــه جملـــة مـــن الأعـــداء المتحالفـــين الطامعين فـــي هـــذا القطـــر، ذي الشـــأن الخـــاص: أرضـــاً، ومقدرات، ومقدسات، وموقعاً استراتيجياً... الخ، وأنها – فـــي إطار ما أتيح لها من عناصر قوة، وفعالية، ومعطيات بيئية، إقليمية ودولية – استطاعت أن توفر قاعدة نضالية، ذات أبعاد، أو أصداء دولية، تجعل من قضـــية الشـــعب الفلسطيني نقطة دائمة التوهج فـــي أذهاب وضمائر لشـــعوب/ الحكومـــات/ المنظمات، والأحرار فـــي العالم، على وجه العموم.

هوامش الفصل الرابع

(١) **منشأ القضية الفلسطينية وتطورها** (١٩١٧-١٩٨٨)، نيويورك، الأمم المتحدة، ١٩٩٠،ص ٣-٤ .

(٢) **للتفاصيل راجع:**
- د. محمود منسي، **تصريح بلفور**، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠ .
- علي محمد علي، **وعد بلفور والقوى المتصارعة في الشرق الأوسط**، القاهرة، الهيئة العامة للاستعلامات، د. ت..
- محمد السماك، البعد الديني لوعد بلفور، **الأهرام** (القاهرة)، ٢٠٠٣/١٠/٢٩ .
- د. عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط٨، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١ .
- عبد التواب مصطفى، **نكبة فلسطين ومسئولية المجتمع الدولي**، ط١، غزة، المركز القومي للدراسات والتوثيق، ٢٠٠٠ .
- د. أحمد يوسف القرعي، **القدس قضية الساعة**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٣، ص ١٢٥- ١٢٦ .
- محمد عزة دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**، دمشق، دار يعرب، ح١، دت.
- منشأ القضية الفلسطينية، **م. س.**

(٣) للمزيد عن الكتب البيضاء الصادرة في ١٩٢٢، ١٩٣٠، ١٩٣٧، ١٩٣٧، ١٩٣٩ . والكتاب الأسود (رسالة ماكدونالد إلى وايزمان) عام ١٩٣١ . ومشروع موريسون -وزير الخارجية البريطانية- ثم المشروع الصهيوني المعلنين عام ١٩٤٦ . وبقية المشاريع المشار إليها أنفاً.
- راجع: دروزة، **م. س.**، ملاحق الجزئين ١، ٢ .
- د. محمد نصر مهنا، **مشكلة فلسطين والصراع الدولي**، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٧ .
- د. محمد علي حلة، **فلسطين والصراع الدولي**، ط ٢، القاهرة، دار الحضارة للدعاية والنشر والاعلان، ١٩٨٧ .
- معالي أحمد عصمت، **لجان التحقيق الانتدابية** (١٩٢٠- ١٩٤٧)، صامد الاقتصادي (عمان)، يناير/كانون الثاني ٢٠٠٤، ص ص ٥٦- ٨٠.
- لجنة يوم القدس (إعداد)، يوم القدس – **ابحاث الندوة السابعة «الحقوق العربية الثابتة في القدس»** (٥- ١٩٩٦/١٠/٨)، عمان – الأردن المركز الثقافي الملكي، ١٩٩٧.
- أنظر: د. محمد ماجد الحزماوي، **القدس في ضوء قرارات اللجان البريطانية والدولية** (١٩١٧- ١٩٤٧)، ص ص ٣٠٢-٣٣٧ . و: د. أحمد سعيد نوفل، **الصراع بين القرارات الدولية ومشاريع الحلول السياسية**، ص ص ٣٨٩- ٤٠٥ .
- تقارير بيل (المبعوث الأمريكي إلى المنطقة منذ ١٩١٧)، ملحق بـ: منسي، **م. س.**
- د. محمد علي حلة، **اللجنة الإنجليزية الأمريكية لبحث المشكلة الفلسطينية (٤٥-١٩٤٧)**، القاهرة، د. ن، ١٩٩٣ .

- د. محمد عبد الرؤف سليم، القدس في مشاريع التقسيم، **صامد الاقتصادي (عمان)**، أبريل/نيسان ١٩٩٧، ص ١٤٢ .
- د. صلاح الدين عامر، **القدس في مشروعات التسوية للصراع العربي والقضية الفلسطينية (١٩٤٧- ١٩٩٨)**، بحث مقدم إلى الندوة العالمية حول القدس نظمها الاتحاد البرلماني العربي، الرباط، نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٨ .
- عبد التواب مصطفى، **منظمة المؤتمر الأسلامي وقضية القدس**، رسالة دكتوراه، قسم العلوم السياسية القاهرة، ٢٠٠٥، حواشي صفحات (٢٠٨، ٣٨٥، ٣٨٨).

(٤) د. محمد إبراهيم منصور (تحرير)، **القدس – التاريخ والمستقبل**، مصر – جامعة اسيوط، مركز دراسات المستقبل، ١٩٩٦، انظر: هاني الحوراني، القدس في القرارات الدولية، ص ٤٨٧ .

(٥) د. حسن ظاظا (وآخرون)، **الصهيونية العالمية وإسرائيل**، القاهرة، الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية، ١٩٧١، انظر: د. عائشة راتب، الصهيونية، ص ص ١٠٠- ١١٦ .

(٦) عبد التواب مصطفى، **مرجع سابق.**

(٧) وليم فهمي، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص ٥٦ .

(٨) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية – المحطات الرئيسية**، ط ١، القاهرة، دار الكلمة، ٢٠٠٠، ص ٢٠ .

(٩) فهمي، **م. س.**، ص ٥١ .

(١٠) **المرجع السابق**، ص ص ٢٢٨- ٢٣٧ .

(١١) د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني**، ط٢، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، ١٩٨٢، ص ص ٧٧٠- ٧٧١، ٧٧٩ .

(١٢) فهمي، **م. س.**، ص ص ٢٦٣- ٢٧٦ .

(١٣) للمزيد انظر:
- **المصدر نفسه**، ص ٣٨-٣٩ .
- خلة، **م. س.**، ص ٧٧٣ .
- اللجنة المعنية بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف (إعداد واشراف)، **وضع القدس**، نيويورك، الأمم المتحدة، ١٩٩٧، ص ٤ .
- عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث، سلسلة دراسات فلسطينية (١٠٢)- مارس/أيار ١٩٧٥ ص ١٦٢ .

(١٤) فهمي، **م. س.**، ص ص ٤٠-٦٦ .

(١٥) التفاصيل في: خلة، **م. س.**، ص ص ٧٨٦- ٧٩٣ .

(١٦) للمزيد راجع: د. نادية محمود مصطفى (إشراف)، **العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية** (جـ ١١ في مشروع العلاقات الدولية الإسلامية)، ط ١، القاهرة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦ .

(١٧) د. محمد السيد الدقن، **دراسات في تاريخ الدولة العثمانية**، القاهرة، د. ن، ١٩٩٦، ص ص ٧٥- ٧٧ .

و: د. محمد فتح الله الخطيب، **محاضرات فـي المشكلات السياسية المعاصرة**، القـاهرة، معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٨٤، ص ٧٤- ٧٥ .

(١٨) خيري حماد، **الوجود الإسرائيلي فـي المخطط الاستعماري، فـي كتاب: المعركـة بـين العرب وإسرائيل**، القاهرة، دار الكاتب العربي، د. ت.، ص ٩ .

(١٩) ليونيل دارياني، **الصهيونية على ألسنة قادتها**، القاهرة، دار الثقافة الجديـدة، ١٩٨٨، ص ٢٦ .

(٢٠) د. محمود منسي، **فرنسا وإسرائيل**، القاهرة، د. ن.، ١٩٩٤، ص ٨٥- ٥٩ .

(٢١) خلة، **م. س.**، ص ص ٤٨- ٥٠ .

(٢٢) **المرجع السابق**، ص ص ١٥٣- ١٥٧ .

(٢٣) **المرجع السابق**، ص ص ١٦٤- ١٦٥ .

(٢٤) اللجنة "المعنية"...، **م. س.**، ص ٤ .

و: معالي أحمد عصمت، **م. س.**

(٢٥) دروزة، **م. س.**، ص ٧٢ .

(٢٦) **المرجع السابق**، ص ١٨٦ .

(٢٧) خلة، **م. س.**، ص ص ٧١٤- ٧١٥ .

(٢٨) أحمد حسين، **تاريخ الإنسانية**، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٥، ص ٢٤٠ .

(٢٩) خلة، **م. س.**، ص ٧٢٠ .

(٣٠) ياسين، كفاح الشعب..، **م. س.**، ص ١٦٢ .

(٣١) خلة، **م. س.**، ص ص ٧٢٤-٧٢٥ .

(٣٢) المرجع السابق، ص ص ٧٣٩- ٧٤٣ .

و: ياسين، الحركة الوطنية..، **م. س.**، ص ٢٠ .

(٣٣) د. الكيالي، **م. س.**، ص ص ٣١٤- ٣١٥ .

(٣٤) عبد الناصر حجازي، مقارنة بين ثورة ١٩٣٦ وانتفاضة الأقصـى والاسـتقلال، **صـامد الاقتصادي** (عمان)، يوليو/تموز ٢٠٠٢، ص ص ٧٦- ٩١ .

(٣٥) د. عادل حسن غنيم، **الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦ حتى الحرب العالميـة الثانية**، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٠، ص ٢٤٤ .

(٣٦) خلة، **م. س.**، ص ٧٤٣ .

الباب الرابع

التنظيم



الفصل الأول

تنظيمات الثورة

نظيمة سعد الدين

ثورة ١٩٣٦، وتطوراتها واحداثها سلسلة ملتحمة من الحلقات، من أعمال مسلحة، وإضرابات عامة، ومظاهرات شعبية، وصدامات بين العرب والأعداء، ونضال سياسي شديد، وجهود دبلوماسية ودعائية، ومقاطعة الأعداء في المجالات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، ومقاومة جدية لباعة الأراضي، والذين يسمسرون لبيعها لليهود[1].

غني عن القول إن التنظيم الجيد هو أهم عناصر النجاح لأي ثورة، فخلال ثورة (١٩٣٦-١٩٣٩)، كانت القوة التي عبرت نهر الأردن إلى نابلس، بقيادة القاوقجي، هي التي قادت الثورة، لنجاحها في عمل تنظيم جيد، فكانت أكثر تنظيماً وخبرة وتسليحاً من القوات المتمركزة أصلاً في المنطقة، مما جعلها بالضرورة وبحكم ظروفها وإمكاناتها أجدر من غيرها بقيادة النضال العسكري. فقد أسس القاوقجي غرفة عمليات، لأول مرة، منذ بدء الاشتباكات، لوضع وتنفيذ الخطط العسكرية. كما قام معاونوه بتثبيت الأهداف المنوي مهاجمتها على خرائط عسكرية استخدمت للمرة الأولى. كما تم تنظيم الشئون الإدارية لما لها من أهمية كبيرة في أمداد الثورة بضرورات المعركة واحتياجاتها من أجل الاستمرار والصمود[2].

١ـ اللجنة العربية العليا:

لهثت البرجوازية الفلسطينية وكبار الملاك المستأثرين بقيادة الحركة الوطنية للحاق بقطار الثورة. فتألفت، في ٢٥ نيسان/أبريل ١٩٣٦، «اللجنة العربية العليا»، كجبهة تضم قيادات الأحزاب العربية الفلسطينية.

ودعت تلك اللجنة، في بيان أصدرته، في اليوم التالي، لتأليفها، إلى الإضراب العام. في الوقت الذي كان الشعب لا يزال مستمراً في إضرابه، قبل سبعة أيام من إصدار اللجنة بيانها![3]

ضمت «اللجنة العربية العليا» قيادات الأحزاب العربية الفلسطينية، على النحو التالي الحاج أمين الحسنين – رئيساً، أحمد حلمي عبد الباقي – أميناً للمال، جمال الحسيني، راغب النشاشيبي، حسين الخالدي، عبد اللطيف صلاح، يعقوب الغصين، ألفردروك، يعقوب فراج – أعضاء، وعوني عبد الهادي – سكرتيراً[4].

اعتبرت «اللجنة العربية العليا» تنظيماً مركزياً، ترتبط به اللجان القومية. وقد بقيت وراء استمرار الإضراب العام، وأعمال الثورة، واتضح أن أسلوب تنظيم الثورة كان شيئاً جديداً في النضال الوطني الفلسطيني، وأقوى العوامل لنجاح الإضراب، وتصاعد الثورة، وتطورها(٥).

واصلت اللجنة العربية نداءاتها، لمواصلة الإضراب، فنفذ الشعب قراراتها، حيث اضرب الطلاب، وتوقف المحامون عن حضور المحاكمات، وأغلقت المحال التجارية، وامتنع رؤساء البلديات عن العمل، وأول من نفذ إضراب البلديات ناصر الدين ناصر الدين (رئيس بلدية الخليل)، وهو من الذين قادوا حركة رجال القسام. وتوقف الموظفون عن العمل، وأغلق المجلس الإسلامي دوائره، وأصر البوليس العربي على الإضراب، وشاركت المرأة رجال الوطن، واسهمت بمجهودها في استمرار الإضراب(٦).

لذا سرعان ما استجابت «اللجنة العربية العليا» لنداء الحكام العرب بوقف الإضراب، ودعت الشعب، في بيان أصدرته في ١١ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٣٦، إلى إنهاء الإضراب(٧).

ما أن أنهي الإضراب، حتى أقدمت حكومة الإنتداب على منح ١٨٠٠ شهادة لمهاجرين يهود، كما نفذت الإعدام في عدد من الشباب العربي. فحاولت «اللجنة العربية العليا» مقاطعة لجنة التحقيق الملكية البريطانية (لجنة بيل)، والعودة إلى العنف، إلا أن سفن اللجنة قد أحرقت، بمجرد قبولها نداء حكام العرب(٨).

لم يتوقف الكفاح المسلح، تماماً، بانتهاء الإضراب، وإن حدث تغير ملحوظ في نوعية ونمط القتال. فقد اشتد القتال، وأصبح أكثر ضراوة، ولكن الجهد العربي لم يعد كما كان مركزياً ومنسقاً.

ففي حزيران/ يونيه ١٩٣٦ فقدت القيادة السياسية السيطرة على الثورة، جزئياً، بسبب اختفاء الوحدة، وجزئياً، بسبب الإجراءات البريطانية المضادة للثورة، والتي اتسمت بالقمعية، وتزايدت شموليتها، وحدتها باطراد.

في مجلس العموم أعلن وزير المستعمرات بأن زعماء «اللجنة العربية العليا» أعلنوا تنصلهم من الأحداث الجارية. وقال إن المندوب السامي يشاركه الرأي بأن اللجنة «لا تستطيع أن تمارس إلا القليل من التأثير على الوضع، بسبب اتساع نطاق الاضطرابات»(٩).

انسحب حزب الدفاع الوطني من «اللجنة العربية العليا»، في ٣ تموز/يوليو ١٩٣٧، وكان هذا الحدث إيذاناً بخروج الخلاف بين الزعماء

الفلسطينيين إلى العلن، الذي لم يكن ناجماً عن عدم الاتفاق على الأهداف بين الطرفين، فبعد ثلاثة أسابيع من انسحاب حزب الدفاع أعلن كلا الطرفين رفضه لتقرير لجنة بيل[١٠].

لقد كان الخلاف ناجماً عن عدم اتفاق الطرفين على الأساليب وحسب. فقد اعتقد بعض الزعماء بأن البندقية هي السبيل الوحيد لتحقيق الأهداف الوطنية، بينما ارتأى آخرون (الدفاع) في الحوار والديبلوماسية، وسائل أكثر فاعلية. وانقسم العرب في حينه إلى معسكرين رئيسيين. مؤيدو المفتي، الثوريون، والذين أصبحوا يعرفون ابسم المجلسيين (لدعمهم للحاج أمين، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى) أما المجموعة الأخرى فقد اصبحت تعرف بأسم المعارضين (للحركة الوطنية) وعموماً، كانت هذه المجموعة غير المتبلورة تدعم موقف حزب الدفاع، الذي قادته عائلة النشاشيبي، ولكنها احتوت، أيضاً، على زعماء بارزين، لم يكونوا أعضاء في ذلك الحزب[١١].

والمجموعة الأخيرة كانت تخشى حركة الجماهير، أكثر من خوفها من الاستعمار البريطاني، والحركة الصهيونية.

لعل أكبر ضعف سياسي لأنصار المفتي، تكتلهم في محافظتهم، وافتقارهم للقيادة العصرية. فالحاج أمين كان زعيماً دينياً، دخل معركة السياسة بحكم منصبة الديني، وصلات عائلته. كان أسلوبه تقليدياً، عكس، بعمق، أثر عناصر دينية. ولكنه كان، دائماً، منتبهاً للمسيحيين العرب، الذي أشركهم في قيادته التنظيمية[١٢].

لم تسمح السلطات بأي تهاون في مواجهة استئناف الثورة، فقد عملت على تشتيت أعضاء اللجنة العربية العليا واعتقال أعداد كبيرة من رجال الدين، والمحاكم الشرعية، وأعضاء اللجان القومية، في مختلف أنحاء البلاد، وحظر عودة الموجودين من أعضاء «اللجنة» من الخارج. وبذلك، أصبحت القيادة السياسية العليا موجودة كلها خارج البلاد، أو منفية، أو ملاحقة، أو مشتته[١٣].

باعتقال الزعماء، أو بإخراجهم من البلاد افتقدت الثورة التنسيق السياسي. وكان من الجلي أن رغبة البريطانيين كانت مع وضع حد للثورة، دون تقديم تنازلات للمطالب العربية. لم يكن هناك خيار أمام الثوار إلا الاستمرار بالقتال، دون هدف. وأدى فشل القيادة السياسية، وإصرار البريطانيين على عدم تقديم تنازلات، إلى عدم تحقيق الأهداف الوطنية. بموازة ذلك، ومع انتقال القوات البريطانية من الدفاع إلى الهجوم، نجحت السلطات البريطانية في حمل

المتعاونين معها من المعارضة، على تنظيم فصائل مسلحة للثـورة المضـادة. ففـي ظل هجوم المعارضة على زعامة الحركة الوطنية وسياستها، ومع توجيه المعارضة لشتى الإتهامات ضد الحاج أمين، راحت تتعـزز فـي صـفوف المعارضة التيارات التي تحث على عدم اللجوء إلى (العنف)، بحجة أن المفتـي يستخدم العنف ضد معارضيه الفلسطينيين لتصفـيتهم. والحجة ذاتها تذرع بهـا الأقرب إلى بريطانيا من صفوف المعارضة لتشكيل ما أسموه «فصائل السلام» وقامت تلك الفصائل بأعمال تخريبية بغرض إجهاض الثورة، كما شغلت الصف العربي بحرب أهلية[١٤].

٢ـ اللجان القومية:

استمرت الصدامات فـي معظم مـدن فلسـطين، وقـد أعـادت تلـك الصدامات إلى الأذهان مذابح هبَّة البراق (١٩٢٩). وفي التاسع عشر مـن نيسان/أبريل ١٩٣٦ توالت البلاغات الرسمية عن «اضطرابات الأمس فـي يافا وتل أبيب»، وقد تصاعدت العمليات، مما جعل الحكومـة تعلـن منـع التجوال فـي يافا وتل أبيب، وأعلنت حالة الطوارئ فـي البلاد كلها[١٥].

في غضون تلك الاشتباكات اصيب عشرات العـرب بجـروح، واحـرق الكثير من المنازل العربية، أيضاً، وفـي ذات اليوم عقدت مجموعة من أعضاء أحزاب الاستقلال والشباب فـي مدينة نابلس، اجتماعاً فـي مصبنة الحاج أحمد الشكعة، تدارست فـيه وضع مبادئ أساسية لحركة ثورية، تنوي تنظيم الحركة الوطنية، مستغلة المد الجماهيري المتصاعد فـي فلسطين، والتي وفرت الفرصة لبعث الحركة الوطنية، والانطلاق الثوري، على أُسس قومية واضحة الأهـداف فـي إنقاذ البلاد من المخططات البريطانية الصهيونية[١٦].

لم يلبث الإضراب أن عم جميع أنحاء فلسطين، وتوحدت الجهود، حـين دخلت قضية الكفاح الوطني القومي مرحلة جديدة، تعطلت خلالهـا مرافـق الحياة فـي شتى وجوهها، وتكتل العرب فـي لجان قومية مستجيبين لدعوة نابلس القومية. ولم يمر الحادي والعشرون من نيسان/أبريل، حتـى أبرقـت معظم المدن الفلسطينية، تعلن عن تأليف لجانها القومية، والإضراب العـام، ففـي هذا اليوم تألفت اللجان القومية فـي كل من المدن التالية: عكا، يافـا، الرملة، الخليل، الناصرة، بيسان، وقلقيلية[١٧].

فـي الشهر نفسه انبثقت عن اللجان القومية لجان فرعية، منها[١٨]:

١- لجنة الإضراب: وعملها متابعة تنفيذ الإضرابات، وسيرها، وتنسيقها، لضمان تحقيقها الهدف المرجو منها.
٢- لجنة الدعاية والنشر: وعملها الدعاية للثورة، ونشر ما تحققه على أرض الواقع، وإصدار البيانات الخاصة بالثورة، ونشرها.
٣- لجنة الإعانات المركزية: وانحصر عملها في جميع الإعانات، من الداخل والخارج، ومحاولة توظيفها في دعم الثوار، سواء بالسلاح، أو بالتموين اللازم لهم.
٤- لجنة قضائية: للدفاع عن الموقوفين والمعتقلين.

٣ـ القيادة العسكرية:

اثناء فترة الإضراب كان الجانب العسكري فعالاً، نسبياً، ومنسقاً، بشكل جيد، وقد جرت محاولات عدة للتنظيم العسكري، وهي :

محاولات التنظيم العسكري:

جرت محاولات، عدة، لتنظيم النشاط العسكري، أثناء الإضراب الكبير، بهدف توحيد الجهود، وتحقيق الحد الأقصى من الفاعلية، والتأثير. وقد أدى أعضاء تنظيم الشيخ القسام السريون، الذين تمكنوا من تجنب عمليات التطويق البريطاني، ونجحوا في تأمين قواعد لهم في الجبال، وأدوا دوراً بارزاً في التحريض على إشعال الثورة، والإعداد التنظيمي والعسكري لها، مستغلين حالة الغليان التي عاشتها الجماهير، وأدت إلى إعلان الإضراب الكبير. ولم يتوقفوا عن العمل الثوري في صفوف طبقات الشعب كافة، وخاصة الفلاحين، ودعوتهم للجهاد، «من أجل قضية العرب الكبرى».[١٩]

لقد حافظ العمل العسكري، خلال عام ١٩٣٦، إلى حد ما، على التنظيم، لكن العفوية تغلبت عليه، حتى خريف ١٩٣٧، وبداية ١٩٣٨، عند اشتعال الثورة، مرة أخرى، وشمولها قطاعات الشعب الفلسطيني كافة. وكان للتجارب الكثيرة التي مر بها القادة والثوار، أن أكسبتهم خبرة أوسع في القتال، مما أثر، إيجابياً، في تطوير التنظيم نحو الأفضل، وارتقى بالثورة إلى مستوى أعلى من الدقة والتنظيم[٢٠].

لعل أولى محاولات التنسيق بين مختلف فصائل الثورة كانت في شهر تموز/ يوليو عام ١٩٣٦، حيث عقد اجتماع بالقرب من قرية طوباس، شرق

مدينة نابلس، ضم بعض فصائل المقاومة، التي نشطت في المنطقة. ويبدو أن النتيجة لم تكن مرضية كثيراً، فجرت محاولة أخرى، أكثر نجاحاً، بعد أسبوعين، تقريباً. ومن آب/أغسطس عقد اجتماع شمالي طوباس، ضم خمسة من قادة الثورة المحليين، هم: فخري عبد الهادي، وخميس عقرباوي، والشيخ فرحان السعدي، وعبد الله البيروتي، وضرار النشاشيبي. وتقرر في هذا الاجتماع تشكيل ثلاث قيادات إقليمية: واحدة في نابلس، وثانية في طولكرم، وثالثة في حيفا وجوارها. كما قرروا تأسيس محكمة عليا للمتآمرين[٢١].

وضعت المحكمة حداً سريعاً لحالات النهب والسرقة، في الدرجة الأولى، على الرغم من قلة هذه الحالات، في تلك المرحلة من الثورة، ولا شك أن تأليف المحكمة، وسرعة إنجازها في الأحكام، ونزاهتها، كانت سبباً مهماً في الحفاظ على أجواء الأمن. كما كانت المحكمة، ايضاً، تنظر في دعاوي التجسس، وقد انتهت صلاحيات محكمة الثورة (للمتآمرين) بانسحاب حملة القاوقجي، كما طلب منها، إثر نهاية الإضراب[٢٢].

في المرحلة الثانية من الثورة. لم تكن هناك محكمة واحدة، بل كانت الأحكام تصدر عن كل قائد منطقة. وبتعدد قيادات المناطق تعددت المحاكم، وقد كان لاهتمام القادة في الحفاظ على الأمن أثر فعال، إلا أن كثرة التقارير والوشايات لم تحل دون المبالغات والتجني والتقارير الكيدية، ومن هنا اتصفت بعض الأحكام بالظلم. وأما أبرز النتائج التي حققتها قيادات المناطق في هذا المجال، فلعله الوقوف دون بيع الأراضي، والتعامل الاقتصادي مع اليهود، إلى حد كبير، وقد بات معروفاً أن بائع الأرض معرض للاغتيال، حال خروجه من دائرة تسجيل العقارات[٢٣].

إن الاطلاع على قرارات الإغتيال، التي أمرت بها ونفذتها قيادات المناطق، يثبت أن الكثير منها كان محلياً، وأما الأحكام العامة التي استندت إليه القرارات، فهي أحكام دينية. وعلى سبيل المثال قرار الحكم على فخري النشاشيبي، في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، فقد صدر القرار بمنشور عام عن «ديوان الثورة العربية الكبرى»، وجاء في مقدمته الحديث الشريف «من خرج على الأمة، وهي جمع، فأقتلوه بالسيف، كائناً من كان»[٢٤].

أكثر المحاولات جدية ونجاحاً لتأسيس قيادة عسكرية منظمة، جرت في ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٣٦، بعد وصول القاوقجي، قادماً من العراق، في ٢٢ آب/أغسطس ١٩٣٦، إلى فلسطين، على رأس قوة من المتطوعين العرب، قدرت بنحو ٣٠٠ مقاتل. ففي ذلك التاريخ عقد اجتماع، ضم قادة الوحدات

الرئيسية الست الكاملة في مناطق كل من جنين، ونابلس، وطولكرم: فخري عبد الهادي، وعبد الرحيم الحاج محمد، وعارف عبد الرازق، والشيخ فرحان السعدي، والشيخ عطية محمد عواد، ومحمد الصالح. حيث تم انتخاب فوزي القاوقجي قائداً عاماً للثورة العربية في فلسطين[٢٥]. ويبدوا أن انتخابه لهذا المنصب قد جاء نتيجة لكونه أكثر القادة المتوفرين خبرة في النواحي العسكرية، فضلاً عن كونه قائداً لمجموعة من المتطوعين العسكريين، خدم بعضهم في صفوف جيوش نظامية، ناهيك عن خبرته في حرب العصابات، التي مارسها ضد الفرنسيين في حماة، وغوطة دمشق، أيام الثورة السورية (١٩٢٥-١٩٢٧)[٢٦].

وقد قام القائد بتقسيم قواته إلى خمس سرايا مقاتلة: [٢٧]

١- سرية فلسطينية تم تشكيلها من الوحدات الست، التي سبق ذكرها، ووضعت تحت قيادة فخري عبد الهادي الذي انتخب نائباً للقائد العام.

٢- سرية عراقية، بقيادة جاسم (ضابط عراقي نظامي).

٣- سرية دمشقية/أردنية/حورانية، بقيادة الشيخ محمد الأشمر، وهو من قادة الثورة السورية البارزين (١٩٢٥-١٩٢٧)، واشتهر يومها في منطقة دمشق.

٤- سرية درزية، مؤلفة من دروز لبنان وجبل العرب، بقيادة حمد الصعب (مناضل لبناني من الشويفات وممن أسهموا في الثورة السورية).

٥- سرية حموية -حمصية، بقيادة منير الريس (أديب وصحفي سوري، وأحد أعلام الثورة السورية).

أثناء فترة الإضراب كان الجانب العسكري فعالاً، نسبياً، ومنسقاً، بشكل جيد، وبالرغم من تعدد، القادة، إلا فإن القاوقجي كان أكثر قادة الثوار شعبية، واحتراماً، وفعالية، وارتبط اسمه، وإسم المفتي بالثورة، هو كقائد عسكري، والمفتي كقائد سياسي[٢٨].

حملت الفعالية البريطانية المضادة للثورة الكثير من العرب من غير الفلسطينيين على مغادرة البلاد. وبعد انتهاء الإضراب نجح البريطانيون في حمل القاوقجي على مغادرة البلاد إلى شرق الأردن. وبإبعاد القاوقجي من الطريق حدث تغير نوعي في الجهد العسكري العربي. فقد كان على القادة الفلسطينيين، غير المدربين، ملء الفراغ. وبالرغم من أن فلسطينيتهم جعلتهم

يقاتلون بضراوة، فإنهم كانوا غير متمرسين، كاستراتيجيين، ولم يكن أي منهم يتمتع بهيبة كافية تؤهله للعب دور القيادة للجناح العسكري في الثورة[٢٩].

في البداية، أيضاً، كان كثير من القادة الفلسطينيين المخلصين الشرفاء، إلا أنه تم القضاء على معظمهم. فبخلاف السوريين والعرب الآخرين، لم يكن أمام الفلسطينيين الخيار بمغادرة البلاد، ليس لاستحالة ذلك عليهم، من الناحية المادية، ولكن لاعتبارهم فلسطين وطنهم. وإلى هذا العامل العاطفي يرجع تفسير اشتداد ضراوة القتال، بعد مغادرة القاوقجي للبلاد. مع أن هذا القتال كان أقل تنسيقاً[٣٠].

عصبة القسام السرية:

اتبعت العصبة منذ تكوينها، منهج اغتيال الخونة والجواسيس. فبعد أن تجتمع لدى الجمعية، أو أحد فروعها، المعلومات ضد أي مواطن عربي بجريمة بيع الأرض لليهود، أو التجسس، أو التعاون مع سلطة الانتداب، أو الصهاينة، يُرفع القرار إلى العالم الديني، لإصدار فتوى بقتل الشخص المدان[٣١].

ابتدأت العصبة سلسلة من الإغتيالات في صفوف المسئولين، الذين لاحقوا أفراد عصبتهم من الحكام ورجال البوليس، بغض النظر عن هويتهم الإنجليزية، أو الصهيونية، أو العربية. ولعل من أبرز هذه الحوادث، وأولها اغتيال حاكم الجليل، أندروز، في ١٩٣٧/٧/١٩، وهو أحد كبار المسئولين الذين لاحقوا القساميون في الشمال، فقتلوه وهو خارج من الكنيسة في الناصرة، وسط حشد من الناس. ولم يترك الفاعلون أي أثر، ولم يثبت أن القساميين كانوا وراء مقتله.

إلا أنهم، بمرور الزمن، لم ينكروا ذلك. وقام القساميون، طوال مرحلة الثورة، بتنفيذ سلسلة من الاغتيالات ضد الخارجين على الثورة، وعلى المبادئ الوطنية، وقد اختلفت عملياتهم عن عمليات القيادة العسكرية في أن الثانية كانت شبه علنية في بعض الحالات، سرية في حالات أخرى، أما القساميون فلم يتبعوا سوى السرية المطلقة، وقد استطاعوا تنفيذ عملياتهم في المناطق التي كانوا منتشرين فيها، أكثر من سواها، وخاصة في الشمال الفلسطيني[٣٢].

استمر دور العصابات المنظمة في الجبال، وخاصة في المنطقة الشمالية، ثلاثة أشهر، وعدد أفراد العصابة الواحدة حوالي ١٥، وقد يصل إلى ٣٠ في بعض الحالات. وكانت الأوامر والعمليات كلها على عاتق رؤساء العصابات من

القساميين، والثوار الذين عملوا فــي المرحلة الأولى، سنة ١٩٣٦. بمعنى آخر أن العصابات المسلحة المتعددة لم تعرف لها قيادة موحدة، فــي بداية الثــورة، وقــد عاش التنظيم، فــي تلك الأشهر الثلاثة «يتخذ أشكالاً محلية مختلفة، يقوم بها كــل قائد، حسب الظروف التي تحيط به، وحسب إمكانياته المادية، معتمداً على العلاقة النضالية بينه وبين رفاقه فــي السلاح»(٣٣).

إلى جانب عصبة القسام، وثمة عدد من الجمعيات السرية المحلية، كــان من صلب أعمالها ملاحقة ابناء البلدة، والتحري عنهم. وبالنسبة لتقدير قــوة رجال العصابات، ليس من السهل الحصول على رقم دقيــق لعــدد الثــوار المتفرغين، الذين عملوا خلال فترة الثورة، ولكن بعض المصــادر العربيــة المتخصصة بحوادث وثورات فلسطين، قدرت عدد الثوار، الذين اشــتركوا فــي ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، بما بين تسعة وعشرة آلاف ثائراً من هذا العــدد ثلاثة آلاف تفرغوا، كلياً، لأعمال العصابات، وألف ثائر تفرغوا للعمل فــي المدن، وستة آلاف ثائر من أهالي القرى والبادية لم يتفرغوا، كلياً، للقتال، بل كانوا يمارسون أعمالهم الخاصة، بالإضافة لقيامهم بأعمال نجدة الثوار، عند نشوب المعارك، بالقرب من قراهم، وأماكن سكنهم(٣٤).

لقد قام هؤلاء الثوار شبه المتفرغين بعمليات لا تقل فــي جرأتها عــن تلك التي اعتاد القيام بها الثوار المتفرغون، مثل نســف، وتخريــب طــرق المواصلات، بأنواعها كافة كما نفذوا العديد من المهام القتالية، كالإغارة على المستعمرات اليهودية ومراكز الشرطة، وأشــغال العــدو بمعــارك جانبيــة لتخفــيف الضغط عن القيادة اثناء إندلاع معارك كبيرة، وفتح باب الإلهــاء لتوزيع وتشتيت جهود العدو على جبهات عديدة، عند القيام بهجوم، أو علمية حربية كبيرة، وحماية مؤخرة وحدات الثوار، عند الهجوم على الــدوريات، والمستعمرات التابعة للجيش البريطاني، وتأمين نقــل الــذخائر، والتســويق للثوار المترمكزين فــي قواعد ثابتة فــي الجبال والمناطق الوعرة، وذلــك بالتنسيق مع القيادات المحلية(٣٥).

اللجنة المركزية للجهاد:

لقد حملت الإجراءات التأديبية القوية التي اتخذت فــي خضم الصدامات المسلحة، والتي تجددت فــي منتصف تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧، بعــض زعماء القرى على حجب مساعداتهم عن عصابات الثوار، التي تم تنظيمهــا حديثاً، وبذلك قطعت خطوط الإتصال بين أفراد هــذه العصــابات والقــوى

المساندة لهم في قراهم الأصلية، والتي كانت المصدر الأساسي لتموينهم، وتزويدهم بالمعلومات، وتغطية عملياتهم. وهنا وجد الثوار، الذين كان عددهم يتزايد، بأطراد، في هذا الاتجاه الجديد لبعض وجهاء القرى نحو التعاون مع الحكومة، تهديداً لهم، وسرعان ما استعاد الثوار زمام المبادرة من خلال بث الرعب في نفوس العناصر المتعاونة[٣٦].

بالرغم من الإجراءات القمعية التي كانت تتبع ضد الثوار، فإنهم كانوا يجتذبون مزيداً من المتطوعين، واتضح أن تنظيم الثورة، في المرحلة الثانية، أشد إحكاماً منه في المرحلة الأولى، فقد بدء بتشكيل لجنة مركزية، أطلق عليها اسم «اللجنة المركزية للجهاد»، واتخذت من دمشق مقراً لها وتولى إدارتها، عملياً، محمد عزة دروزة، بتوجيه من المفتي، الذي ظل مقيماً في لبنان. وكان مقر رئاسة الثوار مسئولاً عن التنسيق والتعاون بين تشكيلات الثوار، التي كانت تتمتع، إلى حد كبير، بالإستقلال، وتولى رئاسة كل منها قائد محلي، ساعده عدد من رؤساء الفصائل. وكان يتولى قيادة هذه التشكيلات قادة فلسطينيون، ارتبطوا بأوثق الصلات بالفلاحين، وبالقرى، التي تقع ضمن مناطق عملياتهم[٣٧].

بعد انتشار الثورة، في خريف عام ١٩٣٧، وبقية عام ١٩٣٨، وشمولها قطاعات الشعب الفلسطيني، كافة، ومناطق تواجده، ونظراً للتجارب الكثيرة، التي خاضها القادة والثوار، والتي اكتسبوا خلالها خبرة قتالية أوسع، وتطور التنظيم نحو الأفضل، وأصبحت الثورة على مستوى أعلى من الدقة والتنظيم. ففي عام ١٩٣٨، عين عبد الرحيم الحاج محمد قائداً عاماً للثورة في فلسطين[٣٨] بحيث تم تشكيل القيادة العسكرية، وتنظيمها كالتالي:

١ـ القيادة العسكرية العليا:

اتخذت قيادة الثورة من دمشق مقراً سرياً، لصعوبة بقائها في فلسطين، في تلك الفترة، نتيجة لضغط ومراقبة السلطات، حيث تم تشكيل مجلس قيادي، تكون، إلى جانب القائد العام، من عدد من المساعدين، هم، غالباً، رؤساء فروع: الشئون الإدارية، المخابرات، والإعلام، بالإضافة إلى قادة المناطق[٣٩]. وقد تلخصت واجبات القائد العام في القيام بزيارات منظمة لجبهات القتال، وإصدار الأوامر والتعليمات إلى مرؤسيه، ومناقشة مشاكلهم العسكرية، وخططهم المستقبلية. كما اشتملت مهامه، على العمل بتزويد

الجبهات بحاجتها من الأسلحة، والذخائر، وتأمين حاجات الثوار المتفرغين للقتال، والإشراف على محاكم الثورة، حتى تضمن تحقيق العدالة لأفراد الشعب، وإصدار البلاغات العسكرية، والمنشورات[٤٠].

٢ـ قيادة المناطق:

خضعت جبهات القتال في فلسطين، لقيادات مناطق رئيسية مختلفة، شكلت، غالبية القيادات الميدانية للثورة، في غياب القيادة العسكرية العامة في دمشق، وقد تم توزيعها على الشكل التالي[٤١]:

أ- المنطقة الشمالية: امتدت من جبل الكرمل في الجنوب إلى حدود سوريا ولبنان في الشمال، ومنطقة طبريا، وسمخ في الشرق. واعتبرت هذه المنطقة ملائمة لحرب العصابات، نظراً لوعورتها.

ب- قيادة منطقة نابلس: وشملت أقضية نابلس، وطولكرم، وجنين، وساحل حيفا. واعتبرت هذه المنطقة نموذجية لحرب العصابات، لوعورتها، وصعوبة مسالكها.

ج- قيادة المنطقة الوسطى: شملت أقضية يافا، واللد، والرملة.

د- قيادة منطقة القدس: واشتملت أقضية القدس، والخليل، ورام الله، وبيت لحم.

أما المناطق الجنوبية من فلسطين، فلم يكن فيها قادة مناطق، لأنها إما أراضي زراعية، أو صحراوية، لا تصلح لتنقل رجال العصابات.

في غزة، والمجدل، وبئر سبع كانت ثمة قيادات محلية، تنفذ أوامر القيادة العليا، وتتعاون مع قيادات مناطق القدس، ونابلس، في المنطقة الوسطى في بعض الأحيان.

مسئوليات قادة المناطق:

تألفت المنطقة الرئيسية من عدد من المناطق المحلية، التي ضمت بين ٥٠-٢٠٠ ثائراً، موزعين إلى فصائل، في كل فصيل ١٥ مقاتلاً، في المتوسط، ومنهم فصيل القيادة. وقد حدد اختصاصها بالإشراف على القطاعات المحلية، وشئون الأمن فيها، بالإضافة إلى الإشتراك في المعارك الرئيسية. في حين كانت الإدارة البريطانية في المناطق الجبلية،

باعتراف الجنرال هاينج –القائد العام للقوات البريطانية– «غير موجـودة، على الإطلاق»[٤٢].

لجان خدمية متنوعة:

لم تقتصر تنظيمات ثورة ١٩٣٦، على التنظيمات العسكرية، والسياسية، وما تشملها كل منها، وكان من شأن تلك التنظيمات العمل علـى اسـتمرار الثورة، وتوفـير الخدمات اللازمة للقيـادة العسـكرية، وكـذلك المجتمـع الفلسطيني، ليحتفظ بالقدرة على استمرار الإضـراب، والمشـاركة فـي الأعمال الثورية، ومن أمثلة تلك اللجان:

- «جمعيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ومن عملها التعريف بالثورة، وفرض الجهاد على المسـلمين، ومـن ثـم زيـادة عـدد المتطوعين المنضمين إلى القيادة العسكرية.
- «جمعيات الشبان المسلمين»؛ ومن أعمالها تربية النشئ على الجهاد فـي سبيل الله، وسبيل قضيته الوطنية.
- «منظمة الفتوة»؛ التابعة للحزب العربي الفلسطيني.
- «لجان الصحة»: والتي عملت على توفـير الخدمات الصحية للقيادة العسكرية، ولكل أبناء المجتمع، وكذلك توفـير المواد اللازمة لعلاج جرحى العمليات العسكرية.

نخلص من كل ما سبق أن التنظيم أطال فـي عمر الثورة، وقلـل مـن خسائرها، وهو الذي تبع قيام الثورة، ولم يسبقها إلى الوجود، كما تمـايزت تنظيمات المدينة، عن نظيراتها فـي الريف، حيث اتسمت تنظيمات الأخيرة بالتبعثر، واللامركزية، بسبب من النفور التاريخ للريف من التنظيم.

هوامش الفصل الأول

(١) **الموسوعة الفلسطينية**، ط١، القسم الخاص، المجلد الأول، دمشق، ١٩٨٤، ص ٦٢٢ .
(٢) يوسف رجب الرضيعي: **ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ في فلسطين**، تقييم عسكري، ط١، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٨ .
(٣) عبد القادر ياسين: **كفاح الشعب الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨**، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، بيروت، ١٩٧٥، ص ١٦٦ .
(٤) عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط٩، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص ٣٠٥ .
(٥) زياد الصغير، **ثورة فلسطين عام (١٩٣٦-١٩٣٩) وأثرها على لبنان**، ط١، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٨٤، ص ٦٧ .
(٦) **المصدر نفسه**، ص ٦٧-٦٨ .
(٧) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٣ .
(٨) **المصدر نفسه**، ص ١٧٣-١٧٤ .
(٩) واصف عيوشي، فلسطين قبل الضياع، قراءة جديدة في المصادر البريطانية، ترجمة علي الجرباوي، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٥، ص ١٦٠ .
(١٠) **المصدر نفسه**، ص ١٦٠-١٦١ .
(١١) **المصدر نفسه**، ص ١٦١ .
(١٢) **المصدر نفسه**، ص ١٦١-١٦٢ .
(١٣) فيصل حوراني، **جذور الرفض الفلسطيني (١٩١٨-١٩٤٨)**، شرق رس، نيقوسيا، سبتمبر/أيلول ١٩٩٠، ص ٣٧٧-٣٧٨ .
(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٨-٣٧٩ .
(١٥) الصغير، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٣ .
(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٦٣-٦٤ .
(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٦٥ .
(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٦٦ .
(١٩) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، المجلد نفسه، ص ٦٣٠ .
(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ٦٣١ .
(٢١) الرضيعي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧ .
(٢٢) بيان نويهض، الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨**، ط٢، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨١، ص ٤٠١ .
(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ٤٠١-٤٠٢ .
(٢٤) **المصدر نفسه**، ص ٤٠٢ .
(٢٥) الرضيعي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧ .
(٢٦) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ٤٨ .
(٢٨) عيوشي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٢ .

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ١٦٣ .
(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ١٦٣-١٦٤ .
(٣١) الحوت، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٠٥ .
(٣٢) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(٣٣) **المصدر نفسه**، ص ٤٠٦ .
(٣٤) الرضيعي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٢ .
(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ٥٢-٥٣ .
(٣٦) الكيالي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٨ .
(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٩ .
(٣٨) الرضيعي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٩-٥٠ .
(٣٩) صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩)**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٤٣ .
(٤٠) الرضيعي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥١-٥٢ .
(٤١) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(٤٢) **المصدر نفسه**، ص ٥٣ .
(٤٣) حوراني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨٣ .

الفصل الثاني

حزب الدفاع والثورة

رضوى عبد القادر

معروف أن هبَّة البُراق الوطنية الفلسطينية (صيف ١٩٢٩) قحداً للجنة التنفيذية العربية، التي كانت تقود الحركة الوطنية الفلسطينية، بعد أن أكدت تلك الهَّبة عجز هذه اللجنة، وأساليبها عن مواجهة العدو المزدوج لفلسطين، فضلاً عن أن البرجوازية الفلسطينية اشتد عودها، اقتصادياً، فمالت إلى تأسيس تعبيراتها السياسية (الأحزاب). وفي هذا السياق جاء تأسيس الأحزاب العربية الستة، وبضمنها «الدفاع»، على مدى النصف الأول من ثلاثينات القرن العشرين.

تأسيس حزب الدفاع [1]:

صمم راغب النشاشيبي على خلق تكتل سياسي، أو منظمة سياسية، جمع فيها أشتات المعارضة، التي تعرضت إلى ضعف كبير، ظهر في انفصال آل الخالدي عن المعارضة، والفشل في استقطاب «الاستقلاليين، فضلاً عن خسارة الانتخابات البلدية في القدس. وكان النشاشيبي قد صرح، قبيل الانتخابات، تحسباً للمستقبل، إنه إذا هزم، في نهاية الأمر، فإنه سيكرِّس بقية أيام عمره، وماله، من أجل تنظيم حزبه، ومعارضة الحاج أمين. وقد ولد هذا الحزب تجسيداً، أو امتداداً للمعارضة، التي برزت في أوائل عشرينات القرن العشرين، وتمثلت في «الجمعيات الوطنية الإسلامية»، و«الحزب الوطني»، و«حزب الزرَّاع»، والحزيْبات التي تلتها، في أوائل ثلاثينات القرن العشرين، مثل «الأحرار»، و«الأمة»، والتي كان النشاشيبيون، بخاصة راغب، بصورة ظاهرة، أو باطنة، عمودها الفقري، والقاسم المشترك الأعظم فيها.

هكذا، أصبح، في أواخر عام ١٩٣٥، ستة أحزاب، هي: «الاستقلال»؛ و«مؤتمر الشباب»؛ و«الدفاع»؛ و«العربي»؛ و«الاصلاح»؛ و«الكتلة الوطنية»، مرتبة بحسب ظهورها، من الناحية الزمنية. وقد تركز دور الأحزاب العربية في محاولة السيطرة على الحركة الوطنية، مع غياب الحكومة العربية.

دار برنامج «الحزب العربي الفلسطيني»، برئاسة جمال الحسيني، حول الاستقلال التام لفلسطين، والاحتفاظ بالضفة الغربية فيها، دون منازع. أما «حزب الدفاع الوطني»، فقد أعطى الأولوية للقضايا الاجتماعية. وقد شكك عدم تركيزه على الشعارات الوطنية – كإنهاء الانتداب–الكثيرين في أخلاقيات أعضاء الحزب. وكان الصراع الأسري الإقطاعي واضحاً في

الانقسام بين الحزبين، وهذا مـــا يخـــالف تعـــدد الأحـــزاب فـــي الـــبلاد الديمقراطية، أما الأحزاب الأخرى، فكانت أقل أهمية من الحزبين الســـابقين (العربي، والدفاع).

إلا أن «الدفاع» فشل، فـــي بداية تأسيسه، فـــي إظهار أي نشاط يُذكر، ويرجع هذا إلى: ضعف قيادته؛ وعدم وجود تخطيط جدي من أجل تســـيير التجربة الحزبية؛ وتركيز الحزب على الجهاز الدعائي، كبديل عـــن ضـــعفه التنظيمي؛ فضلاً عن وقوع راغب فريسة للإحباط، الذي نجم عن فشله فـــي الانتخابات البلدية فـــي القدس، عام ١٩٣٤ .

مؤسس الحزب وفروعه:

إذا أردت أن تتعرف على هوية أي حزب، ومدى قوميته، ووطنيته، فإن عليك أن تتعرف، أولاً، على مؤسسه، وأعضائه، أيضاً، من حيـــث الطبقـــة الاجتماعية، التي ينحدرون منها، وأهدافهم، وبرامجهم السياسية، الطرق التي يسلكونها من أجل تحقيق تلك الأهداف؟!

راغب النشاشيبي، رئيس حزب الدفاع، كان قد طعن فـــي السن، ولـــم يكن يمتلك الطاقة على القيادة، ومع ذلك فقد احتفظ، بما له من تأثير، ونفوذ، ووجاهة، بالقيادة الرسمية، إلا أن التقارير والشواهد وصفت راغب بأنه يفسد الإدارة، ويتناول الرشوة، وهو رجل مرح، ودنيوي النزعة، كما أنه لا يخلو من التعصب. وراغب مشهور بانتهاز الفرص، وتوريط خصومه.

ولم تكن اليافطة الموضوعة فـــي مكان بارز من أركان مكتبه تقول إلا «إذا هبت رياحك فاغتنمها». أما نائب رئيس الحزب، يعقوب فرّاج، فوصفته التقارير بأنه «رجل يظفر باحترام كبير من أجل نزاهته، ولكنه ليس قائداً». وسكرتير الحزب، مغنَّم الياس مغنَّم، شارك فـــي قيادة الحزب، وكان منظماً قديراً. كما عمل فخري النشاشيبي، سكرتيراً للحزب، من الناحية الرســـمية، ولكنه كان الشخصية الأولى، التي مارست نفوذاً حقيقياً فـــي الحزب، أكثـــر من أي شخص آخر، واتصفت شخصيته بالتقلـــب، والقلـــق. ويرجـــع هـــذا التناقض فـــي شخصية فخري إلى تعصبه العنيف الذي وصل إلـــى درجـــة الحقد الشخصي على المفتي، بصورة خاصة، والحسينيين، بصورة عامـــة. وامتاز فخري بطموح لا حدود له، جعله يحلل ويحرم أي شيء، فـــي سبيل مصلحته الخاصة، فهو لم يتوان على التآمر عن عمه راغب، والتفكير فـــي

شق الحزب، وتكوين حزب تحت قيادته هو، بالاتفاق مع رياح إقليمية باتجاه بريطاني. وقد قالت أحد تقارير المندوب السامي البريطاني عن فخري – ضمن تقارير أخرى تؤكد تلقيه العون المادي من اليهود، أثناء خصومته مع الحسينيين – ما نصه «ليس هنالك أدنى شك في أن فخري يرتشي من قبل اليهود». أما حسن صدقي الدجاني، فاتهمته المصادر الإنجليزية بميوله الفرنسية، كما أنه ارتبط بصداقة مع أمير شرق الأردن، عبد الله بن الحسين. وقد مارس الدجاني دوراً شبه مستقل عن الحزب، واعتمد، من الناحية الشعبية، على نقابة السائقين، التي عمل رئيساً فخرياً لها. وفكر الدجاني في إنشاء حزب خاص به، ملكي النزعة(٢).

تلك الشخصيات التي أسست حزب الدفاع صبغته بالصبغة الإقطاعية. وكانت شعبية الحزب أقل من شعبية حزب آل الحسيني (العربي)، وذلك لتذبذب مواقف الأول، ولبعده عن الأهداف الوطنية، وطموحات قادته في مصالحهم الشخصية، فحسب.

أنشأ حزب الدفاع فروعاً له في مدن متفرقة من فلسطين، هي: غزة، ويافا، ونابلس، والرملة، واستأثر الحزب في فروعه بالأشخاص ذوي النفوذ، الذين عوَّضوا عن غياب الكثرة. ويقول معارض معروف للحزب عن فروع الحزب بأنها كانت «قوية بأشخاصها، دون أعدادها»، وأن هذا الحزب لم يكن له شعبية ذات شأن (٣).

اللجنة العليا والاضراب:

تولدت شرارة الثورة، من أعمال قتل متبادلة بين العرب واليهود في فلسطين، ما بين ١٥ و١٩/٤/١٩٣٦ (٤)، ونشأت فكرة «اللجنة العربية العليا» كائتلاف يضم الأحزاب العربية الفلسطينية الستة، على أن راغب النشاشيبي قابل اقتراح تأسيس اللجنة بتردد شديد، لأن هذا الاقتراح تضمن أن يكون أمين الحسيني رئيساً للجنة، إلى أن أمكن إقناع راغب.

معروف أن فكرة «اللجنة العربية العليا» نشأت من وفد حيفا (محمد علي التميمي، رشيد الحاج إبراهيم، ومعين الماضي) إلى القدس، وتشكلت اللجنة من الحاج أمين الحسيني، رئيساً، عوني عبد الهادي، سكرتيراً، أحمد حلمي عبد الباقي، أميناً للصندوق، وجمال الحسيني، وراغب النشاشيبي، وحسين الخالدي، وعبد اللطيف صلاح، ويعقوب الغصين، ويعقوب فرَّاج (وجيه

المسيحيين الأرثوذكس)، وألفرد روك (وجيه المسيحيين الكاثوليك) أعضاء. ووافق أعضاء اللجنة على قرار الإضراب، الذي جاء من القاعدة، وقرروا تأجيل إرسال الوفد إلى لبنان، إلى أن ينتهي الإضراب، بانتصار العرب. كما أعلنت «اللجنة العربية العليا» أنها مصممة على مواصلة الإضراب، إلى أن تستجيب الحكومة للمطالب العربية الثلاثة (منع الهجرة؛ ووقف انتقال الأراضي إلى اليهود؛ تأليف حكومة مسؤولة أمام مجلس منتخب من الشعب). كما أعلنت اللجنة أنه سيفرض مع الإضراب مقاطعة لليهود، لكن من دون تعكير الهدوء، وفي حال عدم الإستجابة للمطالب العربية، حتى ١٥ أيار/مايو، ستعلن عصياناً مدنياً، وتبدأ عمليات فدائية ضد الحكومة البريطانية، والصهاينة معاً[٥].

قُصد بالعصيان المدني الامتناع عن دفع الضرائب، وتوقف الموظفين جميعاً عن العمل، وإضراب عمال السكة الحديد، والبريد، والأشغال العامة، واستقالة رجال الشرطة. وقد نشرت «لجنة أصحاب السيارات والسائقين»، برئاسة حسن صدقي الدجاني، منشوراً، طالبت فيه الزعماء بإعلان «ضرورة مشاركة موظفي الحكومة كلهم في الإضراب، مشاركة فعلية». وكان من شأن تنفيذ هذا الطلب، في أيام الإضراب الأولى، أن يؤدي إلى شل أجهزة الحكم في فلسطين، المكونة من عدد قليل من الموظفين الانجليز واليهود، وعدد كبير من الموظفين العرب، الكبار والصغار. لكن هذه الشريحة من موظفي الحكومة لم تبد استعداداً للانضمام إلى الإضراب[٦].

مع اشتداد الثورة في البلاد، بعد الانتهاء من مواسم الحصاد، واطمئنان الفلاحين على مواردهم الذاتية، لضمان الاستمرار في الكفاح المسلح، ضد الاستعمار البريطاني، حاولت الحكومة البريطانية، باشتراك وموافقة «اللجنة العربية العليا»، تطويق الثورة، بسياج عربي، حيث تدفقت، منذ بداية حزيران/يونيو حتى نهاية آب/أغسطس ١٩٣٦، الوساطات الرسمية العربية، لكسر الإضراب [٧].

انضم آل النشاشيبي إلى حركة النضال الوطني، بدافع من حسابات عائلية، أهمها تنافسهم مع آل الحسيني، ومحاولة النشاشيبيين كسب تأييد شعبي، واسع النطاق، كما هو الحال مع الحسينيين، لكن النشاشيبيين ندموا على ذلك، وبدأوا يتراجعون، شيئاً فشيئاً.

يقول الدجاني، الذي كان في البداية من زعماء منظمي الإضراب، ثم يئس منه، بسرعة: «ليس أمامنا نحن القادة، أية فرصة في التوصل إلى تسوية

مع حكومة فلسطين، كما حدث في الأعوام السابقة. إنها لحرب، حتى النهاية. ولو أردنا التفاوض والقبول بأقل مما طالبنا، لما وافق الشباب على ذلك». وبدأ الفدائيون عمليات الاغتيالات السياسية لهؤلاء الذين تراجعوا عن النضال من أول خطوة. فاغتيل في ١٤ آب/أغسطس، رئيس بلدية الخليل، ورئيس اللجنة القومية في مدينته، ناصر الدين، وهو من أصدقاء راغب النشاشيبي، لأنه مال إلى قبول مقترحات التسوية الرسمية العربية، وفي ٢٧ أيلول/سبتمبر اغتيل رئيس اللجنة القومية في حيفا، الحاج طه خليل[٨].

في ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٣٦ أغتيل المندوب السامي البريطاني، آرثر واكهوب، المفتي، وراغب النشاشيبي، وعوني عبد الهادي، كلاً على حدة، وحذرهم من خطورة الحالة، وطلب إليهم إيقاف الإضراب، وفي اليوم التالي، أصدر الحسيني، باعتباره رئيساً «للجنة العربية العليا»، بياناً، ذكر فيه أن «الشعب العربي ولجنته العليا في فلسطين، كانوا ولا يزالون يرحبون بوساطة ملوك العرب، وأمرائهم، وقد قبلوها، بكل ارتياح وشكر، ولا يزالون مستعدين لتنفيذ هذه الوساطة، بكل إخلاص»[٩].

وفي ١١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٦ نشرت «اللجنة العربية العليا» (النداء الملوكي المشترك)، الداعي إلى «وقف الإضراب، ابتداءً من صباح اليوم التالي، وأن يبكر أفراد الأمة الكريمة، في صباح ذلك اليوم، إلى معابدهم، لإقامة الصلاة على أرواح الشهداء، ورفع الشكر لله تعالى، على ما ألهمهم من صبر وجلد، ثم يخرجون من المعابد، لفتح مخازنهم وحوانيتهم، ومزاولة أعمالهم المعتادة»[١٠].

شكل تأسيس «اللجنة العربية العليا» حدثاً سياسياً بارزاً، في حينه، حيث استطاعت تجميع الأحزاب الستة، التي اختلفت برامجها، واتجاهاتها السياسية، كل عن الآخر، إلا أن تلك اللجنة لم تتمكن من قيادة النضال السياسي الفلسطيني، وها هي أجهضت أقوى ثورة عرفتها فلسطين، حتى ذلك الحين، وأطول إضراب سياسي دام زهاء ستة أشهر، أطلق عليه البعض «الإضراب العظيم».

لجنة بيل:

سارعت بريطانيا، في آب/أغسطس ١٩٣٦، إلى الإعلان عن تأليف لجنة ملكية بريطانية، سميت باسم رئيسها، بيل، للبحث في أسباب الثورة، ومطالب العرب، إثر الثورة الكبرى والإضراب الذي عم البلاد، وكأن

بريطانيا تجهل السبب الرئيس وراء هذا الانفجار الشعبي، وهو الاحتلال البريطاني، والتواجد الصهيوني.

قبل أن تبدأ اللجنة الملكية إلى نشاطها، منحت سلطات الانتداب ١٨٠٠ تصريح هجرة لليهود، لنصف السنة التالية، فأعلنت «اللجنة العربية العليا» مقاطعة «لجنة بيل»، ودعت العرب كلهم إلى اقتفاء خطواتها. وكان هذا القرار بداية خلاف حاد داخل «اللجنة»، فعبَّر أنصار النشاشيبي، صراحة، عن معارضتهم للمقاطعة، بينما أعلن الأمير عبد الله، وحسن صدقي الدجاني، إنهما ينويان المثول أمام اللجنة. وكان من شأن هذا المثول المنفرد أن يزعزع مكانة «اللجنة العربية العليا». كما وافق النشاشيبية على مشروع التقسيم – الذي جاء في تقرير «لجنة بيل»– عن طيب خاطر. وبدأ الانقسام بين الزعماء العرب الفلسطينيين في الاتساع، وفي ١٩٣٧/٦/٣٠، وقبل نشر تقرير «لجنة بيل»، رسمياً، انسحب ممثلا حزب الدفاع، راغب النشاشيبي، ويعقوب فراج، من "اللجنة العربية العليا"[١١]. ولقد تم لإنجلترا ما طمحت إليه، حين تم اغتيال فخري النشاشيبي(*)، ورددت الشائعات، تغذيها بالتأكيد حكومة الانتداب، بأن آل الحسيني، وراء ذلك الاغتيال[١٢].

لقد جاء قبول «الدفاع» بالتقسيم، الذي جاء في تقرير «لجنة بيل»، محكوماً بعدة اعتبارات، على رأسها ارتباط مشروع التقسيم بطموحات النشاشيبي، في أن يوازن، أو يعادل قوة المفتي، الذي تفوق عليه بمراحل، وذلك بأن يصبح راغب النشاشيبي رئيساً للوزراء للدولة المقبلة، فضلاً عن رغبته في أن يكون رجل الإنجليز، ومن والاهم في فلسطين. وقد تعرض حزب الدفاع لعدة ضغوط، من أجل تغيير رأيه بقبول التقسيم، ومن هذه الضغوط الرأي العام الفلسطيني، وقد شهد صيف ١٩٣٧ عمليات هجوم واغتيال لعدد غير قليل من زعماء النشاشيبيين، مثل الدكتور طه خليل طه، وإبراهيم خليل حنون، وعبد السلام البرقاوي، وآخرين، كما هُدد راغب النشاشيبي، شخصياً، من قبل المفتي، حتى يرتدع عن التفاوض مع الصهاينة بشأن التقسيم. إلى ضغوط القيادات السياسية العربية، خاصة العراقية، فضلاً عن ضغوط جاءت من داخل حزب الدفاع نفسه، وممن عارضوا، معارضة صريحة، كان أسعد الشقيري[١٣].

---

* تم اغتياله في العاصمة العراقية، بغداد، في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤١، ووجهة تهمة اغتياله إلى عبد القادر الحسيني، إلا أن محكمة عراقية برأت الحسيني من هذه التهمة.

بدأت «اللجنة العربية العليا» تتراجع عن موقفها، إزاء مقاطعة اللجنة الملكية، بعد اسبوعين، فقط، من بيان ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦(*). وفي ١١/٢١ قررت اللجنة العليا التمسك بقرار المقاطعة، على أن يعاد النظر في القرار، إذا طلب ملوك العرب ذلك من اللجنة العليا. وبعد أن انتهت اللجنة الملكية من سماع الشهود البريطانيين واليهود، وأعلنت تاريخ مغادرتها البلاد، تعرضت «اللجنة العربية العليا» لضغوط شديدة من عمان، والرياض، وبغداد، وقبل أن تستجيب اللجنة للضغوط، اوفدت، في ١٩٣٦/١٢/١٨، وفدا إلى بغداد والرياض[١٤].

مارست السلطات البريطانية ضغطاً مباشراً، وغير مباشر، لحمل الشعب الفلسطيني على الاتصال باللجنة الملكية، والعدول عن مقاطعتها، ودعا المفتي الأمة «على اختلاف طوائفها، وهيئاتها، وأفرادها إلى الاستمساك بحبل الاتحاد والأخوة، واستنكار ما يروِّجه الأعداء من دسائس». ولقد سارعت اللجنة العربية، حينما وصل الوفد العربي (المرسل إلى بغداد والرياض) إلى القدس، في ١٩٣٧/١/٥، إلى اتخاذ قرار، في اليوم التالي، وافقت بموجبه اللجنة العليا على «الاتصال باللجنة الملكية، بالنيابة عن الشعب العربي، وبسط القضية». والواقع أن الشعب العربي في فلسطين قد دُهل «لموقف قيادته، التي قررت قبل شهرين، بالضبط، مقاطعة اللجنة الملكية، وعادت اليوم تلغي قرارها السابق، من غير أسباب جديدة، سوى رغبة الملوك، في جو من الضغوط البريطانية»[١٥].

لاحتمال إيجاد حل دائم، فقد رفضت «لجنة بيل» فكرة إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، واستبعدت بناء قومية مشتركة أو ثنائية، وخلصت إلى القول بأن «الموقف، على رداءته، الآن سيزداد سوءاً، فيما بعد، لأسباب داخلية وخارجية، وأن النزاع سيبقى مستمراً، وأن هوَّة الخلاف بين العرب واليهود ستظل آخذه في الاتساع»[١٦].

يوم السبت، الموافق ٣ تموز/يوليو ١٩٣٧، اجتمعت الهيئة المركزية لحزب الدفاع الوطني، وقررت أن يترك مندوباها (راغب، وفراج) «اللجنة العربية العليا»، لكي يستطيع الحزب أن يعمل لمصلحة هذه الأمة، مستقلاً، وذلك بذريعة أن «اللجنة قد تغير شكل تأليفها المتفق عليه بين الأحزاب، كما

---

* وفيه استنكرت "اللجنة" قرار المندوب السامي الخاص بمنح ١٨٠٠ شهادة هجرة يهودية إلى فلسطين، للفترة من تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٦، إلى نيسان / إبريل ١٩٣٧. وعليه قررت "اللجنة العربية العليا" عدم التعاون مع "لجنة بيل" الملكة البريطانية.

تتطلبه حالات البلاد ومصالحها». وظهر لدى الكثيرين، آنــذاك، أن الســبب الحقيقي لانسحاب حزب الدفاع هو التملص من تأثير قرار أكثرية أعضــاء اللجنة العربية على الحزب، حين يتم نشر تقرير «لجنة بيل». وعلى الــرغم من تأثير انسحاب حزب الدفاع فــي مسيرة «اللجنة العربية العليــا»، فــإن اللجنة التزمت سياسة متزنة هادئة إزاء الانسحاب، ولم تنجر إلى المهاترات والاتهامات، فاكتفت بإصدار بيان، وجهت خلاله نداءها إلى ضمير كل فــرد فــي الأمة الكريمة باجتناب كل شقاق وتصدع فــي الجبهة القومية، وبالبقاء صفاً واحداً، وشملاً مجتمعاً، لتتمكن البلاد من مواجهة الأحداث المقبلة، بمــا تقتضية المصلحة العامة»(١٧).

كان لموقف النشاشيبيين المتخاذل من التقسيم، وانسحابهم، قبل ذلك، من «اللجنة العربية العليا»، وموقفهم من الثورة أن بلغت جماعة النشاشــيبيين، وبقايا حزب الدفاع، المرحلة الدنيا ضعفاً، وقلة شأن. وقد ذكر أحد تقــارير دائرة التحقيقات الجنائية للانتداب عن حالة الحزب، فــي هذه الفترة، بعد أن غادر زعماؤه فلسطين، فارين بجلدهم: «أن مغــادرة راغــب النشاشــيبي، وسليمان بك طوقان، وأحمد الشكعة، وأعضاء آخرون من المعارضــة إلــى أوروبا، قد نتج عنه الانحلال الكامل لحزب الدفاع الوطني، الأمر الذي يترك البلاد بدون كيان سياسي معترف به». وذُكر أن حزب الدفاع قد انشق علــى نفسه، وضعف، منذ شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦، حين انسحب الدجاني من الحزب، كما فقد راغب النشاشيبي معظم نفوذه، واستمر الحــزب فــي طريق الضعف، حتى وصل إلى درجة الانحلال الكامل. ولقد برّر النشاشيبي انسحابه من «اللجنة العربية العليا»، بأنها – أي اللجنة – إنما قامت من أجل قيادة الشعب، خلال الإضراب، ولما كان الإضراب قد انتهى، فإنه لا حاجــة لهذه اللجنة. وعندما رفض هذا الطلب بالانسحاب مــن قبــل اللجنــة، ازداد الحزب تدهوراً. ومع ذلك فقد توقف ممثلو حــزب الــدفاع عــن حضــور اجتماعات اللجنة، طوال شهري تشرين الثاني/نوفمبر، وكانون الأول/ديسمبر ١٩٣٦، ولقد ترك انسحاب «حزب الدفاع» آثاراً سلبية على الموقف الوطني، وصفه رئيس «حزب الإصلاح»، حسين فخري الخالدي، بأنــه «الضــربة الأولى التي أصابت الوحدة، بعد نضال دام عاماً ونصــف العــام، وبــادرة الانقسام الأولى». كما عقب عوني عبد الهادي عليه، بقوله: «لو لم ينسحبوا، لما اتخذ الإنجليز واليهود انسحابهم حجــة للتــرويج لفكــرة (متطرفــين ومعتدلين)، والدعوة إلى البطش بالمتطرفــين، فــيخلوا الجو للمعتدلين»! كما أن عبد الهادى اعتبر الانسحاب خسارة لهم، من الناحية الوطنية، فلولا ذلــك

لظلوا فـي الأوج، الذي وصل إليه بعضهم، فـي تلك السنة[١٨]. فيما كـان خروج "الدفاع" تطهيراًللحركة الوطنية، وليس انشقاقاً فيها.

أسفرت حدة التوتر فـي البلاد عن توجيه نقمة الشعب إلى اغتيال رجال البوليس البريطاني، ففـي ١٣ حزيران/ يونيو ١٩٣٧، قام ثلاثة من العرب بمحاولة اغتيال مفتش البوليس العام، فـي فلسطين، المستر سبايسر، لكـن المحاولة فشلت. وكان قد سبقتها محاولة اغتيال مساعد مفتش البوليس لمدينة جنين، فـي ١٨ أيار/مايو ١٩٣٧ . في الوقت الذي كان الحاج أمين يعمـل بطريقة ودية، للتفاهم مع السلطات البريطانية، مع إنه كان قد تعـرض هـو نفسه لمحاولتي اغتيال، الأولى فـي النصف الأول من نيسان/أبريل ١٩٣٧، والثانية، فـي ٢٩ أيار/مايو ١٩٣٧، وأثناء انعقاد «اللجنة العربية العليـا»، داهم عدد من رجال البوليس البريطاني دار «اللجنـة العربيـة»، واعتقلـوا المحامي صبحي الخضرا. وهدفت حملة التفتيش إلى اعتقال المفتي نفسـه، الذي التجأ إلى الحرم الشريف، الملاصق لدار اللجنة. وقد استنكرت «اللجنة العربية» هذا العمل. واعتراها الضعف والتفكك، بعد التجاء المفتي إلى الحرم الشريف، فضلاً عن انسحاب راغب وفراج من اللجنة. وبالرغم من ذلك كله، بقي المفتي محتفظاً بالرئاسة، وتولى إصدار البيانات والاحتجاجـات، باسـم اللجنة كلها. وفـي أثناء ذلك، شنت السلطات البريطانية حملـة اعتقـالات واسعة النطاق فـي البلاد، كانت مركّزة على أعضاء اللجان القوميـة، فـي محاولة لضرب القاعدة الشعبية العريضة، التي كانت تقـوم بالدعايـة ضـد مشروع التقسيم. ولقد هدفت الحكومة البريطانية، من وراء تلك الاعتقالات، إلى محاولة إعادة تشكيل «اللجنة العربية العليا»، بحيث يتولى رئاستها راغب النشاشيبي، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل، إذ أن سلطة المفتي، وهو ملتجئ داخل الحرم، كانت أقوى من أن تسمح بنجاح تلك المحاولة[١٩].

كان تعيين المستر أندروز حاكماً للواء الجليل – الداخل ضمن الدولـة اليهودية حسب مشروع «لجنة بيل» – من ضمن خطة الحكومة البريطانيـة فـي العمل على حمل العرب فـي ذلك اللواء على قبول التقسيم. وأسـفرت مجهوداته الإمبريالية فـي ذلك السبيل عن اغتياله، فـي صباح يوم الأحد، ١٩٣٧/٩/٢٦، فـي الناصرة وقتل معه حارسـه الكونسـتابل البريطـاني، مكوين. وبالرغم من اعتقال نحو ١٠٨ من عرب الناصرة، بعد الحادث، فإن السلطات البريطانية لـم تكتـف بـذلك، فأصـدرت، فـي أول تشـرين الأول/أكتوبر ١٩٣٧، بلاغاً رسمياً، اعتبرت فـيه اللجنة العربية، وجميـع

اللجان القومية، غير شرعية. كماأصدرت تلك السلطات أمراً باعتقال جمال الحسيني، وأحمد حلمي، وفؤاد سابا، ويعقوب الغصين، والدكتور الخالدي، وأقصت المفتي(*) عن رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، ومن لجنة الأوقاف العامة. وأصدر حزب الدفاع، إثر ذلك، بياناً، استنكر فيه ما كان من إجراءات، ووصفها بأنها «أكثر مما تقتضيه الحالة»، وأعلن استعداده للقيام بالواجب الوطني، بعد فراغ الميدان من «اللجنة العربية العليا»، واللجان القومية، وأجرى «الدفاع» مباحثات مع السلطة البريطانية، وبعض العناصر المؤيدة له، لتشكيل لجنة عربية عليا أخرى، ولكنه لم ينجح في ذلك، وعرضت حكومة الانتداب رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى على رئيس بلدية الرملة، أحد زعماء حزب الدفاع، مصطفى الخيري، فرفضها، كما رفضها حسام الدين جار الله، أحد الموالين للنشاشيبية[٢٠].

موالاة و"فصائل السلام":

مع بداية تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٧، اشتدت الثورة عنفاً، واتساعاً، فأصدرت الحكومة بلاغاً رسمياً، رقم ٢٠-٣٧، بتاريخ ١٠ من الشهر نفسه، أعلنت فيه أنها ستنشر نظام الدفاع (الطوارئ)، في اليوم التالي، وسيبدأ العمل به من ١١/١٨، وأنه وفقاً لهذا النظام، ستشكل محاكم عسكرية. واستمرت حملة الاعتقالات، ضد العرب، واعترفت المصادر الرسمية البريطانية، باعتقال ٥٢٠ عربياً، في الأسبوع الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٧ . ومع ذلك قام راغب النشاشيبي، ومغنَّم إلياس مغنَّم، بمقابلة القائم بأعمال الحكومة، في ١٥ من الشهر نفسه، وعلقت يومية مصرية موالية للإنجليز على هذه المقابلة بقولها إنها «الخطوة الرسمية الأولى، منذ حلت اللجنة العربية العليا، في أول تشرين الأول/أكتوبر، لإنشاء قيادة عربية جديدة». وقد علم المفتي بهذه المقابلة، فأصدر بيان تهديد، بعنوان (حول المعتدلين، وانتهازيتهم للثورة)، قال فيه: «من ذا الذي يتقدم لمواطأة الاستعمار، وقد انتهك الحرمات، واعتدى على المقدسات ؟ من ذا الذي يتقدم لمفاوضة الاستعمار، ورجال الأمة مشتتون في المنافي

* استطاع المفتي أن يفلت من الحرم القدسي الشريف، ليلة الأربعاء (١٩٣٧/١٠/١٤)، إلى يافا، ومنها، بطريق البحر، إلى لبنان.

والسجون»؟! وختم المفتي بالآية الكريمة: «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». صدق الله العظيم(٢١).

استغل «حزب الدفاع» خروج المفتي، وأنصاره من البلاد، لتشويه سمعة الثورة، بعد فشل راغب النشاشيبي، وأعوانه في تشكيل قيادة فلسطينية، ترث «اللجنة العربية العليا»، ولم تنقطع محاولات الحزب، وأنصاره، بعد ذلك، فقد أشارت يومية يافاوية قريبة من «الدفاع» إلى رسالة عادل الشواء، من أعمدة حزب الدفاع، بتاريخ ١٩٣٨/١/١٩، التي اقترح فيها عقد «مؤتمر عربي، يؤلف من أعضاء مجالس البلديات، وأصحاب الصحف، وأعضاء المجلس الأعلى، لدراسة ما يجب عمله لتيسير ما تعقّد من مشاكل الموقف الحاضر». ومن المعروف أن رؤساء البلديات، وأعضاء المجلس الإسلامي، هم الذين عينتهم السلطات البريطانية - بعد عزل المفتي - من بين الموالين لحزب الدفاع، كما كانت الجريدة المشار إليها بمثابة لسان حال الحزب، فيما جريدة «الصراط المستقيم»، وصاحبها الشيخ عبد الله القلقيلي، موالية للحزب، وقد بلغ الأمر بالقلقيلي أن كتب في جريدته (عدد ٩٨٧، بتاريخ ١٩٣٨/٥/١٨) مقالا حض فيه الإنجليز على القضاء على الثورة. ونشر راغب النشاشيبي، في ١٩٣٨/١٠/٢٤، بيانا، اتهم فيه المفتي بتحويل الثورة إلى مصلحته الشخصية، وباستيلائه على الأموال الخاصة بعرب فلسطين، لشراء الأسلحة والذخيرة. كما أرسل فخري النشاشيبي رسالة، مؤرخة في ١٩٣٨/١١/١٤، إلى المندوب السامي البريطاني، قال فيها إن «الزعماء اضطروا إلى مغادرة البلاد، بسبب حملة (الإرهاب) التي قامت بها جماعة الحاج أمين الحسيني ضدهم، وضد جماعاتهم». وأضاف فخري: «وقد ساعدت الأموال، التي تجمع باسم منكوبي فلسطين، المومأ إليه (الحاج أمين) في حملته (الإرهابية) هذه، فهو ينفق هذه الأموال على مشترى الأسلحة، وفي أعمال العنف، ضد ممتلكات ورجال الأحزاب المناوئة له، وأن الخسارة المادية التي لحقت بممتلكات رجال هذه الأحزاب، لا تقل عن ربع مليون جنيه»(٢٢).

كان من نتائج إلغاء مشروع التقسيم، والضربات التي أنزلت بالمفتي وأنصاره، وبعد اغتيال حسن صدقي الدجاني، خريف ١٩٣٨، نشر فخري النشاشيبي، في ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، رسالة موجهة إلى المندوب السامي، أعلن فيها أن العرب راضون عن إلغاء مشروع التقسيم، وأن المفتي لم يعد يمثل الرأي العام العربي الفلسطيني، كما أن «حزب الدفاع

الوطني» يمثل نصف سكان البلد العرب، و ٧٥% من أصحاب الأملاك فيه. وأردف إنه يتوقع نجاح المؤتمر، ويأمل بأن يتم تنفيذ مطالب العرب، التي تحققت لجان كثيرة من عدالتها(٢٣).

إزاء ما شهدته فلسطين من سيطرة فعلية للثورة، برزت معارضة مسلحة، اتخذت شكل الثورة المضادة، التي كانت مخاطرها الفعلية تفوق المخاطر كافة، التي تعرضت لها الثورة في السابق. وقد ذكر أحد أهم أنصار المفتي، محمد عزة دروزة، في رسالة منه إلى عوني عبد الهادي، في أواخر سنة ١٩٣٨، أن «بعض أعضاء حزب الدفاع أبدوا رغبتهم في التعاون مع السلطات، والوقوف ضد الثورة، والقضاء عليها، وقد أخذت تقوم في فلسطين حركة مغذاة بالمال والسلاح، للعب هذا الدور، (...)، فعمدت إلى زرع بذور الفتنة، وقامت بتحريك قوى الثورة المضادة، ونجحت جهودها، في هذا الصدد، حين تشكلت (فصائل السلام)، التي تزعمها فخري النشاشيبي، وفخري عبد الهادي، وعمدت (فصائل السلام) هذه إلى شن حملات دعائية واسعة ضد (اللجنة العربية العليا)، وحصلت على السلاح من السلطات البريطانية، وبمساعدتها»(٢٤).

نظم فخري النشاشيبي «فصائل السلام»، من أجل محاربة أنصار المفتي، وانتقل النشاشيبي مع مساعدية من مكان إلى آخر في سيارات مصفحة تابعة للشرطة، وكانوا يجمعون مؤيديهم، ويشجعونهم على الثورة ضد رجال المفتي، وشكلت مجموعات صغيرة، نشأت في كثير من القرى، وانضم إليهم زعماء العصابات وقطّاع الطرق، مرتبطين بآل النشاشيبي. وكان القرويون، في لواء الخليل، أول من خرج من الثورة، عند هبوطها، ففي قرية يطا، دعا فخري النشاشيبي، في ١٩٣٨/١٢/١٢ أنصاره إلى اجتماع كبير، حضره ضابط من الجيش، وموظفون بريطانيون، ووعدوا كل من ينضم لمحاربة الثورة، «بالعفو عن جرائمه السابقة»! (٢٥).

هكذا استطاعت سلطات الانتداب تحقيق الهدف، وإخماد الثورة، وتشويه سمعتها، بتوليد حرب أهلية، تأكل الثورة من الداخل، فضلاً عن مساعي بريطانيا الخارجية لوقف هذه الثورة، ووقف مطالبها العربية، كما هدفت السلطات البريطانية إلى إحباط الفلاحين والعمال، من أي مطمح يُرجى من الثورة.

استغل الانتداب «فصائل السلام» لضرب الثورة في البلاد، وقد ارتكبت هذه الفصائل في قرية (نعلين) أعمالاً مشينة من السلب والنهب، وتمكن الثوار من إلقاء القبض على أفراد العصابة وزعيمهم، الذي اعترف

بأن «فخري النشاشيبي كلفه أن يصنع ما صنع، وأنه استحضر لهم البنادق، والعتاد من الحكومة، وأنها خصصت لهم المرتبات الشهرية». وقد حكمت محكمة الثورة بالإعدام على زعيم العصابة، أما أفراد عصابته، فقد حُكم عليهم بالجلد، والتجريد من السلاح. وكان رد فعل الثورة على ذلك كله القيام ببعض الاغتيالات السياسية. يقول أحد مناصري الحسيني: «نحن من جهتنا، نؤكد للحق وللحقيقة فحسب، أنه لم يكن لنا علم مسبق بما جرى من أمثال هذه الحوادث، ولا إيعاز بأي شكل بمثلها، وإننا كنا نستنكر وقوعها، ونشدد على وجوب الامتناع، بكل جهدنا، عنها». وقد وجهت عمليات الاغتيال السياسي، التي نفذتها الثورة بين كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٧، وأيلول/سبتمبر ١٩٣٨، إلى «عملاء المخابرات البريطانية وسماسرة الأراضي». وقد أصدر أحد القادة العسكريين للثورة، عارف عبد الرازق، في ١٩٣٨/١١/٣٠ أمرا بإعدام فخري النشاشيبي، وذلك لخروجه على إجماع الأمة، ولا شك أن المندوب السامي، هارولد مكمايل كان على حق، حين ذكر في تقريره المؤرخ، في ١٩٣٨/٩/٢، والمرفوع إلى وزير المستعمرات أنه «إذا استبعد المفتي وأعوانه، فإنه لا يبقى من يستطيع تمثيل العرب سوى قادة الثوار في الجبال. وأن مجرد ذكر اسم (المعتدلين) أصبح عبارة مشينة». ذلك أن وزير المستعمرات البريطاني قد أعلن عن عزمه دعوة ممثلين عن كل من عرب فلسطين، و«الوكالة اليهودية»، لبحث توصيات لجنة تقسيم فلسطين (لجنة وودهيد)(*) ، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٨ [٢٦].

لجنة وودهيد:

معروف أن «لجنة وودهيد» وصلت إلى القدس، في ١٩٣٨/٤/٢٧، ونشرت بلاغا أعلنت فيه أن «الأشخاص الذين يودون الحضور أمامنا، يملكون مطلق الحرية في أداء شهاداتهم، بصورة علنية أو سرية، أو الإدلاء ببعضها بصورة سرية، وبالبعض الآخر بصورة علنية». على أن تلك اللجنة لم تتسلم، في الواقع، إلا طلبين اثنين، أعرب فيهما مقدماهما عن رغبتهما في أداء الشهادة، بصورة علنية، وعقدت اللجنة ٥٥ جلسة، لسماع الشهادات. وزارت اللجنة شرق الأردن، لمدة تسعة أيام، ولم يتقدم لها أي

---

* نسبة إلى رئيسها، اللورد جون وودهيد.

عربي فـــي فلسطين، لأداء الشهادة، فقد أصدرت «اللجنة العربية العليـــا»، منذ منتصف آذار/مارس ١٩٣٨، بياناً، قالت فـــيه: «بما أن هذه اللجنة الفنية هي لجنة تقسيم، وبما أن مفاوضتها لا تكون إلا لقبول فكرة التقسيم، وهـــذه الفكرة لا يمكن أن يقبلها أي عربي، فمن أجل ذلك ترى اللجنة العربيـــة أن عمل اللجنة الفنية المذكورة مضر بالوطن العربي، والحياة العربية، وهي (أي اللجنة العربية)، لهذا تقرر مقاطعتها، وعدم الاتصال بها، وتدعو كل عربـــي فـــي فلسطين، وخارجها، إلى ذلك». وأضربت معظم المدن العربية، التـــي زارتها «لجنة وودهيد»، واعترفت المصـــادر الرســـمية البريطانيـــة بقيـــام إضرابات فـــي القدس، وحيفا، وست مدن أُخرى، احتجاجاً على وصول لجنة التقسيم إلى فلسطين. إلا أن حزب الدفاع انتهز إحجام الشعب عن مقابلة تلك اللجنة، فأرسل مذكرة، مؤرخة فـــي ٩ أيار/مايو ١٩٣٨، إلى وودهيد، أشار فـــيها إلى أن الحزب «لا يمكنه أن يتقدم بـــأي بيانـــات، أو مـــذكرات، أو إفادات، مما يتعلق بمشروع التقسيم». وقد نشـــرت جريـــدة (هاتسوفـــيه) الصهيونية، الصادرة فـــي تل أبيب، بتـــاريخ ١٩٣٨/٦/١٧، أن «راغـــب االنشاشيبي، وبعض زملائه سيتقدمون أمام اللجنة الفنية، لإعطاء شـــهاداتهم، فـــي جلسة سرية، قبل قيام اللجنة من فلسطين بأسبوع، أو أُسبوعين»، إلا أن سكرتير الحزب، مغنَّم الياس مغنَّم، سارع بإصدار بيان تكذيب، محذراً أبناء الشعب من الوقوع فـــي حبائل المفتـــرين، واختلاقـــات الجرائـــد العبريـــة، والدساسين من أعداء البلاد، الذي لا يفتأون يسعون لشق صفوف الأمة[٢٧].

وصلت لجنة وودهيد، فـــي نهاية الأمر، إلى حقائق، أهمها: أن العـــرب يعارضون فكرة إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، وإســـتحالة تقســـيم فلسطين إلى دولتين. كما قررت اللجنة الفنية بأن نقمة العرب تتزايـــد كلمـــا تزايدت الهجرة الصهيونية إلى فلسطين.

فـــي ١٩٣٨/١١/١٥، أصدرت «اللجنة العربية العليا» بياناً، رداً علـــى تقرير وودهيد، وبيان الحكومة البريطانية، قالت فـــيه: «إن الشعب العربـــي يقابل بإرتياح عدول بريطانيا عن سياسة تقسيم فلسطين». وإنه يبدي إرتياحه إلى «أخذ الحكومة البريطانية بخطة المفاوضة، واقتناعها بأن قضية فلسطين هي قضية عربية عامة» . وأكد البيان أن الشعب العربي «لا يوافـــق علـــى اعتبار اليهود طرفاً فـــي قضيته، ولا يدخل وإياهم فـــــي مفاوضـــة علـــى مصيره». كما أن الشعب العربي الفلسطيني أولى «ثقته الغالية للجنة العربية العليا، للدفاع عن حقه، والعمل على تحقيق ميثاقه، وأنـــه لا يوجـــد فـــــي

فلسطين أية هيئة أخرى، أو أفراد يستطيعون أن يدَّعوا تمثيل الشعب العربي في هذا الموقف». في حين انتهز فخري النشاشيبي فرصة إصدار الحكومة البريطانية بيانها السياسي، وبعث برسالة، مؤرخة في ١٩٣٨/١١/١٤، إلى المندوب السامي، وافق فيها على الخطة البريطانية، بحذافيرها، وادعى بأنه يتكلم «باسم (الزعماء المتغيبين)، الذين يمثلون ٧٥% من مصالح البلاد»، والذين يزيد أتباعهم «كثيراً عن نصف عرب فلسطين». وقال إن الزعماء المتغيبين «يبنون، دائماً، سياستهم على أساس التعاون الوثيق مع حكومة جلالته، لحسم المشكلة الفلسطينية، على الوجه الذي يضمن السلام الدائم للبلاد، والعلاقات الوثيقة الحسنة مع حكومة جلالته»، وأن «أقل ضعف يبدو من قبل الحكومة، في تنفيذ خطتها، بشأن تمثيل عرب فلسطين في المؤتمر، يستقبله الزعماء المخلصون لبلادهم، ومبادئهم بأشد الألم والأسف». غير أن راغب النشاشيبي، الذي كان يقيم في مصر، سارع بإصدار بيان مضاد لبيان فخري النشاشيبي، قال فيه إن «حزب الدفاع يتقبل كل خير تناله البلاد عن يد أي شخص، وأي حزب، لأنه يضع، قبل كل شيء، نصب عينيه الغايات الوطنية السامية، وله الثقة التامة بتحمل الأحزاب العربية الاضطلاع بمهام المفاوضات مع الحكومة البريطانية، لإيصال البلاد إلى حقوقها القومية والسياسية». وفي تقرير مؤرخ في ١٩٣٨/١١/١٩، كتب المندوب السامي إلى وزير المستعمرات يقول: «أظن أنه أكثر من مرجح، أن يكون فخري قد كتب رسالته مدفوعاً من السياسيين اليهود المحليين»[٢٨].

مؤتمر لندن :

حين اشتد الخطر النازي وظهرت نُذر الحرب العالمية الثانية في الأفق، سارعت بريطانيا إلى تهدئة الشعوب الثائرة في مستعمراتها، وبضمنها فلسطين. وفي هذا السياق نظمت الحكومة البريطانية مؤتمر لندن.

حيال الموقف العربي الفلسطيني، وبسبب حرص بريطانيا على ضرورة عقد المؤتمر، رضخت الأخيرة لمطالب العرب، ورغباتهم، فأعلنت أن المؤتمر سيقتصر على العرب، والبريطانيين، وأن الحكومة البريطانية ستعقد اجتماعات ثنائية منفصلة مع ممثلين عن «الوكالة اليهودية». كما أطلقت لندن سراح المنفيين الفلسطينيين، في سيشل، فوصلوا إلى القاهرة، ومنها إلى بلدة الذوق، قرب بيروت، مركز إقامة المفتي، وبعض القادة الفلسطينيين. كما

تراجعت بريطانيا عن اعتراضها على المفتي، وأعضـــاء اللجنـــة العربيـــة، فوجهت كتاباً إلى الحسيني، بوصفه رئيساً للجنة العربيـــة، لاختيـــار وفـــد فلسطيني، فـــي سبيل الاشتراك فـــي مؤتمر لندن. وأبلغت اللجنـــة العربيـــة الدول العربية قرارها بقبول المشاركة فـــي المؤتمر، مبدئياً، فرحبت الـــدول العربية بهذا القرار. لكن بريطانيا حاولت حمل حزب الدفاع على أن يضـــم إلى الوفد الفلسطيني كلاً من سليمان طوقان، وفخري النشاشـــيبي، وعيســـى البندك، بالإضافة إلى راغب النشاشيبي، ويعقوب فراج، حيث نقلتهم سلطات الانتداب إلى لندن. لكن اللجنة العربية أبلغت الحكومة البريطانيـــة قرارهـــا باختيار أعضاء الوفد. ولما فشلت بريطانيا فـــي تعديل أعضاء الوفد، وافقت مرحبة بالوفد الفلسطيني. إلا أن بعضاً من رجال الحركة الوطنية لم يقـــابلوا فكرة رئاسة الحاج أمين للوفد بالترحاب، خوفاً من غدر الإنجليز واليهـــود، فطلبوا، بإلحاح، عدم سفر المفتي، فاختير السيد جمال الحسيني، لينوب عنـــه فـــي رئاسة الوفد.

ثم أُرسل وفد ضم نوري السعيد، وفؤاد حمزة، وجمال الحســـيني مـــن (مؤتمر القاهرة (١٧- ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٣٩) إلى لبنـــان، لمقابلـــة المفتي، وإقناعه بقبول اقتراح تمثيل حزب الدفاع، فوافق على تمثيله بـــإثنين من رجاله، هما: الحاج نمر النابلسي، ويعقوب فراج. ثم أصدرت الحكومـــة البريطانية بلاغاً، فـــي ٩/٢/١٩٣٩، أعلنت فـــيه موافقة الوفد الفلســـطيني على قبول عضوية راغب النشاشيبي [٢٩].

وقع خلاف مؤسف فـــي صفوف عرب فلسطين، حول تمثيـــل فلســـطين فـــي المؤتمر، فالوطنيون الموالون للمفتي، أيدوا تحفظـــات «اللجنـــة العربيـــة العليا»، الواردة فـــي بيان ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٨، وطالبوا بمتابعـــة الثورة، أما المعتدلون من أنصار فخري النشاشيبي، وحزب الدفاع، فاســـتنكروا متابعة «أعمال العنف»، ووافقوا على صيغة التفاهم مع بريطانيـــا. وقـــد رفـــع فخري، فـــي أواخر الشهر نفسه، مذكرة للحكومة البريطانية، وقّع عليها بعـــض المخاتير(*) حملوا فـــيها على الثوار، والمفتي، وأعضـــاء «اللجنـــة العربيـــة العليا»، وامتدحوا أعمال الجيش البريطاني. وقد أوفد فخري بعض أعوانه إلـــى القرى، ليقوموا بدعاية واسعة ضد الثوار. وفـــي ١٦ كانون الأول/ديسمبر نظّم المعتدلون مظاهرة فـــي قرية يطا، فـــي الخليل، أعربوا فـــيها عـــن ولائهـــم

* جمع "مختار"، وهو العمدة.

للإنجليز، تؤيدهم قوات السُلطة، فاصطدموا بمظاهرة عربية كبرى، في معركة دامية، قُتل وجرح فيها عشرات من المتظاهرين. وفي ١٦ كانون الثاني/يناير ١٩٣٩ قابل فخري النشاشيبي، السيد مودي*، وأخبره بأنه يحمل وجهة نظر حزب الدفاع، وقد تضمنت المقابلة نقطتين: الأولى؛ اعتراض فخري النشاشيبي على منح الحكومة البريطانية التسهيلات لهيئة واحدة، وعنى بذلك «اللجنة العربية العليا»، أما النقطة الثانية؛ فتضمنت سياسة حزب الدفاع ومؤاداها، عدم إلغاء الانتداب، بل تعديله، بما يناسب العرب واليهود. وقد امتدح فخري النشاشيبي الانتداب وبريطانيا، ونبهها إلى مؤامرات بعض الدول الأجنبية في فلسطين. لكن هذا التصدع الجزئي لم يؤثر على الوطنيين، الذين يمثلون الغالبية العظمى من عرب فلسطين، وقد عبرت جماهير عرب فلسطين بالتفافها حولهم، فأرسلت مئات البرقيات، تعلن التفافها حول «اللجنة العربية العليا»، الممثل الشرعي لهم، ونددت بحزب الدفاع. وانكشف انحراف فخري، حين أعلن راغب «أن من الوهم تقسيم عرب فلسطين إلى متطرفين، ومعتدلين، وإنما هم جميعاً متطرفون في معارضة وعد بلفور، والانتداب». وإن طالب راغب النشاشيبي بنصف أعضاء وفد فلسطين إلى مؤتمر لندن، «نظراً لما يمثله من قوة في فلسطين»(٣٠).

بعد فشل مؤتمر لندن في التوصل إلى أي حل أو تسوية، صدر عن حكومة لندن «الكتاب الأبيض»، في ١٧ أيار/مايو ١٩٣٩، وتضمن عزم بريطانيا النهائي على تنفيذ سياسة ترمي إلى استقلال فلسطين، بعد عشر سنوات، وإيقاف الهجرة اليهودية، بعد خمس سنوات، ووضع قيود على انتقال الأراضي لليهود، كما أنه ليس في نية بريطانيا تفسير «وعد بلفور»، بخلق دولة يهودية في فلسطين(٣١).

انتهز حزب الدفاع فرصة إصدار هذا الكتاب، فعقد الحزب، في فندق الملك داوود، بالقدس، في ٢٩ أيار/مايو ١٩٣٩، اجتماعاً حضره نحو ١٤٠٠ شخصا أيدوا فيه سياسة الحكومة البريطانية. أما موقف «اللجنة العربية العليا» فقد عرضه أحمد الشقيري، كما يلي: «لم يكن الكتاب الأبيض محققاً لمطالبنا القومية بكاملها، بل لم يكن يخلو من فجوات، وسقطات، ولكنه كان خطوة على الطريق». كما نشرت «اللجنة العربية العليا»، في اليوم التالي لاجتماع حزب الدفاع، رداً مطولاً على «الكتاب الأبيض» لعام ١٩٣٩، نددت فيه بجميع المبادئ الواردة في الكتاب. وبالرغم من ذلك، أكد إميل الغوري،

الوثيق الصلة بالمفتي، أن أعضاء «اللجنة العربية العليا» أخذوا «يعترفون بالكتاب الأبيض، واحداً بعد واحد، ويطالبون بتنفيذه»[٣٢].

عند نشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥)، أعلن حزب الدفاع وقوفه إلى جانب بريطانيا، في الوقت الذي كان فيه المفتي، والأعضاء البارزون في حزبه، خارج فلسطين، حيث انتقلوا من لبنان إلى العراق، بالإضافة إلى القادة العسكريين للثوار، مثل فوزي القاوقجي، وعارف عبد الرازق، والشيخ حسن سلامة. لكن بريطانيا لم تسع للحصول على مساعدة حزب الدفاع، علّها تستطيع الوصول إلى اتفاق وتفاهم مع المفتي. علماً بأنها لم تحصل على أي مساعدة منه، أو من مؤيديه[٣٣]. فقد تضافرت المصالح الطبقية مع المنافع الذاتية الضيقة، إلى الخشية من حركة الجماهير، وفقدان الثقة بها، في أن، لتصنع نموذجاً لثورة مضادة في فلسطين، كان وجودها منطقياً، فلكل ضوء ظل، وليس في ذلك ما يسيء إلى الشعب أو حركته الوطنية.

هوامش الفصل الثاني

(١) للمزيد عن حزب الدفاع، والأحزاب الأخرى، انظر:
- د. علي سعود عطية، **الحزب العربي الفلسطيني وحزب الدفاع الوطني ١٩٣٤- ١٩٣٧**، القدس، جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٥، ص ١٣٨- ١٣٩، ١٩٧- ١٩٨ .
- د. نظام عزت العباسي، **السياسة الداخلية للحركة الوطنية الفلسطينية في مواجهة الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية ١٩١٨- ١٩٤٥**، الأردن، دار هشام للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٤، ص ٧٤- ٧٥، ١١٧ .
- د. فلاح خالد علي، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٣٩- ١٩٤٨**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٠، ص ٩٩- ١٠٠ .

(٢) عطية، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٨- ١٤٩ .

(٣) محمد عزة دروزة، **حول الحركة العربية الحديثة**، ج ٣، صيدا، المكتبة العصرية، ١٩٥٩، ص ١١٤ .

(٤) لمزيد من التفاصيل حول الأحداث التي أفضت إلى اندلاع ثورة ١٩٣٦، يمكن الرجوع إلى:
- عيسى السفري، **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية**، يافا، ١٩٣٧، ص ٧٠ .
- بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧- ١٩٤٨**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١، ص ٣٣٥ .
- سميح شبيب، **الأصول الاقتصادية والاجتماعية للحركة السياسية في فلسطين ١٩٢٠- ١٩٤٨**، عكا، مؤسسة الأسوار، رام الله، مع وزارة الثقافة الفلسطينية، ١٩٩٩، ص ٩٠ .

(٥) للمزيد، انظر:
- العباسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٣- ١٣٦ .
- دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٢- ١٢٣ .
- د. كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢- ١٩٣٩**، ط٢، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، ١٩٨٢، ص ٦١٢ .
- **الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦- ١٩٣٩ (الرواية الإسرائيلية الرسمية)**، ترجمة: أحمد خليفة، مراجعة: سمير حبور، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، والكويت، جامعة الكويت، ١٩٨٩، ص ١١ .

(٦) **المصدر نفسه**، ص ١٥ .

(٧) لمزيد من التفاصيل حول هذه الوساطات، يمكن الاستعانة بالمراجع التالية:
- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٣٧- ٦٣٨ .
- الثورة..، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٢.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٣٣- ٣٤ .

(٩) **وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨- ١٩١٩)**، جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٦٨، ص ٤٣٩- ٤٤١ .

(١٠) نجيب صدقة، **قضية فلسطين**، بيروت، ١٩٤٦، ص ١٩٠ .

(١١) الثورة... **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٦، ١٠٧، ١٤٨- ١٤٩ .

(١٢) العباسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٦، وللمزيد عن اللجنة الملكية، انظر:
- عطية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٤٦- ٣٥٣ .

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٣٥٩- ٣٦٣ .

(١٤) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٢ .
- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٦٣ .
(١٥) أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية**، بيروت، دار النهار،١٩٦٩، ص ١٦٧ .
(١٦) للمزيد انظر:
- **تقرير اللجنة الملكية: الكتاب الأبيض رقم ٥٤٧٩**، النسخة العربية الرسمية، إصدار حكومة فلسطين، القدس، ١٩٣٧، ص ٤٨٤- ٤٨٧.
(١٧) ١٧- للمزيد انظر:
- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٨٦ .
- دروزة **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٨ .
- شبيب، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٤ .
(١٨) إميل الغوري، **المؤامرة الكبرى- اغتيال فلسطين ومحق العرب**، ج٢، ط١، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٢٤ .
- عطية، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٧، ٣٤٥- ٣٤٦ .
(١٩) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٧٢- ٦٩٠ .
(٢٠) دروزة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨٩- ١٩٠ .
- المقطم (القاهرة)، ١٩٣٧/١٠/٧ . أوردها: خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩٧- ٦٩٨ .
(٢١) المقطم (القاهرة)، ١٩٣٧/١١/١٣، ١٩٣٧/١١/١٦ أوردها: خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٩٩- ٧٠٠ .
(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٧١١-٧١٢ .
(٢٣) الثورة..، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٠ .
(٢٤) يوسف رجب الرضيعي، **ثورة ١٩٣٦- ١٩٣٩، دراسة عسكرية**، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٢، ص ١٠٠ .
(٢٥) الثورة..، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٠- ١٧١ .
(٢٦) خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧١١- ٧١٤ .
(٢٧) **المصدر نفسه**، ص ٧١٧- ٧٢٢ .
(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ٧٢٥ .
- عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات العربية، ١٩٧٠، ص ٣٥٠ .
(٢٩) للمزيد انظر:
- علي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨ .
- **الأهرام** (القاهرة)، ١٩٣٩/٢/١٠ .
- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ٧٣١ .
- الغوري، **مصدر سبق ذكره**، ج٢، ص ١٧٧ .
(٣٠) علي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١-٣٤ .
(٣١) **المصدر نفسه**، ص ٩٤ .
(٣٢) الغوري، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٢ .
- خلة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٤١- ٧٤٣ .
- العباسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٧- ١٤٨ .
(٣٣) علي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٤- ٩٥ .

الفصل الثالث

الحزب الشيوعي والثورة

مروة كمال



منذ سقوط فلسطين تحت الاحتلال البريطاني، عام ١٩١٨، ووعد لندن الشهير للحركة الصهيونية بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، وتدفق الهجرة اليهودية إليها، بدأت تتبلور الحركة الوطنية الفلسطينية، وأخذت تنفصل عن الحركة السورية الأم، في محاولة للتصدي لهذه الهجمات الإستعمارية الإحلالية. وعلى ضفاف هذه الحركة الوطنية، نشأ الحزب الشيوعي الفلسطيني، على أيدي اليهود المهاجرين، المحمّلين بالأفكار الإشتراكية، حتى تطورت الشيوعية بأيدٍ عربية فلسطينية، ضمن العداء الكامل للمشروع الكولونيالي، على شتى المستويات.

حين اندلعت الثورة البلشفية في روسيا (تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٧)، لم تجد أصداء لها في فلسطين، أساساً لأن التربة الفلسطينية لم تكن مهيأة لاستقبال مثل هذه الثورة، فالنظام الاقتصادي كان لا يزال شبه إقطاعي، مع مسحة رأسمالية مشوهة[١]. حال دون وجود طبقة عاملة، وحركة مثقفين في فلسطين، بل إن دائرة المتعلمين كانت ضيقة للغاية، ومستوى تعليمهم كان متدنياً، بما حال دون تشكيل التربة الملائمة لنمو الإشتراكية[٢].

صحيح أن ليون تروتسكي كشف تفاصيل «اتفاق سايكس–بيكو»، فأثار سخط العرب على هذا الاتفاق، ولفت نظرهم إلى الثورة الروسية الوليدة، في الوقت نفسه، لكن الأمر لم يتعد هذه الحدود.

لذا كان طبيعياً أن تنتقل الإشتراكية إلى فلسطين عن طريق الشتل، وليس الزراعة، ولعل في هذا ما يفسر قيام «حزب العمال الإشتراكي» (آذار/مارس ١٩١٩)، الذي عرف باسمه العبري (مفلاجات يوعاليم سوسيالستيم)[٣] فكل أعضائه من اليهود، الذين وفدوا من أوروبا الشرقية، وأفكار الحزب خليط من الإشتراكية والصهيونية، وقد كان طبيعياً أن يحدث تمايز فكري داخل الحزب، تخرج أغلبية أعضائه سنة ١٩٢٢، فتلتحق بحزب «بوعالي تسيون» الصهيوني، فيما شكلت الأقلية «الحزب الشيوعي الفلسطيني» في العام نفسه، وفي شهر آذار/مارس ١٩٢٤، تحديداً، اعترف الكومنترن(*) بهذا الحزب[٤].

---

* **الكومنترن** : هو المركز الذي قاد الشيوعية في العالم، بعد ثورة أكتوبر (١٩١٧) الاشتراكية في روسيا. وقد أسسه لينين، وعُرف باسم "الأممية الثالثة" بعد "الأممية الأولى، التي كان كارل ماركس قد أسسها، ثم ارتد عليها الاشتراكيون الديمقراطيون، وأسسوا "الأممية الثانية". وقد حل "الكومنترن" نفسه، في ١٩٤٣/٥/١٥.

ربما يكون «الكومنترن» قد التقط أن وطنية الحزب لا تكون إلا بتعريبه، لذا وجدنا الكومنترن يلّح على قيادة الحزب من أجل الإسراع بتعريبه[٥] على أن هذه القيادة تلكأت كثيراً في «التعريب»[٦]، ربما لأن غالبية قيادة الحزب لم تكن تريد أن تتنحى عن مواقعها القيادية.

من جهة أُخرى ظل الحزب ضعيف الحضور في الوسط اليهودي الذي كان صهيونياً بطبيعته، فما من يهودي أتى إلى فلسطين إلا إيماناً بالصهيونية، والإستثناءات هنا نادرة. أما في الوسط العربي، فلم يكن للحزب الشيوعي الفلسطيني تأثير يذكر، طوال عشرينيات القرن العشرين، ربما لأن القيادة السياسية العربية الفلسطينية التقليدية كانت تعادي اليهود، ولا تفرق بينهم وبين الصهاينة، فيما كل قادة الحزب وكوادره من اليهود، الذين ينفر منهم عرب فلسطين، الواقعين تحت سيطرة قيادتهم التقليدية.

لقد أدخلت هبّة البراق الوطنية الفلسطينية (صيف ١٩٢٩) المجتمع العربي الفلسطيني برمته في أزمة عامة، كما أدخلت الحزب الشيوعي في أزمة مماثلة، إذ وصفت قيادة الحزب الشيوعي الهبّة بأنها مجرد «بوغروم»(**)، أي أنها مجرد مذابح نُظمت لليهود[٧].

فيما وصف قائد الحزب الشيوعي السوري، شامي، هذه الهبّة بأنها ثورة زراعية عظيمة[٨]. وقد انحاز الكومنترن إلى شامي[٩]. وتدخل الأول فنحى قيادة الحزب، وعجّل بانعقاد المؤتمر السابع للحزب، الذي انعقد، فعلاً، في أواسط كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٠، وتمخض عن تصحيح الخط السياسي للحزب، كما انتخب اللجنة المركزية للحزب من سبعة أعضاء، أربعة منهم عرب، فيما خرج مكتب سياسي من هذه اللجنة، ضم ثلاثة أعضاء، إثنان منهم من العرب الفلسطينيين[١٠].

بعد حين أصبح العربي الفلسطيني رضوان الحلو، أميناً عاماً للجنة المركزية للحزب، وذلك بعد عودته من موسكو، ١٩٣٤[١١].

منذ اللحظة الأولى بعد المؤتمر السابع، أخذ الحزب يعالج مسألة الهجرة، انطلاقاً من موضوعة تقول: «إن كل مهاجر هو، بالضرورة، عدو إضافي للشعب العربي، وجندي في خدمة أعداء الاتحاد السوفييتي». وبعد وصول هتلر للسلطة في ألمانيا (مطلع ١٩٣٣) تدفق المهاجرون اليهود إلى

** بوغروم: المذابح التي نظمها المئة السود لليهود في روسيا، عقب اغتيال قيصر روسيا، الكسندر الثاني، سنة ١٨٨١، وكانت نسبة اليهود في المجموعة القاتلة مرتفعة.

فلسطين، فـي إطار الموجة الخامسة للهجرة، مما جعل الحزب يضاعف من نشاطه، المعادي للهجرة، حيث كان أعضاء الحزب بانتظار المهاجرين اليهود على أرصفة الموانئ الفلسطينية، يوزعون المنشورات التي تؤكـد الأزمـة الإقتصادية، التي تعصف بالبلاد، وأن من واجب اليهود النضال ضد الحكـم الهتلري، وأن وجودهم فـي فلسطين لن يؤدي لأكثر من زيادة الاضـطهاد الواقع على العرب»(١٢).

مع تصحيح خط الحزب وتعريبه، انخرط الحزب بقوة، فـي الحركـة الوطنية الفلسطينية، ونزل بثقله فـي انتفاضة تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٣، الوطنية الفلسطينية(١٣). كما حيا الحزب القسام، بعد استشهاده، وتولى مسؤول الحزب فـي يافا، محمد نمر عودة، عرافة حفل التأبين الذي أُقـيم للقسـام، بمناسبة مرور ٤٠ يوماً على استشهاده، دعا خلاله عودة، إلى إقامة حكومة ديمقراطية بالبلاد، ووقف الهجـرة، ومنـع بيـع الأراضـي للمسـتوطنين ومؤسساتهم، كما دعا قيادة الحركة الوطنية إلى العصـيان المـدني فـي فلسطين، والإمتناع عن دفع الضرائب، وطالب باستقالة جميـع موظفـي الحكومة من العرب، كخطوة أُولى للضغط على سلطات الإنتداب البريطاني، وإرغامها على تحقيق مطالب الحركة الوطنية(١٤).

فـيما بين سنتي ١٩٣٥-١٩٣٦، وصل نضال الحزب ضد الهجرة إلى ذروته، وذلك بعد قانون التحويل، الذي سمح لليهود بنقل أموالهم وممتلكاتهم إلى فلسطين. ورأى الحزب أن ذلك التحويل «يُمكّن حفنة مـن الرأسـماليين بإنقاذ أمـوالهم، واسـتغلال العمـال العـرب، وشـراء الجمـاهير ضـد الشيوعية»(١٥).

الحزب والثورة :

بعد تقلبات المسار التي عصفت بالحزب، والتي تجلت بوضـوح فـي اتخاذ موقف المتفرج من هبَّة البراق، وموقفه المتواضع فـي إنتفاضة أكتوبر ١٩٣٣(١٦). تغير الموقف تماماً، عندما انفجرت الثورة الفلسطينية الكبـرى، فـي التاسع عشر من نيسان/إبريل ١٩٣٦، حيث جاءت مشـاركة الحـزب الشيوعي، فكرياً ونضالياً، فـي أول أيار/مايو من العام نفسه(١٧).

انسجاماً مع قرارات «الكومنترن»، أجرت قيادة الحزب اتصالات مع قيـادة الحركة الوطنية الفلسطينية، ممثلة بالحاج أمين الحسيني، بوصفه رئيس «اللجنة

العربية العليا»(١٨). بهدف التنسيق معه، فأصدر الحزب بياناً، آنذاك، أيد فيه مطالب الحركة الوطنية الفلسطينية، المتمثلة في وقف الهجرة اليهودية، ومنع انتقال الأراضي لليهود، ومنح الفلسطينيين حكماً برلمانياً. ولم يكتف الحزب بذلك، بل دعا اليهود إلى الانخراط في الحركة الوطنية العربية(١٩).

مع بداية الثورة، أكد الحزب الشيوعي الفلسطيني أن المعركة المندلعة في فلسطين هي معركة بين معسكرين اثنين: المعسكر العربي التقدمي، والمعسكر الإمبريالي الصهيوني الرجعي. وأعرب الحزب، وقتها، عن تأييده غير المشروط لقيادة الحركة الوطنية العربية الفلسطينية(٢٠). فقامت اللجنة المركزية للحزب بتحديد مهمات أعضاء الحزب، أثناء الثورة، على النحو التالي(٢١):

- تكون مهمة الأعضاء العرب في الحزب المشاركة الفعالة في التنظيمات الرامية لإنهاء الاحتلال البريطاني – الصهيوني.

- تكون مهمة الأعضاء اليهود المساعدة في هذه الجهود، والعمل على إضعاف التوسع الصهيوني – الإمبريالي.

وصل عدد أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني، ١٩٣٦، إلى الألف عضو، وخلالها تمكن الحزب من تعميق علاقته مع قيادة الحركة الوطنية، التي وافقت على تعيين عضوين بارزين في اللجنة المركزية للحزب (١٩٣٧)، هما فؤاد نصار ونمر عودة، كمستشارين سياسين لهما. فقد وحد الحزب نضاله مع النضال الوطني العام، وخلال ذلك رفع الحزب شعاراً موجهاً إلى اليهود، يقول «التحقوا بالحركة التحررية العربية»، وحث الجماهير العربية، من جانب آخر، على متابعة النضال الوطني، والتقدم في خطوات حاسمة إلى الأمام، تحت شعار «من أجل شعب مقاتل»، محذراً تلك الجماهير من مساومات السياسيين، وأكاذيبهم(٢٢).

منذ اللحظة الأولى لاندلاع ثورة ١٩٣٦، وتحديداً في ١٠ حزيران/يونيو ١٩٣٦، أصدر الحزب بياناً، أشار فيه إلى أن الاحتلال البريطاني – الصهيوني بات يتطلب المقاومة السريعة والفعالة، وإلا سيفقد الشعب العربي الفلسطيني، جراء سياسة النهب الصهيوني، بلاده فلسطين إلى الأبد، فقد اعتبر الحزب أن المطامع الصهيونية تتجاوز الواقع الفلسطيني، لتشمل الحصول على حق استيطان شرقي الأردن، مما شكل تهديداً بقطع السلسلة التي تربط البلدان العربية فيما بينها، ويوجه ضربة قاصمة لأعلى

طموحات الحركة الوطنية التحررية العربية، والحلم التاريخي لهـا، وهـو توحيد جميع الشعوب العربية، وتحريرها من نير الاستعمار الإمبريالي[٢٣].

توالت نداءات اللجنة المركزية للحـزب الشـيوعي الفلسـطيني عـام ١٩٣٦لليهود والعرب، على حد سواء ، فكان توجيه اللجنة المركزية للحزب الصادر فـي الأول من أيار/مايو ١٩٣٦، وفـيه دعا الجمـاهير العربيـة والعمال الكادحين من اليهود للالتحاق بالنضال الـوطني التحـرري، الـذي تخوضه الحركة الوطنية الفلسطينية، على طريق الحياة والحريـة، وتـرك المعسكر الصهيوني الغازي، والالتحاق بالإضراب العام، حيث أكدت اللجنة أن «إنتصار الحركة الوطنية العربية سيساهم فـي إيجاد حل سليم لمشـكلة الأقلية اليهودية فـي فلسطين»[٢٤].

لم يكتف الحزب الشيوعي الفلسطيني بتوجيه النـداءات والتوجيهـات، ودعم الإضراب العام، معنوياً، فعندما تصاعدت نضالات المجموعات العربية المسلحة فـي أنحاء فلسطين، دعا الحزب الشيوعي الفلسـطيني الجمـاهير الشعبية إلى دعم تلك المجموعات المسلحة، بكل السـبل الممكنـة، وطالـب أعضاءه بالإنخراط فـي هذه المجموعات. وعلى هذا الأساس التحق عدد من الشيوعيين العرب بالكفاح المسلح، ومنهم نمر عودة، الـذي انتخـب، عـام ١٩٣٧، عضواً فـي اللجنة المركزية للحزب.

برر الحزب لجوء جماهير الشعب العربي الفلسطيني إلى الكفاح المسلح، حتى لا تقتصر أشكال نضالها على الإضراب العام، كشكل نضالي وحيـد، فـي مواجهة جيش مجَّهز بالأسلحة الحديثة، والدبابات، والطـائرات، كمـا رأى الحزب أن لا مفر من استخدام سلاح حرب العصابات، وذلك لتـدمير القاعدة الاقتصادية، التي يستند إليها الصهاينة، ولجعل استمرار الإسـتيطان الصهيوني أمراً مستحيلاً[٢٥].

استمر الحزب الشيوعي الفلسطيني فـي مشاركته السياسية والعسـكرية فـي الثورة، حيث قتل واعتقل من أعضائه الكثيرون. وجاء علـى لسـان المناضل الشيوعي المصري، محمد دويدار، وكان عضـواً فـي اللجنـة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني أنه كان ورضوان الحلو، ومحمد نمر عودة ينظمون الفرق المسلحة، أثناء الثورة، ويمدونها بالسلاح والمال، وذلك بتوجيه من قيادة الحزب، فكانوا يستخدمون سيارات المزرعة الحكومية فـي نقل الأسلحة، وقد أشعلوا حريقاً فـي منطقة تجمع أخشاب فـي يافا، تخص

الصهاينة، إذ كانت لدى أعضاء الحزب مادة موضوعة في الماء، إذا أخرجت منه، تحولت إلى شعلة من اللهب(٢٦).

أصبح الحزب الشيوعي الفلسطيني، آنذاك، في موقع متقدم في الحركة الجماهيرية والكفاح المسلح، على حد سواء، فجاء في تعميم صادر عن اللجنة المركزية للحزب، ١٩٣٦، أن القنابل التي ألقيت على نقابة عمال (الهستدروت)، ألقاها أعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني، حسب أوامر صدرت إليهم من اللجنة المركزية(٢٧).

أثناء احتدام الصراع داخل ثورة ١٩٣٦، بين الجماهير العربية وبين قوى الاستعمار، كانت هناك رسائل متبادلة بين الحزب الشيوعي الفلسطيني في موسكو وبين قادة الحزب في فلسطين، والتي كانت تعبر، بوضوح عن رأي «الكومنترن»، في أهمية استمرار هذه الحركة الوطنية التحررية، مثل ذلك تلك الرسالة من ممثل الحزب الشيوعي الفلسطيني، محمود الأطرش، في موسكو، إلى رضوان الحلو في فلسطين (٢٣ آب/أغسطس ١٩٣٦) وفيها رد الأول على رسالة الأخير، فقال إنه يعلم أن مدة الإضراب الشعبي العام، والنضال اليومي المسلح، قد طالت، وعلى الرغم من ارتفاع الحماس العام، والسخط المتزايد على الاستعمار البريطاني والصهيوني، وخاض الشعب العربي، فإنه يخشى على معنويات الجماهير من طول فترة الإضراب، لذا يجب(٢٨):

١- تجنيد الجماهير العربية الواسعة، أكثر من أي وقت آخر، مع توجيه الدعوة لجميع الأحزاب الوطنية المناضلة ضد الاستعمار، لتوحيد صفوفهم.

٢- العمل على توسيع نطاق هذه الحركة، عندكم، في البلاد المجاورة، وأيضاً إلى جميع الشعوب العربية، والشعب الإنجليزي، والجماهير العاملة واليهودية في فلسطين.

٣- فضح الإرهاب الوحشي والفظائع الدموية التي يرتكبها الموظفون الفاشيست من الإنجليز وزعماء الصهاينة، وذلك في فلسطين والعالم أجمع.

٤- الاستفادة من الخلاف داخل «الهستدروت»، والمعسكر الصهيوني، مع توجيه النداءات الأخوية للعمال اليهود، لتكوين الجبهة الموحدة.

أما التقرير الذي أصدره الحزب الشيوعي الفلسطيني، وأرسله إلى موسكو، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٧، وهو عن ثورة ١٩٣٦، فتضمن درجة التطور التي صاحبت الحركة التحررية الوطنية في الأقطار العربية، دفاعاً عن حقوقها

فـــي الديمقراطية، وفـــي مواجهة الاستعمار، بأســـاليب الكفـــاح الثـــوري، كمـــا أظهرت الثورة نمو الوعي الوطني الجماهيري العربي، ومقدار وقوة التضـــحية، والثبات، والشجاعة الكامنة فـــيه. موضحاً أن من أهم أسباب الثورة هـــو تمـــادي الاستعمار البريطاني فـــي تنفـــيذ السياســـة الصـــهيونية، ومحـــاولات الأخيـــرة المستميتة فـــي «احتلال العمل»، و«الأرض»، على السواء(٢٩).

تنبه الحزب الشيوعي، آنذاك، إلى الخطر القـــابع وراء طموحـــات القـــوى الإمبريالية، وبجانبها الحركة الصهيونية، فأصدر الحـــزب وثيقـــة، فـــــي ٢٢ حزيران/يونيو ١٩٣٦، دعا فـــيها العرب إلى الوحدة فـــي مقاومة الإحـــتلال، فـــي جميع الأقطار العربية، مدللاً على ذلك بأن أي مقاومة فـــي مكان عربـــي تصب فـــي حساب المجموع، لفت الحزب النظر إلى أهمية موقع فلسطين فـــي الوطن العربي، فعبر عن أهمية البحر الميت، كيميائياً، للمشروعات البريطانيـــة الصناعية، والتي يعتمد على مادة البوتاس الخام الأكثر نقاء فـــي العالم، وأهمية ميناء حيفا، كميناء استراتيجي، ينقل من خلاله الـــنفط العراقـــي، فضـــلاً عـــن فلسطين نفسها، كمعبر بـــين البحـــر المتوســـط والخلـــيج الهنـــدي، وموقعهـــا الاستراتيجي، كمفتاح لحركة الاقتصاد والتجارة بـــين الشـــرق والغـــرب، وأن السيطرة عليها تعد سيطرة على النفوذ العربي(٣٠).

نجد هنا أن الحزب الشيوعي الفلسطيني تنبه إلى أهمية فلسطين بالنســـبة لمصالح القوى الإمبريالية، واحتضانها للحركة الصهيونية، كـــأداة اختـــراق فـــي سبيل التحكم فـــي العالم العربيه.

فـــي غمار الثورة الوطنية التحررية انخرط الحزب الشيوعي، بنشـــاطه الوطني المعادي للإمبريالية والصهيونية، ولكن تحت قيادة «اللجنة العربيـــة العليا»، فطغى هذا الإنخراط على سياسة الحزب ذاتهـــا، أي أصـــبح مـــن الصعب التمييز بين موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني، كحزب طبقي، يعبر عن مصالح العمال الكادحين، وبـــين بقيـــة أطـــراف الحركـــة الوطنيـــة، وقيادتها(٣١). فكان الأعضاء العرب ينضمون إلى الثورة، حتـــى بـــدون إذن مسبق من اللجنة المركزية للحزب، حيث ترك بعض الأعضاء العرب كـــل التزام حزبي، وبدأوا يتلقون تعليماتهم من القادة الوطنيين(٣٢).

فـــي حين أظهرت قيادة الحركة الوطنية مظاهر غاية فـــــي الســـلبية، ومنها توجه قيادتها، متمثلة فـــي المفتي، إلى إقامـــة روابـــط وثيقـــة مـــع «المحور» الفاشي والألمان، اعتقاداً منها أنهم سيساعدونها فـــــي ثورتهـــا، معتمدة على المبدأ الساذج: «عدو عدوي صديقي».

كما أن قيادة الحركة الوطنية استخدمت أسلوب الإرهاب الفردي، غير أن سياسة التبعية التي انتهجها الحزب الشيوعي الفلسطيني، منعت الشيوعيين الفلسطينيين من انتقاد المفتي. ومع استمرار ذلك الدعم من الحزب، تدخلت قيادة الأممية الشيوعية، ونبهت الحزب إلى مخاطر الإستمرار على سياسته، وطالبته باتخاذ موقف متمايز عن مواقف القيادة الوطنية التقليدية(٣٣).

كلما تقدم الحزب الشيوعي الفلسطيني في طريق الكفاح المسلح، كان الحزب يتجه نحو الانشقاق، أكثر فأكثر، حيث أن التيار الارتدادي أخذ في الاتساع والإعلان عن نفسه. ساعد في ذلك إحتداد التمايز داخل الحزب الشيوعي بين الأعضاء العرب والأعضاء اليهود، الأمر الذي كرسته قيادة الحزب بإعطائها واجبات للأعضاء العرب داخل الحزب مغايرة عن واجبات الأعضاء اليهود، مما عمق هذا التمايز بدل أن يعالجه.

بخفوت أصداء ثورة ١٩٣٦، قام الحزب الشيوعي بمراجعة نقدية شاملة للدور الذي لعبه الشيوعيون، خلال ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩، حيث أر الهزيمة إلى(٣٤):

- فقدان القيادة المركزية لقوات الثورة.
- تسلط وأنانية قادة الثورة، وانتهازية بعضهم.
- ضعف الحزب الشيوعي الفلسطيني.
- اندساس العملاء الفاشيين، والألمان، وحملهم الإرهاب إلى الثورة.

وأقر الحزب أن الخط العام له، خلال الثورة، كان سليماً، في جوهره، وإن تخللته بعض السلبيات.

تبلورت عوامل الانقسام داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني، بعد إخفاق ثورة ١٩٣٦، وتم فرز الأوراق، من جديد، داخل الحزب. وقتها ظهر، بوضوح، لأول مرة، أن هناك شرخاً قائماً بين معسكرين مستقلين، ومتناقضين، المعسكر العربي من جهة، والمعسكر اليهودي من جهة أخرى.

تفاقم الصراع القومي داخل الحزب الشيوعي، الفلسطيني، حيث ارتفعت أصوات معظم القادة اليهود داخل الحزب الشيوعي تبشر بنشوء نواة قومية يهودية في فلسطين(٣٥).

بداية عام ١٩٣٧، اجتمع ممثلو المنظمات الشيوعية، فـي كـل مـن القدس، وحيفا، وتل أبيب، بإشراف اللجنة المركزية، وقرروا تشكيل «القسـم اليهودي» كهيئة تنظيمية مسئولة عن نقل قرارات وتوجيهات قيادة الحزب.

فـي ظل استمرار حملات القمع والمواجهة ضد الشيوعيين، والتي نتج عنها اعتقال رضوان الحلو، بدأت الروابط تضـعف بـين قيـادة الحـزب وسكرتارية القسم اليهودي، وبدأ الأخير يتمتع ببعض الاستقلالية فـي اتخاذ القرارات، فأخذ ينتهج سياسة تمايزت مع سياسة الحـزب، تمثلـت فـي الانخراط فـي صفوف المنظمات والأحزاب الصهيونية، بحثاً عن العناصر الثورية، فـي حين كانت رؤية الحزب أن التجمـع الاسـتيطاني اليهـودي متجانس، ومسيطر عليه، تماماً، من الحركة الصهيونية[٣٦].

ظهر الاختلاف واضحاً بين الخط السياسي للحزب الشيوعي الفلسطيني والخط السياسي الذي اتبعه «القسم اليهودي» داخل الحزب. فقامـت اللجنـة المركزية بانتقاد الأسس السياسية التي انتهجها «القسم اليهودي»، إلى أن جاء قرار الفصل التام. وقررت اللجنة المركزية للحزب حل القسم اليهودي، وذلك فـي كانون الأول/ديسمبر ١٩٣٩[٣٧].

كان لهذا الموقف رد فعل عنيف داخل الحزب الشـيوعي الفلسـطيني، حيث قاد بولس فرح، وتوفـيق طوبى، وإميل حبيبي، الأعضـاء العـرب، فـي مواجهة التيار اليهودي داخل الحزب، فشن حبيبي حملة صحفـية ضد قادة «القسم اليهودي»، متهماً إياهم بالشوفـينية، وأكد الجنـاح العربـي أن الحزب الشيوعي الفلسطيني هو حزب وطني عربي، بالرغم من احتوائه على عناصر يهودية[٣٨].

لم تمض سوى أشهر قليلة على اتخاذ قرار حل «القسم اليهودي» داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني، حتى ظهر تكتل انشقاقي جديد داخل الحزب، وتبناه، بالطبع، قادة القسم اليهودي السابقين، واستمر يعمل خارج صـفوف الحـزب الشـيوعي الفلسطيني لمدة عامين، وهكذا أصبح الانقسام أمراً لا مرد له[٣٩].

في أيار/مايو من العام ١٩٤٣، أعلن عن حل «الكومنترن»، فرحب بحله الأعضاء العرب داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني، حيث تسنى لهم التمـرد على الأغلبية اليهودية، داخل الحزب، وتشكيل التنظيم الشـيوعي العربـي، وذلك تحديداً، فـي أيلول/سبتمبر ١٩٤٣، حين تكونـت «عصـبة التحـرر الوطني»، وقفاً على الأعضاء العرب فـي الحزب[٤٠].

هكذا تبادل الحزب الشيوعي الفلسطيني التأثير مع الثورة، مع انحسارها، التي أظهرت الحدود بين الأعضاء العرب والأعضاء اليهود في الحزب، الأمر الذي عمقته قيادة الحزب بتحديد واجبات خاصة للأعضاء العرب، تختلف عن واجبات نظرائهم اليهود، واستفحل الأمر بتخصيص قسم للأعضاء اليهود، بقيادة خاصة، مما هيأ الحزب للانشقاق.

لقد كانت تجربة «عصبة التحرر الوطني»، على الرغم من قصرها، غنية بالعبر والدروس، فقد استطاعت العصبة أن تجسد التلاحم العضوي بين الكفاح الوطني المثابر والكفاح الطبقي الواعي، واستحثت بذلك جماهير عريضة من الكادحين لم يسبق لهم المشاركة في العمل الوطني. وبفضل نشاط العصبة، تحولت الطبقة العاملة العربية في فلسطين، لأول مرة في تاريخها، إلى قوة رئيسية من قوى النضال الوطني التحرري المعادي للإمبريالية والصهيونية[٤١].

منذ قيام "عصبة التحرر الوطني" نشطت في أوساط المثقفين والعمال، وأصدرت جريدة أسبوعية في يافا، هي «الاتحاد»، كما أصدرت «رابطة المثقفين العرب» - وهي تجمع لمثقفي العصبة -«الغد»، مجلة فكرية نصف شهرية. ذات تأثير فعال في أوساط المثقفين في شتى المستويات، فجاءت افتتاحية العدد الأول من «الغد» تؤكد أن: «الغد مجلة فكرية شهرية، يتسع أفقها لجميع الثقافات، القديم منها والجديد، الشرقي والغربي، وهي التي تطلب العلم والمعرفة، أينما وجد، وهي الثقافة التي تؤدي إلى الازدهار، وتقدم البشرية نحو عالم حر، يتساوى فيه الأفراد بالحقوق والواجبات»[٤٢].

على أن "عصبة التحرر الوطني" لم تظهر كحزب شيوعي عربي، وإنما ظهرت كتنظيم وطني تحرري يساري عريض، وقف على رأسه الشيوعيون العرب، الذين انسلخوا عن الحزب الشيوعي الفلسطيني[٤٣]، أساساً بتأثير ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية.

هوامش الفصل الثالث

(١) لمزيد من التفاصيل حول الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية في فلسطين، خلال سني الحرب العالمية الأولى، يمكن الاستعانة بـ:
- ماهر الشريف، **تاريخ فلسطين الاقتصادي والاجتماعي**، بيروت، دار ابن خلدون، ١٩٨٥، ص ٤٣-٥١ .
- أحمد الاسعد، **التطور الاقتصادي في فلسطين**، حيفا، دار الاتحاد ١٩٨٥، ص ٣٤-٣٥ .
- عبد القادر ياسين، **تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية، ١٩١٨-١٩٤٨**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث ١٩٨٠، ص ١٥-٤٥ .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول التعليم في فلسطين أنذاك، يمكن الرجوع إلى:
- عبد الله القطشان، **التعليم في فلسطين**، الجزء الأول، عمان، دار الكرمل، ١٩٨٧، ص ١١-٢٣ .

-Adnan Abu Ghazalah ،Arab Cultural Nationalism in Palestine During British Mendate ،**Palestine studies** ،vol ،١ .Spring ،١٩٧٢ pp.٣٧-٣٦

(٣) سميح سمارة، **العمل الشيوعي في فلسطين الطبقة والشعب في مواجهة الكولونيالية**، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩، ص ٤٥-٤٧ .

(٤) **المصدر نفسه**، ص ١٠٧ .

(٥) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(٦) د. ماهر الشريف، **الشيوعية والمسألة القومية العربية في فلسطين ١٩١٩-١٩٤٨**، نيقوسيا، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ١٩٨٦، ص ٥٨ .

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٤٨ .

(٨) عبد القادر ياسين، الحزب الشيوعي الفلسطيني والقضية الوطنية، **الكاتب** (القاهرة)، الحلقة الأولى، العدد ١٢٠، السنة الحادية عشرة، مارس/أذار ١٩٧١، ص ٨٨-١٠٠ .

(٩) **المصدر نفسه**.

(١٠) الشريف، الشيوعية... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٩ .

(١١) نادر سلسيلي، الحركة الشيوعية في فلسطين ١٩١٩-١٩٤٨، **صامد الاقتصادي**، (عمان)، نيسان/إبريل، ٢٠٠٤، ص ٦٨-٩٧ .

(١٢) سمارة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٠ .

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ١٩٢ .

(١٤) الشريف، الشيوعية... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٨ .

(١٥) سمارة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٠ .

(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٢١٤ .

(١٧) عبد القادر ياسين، الحزب الشيوعي الفلسطيني والقضية الوطنية، **الكاتب**، (القاهرة)، الحلقة الثانية، العدد ١٢١، السنة الحادية عشرة، نيسان/إبريل ١٩٧١، ص ١٠٠-١١٧ .

(١٨) سمارة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٣ .

(١٩) الشريف، الشيوعية... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٨ .

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ٩١ .

(٢١) Sandra Miller Rubenstein ،**The Communist Movements in Palestine and Israel** (١٩١٩-١٩٨٤) , USA ،Westiview press ،IAC ،١٩٨٥ ،Page ٢٣١ .

(٢٢) سمارة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٤ .

(٢٣) الشريف، الشيوعية.. . ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٩ .

(٢٤) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص ٩٨ .

(٢٦) ياسين، الكاتب، الحلقة الثانية، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٤ .

(٢٧) سمارة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٣، ٢١٤ .

(٢٨) ماهر الشريف، (جمع وتقديم)، **فلسطين فـي الأرشيف السري للكومنترن**، دمشـق، دار المدى، ٢٠٠٤، ص ٤٤٣-٤٤٤ .

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٤٤٦-٤٤٨ .

(٣٠) Sandra ،١٠P .Cit ،.p.٢٣٤

(٣١) الشريف، الشيوعية... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩١ .

(٣٢) سمارة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١٤ .

(٣٣) الشريف، الشيوعية.. ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٢- ٩٦ .

(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٩٤ .

- ولمزيد من التفاصيل انظر:
- ياسين، الكاتب، الحلقة الثانية، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٤-١١٥ .

(٣٥) ياسين، الكاتب، الحلقة الثالثة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٣ .

(٣٦) الشريف، الشيوعية... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٥ .

(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ٩٦ .

(٣٨) ياسين، الكاتب، الحلقة الثالثة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٤ .

(٣٩) الشريف، الشيوعية... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٧ .

(٤٠) ياسين، الكاتب، الحلقة الثانية، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٠ .

(٤١) الشريف، الشيوعية... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠١ .

(٤٢) ياسين، الكاتب، الحلقة الثالثة، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٤ .

(٤٣) الشريف، الشيوعية... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٤ .

الباب الخامس

الإبــداع



الفصل الأول

الشعر والثورة

د.محمد السيد إسماعيل



ينفرد الشعر، عن غيره من الأجناس الأدبية الأخرى، بمجموعة من الخصائص، التي تجعله أكثر التصاقاً بالأحداث الثورية، والمتغيرات الاجتماعية، التي تمثل سياقاً عاماً له؛ ومن هذه الخصائص سرعة الاستجابة، وقدرته على اصطياد اللحظة الثورية، وتكثيفها، وإشاعتها.

من هذا المنطق يمكن النظر إلى الشعر الفلسطيني، الذي صاحب ثورة فلسطين الكبرى عام (١٩٣٦)، معبرا عن طموحاتها، وانكساراتها، ورؤاها، والذي مثله أقطاب الحركة الشعرية الفلسطينية، في ذلك العهد، من أمثال: إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وغيرهم.

لكننا، قبل الحديث عن سمات هذا الشعر، والدور الكبير الذي قام به، سوف نعرض، بإيجاز - وعلى سبيل التمهيد فحسب - لثورة ٣٦، بوصفها الحدث الأكبر، الذي هز كيان شعراء هذه المرحلة، ومثل دافعاً قوياً لإنتاجاتهم الشعرية.

وفي هذا السياق يمكن القول إن ثورة ٣٦ ليست إلا تتويجاً لما كان يعتمل في الواقع الفلسطيني، على مدى ما يقرب من عشرين عاماً، من أفكار وأحداث ثورية؛ وللتدليل على ذلك يمكن الإشارة إلى أن الثورات الفلسطينية ضد الاحتلال الانجليزي والحركة الصهيونية قد تتابعت، بصورة مطردة، في الأعوام (٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٩، ٣٣، ٣٥)، وصولا إلى ثورة ٣٦، التي استمرت ثلاث سنوات متتابعة.

ولا يمكن الحديث عن ثورة ٣٦ بغير الحديث عن «عز الدين القسام»، الذي كان استشهاده عام ١٩٣٥ سببا رئيسياً في قيام الثورة؛ فقد بدأ «القسام» حركته الثورية عام (١٩٢٢)، وأتاح له عمله «مأذوناً شرعياً» التجول في القرى، ونشر أفكاره عن ضرورة الثورة ضد الوجود «الصهيوني»، المتصاعد بموازرة الاحتلال الإنجليزي، ورعايته.

وقد امتلك «القسام» - وهذا أهم ما يبقى منه - رؤية ثورية حقيقية، تمايزت - بدرجة جذرية - عما كان مطروحاً، قبله، من أفكار وأساليب في التعامل مع الاحتلال الانجليزي، والحركة الصهيونية.

ومن هذه الأفكار تأكيده على أهمية الاعتماد على الفلاحين والعمال، بعد أن ثبت ضعف الطاقة الثورية لأشباه «الإقطاعيين»، أو طبقة كبار الملاك الزراعيين، بل تهاونهم مع الاحتلال الانجليزي، والحركة الصهيونية، واستعداد قلة منهم لبيع الأراضي الفلسطينية، مقابل «المال»، واعتمادهم

«التفاوض» أسلوباً وحيداً في المطالبة بما يرونه من «حقوق». ولا شك في أن هذه الفكرة تؤكد البعد الطبقي –الذي تم إغفاله كثيراً– في الصراع العربي/الصهيوني، وكان طرح «القسام» لها أمراً بالغ الجدة، والتطور، في هذه المرحلة.

ومن هذه الأفكار، كذلك، الربط الواعي بين «بريطانيا» و«الحركة الصهيونية»، والنظر إليهما بوصفهما كياناً استعمارياً واحداً؛ في الوقت الذي كانت تقوم فيه القيادات الفلسطينية بالفصل بينهماء بل تقوم بـ«توسيط» «بريطانيا» في الصراعات التي ظلت تنشب بين الشعب الفلسطيني وبين الحركة الصهيونية.

ولا ترجع أهمية حركة «القسام» إلى ما طرحه من أفكار ثورية فحسب، بل، أيضاً، إلى امتلاك عقلية تنظيمية واعية. وقد ترتب على ذلك إنشاؤه «تنظيماً سرياً» للحركة، خاصة أنه يتعامل مع واقع معادٍ بصورة شبه إطلاقية؛ وإنشاء خمس لجان، تستوعب جوانب الحركة الثورية المختلفة، هي: لجنة الدعوة، التي تتألف من العلماء والدعاة؛ ولجنة التدريب العسكري؛ ولجنة العتاد، المسئولة عن توفير السلاح؛ ولجنة مراقبة الأعداء، المسئولة عن جمع المعلومات حول العدو؛ ولجنة الشئون الخارجية.

وقد اختار «القسام» منطقة «جنين»، القريبة من «حيفا»، منطلقاً لحركته، لوعورتها، ولكثرة العمال والفلاحين فيها، وفي ١٤ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٣٥ التقى نفر من جماعة «القسام» بجاويش «يهودي»، وشرطي «عربي»؛ فقتلوا الجاويش، وتركوا الشرطي، الذي أخبر بما رأى؛ فأحكم الإنجليز الطوق على الجماعة، في «جنين»؛ لكن «القسام» لم يستسلم، بل طلب من زملائه أن «يموتوا شهداء».

واستمر الاشتباك، من الفجر حتى التاسعة صباحاً، حيث قتل «القسام» وبعض صحبه.

وبعد استشهاد «القسام» بخمسة أشهر، اشتعلت «الثورة»، التي بدأت بإضراب عام أعلنه معظم طوائف الشعب ضد الوجود الصهيوني والإنجليزي معاً؛ مطالبين بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين؛ ووضع قانون يمنع انتقال الأراضي العربية لليهود، أو الاستيلاء عليها من السلطات الإنجليزية، وتسليمها إلى اليهود؛ وتشكيل حكومة وطنية عربية، تتولى السلطة في فلسطين، ومع تطور الأحداث اتحدت القيادات السياسية العربية الفلسطينية،

تحت اسم «اللجنة العربية العليا»، كما نشأت سلطات محلية، باسم «اللجان القومية»، لتوجيه الثورة.

وقد لجأ الإنجليز إلى بعض الحكام العرب ليتوسطوا لدى القيادات السياسية في فلسطين، حتى تدعو الشعب إلى إنهاء إضرابه، ونجحت هذه الوساطة التي كان «نوري السعيد» (وزير خارجية العراق، آنذاك) على رأس القائمين بها، في إيقاف هذا الإضراب، الذي استمر زهاء ستة أشهر متصلة؛ ومع ذلك -وهو أمر متوقع تماماً- لم يحدث أي تفاهم بين شعب فلسطين والسلطات الإنجليزية؛ وهو ما جعل استمرار الثورة - التي ظلت ثلاث سنوات- أمراً متوقعاً وطبيعياً.

يمكن القول إن الأشعار التي صاحبت ثورة ٣٦ تمثل المرحلة الثالثة في تطور الشعر الفلسطيني الحديث، وهي الأعوام التي تقع ما بين (١٩٢٠- ١٩٣٩) أي بين الحربين العالميتين الأولى والثانية؛ وقد شهدت هذه المرحلة تطوراً شعرياً ملحوظاً، على مستوى التيمات الموضوعية، والبناء الفني، على السواء؛ فعلى المستوى الموضوعي نلاحظ اهتماماً شعرياً واضحاً بالقضايا السياسية والاجتماعية؛ وعلى المستوى الفني نجد - على الرغم من التزام معظم هذه الأشعار بوحدة الوزن والقافية- نزوعاً قوياً إلى التجديد، تمثل في التخلص من التكلف، واصطناع الزخارف اللفظية، والبديعية؛ والاتجاه إلى البساطة، والوضوح والمباشرة، التي لم تكن تُخلُ - في أغلب الأحيان- بفنية القصيدة.

على أن أهم تطور يمكن رصده، في هذه المرحلة، هو التأكيد على مفهوم «الشاعر/المناضل»، الذي جسده هؤلاء الشعراء، دون استثناء، تقريباً، على المستوى الحقيقي الواقعي، ويمكن الاستشهاد بنموذج واحد، يجسد هذا المفهوم، الذي يتجاوب مع الواقع الثوري لهذه المرحلة التاريخية؛ وأعني بهذا النموذج الشاعر/عبد الرحيم محمود؛ وهو تلميذ مباشر للشاعر/إبراهيم طوقان؛ وقد عمل -لفترة- مدرساً، وعندما اشتعلت ثورة ٣٦، شارك فيها بالشعر والفعل، وعندما شعر بنهايتها، والالتفاف عليها، انتقل إلى العراق، وهناك شارك في ثورة رشيد علي الكيلاني، عام ١٩٤١ . وعندما قامت حرب (١٩٤٨) عاد إلى فلسطين، وشارك في هذه الحرب، مع «جيش الانقاذ العربي»، واستشهد محمود في إحدى المعارك بقرية «الشجرة»، قريباً من «الناصرة»، ولم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره.

يمكننا، الآن، التوقف أمام أهم التيمات الموضوعية، التي دار حولها شعر هذه المرحلة؛ دون أن يعني ذلك تقسيمه إلى أغراض، على عادة بعض الدراسات، التي تناولت هذا الشعر؛ أو حتى تقسيمه إلى قضايا عامة، قد يشترك فيها مع غيره، بل يهمني الوقوف أمام ما هو جوهري، وأكثر دوراناً في شعر هذه المرحلة؛ وبهذا المفهوم يمكن رصد ما يلي:

١ـ الشعر والنبوءة:

ارتبط الشعر – منذ أقدم عصوره– بالنبوءة؛ فقد كان الشاعر – وربما لا يزال– العين البصيرة لجماعته البشرية؛ إنه أشبه بـ«زرقاء اليمامية»، التي ترى ما هو آت، وتستشرف المستقبل، وتحذر من عاقبة ما يتم في الحاضر؛ والنبوءة –بداهة– ليست ضرباً من الأوهام والتخيلات، بل استقراء للواقع، وفهماً عميقاً لأحداثه؛ وفي هذا السياق يمكن النظر إلى قصيدة الشاعر/عبد الرحيم محمود، التي قالها مخاطباً أحد الأمراء العرب، عند زيارته للقدس:

ياذا الأمير امام عينك شاعر ضمت على الشكوى المريرة أضلعه
المسجد الأقصى أجئت تزوره أم جئت من قبل الضياع تودعه؟
وغدا وما أدناه لا يبقى سوى دمع لنا يهمي وسن تقرعه

فالشاعر –هنا– لا يحفل بقدوم هذا الأمير؛ ولم يفكر في كتابة قصيدة في تمجيده ومديحه؛ بل يخاطبه بندية، محذراً إياه – وهو تحذير متجه إلى كل العرب، فلسطينيين أم غير فلسطينيين– من النهاية الوشيكة لتلك الأماكن المقدسة، التي جاء لمجرد زيارتها، شأنه شأن السائح الأجنبي، الذي لا يهمه من أمرها شيء.

ومن البداهة أن الشاعر لا يلقي باللائمة على هذا الأمير، تحديداً، بل يتخذ منه رمزاً للحكومات العربية، التي تهاونت مع ما يحدث داخل فلسطين؛ وكانت – في بعض الأحيان– عوناً في تحقيق المآرب الاستعمارية؛ ولنتذكر أن بعض هذه الحكومات كانت وسيطاً في إنهاء إضراب الفلسطينيين العام، الذي أشرنا إليه.

وفـي هذا السياق، أيضاً، يمكن النظر إلى تلك القصيدة المهمة التي كتبها الشاعر/إبراهيم طوقان، عن بيع بعض الإقطاعيين للأرض، مقابل «المال»!

بـاعوا الـبلاد إلـى أعـدائهم طمعـا	**بالمـال لكنمـا أوطـانهم بـاعوا**
قـد يُعـذرون لـو أن الجـوع أرغمهـم	**والله مـا عطشـوا ولا جـاعوا**
تلـك الـبلاد إذا قلـت إسـمها وطـن	**لا يفهمون ودون الفهـم أطمـاع**
يا بائع الأرض جنيت على الأرض لم تحفل بعاقبة	**ولا تعلمـت أن الخصـم خـداع**
لقـد جنيـت علـى الأحفـاد والهفـي	**وهـم عبيـد وخـدام وأتبـاع**
وغـرك الـذهب اللّمـاع تحـزره	**إن السـراب كمـا تدريـه لمـاع**
فكـر بموتـك فـي أرض نشـأت بهـا	**واترك لقبرك أرضا طولهـا بـاع**

لا بد أن تستوقفنا هذه الثنائية، التي يضعها الشـاعر - بـوعي- بـين «البلاد» من ناحية و«الأوطان» من ناحية أخرى؛ فـ«البلاد» مجرد إطـار مكاني لا يشعر «بائعو الأرض» بالانتماء إليه؛ فـي حين يمثل «الـوطن»، بموروثاته الروحية والاجتماعية جزءاً من كيان مواطنيه؛ والحقيقة أن مشكلة هؤلاء الإقطاعيين لا تكمن فـي عدم الإدراك، بل تكمن -أساساً- فـي تلك المنفعة الطبقية الضيقة، التي تجعل الإقطاعي أو الرأسمالي، عموماً،لا يرى وطناً له سوى «المال»، الذي يتحرك معه داخل هذه «البلاد»، أو خارجهـا، تطبيقاً لتلك المقولة النافذة «المال وطن فـي الغربة». على أن ما يهمنا فـي هذه القصيدة هو «نبوءة» الشاعر بعواقب هذا «الفعل» وجنايته على الأجيال الفلسطينية المتعاقبة.

وهكذا يقف شعر هذه المرحلة أمام ما يقع فـيها من أحـداث سياسـية، معبراً عنها، ومحذراً من عواقبها؛ وهو دور لا يقل أهمية عن الفعل السياسي المباشر، الذي تمثل فـي تلك الإضرابات والثورات المتتالية، التـي وقفـت فـي وجه المحاولات التي سعت -ولا تزال- إلى تهويد الأرض الفلسطينية.

٢ـ شعر المعارضة السياسية:

للشاعر المصري «حسن طلب» قصيدة، بعنوان «زبرجـدة إلـى أمـل دنقل»، يقول فـي بعض أبياتها، على لسـان «أمـل دنقـل»: «القـريض

اعتراض/وكلام من القلب/يجنح للشعب». ولا أرى توصيفاً لشعر هذه المرحلة، التي نتحدث عنها، أصدق من هذا التوصيف؛ بحيث يمكن القول – دون مبالغة– إن شعر هذه المرحلة هو «شعر المعارضة السياسية»، أو «الهجاء» السياسي المباشر؛ كما يمكن وصف هذه المعارضة بالشمول، وذلك لأنها لم تقتصر على معارضة الاحتلال الانجليزي والصهيوني؛ بل شملت معارضة العديد من القيادات الفلسطينية والحكام العرب.

وقد كانت الهجرة اليهودية المتنامية إلى فلسطين إحدى القضايا الأساسية، التي وقف الشعراء ضدها، ونبهوا إلى خطورتها؛ يقول إبراهيم طوقان، مصوراً جوانب هذه القضية:

أرى عددا في الشؤم لا كثلاثة	**وعشر ولكن فاقه في المصائب**
هو الألف لم تعرف فلسطين ضربة	**أشد وانكى منه يوما لضارب**
يهاجر ألف ثم ألف مهربا	**ويدخل ألف سائحا غير آيب**
وألف جواز ثم ألف وسيلة	**لتسهيل مايلقونه من مصاعب**
وفي البحر آلاف كأن عبابه	**وأمواجه مشحونة في المراكب**

إن الهجرة اليهودية الجماعية، والمنظمة، لا تقل خطورة –فيما يؤكد الشاعر بحق– عن استخدام السلاح؛ فهذه الآلاف العديدة التي تم استقدامها من الأقطار المختلفة لم تأت إلا لغرض «الاستيطان»، والإقامة الدائمة، على حساب أصحاب الوطن الفلسطيني.

ولا شك في أن قول الشاعر: «وألف جواز ثم ألف وسيلة/لتسهيل ما يلقونه من مصاعب» إنما يشير إلى دور الانجليز في تنفيذ هذه الهجرات المتتالية؛ مما يعني أن الشعار لم يكن ضد «اليهود»، بوصفهم يهوداً؛ بدليل وجودهم السابق في «فلسطين»، وفي غيرها من الأقطار العربية؛ بل ضد ما كان يهدف إليه الاحتلال الانجليزي، والحركة الصهيونية، من الاستيلاء على «الأرض»، وتهويدها.

وإذا كنا قد عرضنا، فيما سبق، لإحدى قصائد «طوقان»، التي تتحدث عن «بيع الأرض»، فإن استعراضنا لها كان توضيحاً فحسب لما تحمله من «نبوءة» مبكرة، وتحذير من عواقب هذا «الفعل»؛ أما قصيدته «يا رجال البلاد»، فهي هجائية سياسية مباشرة لمقترفي هذه «الجريمة»! وهي بهذا دخلت في باب «المعارضة السياسية» الحادة والصريحة:

قد سقى الأرض بائعوهـا بكـاء	لعنـتهم سـهولها ورباهـا
وطني مبتلـى بعصـبة دلالـين	لا يتقـون فيـه الله
في ثيـاب تُريـك عـزا ولكـن	حشـوها الـذل والريـاء سـداها
ووجـوه صـفيقة لـيس تنـدى	بجلـود مدبوغـة تغشـاها
وصـدور كـأنهن قبـور	مظلمـات قلـوبهم موتاهـا
حسبوا في الرجـال هـل كانـت	الأنعـام إلا لمـثلهم أشـباها؟

تظهر سخرية «طوقان» واضحة، فـي اختياره لعنوان القصـيدة «يـا رجال البلاد»، بكل ما تحمله من تعريض، وما يوحي به من معنى «نقيض» لمعنى «الرجولة»، التي تستلزم المحافظة على «الأرض»، والدفاع عنهـا؛ لأنها امتداد لـ «عرض» الإنسان، وشرفه، بالمعنى الواسع لدلالتيهما.

ثم تخلص القصيدة، بعد ذلك، إلى الهجاء السـافر، حـين تحـدد صـفات شخصية «بائعي الأرض»؛ ولعل أهم هذه الصفات، وأكثرهـا بـروزاً، هـي ازدواجية «الظاهر» و«الباطن»؛ وهم بذلك أكثر خطورة من العـدو المباشـر؛ لأنهم – فـي الظاهر– بكّاؤن على الأرض؛ وفـي البـاطن يـدللون علـى «بيعها»؛ وتريك ثيابهم «العز»، لكن باطنهم مملوء بالذل والرياء، وهكذا يستمر هذا التناقض فـي الأبيات الثلاثة الأولى؛ إلـى أن يتحـد أو يتشـابه الظـاهر والباطن مع الأبيات الثلاثة الأخيرة، فتصبح الوجوه (الظاهر) صفـيقة كمـا تصبح الصدور (الباطن) قبوراً مظلمات؛ كما يصبحون، ظاهراً وباطناً، أشـبه بالأنعام مع قلب واضح لركني التشبيه، كما يبدو فـي البيت الأخير.

ويبدو أن صفة الإزدواجية هذه، أو التناقض بين الباطن والظـاهر، أو القول والفعل، من الصفات الأساسية التي هجاها «طوقان» كثيـراً، وسـخر منها، سخرية مريرة؛ يقول مصوراً هذا التناقض بين الفعل القول:

إنمـا عـدة الضـعيف احتجـاج	**لـم يجـاوز حـد السـطور احتدامـه**
كـل يـوم حـزب وحلـم فحـدِّث	**عـن ضـعيف سـلاحه أحلامـه**
مغـرم بـالبلاد صـبّ ولكـن	**بسـوى القـول لا يفـيض غرامـه**
بطـل إن عـلا المنـابر كـرار	**سـريع عنـد الفعـال انهزامـه**

يحتل القول والدوال الواقعة في دائرته الدلالية مساحة الأبيات، تقريباً: الاحتجاج/ احتدام الكمات المسطورة/ الحلم/ الغرام/ القول؛ أما الدوال، التي تنتمي – بذاتها- إلى دائرة «الفعل»، مثل: البطولة والكر، فلا تظهر إلا مع ارتقاء «المنابر»، التي هي موضع «القول»؛ ويبقى الفعل الوحيد الذي يقدر عليه هؤلاء هو فعل «الانهزام السريع»، عند «المواجهة» الفعلية الصريحة.

وإمعاناً في «السخرية» من هذه الأقوال والبيانات، التي يلوكها الزعماء، ظناً منهم أنها سوف تعيد الأمجاد الغابرة؛ نجد الشاعر يمجد ما يلوكونه، على سبيل المجاراة الهازئة:

أنتم المخصون للوطنية ... أنتم الحاملون عبء القضية
أنتم العاملون في غير قول ... بارك الله في الزنود القوية
وبيان منكم يعادل جيشاً ... بمعدات زحفه الحربية
واجتماع منكم يرد علينا ... غابر المجد من فتوح أمية
وخلاص البلاد صار على الباب ... وجاءت أعياده الوردية
ماجحدنا أفضالكم غير أنا ... لم تزل في نفوسنا أمنية
في يدينا بقية من بلاد ... فاستريحوا كيلا تطير البقية

لا يشك القارئ – ابتداءً – في صيغة المدح، التي تتبدى في البيتين الأولين؛ غير أن الانقلاب على هذا المعنى، ونقضه يبدأ مع البيت الثالث، مع ذكر «البيان» الذي يعادل «جيشاً»!! و«الاجتماع» الذي يرد «غابر المجد»!! الأمر الذي يضع «خلاص البلاد» في ضوء جديد، بما يوحي بمعنى «الانتهاء»، والوقوع في قبضة «الاحتلال»، وهو ما يتأكد – صراحة- مع البيت الأخير.

هؤلاء، إذن، ببياناتهم، واجتماعاتهم، ومذكراتهم، هم أصل البلاء، وهم الذي أوصلوا الروح الوطنية إلى حالة شديدة الوطأة من الوهن والتشاؤم؛ وهو ما يظهر في قول «إبراهيم طوقان»، أيضاً:

كم قلت أمراض البلاد ... وأنت من أمراضها
والشؤم علتها فهل ... فتشت عن أعراضها
يا من حملت الفأس ... تهدمها على أنقاضها
أقعد فما أنت الذي ... يسعى إلى إنهاضها

وانظر بعينيك الذئاب   تعبّ في أحواضها
وطن يباع ويشتري   وتصيح فليحيا الوطن
لو كنت تبغي خيره   لبذلت من دمك الثمن
ولقمت تضمد جرحه   لوكنت من أهل الفطن

هذه الأبيات مسكونة – في العمق– بمعنى الاستنفار، وإن سيطر على بعض أبياتها الأفعال الداعية إلى التخاذل والسلبية: أقعد، انظر بعينيك... فهي – في الأساس– دعوة ساخرة، تستكشف أبعاد المأساة؛ كما تغلب عليها لغة الطرح العقلي، الذي يكشف التناقض بين أن يصيح صائح: «فليحي الوطن»، دون أن يبذل دمه في سبيل حياة هذا الوطن؛ وهو ما أبعد القصيدة عن «الخطابة»، التي كان من المتوقع أن يستدعيها موضوع القصيدة ذاته، بماله من خمولات عاطفية ووطنية.

وللشاعر/ عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) قصيدة ذاعت، ذيوعاً كبيراً، وانتشرت داخل الأقطار العربية، قالها حين مال بعض الزعماء إلى إنهاء ثورة ٣٦، والإكتفاء «بُحسن نوايا صديقتنا بريطانيا»، يقول فيها:

انشر على لهب القصيد   شكوى العبيد إلى العبيد
شكوى يرددها الزمان   غدا إلى الأبد الأبيد
سحقا لمن لا يعرفون   سوى التعلل بالوعود
وأذلهم وعد اليهود   ولا أذل من اليهود
قوموا انظروا الوطن الذبيح   من الوريد إلى الوريد
تتزاحم الأجيال دامية   الخطى حول اللحود
إيه شعوب العرب انتم   مبعث الأمل الوحيد
سيروا على الترب المخضَّب   والثموا أثر الجدود
حرية الإنسان بالدم   تشتري لا بالوعود

تبدو لي قوة دوال هذه القصيدة، وقوة صياغتها، موازية لقوة المواجهة، التي ينشدها الشاعر، ويسعى إلى تحقيقها على أرض الواقع، في مجابهة العدو؛ وفضح هذا التخاذل العام، الذي انتهجته معظم الحكومات العربية،

فـــي ذلك الوقت؛ وهو ما يجعل القصيدة منقسمة إلى عالمين: عالم يســـعى إلى «الانبعاث»، على لهب القصيد، ولهب الواقع معاً؛ بوصفها مبعث الأمل الوحيد، والقادرة على بذل الدم فـــي سبيل تحقيقه؛ وعالم فـــي طريقه إلـــى الأفول والزوال؛ عالم الشكوى الذليلة، والتعلل بالوعود.

فهل كان هؤلاء الشعراء ينتقدون -أولاً وقبل كل شئ- ما كان يســـميه «مالك بن بنى» بـــ «القابلية للاستعمار»، هذه «القابلية» التي لولاهـــا مـــا استطاع الاستعمار تحقيق مآربه وأطماعه؟

نعم؛ فنقد «الواقع»، أو نقد «الذات» هو بداية الطريق نحو التحرر العام: تحرر «الذات»، وتحرر «الوطن».

وإذا كان «الكرمي» قد صرح، فـــي نهايـــة قصـــيدته، بـــأن «حريـــة الإنسان» لا تُشترى إلا بـــ»الدم»، فإن «برهان الدين العبوشي»، الذي شارك -حقيقة - فـــي ثورة ٣٦، عوقب بالنفـــي إلى منطقة «عوجا حفـــير»، على حدود سيناء، بعد أن قضى فترة فـــي سجن «القدس»؛ قد جعـــل مـــن هـــذا المعنى متناً أساسياً فـــي قوله:

لهفـــي علـــى الليـــث المهـــدد غابـــه قـــد كـــان أجـــدر أن يمـــوت بغابـــه

والحـــر يـــدفع عـــن حمـــاه بســـيفه فـــإذا تحطـــم ســـيفه فبنابـــه

فلنمش للمـــوت الـــزؤام كمـــا مشـــى جـــيش النبـــي بشـــيبه وشـــبابه

إن كـــان الاســـتقلال يؤخـــذ عنـــوة والمـــوت فيـــه فـــنحن مـــن أربابـــه

ولا شك فـــي أن هذه الروح الراغبة فـــي الافتداء، والشـــهادة، كانـــت نتيجة مباشرة لثورة ٣٦، ودافعاً لها، فـــي الوقت ذاته.

وإذا كان «نقد الذات» واجباً، فإن مواجهة «العدو» «فرض عين»، لا ينبغـــي أن تقوم به جماعة دون الأخرى؛ خاصة إذا ما فهمنا المواجهة بمعناهـــا الشـــامل، والذي لا يقتصر على السلاح؛ وهو المعنى الذي أكده أحد كتابنا، حين قال إننا لن نحرز نصراً طالما ظل هناك أناس فـــي الخنادق وأناس فـــي الفنادق.

وعلى هذا فإن «الكلمة» -كما كان يقول صلاح عبد الصـــبور- «قـــد تفعل»، طالما كانت صادقة، ومعبرة عن طموحات شعبها.

وبأثر من أفكار «القسام» استطاع إبراهيم طوقان أن يدرك الرباط الوثيق بين «الإنجليز» و«حركة الاستيطان الصهيونية»، وأن يدرك طبيعتيهما، حين يقول:

لنـــا خصـــمان: ذو حـــول وطـــول وآخـــــر ذو احتيـــــال واقتنـــــاص

تواصـــوا بيـــنهم فـــأتى وبـــالا وإذلالا لنــــــا ذاك التواصــــــي

ومن الواضـــح أن الخصـــم «ذو الحـــول والطـــول» هـــو الاحـــتلال «الانجليزي»، وأن الأخر «ذا الاحتيال والاقتناص» هو العدو «الصهيوني»؛ ولا شك فـــي أن إدراك العلاقة الوثيقة بينهما يعد نقلة نوعية مهمة، فـــي هذه المرحلة؛ فقد كان من السائد النظر إلى «انجلترا» كما لو كانـــت طرفـــاً محايداً بين العرب والصهيونية.

وقد تجلى ذلك فـــي بعض الأشعار، على نحو ما يظهـــر فـــي قـــول «اسكندر الخوري البيتجالي»، تعليقاً على وعد «بلفور»:

وعـــد ولا هـــو كـــالوعود خـــدعوا بـــه أمـــم اليهـــود

أم تلـــــوم طفلهـــــا والطفـــل يخـــدع بالنشـــيد

كـــالمغرم المفتـــون يقنـــع بالتعلـــــل بـــــالوعود

والختـــل فـــي شـــرع السياســـة لـــيس بـــالأمر الجديـــد

مهـــلا بنـــي التـــاميز بـــالأعراب والأمـــــــل الوطيـــــد

لا تعبثـــوا بـــالله بـــالود القـــــديم وبـــــالعهود

أو تـــؤثرون علـــى العروبـــة ود ناعمـــــة الخـــــدود؟

أم مالـــك قـــد بعـــتم ود الأعـــــارب بـــــالنقود؟

أو لـــم نســـاعدكم علـــى الأتـــراك والخصـــم اللـــدود؟

لـــولا تعشـــقنا لكـــم لبقيـــتم خلـــف الحـــدود

ولمـــا دخلـــتم أرضـــنا بـــالإنكليز وبـــالهنود

والقصيدة – كما هو واضح – مليئة بالمغالطات، حيث لم يكن وعد «بلفـور» خديعة لـ «اليهود»، بل كان بداية خطة، تم تنفـيذها بإحكام، كما لـم يكـن بـين «إنجلترا» و«العروبة» ود قديم أو حديث؛ ولم يكن الاتفاق المؤقت بين «إنجلتـرا» وشريف «مكة» للقيام بثورة العرب الكبرى ضد العثمانيين إلا خدعة مـن جانـب «إنجلترا»، تم اكتشافها، مع اكتشاف اتفاقية «سايكس – بيكو» بين انجلترا وفرنسـا، التي تم بمقتضاها تقسيم الشام إلى قسمين: الشمالي ويشمل «سوريا» و«لبنان» مـن نصيب «فرنسا»؛ والجنوبي يشمل «فلسطين» و«الأردن» من نصيب «إنجلترا».

إن ما سبق يجعل من قصيدة «طوقان» السابقة، وغيرها، نقلة مهمة في الوعي بالسياسة الانجليزية، وتحالفها الصريح مع الحركة الصهيونية؛ وعلى طريقته الساخرة ينتقد «طوقان» الاحتلال الانجليزي في قوله:

فقد شهدنا لعهدكم بالعدالة — وختمنا لجندكم بالبسالة
وعرفنا بكم صديقا وفيا — كيف ننسى انتدابه واحتلاله
وخجلنا من (لطفكم) يوم قلتم: — وعد بلفور نافذ لا محالة
كل أفضالكم على الرأس والعين — وليست في حاجة لدلالة
ولئن ساء حالنا فكفانا — إنكم عندنا بأحسن حاله
غير أن الطريق طالت علينا — وعليكم فما لنا والإطالة
أجلاء عن البلاد تريدون — فنجلو أم محقنا والإزالة؟!

توحى الدوال اللغوية هنا بنقائضها: العدالة، البسالة، الصداقة، الوفاء؛ مع سؤال الشاعر الاستنكاري: كيف ننسى انتدابه واحتلاله؟! وربما حملت كلمة «اللطف»، في البيت الثالث، معنى «الجنون»، على عادة التعبيرات المصرية الدارجة، التي كان الشاعر على معرفة قوية بها؛ وهو – حقيقة– ضرب من الجنون أن يهدي استعمار ما وطناً بكامله إلى أشتات متفرقة من جماعات، لا يجمع بينها إلا الإيمان بالعنصرية والإرهاب. ثم تأتي كلمة «الجلاء»، فيخرجها الشاعر عن دلالتها المعهودة، وهي «جلاء الاستعمار» عن الأرض التي «يغتصبها»؛ لتصبح دالة على جلاء أصحاب الأرض أنفسهم عن وطنهم، وكأن هذا الشعب لم يعد أمامه إلا أحد طريقين: الجلاء عن الوطن، أو الموت داخله؛ إنه شئ أشبه بـ«الدراما الإنسانية السوداء»، أو «دنيا الأعاجيب»، بتعبيرات الشاعر في قصيدته، التي قالها مخاطباً روح الشاعر/ عبد المحسن الكاظمي، سنة ٣٧:

أبا المكارم إشرف في علاك وقل — أرى فلسطين أم دنيا الأعاجيب
تجد قويا وفى وعد الدخيل ولم — يكن لنا منه إلا وعد عرقوب
ومر سبع وعشر في البلاد له — وحكمه مزج ترهيب وترغيب
قد تنتهي هذه الدنيا وفي يده — مصيرنا رهن تدريب وتجريب

يتخلى «طوقان»، في هذه الأبيات، عن سخريته المريرة المعهودة؛ لكنه يعتمد – في مقابل ذلك– على هذه المفارقة الأليمة التي تجعل «القوي» (الإنجليز) يفي بوعده لـ«الدخيل» (العصابات الصهيونية)، في حين يصبح مصير أصحاب البلاد «رهن تدريب وتجريب».

وفي قصيدة أخرى يعود «طوقان» إلى أسلوبه الساخر، برسم صورة «هجائية»، يمتزج فيها السياسي والاجتماعي، حين يخلع على هذا الشخص «المهجو» كل ما يعاني منه الشعب الفلسطيني من احتلال، وانتداب، وهجره، وذلك في قوله:

انت كالاحتلال زهوًا وكبرًا ... أنت كالإنتداب عجبًا وتيها
انت كالهجرة التي فرضوها ... ليس من حيلة لقومك فيها
انت أنكى من بائع الأرض عندي ... أنت أعذاره التي يدعيها
لك وجه كأنه وجه سمسار ... على شرط ان يكون وجيها
وجبين مثل الجريدة لما ... لم تجد كاتبًا عفيفًا كريها
جمعت فيك عصبة للبلايا ... وأرى كل أمة تشتكيها

يعد هذا النموذج – في نظري– تطوراً لغرض الهجاء؛ فلم يعد الشاعر يهجو بالبخل، أو الجبن، ونحو ذلك، مما اعتدنا في الهجاء القديم؛ بل أصبح يهجو بما يعاني منه «الوطن» من داءات مستحكمة؛ متخذاً من التشبيه أداة أساسية في رسم هذه الصورة الكريهة؛ وربما كان من المفيد أن نلاحظ تنوع صور هذا التشبيه من بيت لآخر، ما بين التشبية التام، الذي تتوفر فيه أركان التشبيه جميعها: المشبَّه، والمشبَّه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه، كما يبدو في البيتين الأول والثاني؛ والتشبيه البليغ الذي يقوم – فحسب– على المشبَّه والمشبَّه به، كما في البيت الثالث؛ ثم ما بين التعميم، الذي يظهر في تكراره لضمير المخاطب (أنتَ)، ثلاث مرات؛ والتفصيل، الذي يتوقف أمام «الوجه»، و«الجبين»، و«الحديث». وربما كان من المفيد، أيضاً، أن نلاحظ اعتماد الشاعر على ما يسمى باللغة «التداولية»، التي تبدو في (ليس من حيلة، أنت أنكى، وجه سمسار، على شرط)، مما يجعل القصيدة قريبة من الوجدان الشعبي العام.

٣ـ تمجيد البطولة:

تعد صفة «الافتداء» السمة الأساسية المحددة لنموذج «البطولة»؛ فهي الصفة الفارقة بين من يبيع «الأرض»، ومن يتمسك بها؛ وبين من يكتفي بالقول، ومن يبذل «الدم»؛ وموضوع «الإفتداء» هو «الوطن»، بداهة؛ ولهذا كان من الطبيعي أن تكثر القصائد التي تؤكد قيمة «الإنتماء» له. وللشاعر/ عبد الرحيم محمود تجربة عميقة الدلالة على انتمائه الوطني، وربما كان اغترابه – مرغماً– عن وطنه سبباً في تعميق هذا الانتماء، وتأكيده، والإحساس الدائم بالحنين إلى الوطن، على نحو ما يبدو في قوله:

تلك أوطاني وهذا رسمها — في سويداء فؤادي محتقر
يتراءى لي على بهجتها — حيثما قلبت في الكون النظر
في ضياء الشمس في نور القمر — في النسيم العذب في ثغر الزهر
في خرير الجدول الصافي وفي — صخب النهر وأمواج البحر
في هتون الدمع من هول النوى — في لهيب الشوق في قلبي استعر
يا بلادي يا منى قلبي إن — تسلمي لي أنت فالدنيا هدر
لا أرى الجنة إن دخلتها — وهي تخلو منك إلا كسقر
منيتي في غربتي قبل الردى — إن أملي من مجاليك البصر
ظمئت نفسي لمغناك فهل — يطفئ الحرقة بالعود القدر
فيصلي القلب في كعبته — وتضم الروح قدسي الحجر
يا بلادي أرشيفيني قطرة — كل ماء غير ما فيك كدر
ليت من ذاك الثرى لي — حفنة أتملى من شذا الترب العطر

في الشعر القديم ما يعرف بتداخل «الأغراض»، أو تحولات «الأسلوب»، من غرض لآخر، والغرض الرئيسي لهذه القصيدة هو «الحنين إلى الوطن»، لكنها تستعير من المعجم «الغزلي» الكثير من مفرداته: سويداء الفؤاد، الدمع، الشوق، منى القلب، كما يستعير من معجم «الوصف»، خاصة وصف «الطبيعة» بعض مفرداته: ضياء الشمس، نور القمر، النسيم العذب، الزهر، خرير الجدول، صخب النهر، أمواج البحر... إلخ، وهكذا يتحول الوطن وطبيعته الساحرة إلى محبوبة فاتنة الجمال؛ وتتحول علاقة الشاعر به (بها) إلى علاقة وجدانية، تنطوي على الشوق الحارق، الذي لا يطفئ غلته غير النظر إلى مجالي هذا «الوطن» البعيد، وغير قطرة من مائه العذب، أو حفنة من ثراه العطر.

يبدو الشاعر كما لو كان يرسم صورة مفتقدة لـ «الفردوس المفقود»، الذي كان ينعم في ظلاله قبل مجيء الشيطان، الذي أخرجه منه ليس عن طريق الغواية، كما تحدثنا الكتب المقدسة، بل رغماً عنه، ولهذا لم يكن غريباً أن تشيع في بعض الأبيات الدوال الدينية، التي تُوحي بقدسية «المكان»، أو بعده الروحي: فيصلي القلب في كعبته/ وتضم الروح قدسي الحجر.

ولا يرى الشاعر طريقاً إلى تحقيق هذا «الفردوس المفقود»، والعودة إليه غير الافتداء والتضحية، استمراراً للطريق الذي جسَّده «القسام»، وكان علماً عليه، يقول في بيتين شديدي الدلالة على ذلك:

واغصب حقوقك فقط لا تستجدها   عن الألى سلبوا الحقوق لئام

هذي طريقك للحياة فلا تحد   فقد سارها من قبلك القسام

ولا شك في أن اختيار هذا الطريق هو استجابة لما ينشده «الوطن» من أبنائه، وما ينتظره منهم:

وعاد الوطن الذبيح إلى الجهاد   فخفَّ لفرط فرحته فؤادي

وسابقت النسيم ولا افتخار   أليس عليَّ أن أفدي بلادي ؟!

تبدو الدعوة إلى «الجهاد» – في هذين البيتين– كما لو كانت دعوة إلى «عُرس»؛ فالشاعر لا يُقبل عليه، مضطراً، كأنه يؤدي واجباً ثقيلاً، بل يخف إليه «فرحاً»، يسابق النسيم، لا لشئ إلا لأنه لا يعقل –كما يبدو من صيغة السؤال– أن يتخلى إنسان عن «افتداء بلاده». وداخل هذا الوطن العام تتحول بعض الأماكن إلى رمز للجهاد، ومقاومة المحتل. ومن هذه الأماكن «جبل نابلس»، الذي كان أحد معاقل الثورة، وهو الجبل الذي يسمى «جبل النار»؛ يقول عبد الكريم الكرمي عنه:

جبل النار يا أعز الجبال
أنت لا زلت معقد الآمال
تنبت المجد فوق سفحك فينان
وتسقيه من دم الابطال
يفصح الصخر عن شمائل ابنائك
فوق اللظى وعند النزال
ماذكرنا حماك إلا انتشينا
وانتشت نخوة رؤوس الرجال

للجبل – بصفة عامة– أبعاد روحية؛ فهو المكان الذي سمع «موسى» فوقه كلام «الله»، حين كلمه تكليماً؟ وهو «المكان» الذي جهر من فوقه

«الرسول»، صلى الله عليه وسلم، بدعوته؛ وهو مكان الزهاد، والرهبان، والمتبتلين؛ وقد ورد أن الرسول قال عن «أحد»: هذا «جبل» يحبنا ونحبه؛ وهو – أيضاً وأحياناً– مكان «الثورة»، والمتمردين؛ ولا شك في أن تسمية «جبل نابلس» بـ«جبل النار» تسمية ذات مغزى، لما للنار من دلالة، على التطهير والتغيير؛ والجبل – كما يبدو في الأبيات– ليس مكاناً صخرياً جامداً، فهو ينبت «المجد»، الذي يتحول إلى «شجرة ذات أفنان»، مسقيه بدم الأبطال؟ وهو – وهذا هو الأهم– جزء من أبنائه، أو هم بضعة منه، حيث يفصح صخره عن صفاتهم؛ في تبادل واضح بين «الإنسان» و«المكان»؛ وهكذا يتجاوز «المكان» مكانيته، لكي يصبح شريك «الإنسان» في «الفعل»، و«النزال»، و«الثورة».

ومن مطلق الأبناء والأبطال يتوقف الشاعران عبد الرحيم محمود وإبراهيم طوقان أمام نموذج محدد، هو: الشيهد، في قصيدتين، تحملان العنوان نفسه؛ يقول عبد الرحيم محمود على لسان «الشهيد»:

سأحمل روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق ... وإما ممات يسيء العدى
ونفس الشريف لها غايتان ... ورود المنايا ونيل المنى

في هذا الجزء من القصيدة تتجلى رؤية الشاعر لحياة «الشهيد»، ومماته، وهي رؤية لا ترى بينهما تناقضاً، بل تكاملاً، وامتداداً؛ فحياته تسر الصديق، ومماته يسيء العدى، بما يعني أن حياته ومماته يحققان غاية واحدة؛ حيث لا فرق –في حقيقة الأمر– بين سرور الصديق، وإساءة العدو؛ بالرؤية ذاتها يصبح «ورود المنايا» مرادفاً، تماماً، لنيل «المنى»، وليس مجرد طريق لها.

وفي قصيدة «طوقان» يمكن أن نتوقف عند أحد مقاطعها المهمة؛ وهو المقطع الذي يصور فيه نفس الشهيد، بقوله:

نفسه طوع همة ... وجمت دونها الهمم
تلتقي في مزاجها ... بالأعاصير والحمم
تجمع الهائج الخضم ... إلى الراسخ الأشم
وهو من عنصر الفداء ... ومن جوهر الكرم
ومن الحق جذوة ... لفحها حرر الأمم

ســـــار فـــي مـــنهج العلـــى يطـــرق الخلـــد منـــزلا

لايبـــالي مكـــبلا نالـــه أم مجنـــدلا

فهو رهن بما عزم

قوة «الشهيد» هي – فـــي الأساس– قوة نفس؛ قوة القدرة على العطاء، والبذل، والتضحية؛ وتبدو صورة الشهيد – كما يرسمها طوقان– كمـا لـو كانت إحدى صور الطبيعة، فـــي وقتها واندفاعها؛ واللافت – حقاً– امتزاج عناصر الطبيعة الأربعة فـــي رسم هذه الصورة: الماء (الأعاصير)، النـــار (الحمم)، الماء (الخضم)، الراسخ (التراب)؛ وهي العناصر التي أرجع إليهـا فلاسفة اليونان – قديماً– أصل الكون، ونشأته، وكأن موت «الشهيد»، وعودة جسده الطاهر إلى الأرض، هو بداية دورة أخرى لحياة جديدة؛ كمـا تجمـع الصورة بين الثبات (الراسخ الأشم)، والحركة (الأعاصير، الحمم، الهائج).

والحق أن صورة «الشهيد» أو «الفدائي» فـــي الشعر الفلسطيني تستحق وقفة متأنية، لما لها من ثراء فني، وإبداعية عالية.

وبعد، فهذه إطلالة فـــي الشعر الذي صاحب إحدى الثورات الفلســطينية الكبرى، وهي إطلالة لا تدعي الشمول، بل تعد تمهيداً لتناولات أخرى، أكثر استيعاباً وتعميقاً.

مصادر الفصل الأول

(١) ابراهيم الدباغ، **الطليعة**، ط١، القاهرة، مطبعة حجازي، ١٩٣٧.
(٢) ابراهيم عبد الفتاح طوقان، **ديوان ابراهيم**، ط٢، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٦.
(٣) عبد الرحمن محمود، **روحي على راحتي**، ديوان عبد الرحيم محمود، حققه وقدم له حنا أبو حنا، الناصرة، مركز إحياء التراث، ١٩٨٥.
(٤) عبد الكريم الكرمي، **ديوان أبي سلمى**، ط٢، بيروت، دار العودة، والأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨٩.
(٥) مطلق عبد الخالق، الرحيل، ط٢، القاهرة، دار المستقبل العربي، ودائرة الثقافة في م.ت.ف.،د.ت.

مراجع الفصل الأول

(١) إميل توما، **جذور القضية الفلسطينية**، ط٢، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، ١٩٧٤.

(٢) عبد القادر ياسين، **كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨**، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٥.

(٣) عبد الرحمن ياغي، **حياة الأدب الفلسطيني من أول النهضة حتى النكبة**، بيروت المكتب التجاري، ١٩٦٨.

(٤) عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط١، بيروت، مؤسسة الدراسات العربية، ١٩٧٠.

(٥) غالي شكري، **أدب المقاومة**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠.

(٦) د.كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني**، ط١، بيروت، منظمة التحرير الفسطينية، مركز الأبحاث ١٩٧٣.

(٧) د.كامل السوفيري، **الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر**، ط١، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣.

(٨) د.ناصر الدين الأسد، **الشعر الحديث في فلسطين والأردن**، القاهرة، معهد الدراسات العربية، ١٩٦٠.

الفصل الثاني

الشعر الشعبي في الثورة

آمال الخزامي

قد ترجع أصول الشعر الشعبي، والحكايات الشعبية في المجتمع الفلسطيني إلى جذور عالمية مشتركة، مع المجتمعات الأخرى، توارثتها الأجيال عن الأمم البدائية، ومعتقداتها الدينية القديمة، فضلاً عن عوامل محلية إقليمية أخرى.

ثمة عوامل كثيرة أخرى أثرت في الشعر الشعبي عند المجتمع الفلسطيني، لخصوصية هذا المجتمع، الذي وقع تحت نير الاحتلال، لقرون عدة(١).

فهناك قصص حب رائعة، تكشف عن نبل العواطف، تضاهي روائع الأدب العالمي، وأيضاً، قصص كفاحية مرتبطة بالكفاح والنضال ضد الاحتلال، منذ العصر العثماني، حتى الآن، تنتقل من الآباء، إلى الأبناء، ومن الأجداد للأحفاد. وهي قصص ذات إطار سياسي، ومضمون وطني، وطبقي، في آن. مثل قصة (ممدوح ومبا)، التي تصور، خلال قصة حب، كفاح جبل العرب ضد الفرنسيين، وقصة حسين العلي، من عرب الصقر، التي تصور كفاح الشعب الفلسطيني ضد الإنجليز. وعليه، فإن التراث الشعبي الفلسطيني غني بقدر غنى كفاح هذا الشعب(٢).

شارك الشعر الشعبي بدور واع في خدمة القضية الوطنية الفلسطينية، مناهضاً للاحتلال، محفّزاً على المقاومة، بجوار الفنون الأخرى. كما تعد ثورة ١٩٦٣، منعطفاً جديداً في تاريخ الأغنية الشعبية في فلسطين، في موازاة المقاومة في هذه الثورة(٣).

تقول الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي:

يا بريطانيا لا تغالي لا تقولي الفتح طاب

سوف تأتيك الليالي نورها على الحراب

لقد ركز شعر الثورة الشعبي في ثلاثة موضوعات: شعر المعارك، شعر البطولات الفردية الشعبية، وشعر الحماسة(٤).

وقد تناولت الأغنية الشعبية أحداث الثورة، والمجاهدين. واعتاد الشعراء طواف القرى، والمدن، فعمت روح النضال والثورة أنحاء البلاد(٥).

تعد الاحتفالات الشعبية واحدة من أهم وسائل التعبير الثقافي، والتي لاقت اهتماماً كبيراً في ثورة ١٩٣٦، فكان هناك الاحتفال بإحياء المواسم

الشعبية الفلسطينية، مع استعراض القوة، التي ترمز لقوة «اللجنة العربية العليا» في فلسطين، بزعامة الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين، والقائد السياسي لثورة ١٩٣٦، حيث كان يتغنى به، وببطولاته، فقال الشاعر:

لو في نبي بعد النبي كان النبي هو الحاج أمين

ومن الهتافات:

سيف الدين الحاج أمين / حاج أمين يا عمنا نفديك بدمنا[٦]

شعراء وثوار:

هناك كثير من الشعراء الذين شاركوا في الشهرة، وانخرطوا في صفوف الجهاد والثورة، وخاضوا المعارك، وزج بالبعض منهم في السجون، واستشهد البعض الآخر، وكان لشعرهم أثر كبير في نفوس زملائهم المجاهدين، خصوصاً، وعلى أفراد الشعب عموماً.

من هؤلاء الشعراء الثوار فرحان سلام، شاعر شعبي، شارك في الثورة، وفريد عودة، الشاعر الشعبي الثائر، الذي زج به في المعتقل، والشاعر موسى محمد الرحَّال، الذي كان يحرث الأرض بالنهار، ويطارد قوات الاحتلال في الليل، والشهيد عوض، ولايمكن أن ننسى الشهيد المجاهد نوح إبراهيم، قائد الثورة في منطقة الجليل الغربي[٧].

لم يعتمد أكثر الشعراء الثوريين على التجارب العامة للشعب الفلسطيني، وإنما اشتركوا، عملياً في صنع تلك الكفاحات، ودفع كثير منهم عمره ثمناً لهذا الموقف، حيث وقفوا في الصفوف الأولى في المعارك واعتقلوا، واستشهدوا، وحكم عليهم بالإعدام، مما جعل لشعرهم طعما خاصا[٨].

الشهيد عوض ، ابن مدينة نابلس (جبل النار) ، كان مثله مثل آلاف الشباب الغيورين على وطنهم، ولم يكن يملك ثمن السلاح، فباعت زوجته ذهبها، لتشتري السلاح، فيلحق بأخوة له سبقوه إلى الكفاح، لكن عوض يقع أسيرا، ويصدر ضده حكم بالإعدام[٩].

ليلة تنفيذ الإعدام فيه، تذكر الفتى، ابن الثالثة والعشرين، زوجته، وأطفاله، وشقيقيه، اللذين سبقاه في الشهادة، وتذكر شعبه البطل، فأخذ قطعة

من الفحم، وسجل بها على جدار السجن أروع القصائد الشعبية، التي عبرت عن التضحية والصمود والإصرار ، قبيل ساعات من تسجيل اسمه في سجل الشهداء الخالدين(١٠).

قام زملاء «عوض» في السجن بحفظ القصيدة، ونشرها خارج السجن.

ياليل خلي الأسير تايكمل نواحه رايح يفيق الفجر ويرفرف جناحه

ويعاتب الليل بأنه يمرجح المشنوق، ويقف موقف المتفرج من آهاته، وأنه فرق شمل الأحباب. يقول عوض إن دمعه ليس خوفاً، بل على الأوطان وأطفاله، وأيضاً، على أخويه اللذين سبقاه في الشهادة، وزوجته التي لم يترك لها حتى أساورها، وفي النهاية قال عوض:

ظنيت لنا ملوك تمشي وراها رجال تخسا الملوك إن كانوا هيك أنذال

والله تيجانهم مايصلحوا لنا نعال إحنا إللي نحمي الوطن، ونضمد جراحه(١١)

نوح إبراهيم نموذج رائع آخر للشاعر الكادح، والثوري الشجاع حتى النهاية، الذي ضحى بروحه، واستشهد وهو مرابط على السلاح. يتحاكى الناس ببطولاته، بالقدر الذى يتغنى به الصغير والكبير في المدن والقرى بقصائده. كان إبراهيم يكتب الشعر، ويلحنه، ويغنية، فكان يسهم، جسدياً، في معركة بلاده لمقاومة الاحتلال، ويتجول بين القرى، يخطب، ويرتجل الشعر، ملهباً المشاعر الوطنية للأهالي، لحثهم إلى الانضمام إلى صفوف المجاهدين(١٢).

سجل ابراهيم لحظات الثورة، لحظة بلحظة، بالكلمة، والغناء. وعندما استشهد الشيخ عزالدين القسام، أبدع ابراهيم قصيدته !

عز الدين يا خسارتك رحت فدا لأمتك

مين بيذكر شهامتك يا شهيد فلسطين

فالقسام هو الشجاع الذي ضحى بروحه من أجل استقلال فلسطين، ووضع أسس الجهاد، وجمع الرجال، والسلاح، والمال، لكن الغدر والخيانة لعبا دورهما، ووقعت الكارثة. يتمنى نوح السير على درب القسام، والموت على طريق القسام، فداء لفلسطين، ويختتم إبراهيم قصيدتة:

إقـــروا الفاتحـــة يـــا إخـــوان علـــى روح شـــهداء الأوطـــان
وســـــجّل عنـــــدك يازمـــــان كــل واحــد منــا عـــز الـــدين

يخاطب إبراهيم مستر "دل"، القائد العام للجيش البريطاني فـــي فلسطين، أواسط ثلاثينات القرن العشرين، بقصيدة، من أكثر قصائده شهرة، حتى الآن.

دبِّرهــــــا يامســــــتر "دل" بلكـــي علـــى يـــدك بتحـــل

كما أكد إبراهيم للجنرال البريطاني أن الشعب لن يتخلى عـــن كفاحـــه لإجلاء قوات الاحتلال.

فقال:

ياحضـــــــرة القائـــــــد "دل" لا تظـــــن الأمـــــة بتمـــــل
إن كنـــت عـــاوز يـــاجنرال بـــــالقوة تغيرهـــــا لحـــــال
لازم تعتقـــــــد أكيـــــــد طلبـــك صـــعب مـــن المحـــال
لكـــــن خـــــذها بالحكمـــــة واعطينـــا الـــثمن يـــا خـــال
ونفّـــــذ شــــروط الأمـــــة مــــن حريـــــة واســــتقلال

ندد إبراهيم بمحاولات بريطانيا قمع الثورة، وطالبها أن تمنـــع هجـــرة اليهود، وبيع الأراضي الفلسطينية لهم:

بـــــدنا تفهــــم بريطانيـــا حتــــى تكفينــــا شــــرها
وتصـــافي الامـــة العربيـــة لمنـــــع البيـــــع والهجـــــرة

فـــي نهاية القصيدة، طالب نوح المستر «دل» بسحب جيوشه، وألح على بريطانيا لتنفـــيذ وعودها:

مادمـــت صـــاحب الســـلطة حــل هالمشــكلة وهالورطـــة [١٣]

يشيد إبراهيم، ويفتخر بوطنه وشعبه العربي الفلسطيني، الذي لم يرض عن الاستقلال والجلاء بديلاً.

عبر إبراهيم عن روح التحدي، والفداء، وأبرز فكرة الوطن المقدس، فقال:

يحيــا الــوطن يحيـا الــدين يحيــا شــعب فلســطين
وانتــو يــا شــعب العــرب عالحكومــة منصــورين
تلــت ســنين بالليــالي مانمنــا بـــالعلالي
وإحنــا بــرأس الجبــال للحــرب مســتعدين

عبرت إحدى أغاني إبراهيم عن حبه الجارف لفلسطين، حين قال:

اطلع راس الجبل وأشرف على الوادي
وأقول يا مرحبا نسَّم هوا بلادي (١٤)

يخاطب إبراهيم رجال الميناء فــي يافــا، عــام ١٩٣٦، علــى أثــر الإضراب، فيقول:

فــي الإضــراب ضــحوا كثيــر واجهــوا الأمــر العســير
وكـــانوا مَثَـــلَ للجميـــع مـــن كبيـــر ومـــن صـــغير
ســت أشــهر صــبر علطــول رفضــوا الــربح الــوفير
والمثـــل يحكـــي ويقـــول الشـــرف عنـــد الفقيـــر

لم ينس إبراهيم الأطفال من أبناء فلسطين، فغنى لهم قصيدة، لبث روح المقاومة وحب الوطن فــيهم:

أنــا العربـــي يـــاعيوني عنـــد المـــوت أرمونـــا
يمحـــي أمـــم الصـــهيوني لأحمـــي بـــلادي فلســطين
من كيد المستعمرين

فى السياق نفسه تغنى إبراهيم بشجاعة المرأة الفلسطينية، وتضحياتها:

اسمعوا لي يا سادات خصوصا ياسيدات
قصة شاهدتها بالذات من إمرأة قروية
قصة عجيبة ياناس حوادثها بترفع الراس
واللي عنده إحساس بتعمق فيها شوية

إلى أن يختم:

إسمعوا يا أهل الهمة وخصوصا نساء ها الأمة
حيوا جميعا ها الحرمة أم النخوة والحمية
هلي نكرت إبنها لأجل إنقاذ وطنها
تحمَّلوا وخذوا عنها هالمبادئ العلية
وترجموا هالحكاية لكل اللغات الحية
ازعموها رواية تقرأها الأمة العربية
اقرأوا الفاتحة للشهداء اللي ضحوا ارواحهم فداء
وهكذا فلتكن النساء وكل أمرأة عربية (١٥)

كان حس إبراهيم القومي وفهمه للمد العربي، لا يقل عن إحساسه بقضية التحرير والمقاومة، حيث أدرك إبراهيم بأن قوة الشعب الفلسطيني من قوة الأمة العربية، ووحدتها، فأنشد:

العمر سوا عايشين مايفرقنا ملة ولا دين
السوريين والمصريين والعراق وفلسطين
الدين والمذهب لله أما الوطن للجميع

خاطب إبراهيم الزعماء العرب، وناشدهم إنقاذ فلسطين من المؤامرة الصهيونية:

مالنا غير الله وأنتم	ياملوك المسلمين
شمروا عن سواعدكم	لإنقاذ فلسطين

لم يفت إبراهيم تحية الشعوب الأخرى، التي تؤازر الشعب الفلسطيني، فيحيي الشعب الهندي: «حتى الهنود قامت تطالب نصرتنا»(١٦).

دخل إبراهيم المعتقل، عام ١٩٣٧، ثم سجن عكا، ولم يترك نوح هذه الفرصة، إلا وحكى عن ما حدث له ولزملائه، من تهم مفبركة، يمكن الحكم عليه بالإعدام، بسبب إحداها. يرتجل إبراهيم القصائد الشعبية ويتغنى بها داخل السجن، ليحث زملاءه على الصمود، ويبث فيهم روح الحماس والتحدي، فأضرب السجناء عن الطعام، للحصول على حريتهم، وعندما ذاع الخبر، أعلن الإضراب العام في عكا، وحيفا، والناصرة.

لم يفت نوح تحية المعتقلين والشهداء في ثورة ١٩٣٦:

الله يحمي المعتقلين	والزعماء المنفيين
نيَّاله اللي تعذب	في سبيل الألم والتعب
نيَّاله اللي تعذب	وذاق الأم والتعب
مش هذا ابن العرب	هذا نهل المشهورين

ظل إبراهيم يكتب، ويلحن، ويغني، حتى استشهد، وهو في طريقه للاشتراك في اجتماع لقيادة الثورة، في منطقة الجليل الغربي، صيف ١٩٣٧(١٧).

تقديرا للفنان والمجاهد الشهيد نوح إبراهيم، تم إنشاء جائزة للتراث الشعبي، حملت اسمه، عام ١٩٨٣، صدرت باسم «لجنة موسوعة الفولكلور الفلسطيني»، التي تأسست في البيرة، عام ١٩٦٦. منحت جوائز مالية وتقديرية للمبدعين في مجالات التراث الشعبي(١٨).

شعـــراء الثـــورة:

ثمة شعراء ارتبطت أسماؤهم بثورة ١٩٣٦، مثل الشاعر أبـــي ســـلمى، وعبد الرحيم محمود، ومطلق عبد الخالق، وإبراهيم طوقان، الذى كان يتردد شعره ويتغنى به مثل:

موطني موطني، الجلال، والجمال، والصفاء، والبهاء فى رباك
والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك

ونشيد:

وطني انت لي والخصم راغم   وطني أنت المنى

كان نشيد الثورة يتردد فـــي المـــدارس، وفـــي الكشـــافة، وفـــي المظاهرات مع أناشيد أخرى، مثل:

نحن جند الله شباب البلاد   نكره الذل نأبى الاضطهاد

ونشيد:

يا ليوث الوغى   خصمنا قد صفى

ونشيد:

سيروا للمجد طرا   سيروا للحرب

ونشيد:

شبوا على الخصم اللدود   من رقاد مستديم(١٩)

أما الشاعر الشعبي محمود زقوت، فقد وصف المعارك بطريقة رائعة:

بمعركـــــة وادي التفـــــاح   ريــــح الجنـــــة ياعـــــالم فـــــاح
استشــــهد فيهـــا الفـــــلاح   حط الســنجة(*) فـــي المـــرتين(**)
وقعـــــة جـــــرزيم وعيبـــــال   شـــــيّبت روس الأطفـــــــال

---

* السنجة : السونكي.

** المرتين : البندقية.

انخـــذلت فيهــــا الأنــــذال بفضـــل القائـــد فـــوز الـــدين(*)
المنـــدوب فـــي البلاغـــات قـــال مـــا وقـــع إصـــابات
اعتـــرف بجـــرح الضـــباط يعنـــي الجنـــود محجبـــين
أمـــا نســـف القطـــارات ســـار موضـــة مـــن الموضـــات
وانقـــلاب الـــدبابات شـــلحوا العســـكر مـــرتين
ئـــرخ عنـــدك يازمـــان ظلـــم وغـــدر الغـــربين

كما حرص الشاعر على تسجيل أخبار المواقع والأحداث، فغدت القصيدة بلاغاً عسكرياً. كما دعا الشاعر التاريخ إلـى أن يسـجل ظلـم المحتلـين، وغدرهم، ما دلَّ على حسّ وبُعد إنسانيين متحضرين، يتجاوزان المعارك.

فـي أبيات رثاء لبطل استشهد، بعد مقاومة، يصف الشاعر فـيها شكل الشهيد، ويمجّد بطولته، ويصور كيف أن عساكر الاحتلال لم يخفوا إعجابهم ببطولته، ودهشتهم لشجاعته:

قال أبو الجلدة وأنا الطموني ياولاد العرب ليش تخونوني[٢٠]

الشاعر المناضل عبد المنعم، كما اعتاد أصدقاؤه أن يدعونه، أيام شبابه، بدأ الكتابة فى ثلاثينات القرن العشرين، التي شهدت الانتفاضات البطوليـة، التي توجّت بثورة ١٩٣٦، قدم عبد المنعم نفسه فـي قصيدة «عزة نفـس»، التي عبر بها عن كل الشعب الفلسطيني.

عزة النفس" ثروتي في حيـاتي وثـوبي المحمـود بعـد ممـاتي
الست أرض بالمال يفقر نفسـي لأوان صـارلي غنـى الممالكـات
لا ولا اللين في خضـوع وذل ارتضـيه زلفـى لـدى السـادات

كان صريحاً وشجاعاً فـي محاربة الظلم وأسياد المجتمع، فقال:

---

* يقصد ابن طرابلس الشام، القائد فوزي القاوقجي.

لقد أزعج الناس بالانتقاد ليذكر بالشر في كل ناد

لم ينس أن يشيد بزملائه الوطنيين في اللجان والهيئات الوطنية:

هم الشباب وما الشباب سوى العزيمة في اتقاد
شعل وتوهج ليس تخمد او تحول إلى رماد

دعى الشاعر نفسه إلى وحدة الصف ، واستقواء الوطنيين بتلك الوحدة:

فتعاونوا وادعوا لمبدئكم بصدق واتحاد
إن الحقيقة سوف يسطع نورها في كل واد

ويشحذ همم الأبطال:

من للحمى غير ثوار بأوطان جلوا بأفعالهم عن كل تبيان

إلى ذلك حث عبد المنعم شعبه على عدم الركون للوعود الاستعمارية، وأن يستمر في الجهاد:

تعاضدوا يابني قومي فتنتصروا إن التعاضد يفني كل عدوان

كما عبر الشاعر عن القومية العربية، وعن حزنه لتقسيم الوطن العربي، والتشرذم الذي انتابه:

وأمس كل ملك في قطاع تفصم عن عربي الوطن الوحيد
يحارب أهله وأخر قلبي وبعض عن أذى الخصم اللدود
وتسيره السياسة كيف شاءت ويرضخ طائعا مثل الوليد[٢١]

محارب ذيب شاعر وطني، احترف العزف على الربابة، فضلاً عن أنه قاض، كان يستضيف رجال الثورة في منزله، ويغني لهم، وللثورة

الفلسطينية. فعندما غادر الحاج أمين الحسيني فلسطين، خريف ١٩٣٧، غنى ذيب قصيدة فلسطين، مجسداً أحاسيس جموع الشعب الفلسطيني، آنذاك:

فلسطين لجت يوم غادرها أسدها قلقانين تعبانين في غثاها

ويشرح الشاعر نفسه حال فلسطين والفلسطينيين، الذين حرموا لذة النوم، والجهاد هو سبيلها، حتى لو فقدت كل رجالها، وستظل نار الحرب متقـدة، وينهي القصيدة:

طلب من الله يشمله بعدها أو ترجع كما كنا بعودة مولاها

كان ذيب يغني لرجال الدين الوطنيين الفلسطينيين، وعلى رأسهم الحاج أمين الحسيني:

افرحـــي يـــا فلســـطين وابتهجـــي بالحـــاج أمـــين

حولــــك قـــــرة يقـــــين علـــى حفـــظ حقوقـــك ســـهار

إلى ذلك تناول الشاعر ذيب السير الشعبية، للمواطنين الشرفاء، فتنــاول سيرة جورج، أحد الأبطال من أهالي حيفا، الذى تم إعدامه على يد ســلطات الاحتلال البريطاني، أواخر الثلاثينات، ومن الأوصاف التي أطلقـت علـى الشاعر ذيب، أنه أشبه بشعراء المعلقات[٢٢].

تغنى أبو سلمى بالمناطق التي اشتعلت فـيها ثورة ٣٦، وأشاد بـالثوار والمجاهدين، فـي قصيدة رائعة، جاء فـيها:

جبل النـار يـا أعـز الجبـال أنـت لازلـت معقـد الآمـال

ينبت المجد فوق سـفحك فينـا وتسـقيه مـن دم الأبطـال

يفصح الصخر عن شمائل أبنائك فـوق اللظـى وعنـد النـزال

ماذكرنـا حمـاك إلا انتسـبنا وانتشـت نخـوة رؤوس الرجـال

يفرغ (التنـك) مـن صـياحك و(الرشـاش) يخشـى مـن الأدغـال

أيها الثائرون فـي جبـل النـار سـلاما يازينـة الأجيـال

لكم الله ياحماة فلسطين زحمتم مصارع الأجيال
تحملون الأرواح فوق أكف وتبيعونها ولكن، غوالي
ورصاصتكم تمر على الأيام حمرا مضيئة في الليالي
يسمع الجند في صداها لفى الموت فلا يثبتون يوم القتال
أيها الثائرون قولوا فإن الكون يصغي إلى لهيب المقال
والمعوا في غياهب الظلم نجولها فإن الجهاد رحب المجال
إنما الحق من بنادقكم يسطع والعدل من وراء العوالي
انظروا اليوم كيف يلتفت التاريخ حتى يرى بريق النضال
جبل النار: لم تخلدك إلا ثورة في سبيل الاستقلال
جبل النار: اقذف النار حتى نبصر النور يا أعز الجبال(٢٣)

وصف المعارك:

خاض الثوار معارك عدة، ضد قوات الاحتلال، في عام ١٩٣٦، معارك الخضر، وعصيرة الشمالية، ووادي عاره، وبلعا، ووادي التفاح، وجبل المنطار، وحلحلول، وبيت امرين، والفندوقومية، وعزون ...الخ.

في عام ١٩٣٧، معارك اليامون ، وعرابة البطوط. وفي عام ١٩٣٨، معارك أم الفحم، وجبل الجرمق، وباب الواد، لليات وأم الدرج، وجورة بحلص. وفي عام ١٩٣٩، معارك بني نعيم، وصرف حلاوة، وسانوره ...الخ.

وصف الشاعر الشعبي محمود زقوت، معركة بلعا، عام ١٩٣٦، فقال:

اول معركة في بلعا كانت هي يوم الجمعة
استشهدوا فيها سبعة قتلاهم مش محصورين
والمندوب في البلاغات قال: وما وقع إصابات

فـــي وصف معركة بني نعيم بمنطقة الخليل، التي خاضها عبد القـــادر الحسيني، واستشهد فـــيها عدد كبير من المجاهدين، وأصيب الحسيني، أنشد محارب ذيب:

حطـــوا النـــدور جـــوا القبـــور بـــــالزهور عليـــــه قطـــــوف
واخـــتم أصـــلي علـــى محمـــد كـــل الحجـــاج إلـــى تطـــوف

وصف زقوت نسف القطارت والدبابات:

امـــــا نســـــف القطــــارات صـــار موضـــة مـــن الموضـــات
وانقـــــــلاب الـــــــدبابات تلحــــوا العســــكر مــــــرتين

من المعارك التي خاضها شعبنا العربي فـــي فلسطين ضـــد الاحـــتلال البريطاني والصهاينة، معركة الدبابات فـــي كفر صـــور، ومعركـــة جبـــل الكرمل، وقد أرخ الشاعر محمود زقوت لهذه المعارك، وحيا أبطالها:

جبـــل النـــار يـــا فـــوز الـــدين يفـــــديك بالمـــــال والبنـــــين
ريـــح الجنـــة ياعـــالم فـــاح بمعركـــــــة وادي التفـــــــاح

حتى وصل إلى:

عينيك ياصلاح الدين شوف شجاعة المجاهدين(٢٤)

ثمة معارك كثيرة، خاضها الثوار الفلسطينيون ضد الاحتلال البريطاني، سجلها الشعراء، مثل معركة ترشيحا، قرب عكا، ومعركة جبع، فـــي قضاء جنين، ومعركة بيت إمرين، شمال غرب نابلس، ومعركة الخضـــر، التـــي استشهد فـــيها البطل السوري، سعيد العاص.

فـــي وصف هجوم الثوار على مستعمرة كفار عصيون، أنشد زقوت:

على كفار عصيون صار المنادى يوم عبوس يوم شـــر واســـتطارة
حسين عمرو بنتخي مثل زيـــدان صبيان لعبي اليوم عـــج الغبـــارة
ولحاج ناجي بنتخي في أول القوم يوم عبوس يوم هـــذا النهـــاره(٢٥)

عن الإضراب تغنى الشاعر عبد الهادي كامل:

حي البلاد تجيـد فـي اضـرابها   فـي شـيبها وحسـانها وشـبابها
عاشت على الاضراب ستة اشهر   والخيـر مـلء وهادهـا وشـبابها
ظلت تململ تحت أثقـال الأسـى   مـزرودة فـي همهـا ومصـابها
حتى انتهت في صبرها ويقينهـا   فبدت تقول اليوم فصـل خطابهـا
يا أيها الرجل الـذي اوتـه فـي   احضـانها وكسـته فـي جلبابهـا
إن لم تزد عنهـا وعـن سـاحاتا   فدع الرجولة لسـت مـن أربابهـا
واقعد مع الجبنـاء أسـوأ مقعـد   ودع السـبيل لدعـدها وربابهـا
إن الخطوب إذا مهـدت امامهـا   ناشـتك أو عضـتك فـي أنيابهـا
فاربأ بنفسك أن تكون من الألـى   وهنت عزائمهم أمـام صـعابها[٢٦]

في السياق نفسه، ورد كثير من أسماء المعارك فـي الأغنيات الشعبية، حتى في أغاني الأفراح، وذلك دون ذكر لتفاصيل المعارك، فقيل:

هـز الـرمح بعـود الـزين   وانتـو يـا نشـامى منـين
واحنـا شـباب فلسـطين   والـنعم النعميتـين
يـا أبـو العـريس لا تهـتم   واحنـا شـرًابين الـدم
فـي بلعـا ووادي التفـاح   صارت هجمة وضرب سـلاح[٢٧]

تخليد الثـوار:

سيد مهاب فـي قومه، ورجل نافذ القول، شجاع يمتلك روحاً إقتحامية، كان المسؤول عن القيادة فـي منطقة الغور، من بداية الثورة، وهو حسـين بالمرجله زايد، قاتل بشراسة العدو، وأصيب، فخرج إلى بلاد الشام، للعلاج، لمدة شهرين، ليرجع مرة أخرى ويستمر فـي المقاومة، حتـى الاستشـهاد. وأشاد ببطولته وخلد ذكراه أحد أفراد الشعب البسطاء فـي قصـيدة، قـال فـيها:

يـــا وجـــد قلبـــي علـــى القايـــد   ســـــوء الليــــالي نعشـــــونه
وحســــين بالمرجلـــــة زايــــد   مــــا أظـــن البـــيض يليدونــــه
ياحســـين ريقـــك عســـل ذايـــب   ياحســـين ريقـــك عســـل والله
ياحســـين ماطـــل لنـــا قـــودة   حــــزب المواســــير بطنـــــاه
ياحســـين عصـــــتك ســـــابت   حــرب المـــوازر لـــه حنـــاة(٢٨)

تخليدا للعمل البطولي الذي قام به، سرحان العلي، من عرب الصـــقر، الـــذي نسف أنبوبة البترول، عام ١٩٣٦، كتب، لاحقاً، الشـــاعر الفلســـطيني المرمـــوق توفـــيق زيّاد، فـــي وصف عمله البطولي، قصيدة جاء فـــي بعض أبياتها:

كان يمشي نحو "تـــل الحارثيـــة"   حيـــث ماســـورة بتـــرول ســـقية
تحمـــل الخيـــر الـــذي يتـــدفق   من أرض الشعوب العربية لبلاد أجنبية
كان يمشي نحو "تـــل الحارثيـــة"   وبجيبـــه دناميـــت ونـــار وفتيـــل
وعلى كتفه كانت بندقية

وفـــي رثاء له، قال:

شـــــيعوا لبنـــــي عمومـــــه   يجيئـــوا بـــالطبول والزمـــــور
خبـــــروهم إنـــــه قــــد عــــاد   مـــن غزواتـــه صـــقر الصـــقور
وزعـــــوا الحلــــوى وأكيــــاس   الملبس للكبير والصغير...إلخ(٢٩)

وكان للشعر دوره فـــي هذا الميدان:

ســـــوريا أمنــــا الحنـــــون   شـــبابها اختــــاروا الســـجون
عــــيهم المـــــوت يهـــــون   بقيــــت عليــــا فلســــطين
خلاصها ع الحاج أمين

فـــي رثاء الشيخ القسام قال الشاعر نوح إبراهيم:

عـــز الـــدين يـــا خســـارتك رحـــــت فـــــدى لامتـــــك
مـــــين ينكـــــر شـــــهامتك موتــــــك درس للعمــــــوم(٣٠)

في سياق تمجيد الأبطال، نلاحظ أن أي عرس أو احتفال لم يخل من اسم بطل أو قائد، أو شهيد، فنجد أن الأغنية الفلسطينية حفلت بأســماء أبطــال، مثل عز الدين القسام، عبد القادر الحسيني، محمد جمجوم، عطا الزير، فؤاد حجازي، أبو اكابري ...الخ(٣١).

مواضيع أخرى عالجها الشعر الشعبي فـــي ثورة ١٩٣٦،فهذه الأبيات تحث على تناسي الأحقاد، والكف عن الخلافات بين الأحزاب المشاركة فـــي الثورة:

يـــــالله يارجــــال الأحــــزاب تتناســـوا الأحقـــاد الشخصـــية
أفـــراد الشـــعب تطـــالبكم والأقصـــــــى يحلفكـــــــم
تبقــــى وحــــدة كلمــــتكم جمعـــــا لاخــــلاص النيـــــة

ومن الشعر الذي حث على الوحدة الوطنية:

المســــــلم والمســــــيحي اتحــــادهم قــــوي ومنيــــع
والـــــــدين والمــــــذهب لله أمـــــا الـــــوطن للجميــــع(٣٢)

تعبيراً عن القومية العربية، قال شعراء الثورة:

حطمـــوا يـــا شـــيء عـــنكم واكســـروا هـــذي القيـــود
فزمــــان الـــنحس ولـــى وأتــــى عصــــر الســــعود
بـــــلاد العـــرب أوطــــاني مــــن الشــــام لبغــــدان
ومـــن نجـــد إلـــى يمـــن إلـــى مصـــــر فتطـــــوان
ســـلام علـــى العـــرب الخالـــدين ســـلام العـــلا وســـلام الكـــرم
وإنــــي لاقــــرأ تــــاريخهم وقـــد كتبـــوه بحبـــر ودم(٣٣)

دخلت البارودة عالم الأغنية الشعبية، فهي رمز القوة، كما أنهـــا رمـــز للخلاص من الظلم، وهي أداة من أدوات الثورة، واستمرارها، فقيل:

بارودنا معمَّر حديد غنى   تسلم لينا يا حمى وطنَّا

كان أفراد الشعب يتبارون فـــي شـــراء البـــارود، فـــيبيعون أســـاور زوجاتهم، وأمهاتهم، لتوفـــير ثمن البارود، فهذا ســـرحان العلـــم صـــاحب الماسورة، يبيع ذهب أمه، والشاعر الشعبي عوض يبيـــع ذهـــب زوجتـــه، بغرض شراء بندقية.

وكما كانت البارودة عنواناً للمقاومة، فـــي حياة المجاهد، كذلك كانـــت مدعاة للاعتزاز والفخر، بعد استشهاده، تقول أحدى المنوحات:

طلت البارودة والسبع ما طلّ   يابوز البارودة في الندى منبلّ

تقول أخرى على لسان أم الشهيد، أو زوجته:

بارودتـــه بيـــد الـــدلال أريتهـــا   لا عاش قلبـــي لـــيش ماشـــتريتها

وبارودته لقطت صـــداع قرابهـــا   لقطت صدا واستوحشت لصاحبها[٣٤]

من إسهامات المرأة المتعددة فـــي الثورة، إسهامها فـــي الشعر، فهـــي تقول بتحد:

وياي فلان ويا برج عال ما هزوك

ويضرب الطوب والمدفع ماهزوك

سبع باشات والوالي ماهزوك

حتى المندوب ماتحسب له حساب

ولا يفوت الفارس أن يرد على محبوبته:

يا بنت ياللي فـــي القصر طلّي وشوفـــي فعالنا

وأنت غواك شنبرك واحنا غوانا سويفنا[٣٥]

أخيراً يرفع الشاعر الفلسطيني، الذي ولد عند اندلاع ثورة ١٩٣٦، محمد حسيب القاضي الراية، ويقول:

الرايـــة اللـــي ســـقاها أبويـــا   مـــن دمـــه فـــي ســـتة وثلاثـــين
والراية اللـــي عشـــناها أخويـــا   ضـــحى فـــي الســـتة وخمســـين
أفـــديها بروحـــــي ودمـــــي   أنـــا وابنـــي وخـــالي وعمـــي
ونزرعها في أرض فلسطين

هوامش الفصل الثاني

(١) موقع المركز الإعلامي الفلسطيني، التراث الفلسطيني.
(٢) توفيق زياد، **عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين**، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠، ص ٣١ - ٣٢ .
(٣) د. محمود حسني، **شعر المقاومة الفلسطينية /دوره وواقعه**، الجزء الرابع ، مكتبة الأدب والثقافة الفلسطينية، سلسلة الدراسات (٤)، الوكالة العربية للنشر والتوزيع، عمان، د.ت، ص ١٦ - ١٧ .
(٤) **المصدر نفسه**، ص١٦-١٧ .
(٥) **المصدر نفسه**، ص ١٧ .
(٦) نمر سرحان **موسوعة الفولكلور الفلسطيني**، الطبعه الكاملة من الألف إلى الياء، الطبعة الثانية، البيادر، عمان، ١٩٨٩، ص ١٧ - ١٨ .
(٧) فؤاد إبراهيم عباس، **الموروث الشعبي الفلسطيني في ثورة ١٩٣٦**، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٣٦ - ٣٧ .
(٨) زياد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٩٥ .
(٩) توفيق زياد، **صور من الأدب الشعبي الفلسطيني**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٠ .
(١٠) **المصدر نفسه**، ص ٢١ .
(١١) **المصدر نفسه**، ص ٢١ .
(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٥٦،٣١ .
(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٤٠،٤٣ .
(١٤) محمود، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠،٢١ .
(١٥) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧،٤٦،٣٨ .
(١٦) زياد، صور ....، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤،٤٤ .
(١٧) **المصدر نفسه**، ص ٦٥،٥٤ .
(١٨) سرحان، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٨ .
(١٩) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٤،٤٣ .
(٢٠) محمود، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧،١٦ .
(٢١) زياد، عن الأدب ....، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٢،٩٧ .
(٢٢) نمر سرحان، **الموسوعة الفولكلورية الفلسطينية**، الجزء الأول، طبعه أولى، مطبعة التوفيق، عمان، ١٩٧٧، ص ١١٠ ، ١٠٨ .
(٢٣) محمود، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٣ ، ١٠٢ .
(٢٤) نمر سرحان، خمسون سنة من المقاومة (١٩١٧ - ١٩٦٧)، من الفولكلور الفلسطيني، **شؤون فلسطينية**، بيروت، العدد ١٨، شباط/فبراير ١٩٧٣، ص ١٢٥-١٤٩ .
(٢٥) **المصدر نفسه**.
(٢٦) محمود، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٠٨ .
(٢٧) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤١ .

(٢٨) زياد، صور..، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٤،٢٥،٢٩ .
(٢٩) سرحان، الموسوعه ..... **مصدر سبق ذكره**، الجزء الأول، ص ٦٠ – ٦٦ .
(٣٠) عباس، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣١،٧٣ .
(٣١) محمود، **مصدر سبق ذكره**، ص ١١٣ – ١١٤ .
(٣٢) سرحان، الطبعة الكاملة....، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩ .
(٣٣) **المصدر نفسه**، ص ٣٠ – ٣١ .
(٣٤) محمود، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٥ – ٢٦ .
(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٥ .
(٣٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٧ .

الفصل الثالث

الصحافة الفلسطينية والثورة

نهى منصور



تزامن ظهور الصحافة العربية فـي فلسطين مع ظهور الحركة الوطنية الفلسطينية، وارتبط كلاهما بظهور الرأسمالية، ودخول الصناعات إلى البلاد، فـي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فـي حـين أعـاد اثنـان مـن المؤرخين الفلسطينيين[١] تاريخ ظهور أول صحيفة عربية فـي فلسطين إلى عام ١٨٧٦، بينما أصر مؤرخ ثالث[٢] على أن أول صحيفة عربية ظهـرت فـي فلسطين كانت فـي عام ١٩٠٧، ويعود هذا الخلاف بـين المـؤرخين الأولين والمؤرخ الثالث إلى كون الأولين اعتبرا نشرة «القدس الشـريف»، التي صدرت فـي القدس عام ١٨٧٦، كأول صحيفة عربية صدرت فـي فلسطين، عن الحكومة العثمانية، باللغتين العربية والتركية، فـيما كانـت الصحيفة الرسمية الأولى فـي البلاد، وقد حرر القسم العربي فـيها علـي الريماوي وساعده راغب الحسيني، فـيما حرر القسم التركي الأستاذ عبـد السلام كمال. أما الشكل الذي صدرت فـيه فكان مـن الحجـم الصـغير، وطبعت فـي المطبعة المأمونية، فـي مدينة القدس، أما مواعيد صـدورها فكانت شهرية.

كما صدرت نشرة أخرى حملت اسم «الغزال»، فـي مدينة القدس عـام ١٨٧٦، وكانت رسمية أيضاً[٣]. بينما اسـتبعد المـؤرخ الثالـث «القـدس الشريف»، و«الغزال» من عداد الصحف، واعتبرها، مجرد نشرات حكومية، حيث لم تكن تنشر سوى الفرمانات، الأنظمة والتعليمات الرسمية، واعتبر هذا المؤرخ «الترقي» أول صحيفة عربية صـدرت فـي فلسـطين، ورئـس تحريرها عادل جبر، وصدرت نصف شهرية، منذ عام ١٩٠٧[٤].

شهدت الصحافة فـي مرحلة نهوض الحركة الوطنية الفلسطينية، ارتفاعـاً فـي خط إصدار الصحف، ويعود ذلك إلـى اضـطرار الشـعب الفلسـطيني للاعتماد على قدراته الذاتية، بعد سلخه عن الجسم السـوري، وإحسـاس هـذا الشعب بجدية وخطورة التحديثات، بعد ازدواج عدوه (الاسـتعمار البريطـاني والحركة الصهيونية)، الأمر الذي تطلب من هذا الشعب شحذ مختلف أسـلحته، بما فـيها الصحافة، وهي السلاح الذي تشتد الحاجة إليه[٥].

إضافة إلى ذلك، فقد طرأت فـي مرحلة ثلاثينيات القرن العشرين بعض التغييرات على الصحافة العربية فـي فلسطين، أهمها[٦]:

١- ارتفاع عدد الصحف الدينية، إلى (٨) صحف، مما يعنـي أن معركـة التبشير لم تكن قد وضعت أوزارها بعد، بل ازدادت ضراوة.

٢- اختفاء مجلة من أصناف الصحف الفكاهية، الجامعية، الخطية.

٣- التوسع في إصدار الصحف الثقافية، من أدبية وفنية، حيث صدرت أول الصحف السينمائية، لأول مرة، في فلسطين.

٤- إصدار الصحف الكشفية، والصناعية، والعلمية. وقد صدرت الصحف الكشفية بسبب الانتساب الواسع للحركة الكشفية، والصحف الصناعية، بسبب التوسع في قطاعات الصناعة في فلسطين، والصحف العلمية بسبب الاهتمام المتزايد بالنشاط العلمي.

٥- ارتفاع عدد الصحف اليومية إلى تسع صحف، وكانت «فلسطين» أول صحيفة تتحول إلى صدور يومي، منذ ١٩٢٩ .

لقد وصل خط إصدار الصحف الجديدة إلى ذروته، في سنة انتفاضة تشرين الأول/اكتوبر ١٩٣٣، والسنتين التاليتين اللتين شهدتا مقدمات ثورة ١٩٣٦، وعلى رأسها حركة القسام المقدّمة الحقيقية لهذه الثورة. وبعد انفجار الثورة، وتركيز الحركة الوطنية على أساليب الكفاح المسلح، قل حماس هذه الحركة لإصدار الصحف، خاصة مع تشديد سلطات الإنتداب قبضتها على الصحف العربية الفلسطينية. غير أن هذا الخط عاد إلى الصعود، مع ما أظهرته الثورة من الحاجة إلى سلاح الصحافة، في المعركة المحتدمة ضد الاستعمار والصهيونية، ولكن هذا الخط عاد إلى الهبوط، بمجرد أن تراجعت أصداء هذه الثورة، عام ١٩٣٩(٧).

في هذه المرحلة ظهرت – للمرة الأولى – الصحف الحزبية في فلسطين، بالترافق مع ظهور الأحزاب العربية الفلسطينية، فكانت صحيفة «العرب» لحزب الاستقلال، وصحف «اللواء»، و«الجامعة العربية»، و«الوحدة العربية» للحزب العربي، وصحف «الجامعة الإسلامية»، و«فلسطين»، و«مرآة الشرق»، و»الصراط المستقيم» لحزب الدفاع، وصحيفة «الكفاح» لمؤتمر الشباب، وصحيفة «الغد» لرابطة الطلبة العرب اليسارية.

وشهدت هذه المرحلة صحفاً لعرب فلسطينيين، أصدروها باللغة الإنجليزية، حيث أصدرت فلسطين اليومية طبعة إنجليزية أسبوعية، بإسمها نفسه "Falastin" ، ثم صدرت "arab fedration "، تبعتها "Trouth"، ثم "Time of Palestine"، قبل صدور "Palestine Daly Mail"، وكان صدور هذه الصحف بهدف تقديم ظلامة فلسطين للرأى العام الإنجليزي.

واجتهدت الصحف لكسب الرأي العام البريطاني إلى صف القضية الفلسطينية، مما يؤكد بقاء ظاهرة الارتكان على بريطانيا، أو على الأقل، الرأي العام فيها، وفي هذه المرحلة ارتقت الصحافة العربية الفلسطينية في موادها وإخراجها كثيراً، بعد أن توفر لهذه الصحف الكثير من أسباب النجاح[٨].

في مرحلة الثلاثينات، لم يهاجر أي صحفي فلسطيني إلى أي قطر عربي، بل عمل في الصحافة عدد كبير من الكتاب والصحفيين العرب، فمن سوريا جاء سامي السراج، سليمان جابر، وجلال عوف، ومن لبنان وصل خليل نصر، وميشيل سليم النجار، وعماد عباس، أما من مصر فجاء علي منصوره، والبير عمون وعبد الهادي عرفان.

وفي فلسطين، شهد الميدان الصحفي رواداً أسهم كل واحد منهم بهذا القدر أو ذاك في تطوير الصحافة العربية الفلسطينية، ومنهم الأستاذ عيسى العيسى، والشيخ سليمان التاجي الفاروقي، والأستاذ إبراهيم الشنطي[٩].

ثانياً: دور الصحافة في الثورة:

عاشت الصحافة الفلسطينية حيثيات وقائع الشعب الفلسطيني، تحت الانتداب البريطاني، وكانت علاقتها بالجماهير وثيقة، وعلاقتها بالحكومة خصامية، لأنها جعلت أولى وظائفها، رفع مطالب الجماهير إلى السلطات، والوقوف إلى جانب هذه الجماهير، وتعرية تآمر السلطات البريطانية مع الحركة الصهيونية، من أجل طرد الشعب الفلسطيني من أرضه، وتمليكها لليهود. كما أن تلك الصحافة اضطلعت بمسؤولية فضح الحكومة، حول المساواة المزعومة بين اليهود والعرب، التي تتحدث عنها. واكتسبت الصحافة العربية الفلسطينية مصداقية إنتمائها، وازدادت الثقة الجماهيرية بالموضوعات التي تطرحها، عندما افتضح أمر الانحياز البريطاني للصهيونية، ومكنتها أدوار ومواقف أصحابها ومحرريها من أن يتبوأوا مكانة رفيعة بين قطاعات الحياة الفلسطينية الأخرى، خاصة عندما تداعت الصحافة، بشكل فوري، لحمل رسالة الدعوة إلى الثورة، سنة ١٩٣٣، بعدها أعلنت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، إنتفاضتي مارس/آذار، وأكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٣، وهما اللتان بشرتا بحركة القسام المسلحة، في نوفبر/تشرين الثاني ١٩٣٥، والتي تعتبر تمهيداً لثورة ١٩٣٦، الأمر

الذي ساعد على الاستجابة السريعة لهذه الدعوة، وانتشار الثورة في مختلف أرجاء فلسطين. لقد جعلت الصحافة من نفسها منبراً لكل اطروحات الحركة الوطنية الفلسطينية، وغدت رسولها المباشر إلى الجماهير، في مواقع عملها، في مختلف أنحاء فلسطين، وصعّدت حملتها على سياسة الحكومة، وطالبتها بانتهاج مواقف واضحة من المطالب الشعبية الفلسطينية، وبدا كما لو أن الصحافة قد جعلت هذه الممارسة برنامجاً سياسياً لها، في السنين اللاحقة، حيث كان للصحافة دور هام في التحضير للثورة الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ . كما كان لها دورها الطليعي المشارك في هذه الثورة، إضافة إلى الدور المهني الذي قامت به، حيث احتل أصحاب ومحررو الصحف مكانة بارزة في قيادة الثورة. وقد قامت الصحافة بمهمة التصدي لخطة الحكومة، التي استهدفت إجهاض الثورة، وبواجب الرد على مزاعمها واتهاماتها الباطلة للحركة الوطنية، كما أعادت القضية إلى نصابها الطبيعي[١٠].

ظهرت، في تلك المرحلة، بعض الصحف اليومية، مثل صحيفة «فلسطين»، التي أصبحت يومية، عام ١٩٢٩، بعد مرور ستة عشر عاماً على تأسيسها في يافا، على يد الأستاذ عيسى العيسى، وفي عام ١٩٣٢، قام الشيخ سليمان التاجي الفاروقي بتأسيس صحيفة «الجامعة الإسلامية»، أما صحيفة "الدفاع" فقد أسسها إبراهيم الشنطي، وتولى رئاسة تحريرها عام ١٩٣٤[١١].

أما بالنسبة للأحزاب السياسية العربية الفلسطينية، وصحف تلك الأحزاب، فنجد حزب الدفاع الوطني، المؤسس عام ١٩٣٤، وصحفه: «الجامعة الإسلامية»، و«مرآة الشرق»، و«الصراط المستقيم»، قد دعت إلى كيان فلسطيني برلماني، تربطه معاهدة مع بريطانيا. وعندما اتخذ «حزب الدفاع» اتجاهاً مضاداً للثورة، اتخذت صحفه الموقف نفسه، أما «الحزب العربي الفلسطيني»، المؤسس عام ١٩٣٥، وصحفه: «الوحدة العربية»، «اللواء»، و»الجامعة العربية»، دعت إلى استقلال فلسطين ورفع الإنتداب. وكذلك فعلت باقي الأحزاب التي اتخذت صحفها الموقف نفسه من الدعوة إلى الاستقلال ورفع الإنتداب، بينما اتسم حزب الإصلاح، المؤسس ١٩٣٥، بأنه حزب معتدل متهادن مع الإدارة البريطانية، ولا يتعارض مع سياستها في فلسطين، وقد عبرت صحفه عن آراء ووجهات نظر هذا الحزب[١٢].

بعد اغتيال حركة القسام، باستشهاد قائدها مع بعض رفاقه على أيدي قوات الانتداب، في ١٩٣٥/١١/١٩، بدأت الصحافة الوطنية تشن حملة جديدة ضد الحكومة الإنجليزية المنتدبة، بحيث أعطت المنتدبين الانطباع بأن

خلف هذه الموجة تقف حركة جديدة وخطيرة على سلطات الإنتداب ومشاريعها في فلسطين. فالجامعة العربية، صحيفة القيادة التقليدية، سخّرت نفسها للقيام بحملة دعم لعائلات المتضررين الفلسطينيين، والذين استشهدوا دفاعاً عن الوطن قائلة «إن عدم دعم هذه العائلات سيؤدي إلى تخلف الناس عن تقديم الضحايا من أجل نيل الحرية والعمل من أجل القضية الوطنية...»[١٣].

معروف أنه في يوم ١٩٣٦/٤/١٥، هاجمت مجموعة قسامية مسلحة قافلة سيارات يهودية، في منطقة المثلث الفلسطيني (نابلس/جنين/طولكرم)، وقتلت بعض ركابها، وردت العصابات الصهيونية المسلحة بقتل بعض العرب الفلسطينيين في مدينة يافا، المتاخمة لتل أبيب اليهودية، مما دعا شعب يافا إلى إعلان الإضراب السياسي، وسرعان ما انتقلت شراراته إلى بقية مدن وقرى فلسطين، وامتد زهاء ستة أشهر متصلة، في طول البلاد وعرضها، وحاز على إجماع طبقي، حيث أسهمت كل الطبقات والفئات الإجتماعية في هذا الإضراب، بما في ذلك رجال الشرطة العرب الفلسطينيين. ونجح الإضراب في تفجير أسباب السخط المتراكمة في ثورة وطنية مسلحة، امتدت ثلاث سنوات متصلة[١٤]. وقد اكتفت الصحف العربية الفلسطينية بالإضراب الرمزي لمدة ثلاثة أيام متصلة، كي تعود إلى نشاطها التحريضي[١٥].

كان خوف الصحافة الفلسطينية المستقلة من تربع جديد للقيادة التقليدية على قمة هذه الموجة الجديدة من النضال الوطني وإحباطها، والذي حصل فعلاً بشكل واضح من خلال تعليقاتها. لقد علقت صحيفة "فلسطين" على اجتماع الأحزاب الفلسطينية وقرارها بتشكيل "اللجنة العربية العليا،" في ١٩٣٦/٤/٢٥، محاولاتها انتزاع القيادة من اللجان الوطنية بما يلي: كان جميلاً حقاً هذا التجاوب بين الأحزاب العربية، واتحاد كلمتها، ثم تآلفها في كتلة واحدة باسم (اللجنة العربية العليا)[١٦].

وقد أتهمت اللجنة العربية العليا من قبل صحيفة "الدفاع"، بأنها تعمل ببطء من أجل توحيد مختلف اللجان القومية، التي تشكلت في كل مدن فلسطين[١٧]. واخيرا، تجلت الوحدة الوطنية بين الجمعيات واللجان الوطنية في مؤتمر اللجان القومية، في ١٩٣٦/٥/٧[١٨]، وفي هذا المؤتمر انتخب المفتي الحاج أمين الحسيني رئيساً لهذا الإجماع الوطني. وقد تقرر، أيضاً، وابتداء من ١٩٣٦/٥/١٥، الامتناع عن دفع الضرائب، حتى تغيّر

بريطانيا سياستها تجاه العرب، إضافة إلى مقاطعة اليهود، والاستمرار فـي الإضراب[١٩].

وفيما بين ٢٩ و ١٩٣٦/٥/٣١ اضربت كل الصـحف العربيـة فـي فلسطين.

فـي ١٩٣٦/٦/٨ ذكرت صحف عربية فلسطينية أن حكومة الانتـداب مهيأة لتقديم تنازلات للثورة فـي موضوع «الهجرة اليهودية»، لكن المندوب السامي البريطاني، آرثر واكهوب، نفى الخبر من أساسه، وبادر إلى تعطيل الصحف السالفة، فـي اليوم التالي[٢٠].

لقد حاولت بريطانيا إيقاف هذا الإضراب بكل الوسائل المتاحـة لـديها. فوجهت التحذيرات والتهديدات إلى القيادة، وحاولت إعطاء وعود بالنظر إلى مطالب العرب ودراستها، ولكن بعد فك الإضراب. وأخيراً، حين لم تـنجح هذه المحاولات، لجأت سلطات الانتداب سلطات إلى استخدام القـوة، حيـث أعلنت الأحكام العرفـية من أجل كسر إنهاء هذا الإضراب[٢١]. لقد كلف هذا الإضراب بريطانيا خسارة اقتصادية، حوالي ٢,٢٥٠,٠٠٠ جنيه[٢٢].

ساندت الجرائد اليومية الأربع الثورة(*)، بكل ما أوتيت من جهد وقـوة. وقد اتفقت جميعها بصدد المطالب الوطنية الثلاثة (وقف الهجـرة اليهوديـة، منع انتقال الأراضي، إلغاء الإنتداب مع إقامة حكومة وطنية). وفـي هـذا الصدد، فإن الصحف تحدثت بصوت واحد، طوال المرحلـة الأولـى مـن الثورة، وقبل أن يخرج حزب الدفاع من صفوف الثورة إلى موقعه الطبيعي فـي خنادق الثورة المضادة، حيث سحب معه بعض الصحف. أما الصحف التي تبرعت، فـي ١٩٣٦/٨/١٥، بتقديم تفاصيل عن مشروع الوساطة بين قيادة الثورة وحكومة الانتداب، فإن الجماهير الفلسطينية بادرت إلى إحـراق هذه الصحف، تعبيراً عن رفض المشروع[٢٣].

أما «جريدة الشباب»، الصادرة فـي القدس عام ١٩٣٥، وكان يحررها الأستاذ إميل الغوري، وهي الناطقة بلسان «الحزب العربـي الفلسـطيني»، وكان موعد صدورها أسبوعياً، واستمر صدورها ستة أشهر ثم توقفت بعـد ذلك، ولم يتم التوصل الى الأسباب حقيقية لتوقفها، ونشرت جريدة "الشباب"، فـي ١٩٣٧/٤/٢١، ما قام به الثوار من حملات انتقام ممن سـاروا فـي ركاب الانجليز من الخونة[٢٤].

---

* هي : فلسطين/ الدفاع/ الجامعة الإسلامية/ واللواء.

عادت الصحافة كالقيادة السياسية – الى الانقسام إزاء التعاون مع لجنة بيل"وقد أحرقت الجماعير العربية الفلسطينية الغاضبه مقر جريدة "فلسطين" لمجرد ان هذه الجريدة دعت للتفكير فى مشروع التقسيم الذى اوصت به لجنة "بيل"

نتيجة لمقاومة السلطات البريطانية لعمليات الثوار، في محاولة للسيطرة على الوضع، فقد امتد القمع ليمس المواطنين الأبرياء، ووضعت الرقابة على الصحف، فما كان من هذه الصحف إلا أن نادت بضرورة عقد مؤتمر لجميع الصحف الفلسطينية في أواخر عام ١٩٣٧، لاتخاذ موقف موحد ضد الإجراء القمعي، في مقر صحيفة "فلسطين"،فى مدينة يافا واتخذ الاجتماع القرارات التالية: ايقاف الصدور من تاريخ ١٢/٢٣ حتى ١٩٣٨/١٠/٨؛ توجيه نداء إلى جميع الصحف العربية التي تصدر خارج فلسطين بأن لا ترسل صحفها للتوزيع في فلسطين؛ وتوجيه نداء إلى كل العرب والمسلمين، تبين فيه موقف الصحف الفلسطينية من تطورات الوضع في فلسطين[٢٥].

اشتدت الثورة، وتمكن الثوار من احتلال بعض المدن والقرى، وكانت تُصدر أحكام الإعدام على الخونة والأعداء وتعمل على تنفيذها، وقد أُطلق سراح السجناء من السجون، وسيطر الثوار على جنوب فلسطين، وغدت الصحف، في هذه الفترة، سجلاً وطنياً لأعمال البطولة والكفاح، فامتلأت بأنباء عن الأعداء والخسائر المتتالية التي أُلحقت بهم، وكانت صحيفة الأحرار «تسخر من المناشير التحذيرية التي كانت تتوالى من دار المندوب السامي البريطاني، والتي حدد فيها المكافآت للقبض على الثوار، على نحو ما نشرته جريدة "الشباب»، في ١٩٣٨/٢/٢٣، إذ كانت تردد ما جاء في منشورات الثوار، ثم أخذت الصحف البيروتية تنشر أخبارها مجسَّمة، وتولى هاشم السبع تحرير «الاعتدال»، التي دافعت عن الثورة الفلسطينية، بحماس، مما لفت أنظار رجال مخابرات اللاذقية والقدس، فأبعدوا محررها. وقد حملت هذه الجريدة أقلاماً فلسطينية لأكرم زعيتر، محمد علي الصالح، وحمدي الحسيني.

ثم أصدر هاشم السبع جريدة «الحرية»، بالاشتراك مع مسعود جميل، وأكرم الخالدي، ونجيب افرنجية، وتولى إصدارها في يافا، بالإضافة إلى جريدة «نداء الأرض»، التي استهدفت الإصلاح السياسي، وقد لقيت رواجاً شديداً، بسبب أسلوبها الجريء، وكانت المقالات تتغلب على أزيز الرصاص، ودوي المدافع، وألهب صوت «نداء الأرض» ظهور الزعماء والساسة[٢٦].

واصلت الصحف الفلسطينية تأييدها للنضالات التـي يخوضـها شـعب فلسطين، فقد كتبت صحيفة "فلسـطين"، فـي عـددها الصـادر بتـاريخ ١٩٣٨/١١/٢٥ ، نقلا عن وزير المستعمرات البريطاني فـي مجلس النواب «ويجب على النواب المحترمين أن يفهموا أن مشكلة اليهود فـي أوروبـا الوسطى لا يمكن حلها فـي فلسطين[٢٧]. ونرى إلى جانـب ذلـك عنـاوين رئيسية مثل «التأييد الشامل، الرائع لسماحة الرئيس الجليل، المفتي الأكبـر، الحاج أمين الحسيني، رئيس اللجنة العربية العليا، ممثل العرب الأول"[٢٨].

استمرت الأحـداث دون توقـف، وأعلنـت صـحف الثـوار، فـي ١٩٣٩/١/٣، عزم العرب على إنهاء تجربـة «الـوطن القـومي» وإلغـاء الإنتداب، ووقف الهجرة. وتصاعد الموقف، وكثرت أحكام الإعـدام علـى الثوار، وفـي ١٩٣٩/٢/٣، بلـغ عـدد القتلـى ١١٠، والجرحـى ١١٢، وتلاحقت الأحداث، ودارت المعارك دون توقف، ورفعت الصـحف، فـي مارس/آذار ١٩٣٩، الإطارات السوداء، حزناً على استشهاد الأبطال، وكانت تنشر أنباء صلوات الغائب، والتعازي والمآتم. وكان للصحف دور ملمـوس فـي إيضاح مدى معاناة أصحاب الصحف، واضطهادهم من قبل سـلطات الإنتداب البريطاني، ونشرت تباعاً، بيانات «اللجنة العربية العليـا»، التـي حملت الدعوة إلى التضحية[٢٩].

مع ظهور سحب الحرب العالمية الثانية، فـي الأفق، نظمت الحكومـة البريطانية مؤتمراً فـي لندن، مطلع ١٩٣٩، لضم ممثلين عن الدول العربية، والشعب الفلسطيني والوكالة اليهودية، واستمرت المباحثات، فـي لندن حتى، آذار/مارس ١٩٣٩، وأوضح الوفد العربي مطالب عـرب فلسـطين، الا أن مؤتمر المائدة المستديرة لم يحقق أي نجاح يُذكر، على الرغم مـن إجمـاع مندوبي مؤتمر فلسطين فـي لندن، من بريطانيين وعرب ويهود، علـى أن أعمال المؤتمر تسودها الصداقة[٣٠]!.

بعد فشل مؤتمر لندن فـي التوصل إلى تسوية للقضية الفلسطينية، وهي التي كانت تتلهف عليها بريطانيا، من أجل التفرغ للخطر النـازي المتزايـد فـي أوروبا. كان إصرار بريطانيا على سياستها تجاه فلسطين، حسبما جاء فـي كتابها الأبيض، فـي أيار/مـايو ١٩٣٩ ، بهـدف تحـذير الشـعب الفلسطيني، والذي نشرته سلطات الإنتداب فـي كتيب بحجم ثمانيـة عشـر صفحة، ونشرت الصحف الفلسطينية أهم ما جاء فـيه[٣١].

يبدو أن الصحافة الفلسطينية قد أرادت، من خلال ذلك، عدم الاعتـراف بواقع التناقضات فـي المواقف السياسية التي اتبعتها القيادة الفلسطينية بـين رافض وموافق (حزب الدفاع) على سياسة بريطانيا المعلنة فـي كتابها الأبيض. وعلى الرغم من ذلك، فقد استمرت الصحافة الفلسطينية فـي نشر أنباء عمليات الفدائيين فـي فلسطين، كالمعتاد(٣٢).

أما صحيفة «الكرمل»، فعبَّرت، بشكل لا لبس فـيه، عن واقع الثـورة الفلسطينية وطموحها إلى الأفضل، بأسلوب حزين، شبه مستسلم تحت عنوان «وطني الغالي»(٣٣).

ثالثا: الإجراءات الإنتدابية ضد الصحافة:

لقد تأثرت حركة إصدار الصحف، ونوعية القضايا الإجتماعية والفكرية والسياسية المطروحة، بأساليب الصراع بين القوى الوطنية العربية والسلطات الاستعمارية، فقد اتبعت بريطانيا سياساتها المعروفة (فرِّق تسُـد)، وعمـدت فـي المجال الثقافـي، والإعلامي، إلى إثارة الخلافات اللغوية، وتشـجيعها، على حساب اللهجات المحلية. ومن هنا تبنت محاولات لضرب اللغة العربية الفصحى، من خلال تشجيع إصدار الصحف باللهجات المحلية (العامية)(٣٤).

وبالنسبة للصحافة العربية الفلسطينية، فقد عارضت سلطات الاحـتلال البريطاني، فـي فلسطين، عام ١٩٢٠، إعادة إصدار «فلسطين»، فنزح أحد صاحبيها «عيسى العيسى»، إلى دمشق، وأصدر هناك جريدة «ألف بـاء»، فـي العام نفسه(٣٥).

ومن بين الأدوار القيادية للصحافة العربية الفلسطينية فـي التمهيد للثورة الوطنية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩، أنه منذ استشهاد القسام وصـحبه، عمـدت الصحف العربية الفلسطينية إلى تصعيد حملتها، ضد الاستعمار البريطـاني والحركة الصهيونية، فأسهمت تلك الصحف بدور جاد فـي تهيئـة الشـعب العربي الفلسطيني للثورة، وكان من الطبيعي أن تحـس سـلطات الإنتـداب بالثورة القادمة. مما جعلها تعمد إلى تشديد القيود علـى حريـة الصـحافة، وأصدر المندوب السامي البريطاني فـي القدس تعديلاً لقانون المطبوعـات، الذي سبق أن أصدره عام ١٩٣٣، ومنح المندوب نفسه، بموجب هذا التعديل، حق وقف وإنذار أي صحيفة، فضلاً عن منع دخول أي صحيفة، تصدر فـي الخارج إلى فلسطين(٣٦).

وبعد أيام قليلة من نشوب الثورة، أصدرت سلطات الانتــداب «قــوانين الطوارئ»، التي أجازت للمندوب السامي تعيين رقباء على الصحف[٣٧].

وقد شنَّت سلطة الإنتداب، فــي ١٩٣٦/٥/٢٤، أول حملــة اعتقــالات، طالت واحدٍ وستين من نشطاء الثورة، منهم أربعة صحفــيين(*)، فــي مــا كان نصيب عدة صحفــيين آخرين تحديد إقاماتهم[٣٨].

وفــي حزيران/يوليو ١٩٣٦، تصــادف أن جميــع الصــحف العربيــة الفلسطينية اليومية، كانت معطلة لمدة أربعة عشر يوماً متصلة، كمــا عطلتهــا حكومة الإنتداب، خلال أشهر الإضراب، وأنذرتها رسمياً إحدى عشرة مرة[٣٩].

كما صادرت الحتومة الصحف جميعها بــين ٢-٨/ ١٩٣٦ ، بذريعــة نشرها "مقالات تحريضية" ! مع ذلك رات لجنة "بيل" العقاب المتاخــذ ضــد الصحافة ... غير كاف باسكات الصحافة المحرضة الشريرة(**)

---

* هم: ابراهيم الشنطي، صاحب ورئيس تحرير "الدفاع"، ومنيف الحســيني، صــاحب امتيــاز "الجامعة العربية"، وهاشم السبع، وسامي السراج، الصحفي السوري الذي عمــل فــي الصــحف الفلسطينية، آنذاك.

** صودرت الصحف، في فترة الإضراب، ٣٤مرة، وأنذرت رسميا ١١ مرة، وبالمقارنة فقــد صودرت الصحف اليهودية ١٣مرة، فقط. وخلال الشهرين الأولــين مــن الإضــراب أقفلــت ٩ صحف، مقابل صحيفة يهودية واحدة. وخلال السنة الأولى من الثورة تأثرت الصحافة الأجنبيــة، سلبا، بقوانين الطوارئ والرقابة على الصحافة، فقد منعت، خلال هذه السنة، ٧ جرائــد أجنبيــة، وكتاب واحد من الوصول إلى فلسطين، بدعوى مساندتها للثوار. وخلال تعطيل الصحف العربية الأربعة اليومية، عمدت الحكومة إلى نشر أخبار (في الجريد الرســمية "الوقــائع الفلســطينية")، واستعملتها كوسيلة إعلامية جماهيرية، لنشر الأخبار السياسية المؤثرة.

لقد صودرت يومية "الجامعة الإسلامية" خمس مرات، خلال أقل من ثلاثة اشــهر (٢٢/٥-١٩٣٦/٧/١١)، اما "فلسطين" فعطلت ثماني مرات (بين مايو/ أيــار وديســمبر/ كــانون الأول ١٩٣٦). كما عطلت "اللواء" و"الدفاع"، في ١٩٣٧/٧/١٣، لنشرها مقالات ضد تقرير "لجنة بيل"، الذي أوصى بتقسيم فلسطين

خلال سنة ١٩٣٨، تمت مصادرة الصحف التالية:

الدفاع	مرة واحدة	ثلاثة أسابيع
فلسطين	ثلاث مرات	ثلاثة أسابيع
الجامعة الإسلامية	مرتين	أربعة أسابيع
الصراط امستقيم	مرة واحدة	ثلاثة أشهر
اللهب	مرة واحدة	شهر واحد

وفـــي أيار/مايو ١٩٣٨، أعادت سلطات الإنتــداب تشــكيل «مكتــب الصحافة»، باسم جديد هو «قلم المطبوعات»، ومع فشــل مــؤتمر المائــدة المستديرة فى لندن فـــي ربيع ١٩٣٩، وظهور نذر الحرب العالمية الثانيــة فـــي الأفق، فإن المندوب السامي تعمَّد، فـــي حزيران/يوليو ١٩٣٩، إدخال تعديلات كبيرة، على «قانون المطبوعات»، تبخر معها ما تبقى من حريــة الصحافة العربية الفلسطينية. بعد أن قامت الصحافة بواجبها على خير وجه، فـــي ثورة ١٩٣٦، كحقل للثورة وداعية لها، وحافظ ليومياتها[٤٠].

وقد ظهر مدى معاناة أصحاب الصحف، واضطهادهم من قبل السلطات البريطانية، من خلال تعطيل صحفهم، لأتفه الأسباب، وإكراه الصحفـــيين على الإقامة الجبرية، وإبعاد البعض فـــي المناطق النائية، واعتقال النشطاء السياسيين من الصحفـــيين[٤١].

وعليه يمكن القول بأن للصحافة العربية الفلسطينية دور قيـــادي فـــي تهيئة وتعبئة الشعب الفلسطيني للثورة الوطنيـــة الكبـــرى (١٩٣٦-١٩٣٩)، فهي التي شنت الحملات ضد سلطات الإنتداب البريطاني وكانت بمثابة سجل لبطولات الثوار، مما جعل سلطات الإنتداب تقوم بتعطيل الصحف، واعتقال النشطاء السياسيين، ومن بينهم الصحفـــيين. وعندما ظهرت سحب الحـــرب العالمية الثانية فـــي الأفق، توقفت العمليات العسكرية للمقاومة الفلســـطينية، وبذلك خبت أصداء هذه الثورة، وانطوت صفحة من صفحات الكفاح الوطني للشعب الفلسطيني، إلا أن دور الصحافة العربية الفلسطينية لم يتوقـــف عنـــد هذه الصفحة، بل تأهبت للقيام بدور قيادي فـــي الصفحات التاليـــة للكفـــاح الوطني للشعب الفلسطيني.

=فيما أنذرت "الدفاع" مرتين، و"الأخبار" مرة واحدة، بتهمة "الإخلال بالأمن"، أو "معلومـــات خاطئة".

=وقد ابتكر الصحفيون صيغة "الصحف البديلة، التي سدت الفراغ، فضلا عن الدور المهـــم للصحف العربية التي وصلت من الخارج، مثل "الشورى" من القاهرة، و"الأيام" من دمشق.

- د.عايدة النجار، **صحافة فلسطين والحركة الوطنية في نصف قرن (١٩٠٠-١٩٥٠)**، بيروت، مؤسســـة الدراسات العربيـــة، ٢٠٠٥، ص ٢٢٤-٢٢٥، ٢٣٧، ٢٤٦-٢٤٧، ٢٦٤.

هوامش الفصل الثالث

(١) أحمد خليل العقاد، **تاريخ الصحافة العربية في فلسطين**، ط ٢، عمان، د. ن.، ١٩٦٧، ص ١٢١ .
- يوسف ق. خوري، **الصحافة العربية الفلسطينية ١٨٧٦-١٩٤٨**، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٦، ص ٣ .

(٢) عبد القادر ياسين، **الصحافة والحياة السياسية في فلسطين ١٩٠٧-١٩٤٨**، ط١، نيقوسيا- قبرص، شرق برس، ١٩٩٠، ص ٢٠ .

(٣) خليل العقاد مصدر سبق ذكره، ص ١٢١، خوري، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣.

(٤) ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠ .

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٣٢ .

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٤٠-٤١ .

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٤١ .

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٤١-٤٢ .

(٩) العقاد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٦، ٨٤، ٨٥ .

(١٠) محمد سليمان، الصحافة الفلسطينية وقوانين الإنتداب البريطاني، ط١، نيقوسيا- قبرص، مؤسسة بيسان للصحافة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨، ص ١٤١، ١٤٢ .

(١١) دوف شينار- داني روبنشتاين، **الصحافة الفلسطينية تحت الاحتلال، الأبعاد السياسية**، ط١، ترجمة د. كمال أبو سماحة، عمان، دار الكرمل، ١٩٨٨، ص ٩ .

(١٢) د. إحسان عسكر، **الصحافة العربية في فلسطين - الأردن- سوريا ولبنان**، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٨٢، ص ٤٦ .

(١٣) نظام عزت العباسي، **السياسة الداخلية للحركة الوطنية الفلسطينية في مواجهة الإنتداب البريطاني والحركة الصهيونية ١٩١٨- ١٩٤٥**، ط١، إربد، دار هشام للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ١٣٠ .

(١٤) عبد القادر ياسين، **الحركة الوطنية الفلسطينية: المحطات الرئيسية/الدروس المستفادة**، ط١، القاهرة، دار الكلمة، ٢٠٠٠، ص ١٨ .

(١٥) إبراهيم أبو لغد، **تهويد فلسطين**، ترجمة أسعد رزق، بيروت، م. ت. ف.، مركز الأبحاث، شباط/فبراير ١٩٧٢ (انظر: بربارة كالكاس، **ثورة عام ١٩٣٦**، ص ٢٧٦-٢٧٧). أورده: ياسين، الصحافة والحياة السياسية...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٣ .

(١٦) العقاد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٥ .

(١٧) **فلسطين** (يافا) ١٩٣٦/٥/٨ . أورده: **المصدر السابق**، ص ١٣٦ .

(١٨) من خلال اعداد الصحف يستطيع المرء تأكيد ذلك -أنظر، مثلاً، هذه الصحف تحت عناوين «الإضراب يدخل يومه التاسع عشر، الثالث والتسعون، المائة وواحد وعشرون...» أورده: **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(١٩) قارن جميع الصحف خلال فترة الإضراب وما يعطينا إياه الكاريكاتور لصحيفة فلسطين، بتاريخ ١٩٣٦/٦/٢٧ . أورده: **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
(٢٠) ياسين، الصحافة والحياة السياسية..، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٣ .
(٢١) فلسطين (يافا) ١٩٣٦/٦/٢٥ قارن المصدر نفسه، بأعداد ١٩٣٦/٩/٣٠ .
- أورده: العباسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٧ .
(٢٢) فلسطين (يافا) ١٩٣٦/١٠/١١، قارن جميع أعداد الصحف التي صدرت في ١٣، ١٩٣٦/١٠/١٤ . أورده: **المصدر السابق**، ص ١٣٧ .
(٢٣) إبراهيم أبو لغد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧٦-٢٧٧ . أورده: ياسين، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣ .
(٢٤) عسكر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧-٥٢ .
(٢٥) العباسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣٧ .
(٢٦) عسكر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٧-٥٢ .
(٢٧) **فلسطين** (يافا) ١٩٣٨/١١/٢٥ .
- أورده: العباسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٩ .
(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ١٤٩ .
(٢٩) عسكر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤ .
(٣٠) **فلسطين** (يافا) ١٩٣٩/٣/٢٨ .
- أورده: العباسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٦ .
(٣١) **فلسطين والدفاع**، ١٩٣٩/٥/١٨ .
- أورده: العباسي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٤٧ .
(٣٢) **فلسطين**، أعداد ١٤، ١٨، ١٩٣٨/١١/٢٠، ١٩٣٩/١/٣٠ .
- أورده: **المصدر نفسه**، ص ١٥٠ .
(٣٣) **الكرمل** (حيفا) ١٩٣٩/٣/٣ .
- أورده: **المصدر نفسه**، ص ١٥٠ .
(٣٤) د. عواطف عبد الرحمن، **دراسات في الصحافة العربية المعاصرة**، ط١، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨٩، ص ٥٢- ٥٣ .
(٣٥) أديب مروة، **الصحافة العربية نشأتها وتطورها**، ط١، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦١، ص ٢١٨ .
(٣٦) حكومة فلسطين، **تقرير اللجنة الملكية**، القدس، ١٩٣٧، ص ١١ .
- أورده: ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤١-٤٢ .
(٣٧) ياسين، **المصدر نفسه**، ص ٤٢ .
(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ٤٥ .
(٣٩) حكومة فلسطين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٧٥ .
- أروده: ياسين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٣ .
(٤٠) **المصدر نفسه**، ص ٤٤ .
(٤١) عسكر، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤ .

بدلاً من الاستنتاجات

ماذا بقي منها للتاريخ

عبد القادر ياسين

نضجت الثـــمرة بمجـــرد انتصاف ثلاثينات القرن العشرين.

غني عن القول، إن بذرة الحركة الوطنية الفلسطينية قـــد غرســـت ضـــمن الحركة السورية الأم، مع حملة إبراهيم باشا المصرية علـــى ســـوريا (١٨٣٢-١٨٤٠)، وهي الحملة التي أفضت إلى تحـــريض الجمـــاهير الســـورية علـــى مصالحها، بعد أن أشرك إبراهيم باشا هذه الجماهير في إدارة شـــؤونها، عبـــر مجالس محلية منتخبة، كما كسرت تلك الحملة هيبة الدولة العثمانية، وجنودهـــا، الذين انهزموا، بسهولة، أمام الحملة المصرية . وحتى حين ارتكب ابراهيم باشا وبطانته بعض الأخطاء، وانقلب ترحيب السوريين بحملته إلى سخطٍ عليها، فإن السوريين اشتركوا مع القوات البريطانية، والروسية، والعثمانية فـــي التصـــدي لحملة ابراهيم باشا، وعزَّز إسهام السوريين هذا في تعزيز ثقتهم فـــي أنفســـهم، وبقدرتهم على صنع حاضرهم، ومستقبلهم. فكان أن عبَّرت الحركـــة الوطنيـــة السورية الوليدة عن نفسها - في البداية - فكرياً، قبل أن تنطلـــق أول جمعيـــة سرية، إستقلالية، من بيروت، سنة ١٨٧٥، ثم كان التصدي للإستيطان اليهودي في فلسطين بالهجمات المسلحة، والمقالات الصحفية، والكتب، والبيانات الشعبية، والخطب من فوق منبر «المبعوثان»(*) في إستانبول.

حـــين أكملت القـــوات البـــريطـــانية احـــتلال فلســـطـــين، فإن تلـــك القـــوات عمدت إلى ســـلخ فلســـطـــين عن الجـــسم السوري الكبير، وبذلك ولدت الحركة الوطنية الفلسطينية من ضلع الأم السورية.

دخلت الحركة الوطنية الفلسطينية الوليدة فـــي صدامات متواليـــة مـــع العصابات الصهيونية المسلحة (سنوات ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٤)، قبـــل أن تتطور هذه الصدامات إلى هَـــبَّـــة وطنية، صـــيف ١٩٢٩، ثـــم إنتفاضـــة شعبية، خريف ١٩٣٣، فحركة ثورية (القسام)، بعد سنتين، والتـــي غـــدت «البروفة» الأخيرة لثورة ١٩٣٦، بل إن القساميين هم الذين قدحوا الشـــرارة الأولى من هذه الثورة، بعد خمسة أشهر من إخفاق قائدهم فـــي إشعال نـــار ثورة مسلحة، فـــي أواسط نوفمبر / تشرين الثاني١٩٣٥ .

خلاصة القول إن ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية مثلت الثمـــرة وقـــد اكتمل نضجها. بعد أن انشق الصف الصهيوني، بخـــروج التصـــحيحيين - بقيادة فلاديمير جابوتنسكي - على القيادة الصهيونية. وبعد أن ارتج الإنتداب البريطاني، مع إلحاح الخطر النازي الألمـــاني. وبعـــد أن توغلـــت القيـــادة

---

* البرلمان العثماني.

السياسية التقليدية الفلسطينية فـــي مأزقها. وبعد أن أكد القسام، باستشهاده، أن الثورة على الأعداء ليست ضرورية وواجبة فحسب، بل ممكنة، أيضاً.

لقد مثل القسام الطرف الراديكالي فـــي الحركة الوطنيـــة الفلســـطينية، فـــيما مثلت القيادة السياسية التقليدية الوتر المتراخي فـــي تلك الحركة.

لذا لم تقاطع تلك القيادة التقليدية جنازة القسام من باب المصادفة، بل مع سبق الإصرار والترصد. وهذه القيادة هرولت إلى دار المنـــدوب الســـامي البريطاني فـــي القدس، متسولة بعض الفـــتـــات، «حتى لا ينتقـــــل زمـــام الموقف إلى أيدي المتطرفـــين»، أمثال القسام! لذا كان طبيعيـــاً أن يتـــأخر التحاق تلك القيادة بالثورة، خمسة أيام كاملة. ثم أخذت تلـــك القيـــادة تـــدين الأعمال المسلحة، التي بادر إليها الفلاحون، فـــيما صدرت معظم مواقف تلك القيادة عن تقديرات ذاتية، وعن تسطيح شديد للأمور.

لأن الفكر السائد هو فكر الطبقة السائدة، فبرغم كـــل تقـــاعس القيـــادة التقليدية، وترددها، لم تجرؤ أيٌ من الطـــبقات الأخرى على شغـــل موقـــع قيادة الثورة، على مدى الأيام الخـــمـــسة، فظـــل الموقع محجـــوزاً لكـــبار المـــلاّك، وشركائهم الأصغر: البورجوازيين، وكان خروج «الدفاع»(*) من «اللجنة العربية العليا»(**) تطهيراً للحركة الوطنية، وليس شقاً لها.

وعليه، لم يكن معسكر الثورة متجانساً، حتى بعد خروج «حزب الـــدفاع» من «اللجنة». ففـــي حين شكلت هذه اللجنة القيادة الواجهة للثورة، امتلك الثوار المسلحون فـــي الجبال زمام الثورة، وإن حافظوا على خضوعهم لنفوذ القيـــادة التقليدية، التي تمثلت فـــي «اللجنة العربية العليا». فـــيما شكل أعضاء اللجـــان القومية والمناضلون السياسيون في المدن احتياطي لأولئك الثوار المقاتلين.

لقد هبط أعضاء «اللجنة» بالمظلات على رأس الثورة، فـــيما ولد قادة الثوار المسلحين فـــي خضم النضال فـــي الريف، وبتزكيةٍ منه.

لقد أكدت الثورة، مجدداً، واقعـــية أهـــداف النضـــال الـــوطني الفلســـطيني، وإمكانية حسم الصراع ضد الإستعمار والصهيونية. ووضعت حداً للقـــول بعـــدم

---

* «حزب الدفاع الوطني» المُـــعَـــبِّـــر عن بقايا الإقطاع والوسطاء (السماسرة والقومســـيونجية) المهاود للإنتداب، ما استحق معه صفة «حزب الثورة المضادة».

** التحالف الذي ضم الأحزاب العربية الفلسطينية الستة ابتداءً من ١٩٣٦/٤/٢٥، وتولى هـــذا التحالف القيادة السياسية لثورة ١٩٣٦ .

وجود مخرج، واستحالة إنهاء آلام الشعب، وشراسة الإنتداب والصهيونية، في آن.

إلى ذلك، دفعت الثورة، موضوعياً وتاريخياً، مطلب التحرر الوطني إلى رأس جدول أولويات الحركة الوطنية. وبذا سددت الثورة، في حد ذاتها، ضربة قاصمة – ولكن إلى حين – إلى ذهنية التردد، والإنعزال، والنضال السلبي، أو التفاوض بدون الإستناد إلى ميزان قوى يعتد به في ميدان القتال.

أسباب حفّت بالهزيمة:

لم يكن إخفاق ثورة ١٩٣٦ في تحقيق أهدافها، من باب الصدفة، أو لسوء الطالع، بل لتوافر أسباب لهذا الإخفاق.

إن تاريخ الهزائم التي حاقت بالحركة الوطنية الفلسطينية، هو تاريخ تردد قيادات هذه الحركة، وافتقادها البرنامج السياسي السليم، بسبب من عجز تلك القيادات عن قراءة واقعها، قراءةً صحيحة، وفشلها في نسج تحالفات، محلية، وإقليمية، سليمة، ناهيك عن الإخفاقات المتوالية لتلك القيادة في مجال بناء تنظيم ثوري محكم، وتجنبها إشاعة الديموقراطية، وكأن الأخيرة نقيض للوطنية، ليس لهما أن يلتقيا!

غنيٌ عن القول إنه ما كان لعدالة قضية فلسطين، أو قوتها، وحدهما، أن يغنيا عن شروط التنظيم، والقيادة، والبرنامج، والتحالفات، والديموقراطية، أو يحلا مكان تلك الشروط في تحقيق النصر.

فيما يخص ثورة ١٩٣٦، لم يكن أمر الهزيمة مختلفاً، اللهم إلا في التفاصيل، فضلاً عن الشرط العالمي، فقد عادت هذه الهزيمة إلى:

أولاً: في المجال السياسي:

- تأرجح قادة الثورة(*)، وفرديتها، النابع من طبيعتها الطبقية.

---

* حتى أن المندوب السامي البريطاني أشاد (١٩٣٦/٦/٧) باعتدال المفتي، الذي عتب بدوره على بريطانيا، أمام "لجنة بيل"، بدعوى أن بريطانيا "تخضع للمطامع اليهودية"! وانتهى المفتي إلى المطالبة بعقد "معاهدة بين بريطانيا وفلسطين". وعلى منواله نسج عوني عبد الهادي. أما الأب غريغوريوس الحجار فأكد للجنة نفسها بأن "العرب أصدقاء بريطانيا". فيما قطع بيان لقيادة الحرس الوطني الفلسطيني لسلطات الانتداب : "إننا لا نهدد قواتك الهائلة"! وقبل ذلك كان دور أركان "اللجنة العربية العليا" المعروف بتكسير الإضراب السياسي العام.

- إكتفاء القيادة السياسية بخطوط برنامجية عريضة(*)، دون توضيح طبيعة المرحلة التي كانت، تمر بها قضيتنا الوطنية، وبالتالي تحديد أطراف كــلٍ من معسكري الثورة، وأعدائها، مع بلورة أهداف تكتيكية قريبة، تسهِّــل الوصول إلى الهدف الإستراتيجي البعيد. فمجرد الخطوط العريضة توفر للقيادة السياسية مجالاً واسعاً للمناورة، أو حتى التقلب دون خشــية مــن اعتراض أو محاسبة من قبل الشعب، أو الثوار، الأمــر الــذي يــوفره البرنامج بتفاصيله.
- عربياً، كان المحيط العربي بفلسطين رازحاً تحت الإحتلال، البريطــاني والفرنسي، ما شَــلَّ حركة الحكام، وأفقدهم القدرة على مد يــد العــون للشعب العربي الفلسطيني فــي ثورته. فــيما ظلت حركة جماهير أقطار الجوار الشقيق أسيرة الإمكانية النظرية، دون القدرة على تحويل التعاطف إلى فعل عملي على الأرض، وإن لم يخل الأمر من تمكُّــن مناضــلين عرب من الوصول إلى فلسطين، للإنخراط فــي ثورة شعبها الوطنية.
- عالمياً، افتقد الشعب العربي الفلسطيني أي سند دولــي. ومــن الســذاجة اعتبار ألمانيا النازية سنداً، فهي أشد عداءً للشــعوب عمومــاً، وللأمــة العربية على وجه الخصوص، من أي استعمار آخر. أما المتكلين علــى النازية فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ثانياً: فــي المجال العسكري:

- غياب قيادة مركزية موحدة للثوار المقاتلين، وافتقار فصائلهم إلى التنسيق فــيما بينها، أساساً بسبب الطابع الفلاحي للثورة المسلحة.
- ضعف تسليح الثوار، وتواضع تدريبهم، فــي مواجهة جــيش إنجليــزى عصري، وعصابات صهيونية مسلحة ومدربة جيداً، فــيما استقوى ذاك الجيش بآخر ما أنتجته الترسانة الحربية من أسلحة.
- بسبب من عدم الإلمام بالعلم العسكري عموماً، وبفن حــرب العصــابات على وجه الخصوص، فقد انزلق الثوار إلى خطأ جســيم،إذ فخاضــوا معارك خنادق مع القوات باطراد، البريطانية والعصــابات الصــهيونية

---

* تمثلت في المطالبة بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين / منع انتقال الأراضي إلــى اليهــود / وإلغاء الانتداب ووعد بلفور.

المسلحة، ما مكّن هذه العصابات وتلك القوات، من الثوار، وسمح باستخدام الدبابات والطائرات ضدهم، أي بما أتاح للعدو توظيف نقاط قوته، فيما وضع الثوار تحت إمرة هذا العدو نقاط ضعفهم، في التسليح، والتدريب، والخبرات. وكأن الأخذ بمبدأ « إضرب واهرب» لا يليق بالثوار، وشهامتهم، وكرامتهم!

- إنزلاق الثورة إلى ممارسة الإغتيال السياسي، السلاح بحدين، حيث تلقفته الثورة المضادة، وسخَّرته في اغتيال عناصر وطنية، وألصقت اغتيالهم بالثوار، الذين لطالما عجزوا عن تكذيب هذه التهم. ما أسهم في عزل الثورة عن جماهيرها، وسهل القضاء على الثورة.

غني عن القول إن الإرهاب(*) غريب، تماماً، عن تكتيكات الثورة، ومجافٍ لطبيعتها، شيئاً فشيئاً، وضار بعلاقتها بالجماهير. فأنت «لن تستطيع قتل النظام بقتل القيصر، فبإمكانهم، دائماً، أن يجدوا قيصراً أسوأ». فما بالك إذا كان الإغتيال قد طال وطنيين؟!(**)

وكما هو معلوم فإن للإرهاب منبعين، إذ يستخدمه الأعداء ضد الوطنيين، وفي سبيل حرمان الجماهير من المكاسب التي حققتها، ولإجهاض ما تراكم من إحتقان شعبي ضد الأعداء. كما يلوذ بالإرهاب أولئك الذين فقدوا الثقة بأنفسهم، وبقدرتهم على مواصلة النضال، فضلاً عن فقدانهم الثقة بالجماهير، لذا فالإرهاب لصيق بالبرجوازية الصغيرة،المسكونة بالضجر، والنزق، والميل للمغامرة، وإحراق المراحل.

بكلمةٍ واحدة، الإرهاب عمل إنعزالي، يتعارض ومصلحة الثورة، تماماً. إلا إذا كانت الحركة الوطنية مضطرة لقتل العملاء الوقحين، الذين يُلحقون بالغ الأذى بتلك الحركة. شرط أن يوكل أمر محاكمة المشتبه به إلى قضاة نزيهين، تعتمدهم القيادة السياسية. وإن كان يُفَضَّل إجراء محاكمة علنية جماهيرية للمشتبه به، يُعطى فيها الحق الكامل في الدفاع عن نفسه، بما

---

* يُقصد بالإرهاب هنا الاغتيال العشوائي، حين يأخذ مناضلون بأيديهم أمر قتل من يشتبهون في عدم وطنيتهم، أو يعطي أولئك المناضلون لأنفسهم حق معاقبة أي شخص دون أن يوفروا له حق الدفاع عن نفسه. ولطالما تم قتل أبرياء في هذا الصدد.

** حدث أن مسئول وحدة من الثوار استمرأ قتل الناس، وحين طلب منه وطنيون التأكد من خيانة المشتبه به، قبل قتله. رد المسئول اياه : "أنا أقتله، فإذا كان مظلوما فسيرسله الله إلى الجنة، وإلا فإلى النار"! كاني بذلك المسئول يسدي خدمة إلى الوطنيين بقتلهم، وإرسالهم إلى الجنة!.

يُعَمِّق الديموقراطية، ويُحَصِّن الجماهير ضد أساليب العدو في الضعفاء العملاء، وتجنيدهم. وإذا ما تأكدت عمالة المشتبه به، يكون قد أحرقَ جماهيرياً، وربما يُغض النظر عن إعدامه. أما الحالة الثانية التي يسمح فيها بالإغتيال، فلا تكون إلا جزءاً من خطة الثورة، وعشية اندلاعها، وبهدف التخلص من أعداء شرسين. وهنا، أيضاً، لا يتم الإغتيال وتحديد الأسماء المطلوب اغتيالها إلا من قبل القيادة السياسية. ففي غير هذا التوقيت، قد نوفر للعدو سانحة لإجهاض ما تراكم في سبيل إشعال الثورة، فيتم اغتيالها.

ثالثاً: **في المجال الدعاوي**:

- لطالما أمد الثوار بأخطائهم العدو بالمادة الدعاوية اللازمة للدس والإفتراء على الثورة والثوار، في سبيل شل تردد فئات اجتماعية ضد الثورة، وتشويه صورة الأخيرة في عيون الرأي العام المحلي، والإقليمي، والأجنبي.
- تقصير الثورة في مجال الإعلام الخارجي، رسمياً وشعبياً، في فضح العدو، وعزله، ودعم الصديق، وتطوير تأييده، مع السعي لكسب قطاعات من الرأي العام العالمي، أو – على الأقل– تحييد من لم تستطع كسبه، مع الوعي بأن قضيتنا الوطنية ستُحَل – في النهاية– فوق ترابنا الوطني.

الدروس المستفادة:

حفلت ثورة ١٩٣٦– بأدائها الخاطئ قبل أدائها السليم– بالدروس والعبر، في الفكر والممارسة، على حدٍ سواء:

١– إن التحالف بين مختلف طبقات الشعب، وفئاته الإجتماعية ضرورة، بقدر ضرورة العمل على إبعاد القوى الرجراجة عن مقود الحركة الوطنية. فهي وإن كانت تعادي الإستعمار، لكنها تخشى الجماهير، في الوقت نفسه. ولعل في ذلك ما يفسر تردد تلك القوى، فكلما اشتد الإستعمار كلما لاذت تلك القوى بالجماهير، والعكس بالعكس. وهذه القوى تعمل، جاهدةً، لكبح جماح الجماهير، حتى لا يفلت زمامها من أيدي تلك القوى.

صحيح أن التحالف العمالي – الفلاحي هو، وحده، المؤهل لقيادة الثورة إلى بر النصر، فالطبقة العاملة هي الأبعد نظراً، الأوسع أفقاً، الأطول نفساً، والأشد ميلاً للتضحية، إذ ليس لديها ما تخسره إلا قيودها. على أن تواضع الحجم والقوة لم يؤهلا هذه الطبقة لتصدر الثورة، فيما كان حزبها السياسي (الشيوعي) متواضعاً في حضوره السياسي والتنظيمي. فضلاً عن انفصاله، إلى حدٍ بعيد، عن الطبقة التي يمثلها. وإن كان إسهام العمال والفلاحين الكبير نسبياً في الأعمال الثورية قد شل، إلى حدٍ ما، تردد القيادة السياسية التقليدية، خاصة في مرحلة نهوض الثورة. فيما كان للمثقفين حضور مهم في النشاط السياسي للثورة، خاصة الطلبة.

٢- لقد تأكد مضاء الأساليب الديموقراطية، في المناقشات، واتخاذ القرارات، وانتخاب أعضاء مؤتمر اللجان القومية، في تعزيز الوحدة الوطنية، ورفع هيبة اللجان القومية، والتفاف الجماهير حولها.

٣- في مجال التحالفات الدولية، ثمة جملة من الدروس المتوالية التي أكدت عقم الإتكال على قوة إستعمارية ضد أخرى، فمنذ أحمد عرابي، الذي توهم (١٨٨٢) بدعم فرنسا له، حتى أنها ستمنع انجلترا من استخدام قناة السويس في غزو مصر. ومن بعده توهم مصطفى كامل في إمكانية اللعب على التناقض بين الدولتين الإستعماريتين، فرنسا وبريطانيا، مطلع القرن العشرين، إلى أن صفعت فرنسا كامل بعقدها «الإتفاق الودي» مع بريطانيا، سنة ١٩٠٤، الذي أنهى – إلى حين – المزاحمة بين هاتين الدولتين الاستعماريتين. على أن كامل لم يتعظ، ونقل رهانه بكل ثقله إلى الباب العالي في استانبول، دون جدوى، طبعاً، إلا أنه نال الباشوية من هناك! وهل ننسى غدر هاتين الدولتين الإستعماريتين للثورة العربية الكبرى (١٩١٦)، في سبيل التخلص من الحكم العثماني، واستقلال الأقطار العربية. وكيف صُدِمَت تلك الثورة، حين صحت، مع انقشاع غبار تلك الحرب، على حلول الإستعماريين الإنجليز والفرنسيين محل العثمانيين. وبذا صَبَّت كل تضحيات الثورة العربية في طاحونة أولئك الإستعماريين.

مع هذا كله، حين سُدَّت كل الطرق في وجه المفتي، رأيناه يستدير إلى برلين، في محاولة للاستقواء بالمحور، عملاً بمقولة «عدو عدوي، صديقي». لكن في السياسة الأمر أعقد من ذلك بكثير.

على أنه من الظلم التشكيك في وطنية الحاج أمين الحسيني – كما فعل باحثون في خفةٍ يحسدون عليها- رغم تردد الحسيني الطويل، وتقاضيه راتباً قدره سبعمئة جنيه فلسطيني (مرادف للإسترليني) شهرياً، (وهذا مبلغٌ ضخمٌ جداً بمقاييس ذلك الزمان)، ورغم أن المندوب السامي البريطاني، المشهور بصهيونيته، هربرت صموئيل، هو الذي نَصَّبَ الحاج أمين الحسيني في موقع المفتي الأكبر (١٩٢٢) ، وذلك في محافظةٍ على التوازن بين آل النشاشيبي وآل الحسيني، إذ أن الإحتلال الريطاني كان قد أزاح موسى كاظم باشا الحسيني عن رئاسة بلدية القدس، وأسندها إلى راغب باشا النشاشيبي، بالتعيين، أيضاً، على نحو لا يختلف كثيراً عن تنصيب الحاج أمين في موقع المفتي. فكل ما في الأمر أن الحاج أمين كان ضعيف الثقة بالجماهير، وقدراتها. وحين أثبتت الجماهير لهذا الزعيم أنها أهلٌ للثقة، واندلعت ثورتها، أرخى الحسيني قلوعه لرياح الجماهير، ولكن بالتدريج، وبالتساوي مع نمو حركة الجماهير من جهة، وفي مواجهة تصعيد أساليب قمع الإنتداب البريطاني من جهةٍ أخرى. ما أعجز أولئك الباحثين عن تفسير هذا التحول الحاد في موقف المفتي، الذي امتلك هيبة دينية مثلثة الوجوه، فهو مفتي القدس الأكبر، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وابن عائلة تدعي الإنتساب للرسول (ص). وفي فلسطين – شأن كل الأقطار النامية – ثمة قوة مادية معتبرة في التقاليد الدينية، فالدين ضمير الثورة، وله دور كبير في التعبئة والمعنويات، لايمكن إنكاره. مع ضرورة الحذر من الحط من قيمة الدين، عبر تلويثه بالسياسة وأدرانها.

٤- إن النجاحات الملموسة التي أحرزها الثوار، مع بدايات الثورة، فاجأت العدو والصديق، على حد سواء. وباتت هذه النجاحات المفاجئة مصدراً لقوة الثورة وضعفها، في آن. بيد أن خط الثورة سرعان ما انحدر، في اطراد، فقد ترتب على محاولات القيادة السياسية للثورة تضليل الجماهير، وتزييف وعيها بالعنتريات الكاذبة، أن أوصلت الثورة إلى المتاهات.

القواعد التي تأكدت:

ثمة مقولات، وأحكام، وقواعد سبق بلورتها، أو اكتشافها، ثم جاءت ثورة ١٩٣٦ لتؤكد صحتها من جديد، مثال:

- «عدم التلاعب، أبداً، بالإنتفاضة ... مع السير بها حتى النهاية»، على ما أكده أحد أهم استراتيجيي القرن العشرين، فيما سار عدد غير قليل من قادة ثورة ٣٦ في اتجاهٍ معاكس لهذه القاعدة الذهبية. فقد سعى ثلاثة ممن تصدروا الثورة، في بدايتها (الحاج أمين الحسيني، وراغب النشاشيبي، وعوني عبدالهادي) إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين، آرثر واكهوب، بعد نحو خمسة أشهر من بدء الإضراب السياسي، في محاولةٍ لِـفَـضِّه. ولخشية الزعماء الثلاثة – كلٍ على انفراد – من غضب الجماهير العربية الفلسطينية، اقترح أولئك الثلاثة على «واكهوب» أن يوكل أمر طلب إنهاء الإضراب إلى الملوك والأمراء العرب. وقد كان. حتى حين تم وقف الإضراب، وأصدرت حكومة الإنتداب ١٨٠٠ تصريح بدخول مهاجرين يهود إلى فلسطين، وقررت "اللجنة العليا العربية" مقاطعة "لجنة بيل" الملكية، التي أرسلتها لندن لتحقيق في أسباب الثورة، فإن "اللجنة العربية العليا" لم تملك إلا أن تذعن لطلب الملوك والأمراء العرب إليها بضرورة المثول بين يدي "لجنة بيل". ثم مالبست القيادة التقليدية الفلسطينية أن انزلقت إلى مائدة المفاوضات مع الحكومة البريطانية، وعبر وسيط "الوكالة اليهودية، في "مؤتمر لندن"، ربيع ١٩٣٩، ولكن بعد أن كانت الثورة في النزع الأخير، دون ان تعي تلك القيادة، او انها تغافلت عن أن الحل على مائدة المفاوضات إنما يعكس ميزان القوى في ميدان القتال، حيث يأخذ كل طرف ما يساوي، لا مايتمنى، ناهيك عن أن من لا يملك مفتاح الحرب، لا يملك مفتاح السلام، أما من يتطلع لأخذ أرض من عدوه – عبر المفاوضات – فعليه أن يتذكر مقولة السياسي النمساوي الداهية، مترنيخ: "أنت لا تستطيع أن تأخذ من الأرض ابعد مما تصل إليه دانة مدفعك".
- عدم انتظار أي تقدم في القضية الوطنية، منحة من المحتلين، بل لا مفر امام الشعب من خوض النضال، بمختلف أشكاله، حتى ينتزع الشعب مطالبه، ويحقق أهدافه، بالتضحيات.
- باندلاع الثورة، كشر الأعداء عن أنيابهم، وغدت شراسة الأعداء – من انجليز وصهاينة وثورة مضادة– أكثر سفورا، حتى بلغ الأمر بالثورة المضادة حد تشكيل عصابات من الأشقياء، حملت اسم "فصائل السلام"، اخذت على عاتقها مهمة مطاردة الثوار، وخطفهم وقتلهم، إلى اغتيال الوطنيين، والصاق اغتيالهم بالثوار، كما سبق وبينا.

- لا غنى عن الصلابة في الاستراتيجية والمرونة في التكتيك، والثبات عند الشدائد، والثقة في النصر، لنسد على العدو كل الثغرات، التي يأمل في التسلل إلينا عبرها.
- الثورة، وبسالة الثوار أكدت مدى الطاقات الثورية المختزنة لدى الجماهير، مضافا إليها التجربة الغنية، التي اكتسبتها الحركة الوطنية الفلسطينية، خلال المواجهات مع القوات البريطانية، والعصابات الصهيونية المسلحة، على مدى نحو عقدين سابقين على اندلاع الثورة.
- على أن هزيمة الثورة فتحت الأبواب على مصراعيها امام اتجاهات إستسلامية، توهمت أن مواجهة الأعداء البريطانيين والصهاينة عقيمة، بلا جدوى، وفي المقابل أطل برأسه اتجاه فوق يساري، مغامر، ومثل هاتين الظاهرتين، ربما أخطر ما ينمو في تربة الهزيمة.
- الكفاح المسلح ليس واجب التنفيذ، في كل زمان ومكان، كما أن الثورة ليست ممكنة، دائما، فالأمر في أمس الحاجة لامتلاك نظرية للثورة، تمكننا من قراءة واقعنا، قراءة متأنية، وصحيحة، والتقاط اللحظة الثورية، بعد تحليل الاتجاهات العميقة، واستيعاب الظروف الموضوعية للمرحلة، والالمام بقدرات البلاد، واحتياجات الشعب، الإقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية.
- "الحرب حوار الدم"، و "إذا كان العدو يتعلم بفضلنا، فيجب أن نراقبه، لنتعلم منه نحن، أيضاً، بعض الشيء". بينما لطالما استهان الثوار الفلسطينيون بهذه البديهية. الأمر الذي ترتب عليه اصطياد تجمعات كبيرة من الثوار، فيما تراكمت المتاعب أمام إعداد الجماهير لمواجهة الاعتداءات الجديدة، كما نجح العدو في تسريب عملاء له إلى بعض وحدات الثوار، بسبب افتقار الأخيرين للحذر واليقظة الضروريين.
- إن المواجهة اليومية مع قوات الانتداب والعصابات الصهيونية المسلحة، وتتبع تحركات العدو. ودراسة ما يستجد من تكتيكاته، لخير مدرسة كفاحية للثوار، يُقيِّمون بها – تقييماً صحيحاً – قوى العدو، ويقارنونها بقواهم. وبالتالي يجب على الجميع تكوين فكرة دقيقة وجديدة، أولاً بأول، عن العدو، "فأن تعرف نفسك، وتعرف عدوك، ففي مائة معركة، ستنتصر مائة مرة"، على حد تعبير الاستراتيجي الصيني الشهير، صن تزو، قبل ما يربو على الأربعة قرون.

وبعد، فإذا أضيف خلل الثورة الفادح في الفكر، والبـرامج ، والبنـى، والتحالفات، إلى الاختلال الكبير في ميزان القوى لصالح الأعـداء، لفهمنـا لماذا غدت هزيمة الثورة منطقية، على أنه يكفي شرفا لهذه الثورة المجيد – التي شقت طريقها في الصخر، "وخلف ظهرها روم" – نجاحها في تـأخير تأسيس المشروع الصهيوني، اثنتي عشرة سنة كاملة.

